دراسات وبحوث في

تاريخ المغرب والأندلس

الجزء الثاني

الدكتور أمين توفيق الطيبي

الدار العربية للكتاب

دراسات وبحوث في

تاريخ المغرب والأندلس

الجزء الثاني

الدكتور أمين توفيق الطيبي

الدار العربية للكتاب

1997

الإهـداء

إلى روح والدتي

ترحماً وعرفاناً بالجميل

تقديم المؤلف

صدر لنا عن الدار العربية للكتاب عام 1984 كتاب (دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس) مشتملا على ثماني عشرة دراسةً عن تاريخ المغرب بمدلوله التاريخي والحضاري الواسع، وهو يشمل ـ فضلاً عن أقطار المغرب العربي الكبير ـ جزيرةَ صقلية والأندلس والسودان الغربي. ويُسعدنا الآن ان نقدِّم للباحثين العرب القسم الثاني من كتاب (دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس)، وهو يشتمل على ثلاثةٍ وعشرين بحثًا ودراسةً عن الأندلس وعن المغرب (بما في ذلك جزيرة صقلية)، وعن الأندلس والمغرب معًا، وعن السودانيين الأوسط والغربي، مع اهتمام خاصٍ بالنشاطات الإقتصادية والعلمية في هذه الأقطار في العصر الوسيط.

وقد قُدِّم اثنا عشر بحثًا منها في ندواتٍ علميـة في عدد من الحواضر العربيـة والأجنبية، ونُشرت كلُّهَا في دَوْرِياتٍ علميةٍ في السنوات الأربع الأخيرة. وقد رأينا نشر هـذه البحوث والدراساتِ مجتمعةً لتيسير تناولها والرجوع إليها من قِبل الباحثين المهتمين بالدراسات الأندلسية والمغربية. وكان اعتمادُنا في هذه البحوث على المصادر العربية الأصلية في المقام الأول، كما رجعنَا إلى ما كتبه المتخصصون من بحوثٍ بلغاتٍ أجنبية حول مختلف جوانب هذه الدراسات، مُشيرين إلى كل ذلك في موضعه من هوامش البحوث وحواشيها.

ولا يفوتنا في الختام ان نعبّر من جديد عن جزيل شكرنا وامتناننا للدار العربية للكتاب لما دأبت على إسدائه من عوْنٍ وتشجيع للباحثين وطلاب العلمْ العرب، بما توليه من حرصٍ واهتمامٍ لإحياء تراثنا العربي الإسلامي المجيد، والله وليُّ التوفيق.

أمين توفيق الطيبي

الاصيـل في كتاب الجراحـة

لأبي القاسم خـلف الزهـــراوي

(ت 404هـ/ 1013م)

نبذة عن الزهراوي و(كتاب التصريف):

يُعَدّ أبو القاسم خلَفُ بن عباس الزهراوي رائدَ علم الجراحة عند العرب في القرون الـوسطى، وكان لمقـالتـه في الجراحة أثـرٌ كبيرٌ في أوروبـا حتى القرن الثـامن عشر. ولعلّ أولكـاسيس (Abulcasis) وألبـوكـاسيس (Albucasis) ـــ المحـرَّفتيْن من كنيتـه (أبـو القـاسم) ـــ هما أكثـرُ صِيَغ الاسم ذيوعـاً في أوروبـا في القرون الـوسطى، لاسم الجراح العربي الأندلسي أبي القاسم الزهراوي.

ان المعلوماتِ المتوفرةَ عن سيرة أبي القاسم ضئيلة. ومن الغريب حقاً أن يُغفِلَ ذكرَه معاصرُه الطبيبُ سليمان بن جُلجُل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) الذي ألّفه صدر عام 377هـ/ 987م، وأندلسيٌّ آخر عـاش بعده بقليل وهو صـاعدُ بنُ أحمد الطُليطُلي (ت 462هـ/ 1071م) في كتـابه (طبقـات الأمم) في الفصل الـذي خصّصـه لأطبـاء الأندلس حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ويدلُّ اللقبُ (الزهراوي) علَى أن أبا القاسم وُلد بمدينة الزهراء التي تقع علَى بعد بضعة أميالٍ غربي قرطبة ، والتي ابتدأ بناءها الخليفةُ الأمويُّ عبدُ الرحمن الثالث (الناصر) في أول سنة 325 هـ / أواخر 937 م [1] . وعلَى ذلك فإنّ أبا القاسم وُلد بعد هذه السنة . وليس ثمّة دليلٌ معاصرٌ لما ذُكِرَ من أنّ الزهراوي كان طبيبا خاصاً للخليفة الناصر أو لابنه الحكم المستنصر أو الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، وكلُّ ما يمكن قولهُ إن الزهراوي زاول مهنةَ الطبّ والجراحة في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديّيْن أيام خلافَتَيْ الحكَم المستنصر وابنه هشام المؤيّد .

ويذكر ناسخُ مخطوط ولي الدين عن الزهراوي ما يلي : بلَغني أنّ الزهراوي ـ رحمه الله ـ كان طبيباً زاهداً متواضعاً ، وأنه كان يخصص نصفَ نهاره لمعالجة المرضَى مجاناً علَى سبيل الإحسان ، وأنه صنَّف كتابَه هذا لأبنائه [من الأطباء] في أربعين عاماً [2] .

ويذكر الرحالةُ المغربيُّ الحسنُ الوزّان ـ المعروفُ لدى الأوروبيين باسم ليو الإفريقي ـ أن أبا القاسم الزهراوي توفي سنة 404 هـ / 1013 م ـ أي قبل عشرة قرونٍ .

إن كتابَ الجراحة هو المقالةُ الثلاثون والأخيرة من (كتاب التصريف لمن عجز عن التآليف) ، وهي تشكِّل خُمْسَ الكتاب بكامله . ويُعتبر (كتاب التصريف) ـ بحق ـ موسوعةً طبيةً ، وقد ترجم إلَى اللاتينية وكثر اعتمادُ الناس عليه في العصور الوسطَى . وهو كتاب شامل عن الطب في كافة فروعه ، بحيث لا يحتاج مستعمله إلَى غيره من الكتب . ويشتمل الكتابُ علَى ثلاثين مقالةً تتضمَّن أُولاها معلومات عن العناصر والأمزجة والأدوية المركّبة والتشريح . وتتضمّن المقالةُ الثانيةُ فصولاً عن

---

(1) ابن الخطيب ، لسان الدين : أعمال الأعلام . تحقيق إ. ليفي بروفنسال ، بيروت 1956 ، ص 38

(2) **Albucasis, On Surgery and Instruments**,, Arabic text with English translation and commentary by M.S Spink and G.L. Lewis, Wellcomme Institute of the History of Medicine, London 1973, p. VII

الأمراض وأعراضها وطرق علاجها . وتتناول المقالةُ السادسة والعشرون الأغذية للمرضَى وكثير من الأصحاء . وتشتمل المقالةُ التاسعةُ والعشرون علَى أسماء الأدوية باللغات المختلفة ، وتفسير أسماء الأدوية المركّبة والأوزان والمقاييس . أما المقالات الخمس والعشرون الباقية ، فتتناول الموادَّ الطبيةَ وإعدادَ واستعمالَ الأدوية والأقراص والدهونات والضمادات الخ (3) .

وقد أشاد بفضل الزهراوي في ميدان الطب والجراحة القدماء والمُحْدثون . فالعالِم ابن حزم القرطبي ـ في رسالته في فضائل أهل الأندلس ـ يُطري ابا القاسم الزهراوي فيقول : « ... وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئنْ قُلْنا إنه لم يؤلَّفْ في الطب كتابٌ أجمعُ منه ولا أحسنُ للقول والعمل في الطبائع [والجبر] لَنَصْدُقَنَّ » (4) .

وبعد ابن حزم (ت 456 هـ/1064 م) ، يذكر الزهراوي أندلسيٌّ آخرُ من أصحاب كتب التراجم هو الحُمَيْدي (ت 488 /1095) فيقول إنه « ... من أهلِ الفضل والدين والعلم ، وعلمُه الذي بسَقَ فيه علمُ الطب ، وله فيه كتابٌ كبيرٌ مشهور كثيرُ الفائدة ، محذوفُ الفضول سمّاه : كتابَ التصريف لمن عجز عن التآليف ، ذكره أبو محمد علي بن محمد [ابن حزم] وأثنَى عليه ... » (5) .

أما الطبيبُ الدمشقيٌّ ابنُ أبي أصيْبعة (ت 668 هـ / 1270 م) فيقول إن أبا القاسم الزهراوي «كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيِّدَ العلاج ... وكتابه التصريف هو أكبرُ تصانيفه وأشهرها ، وهو كتابٌ تامٌّ في معناه » (6) .

المقالة الثلاثون في الجراحة : عرض وتحليل :

اشتهرتْ من بين مقالات (كتاب التصريف) ـ علَى وجه الخصوص ـ المقالةُ

---

(3) مقدّمة المصدر السابق ص VII

(4) ابن حزم ، علي : رسائل ابن حزم الأندلسي . الجزء الثاني . تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1981 ، ص 185 .

(5) الحُميْدي ، محمد : جذوة المقتبس . تحقيق محمد بن تاويت ، القاهرة 1952 ، ص 195 .

(6) ابن أبي أصيبعة ، أحمد : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا ، بيروت ، ص 501 .

الثلاثون في الجراحة . والمقالة من ثلاثة أبواب ، وتضمُّ في مجموعها 188 فصلاً ، وما يقرب من مائتي صورة توضيحيّةٍ للآلات الجراحية . وفي حين اعتُبِرت الجراحةُ في الكتب الطبية العربية الأخرى شيئاً ممتهَناً ، نجدها عند الزهراوي تعالَج وتعرَض علَى أساس كبير من المعرفة ، وبشيء كثير من التفصيل (7) . والزهراوي يطالب الجراحين بالشيء الكثير حيث يقول في مقدمة المقالة : « لما أكملتُ لكم يا بَنيَّ هذا الكتابَ [كتاب التصريف] الذي هو جزء العلم في الطب بكماله ، وبلغتُ الغايةَ فيه من وضوحه وبيانه ، رأيتُ أن أُكمِلَه لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد ، لأنّ العملَ باليدِ مُحْسنُه في بلدنا وفي زماننا معدوم البتّة ، حتّى كاد أن يدرُسَ علمُه وينقطعَ أثرُه ، وإنما بقي منه رسومٌ يسيرةٌ في كتب الأوائل قد صحَّفتْه الأيدي وواقعه الخطأُ والتشويشُ ، حتّى استغلقتْ معانيه وبعُدتْ فائدته . فرأيتُ أن أُحييَه وأؤلف فيه هذه المقالةَ علَى طريق الشرح والبيان والاختصار ، وأن آتيَ بصورِ حدائد الكيِّ وسائر آلات العمل ، إذ هو من زيادة البيان ، ومن وكيد ما يُحتاج إليه . والسببُ الذي لا يوجد صانعٌ مُحسنٌ بيده في زماننا هذا ، لأنّ صناعةَ الطب طويلةٌ وينبغي لصاحبها أن يرتاضَ قبل ذلك في علم التشريح الذي وصفه جالينوس ، حتّى يقفَ علَى منافع الأعضاء وهيآتها ، ومزاجاتها ، واتصالها وانفصالِها ، ومعرفةِ العظام والأعصاب والعضلات ، وعددِها ومخارجِها ، والعروق النوابض [arteries teries] والسواكن [Veins] ، ومواضع مخارجها ، ولذلك قال أبقراط إن الأطباء بالاسم كثيرٌ وبالفعل قليل ، ولا سيّما في صناعة اليد [on the surgical side] ، وقد ذكرْنا نحن في ذلك طرقاً في المدخل من هذا الكتاب ، لأنه مَنْ يكنْ عالماً بما ذكرناه من التشريح لم يَخْلُ أن يقعَ في خطأ يقتلُ الناسَ به ، كما شاهدتُ كثيراً ممَّن تصوَّر في هذا العلم وادَّعاهُ بغير علمٍ ولا دراية » (8) .

ونتيجةً لذلك ، فإن الجراحة ، التي كانت إلَى عهده عملاً يزاوله الحجاَّمون والحلاقون ، أُدمجَتْ ـ بفضل أبي القاسم ـ في علم الطب . فالزهراوي أولُ مؤلف

Ullmann, Islamic Medicine, Edinburgh U. p. 1978, p. 44.

Albucasis, p. 3 (8)

جعل الجراحةَ علماً قائماً بذاته ، يرتكز علَى أساسٍ من العلم بالتشريح ، وارتفع الزهراوي ـ بالتالي ـ إلَى مرتبة أبقراط وجالينوس (٩) .

إن مقالةَ الزهراوي في الجراحة أولُ دراسة معقولة للموضوع ، مشروحةٍ بالصور . وهو يُجلُّ الأوائلَ كما يتضح مما يذكره في نهاية الفصل الأول من الباب الثالث ، عند حديثه عما تصنعه « الجهَّالُ من المُجبِّرين من كسر العضو مرة أخرى إن لم يَجبَّرْ أولاً علَى ما ينبغي ، والجبر عن عوج ، فهو خطأ من فعلهم وغَرَرٌ عظيمٌ ، ولو كان صواباً لذكَرتْه الأوائل في كتبهم وعملتْ به ، وما رأيتُ لأحدٍ منهم في ذلك أثراً البتَّة ، والصوابُ أن لا يُعْمَلَ به » (١٠) .

ومع أن الزهراوي أفاد من كتب الأوائل واقتبس منها ـ وبخاصة الكتاب السادس لبول الأيجيني [Paul of Aegina] (القرن السابع الميلادي) ، إلا أنه أضاف إليها ـ وعدَّل ـ الكثيرَ ، من تجاربه العملية وخبرته وزوَّد المقالةَ بصور فريدة للآلات الجراحية تبلغ نحوَ مائتي صورة ، مما لم يسبقه أحدٌ في إيرادها . ويتبيَّن من الحالات المَرضية التي يصفها الزهراوي ، ومن الملاحظات الشخصية والنوادر التي تتخلَّل المقالة ، أنه كان طبيباً مزاولا وجرَّاحاً عملياً . ولا تظهر في كتب الأوائل التي وصلتْنا الكثيرُ من العمليات والآلات التي يصفُها الزهراوي ، والتي يُمكن لذلك اعتبارُها من استنباطه ، أو أنها مما كان يزاوله الأطباءُ العرب . وكان لصور الآلات الجراحية في مقالة الزهراوي تأثيرٌ كبيرٌ علَى من جاء بعده من المؤلفين العرب ، كما ساعدت ـ علَى وجه الخصوص ـ في وضع أسسِ علم الجراحة في أوروبا . إن ما كتبه الزهراوي عن الجراحة والآلات الجراحية يُعدُّ مساهمةً عربيةً بارزةً في هذا الجانب من الطب (١١) .

---

(٩) بالنثيا ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي . نقله عن الإسبانية حسين مؤنس . القاهرة 1955 . ص 466 .

(١٠) Albucasis. p. 697

(١١) Albucasis. p. IX
Legacy of Islam (First Edition), Oxford U.P. 1932, p. 331. Watt, W.M., The influence of Islam on Medieval Europe. Edingurgh U.P. 1972.p.38.

ويوردُ الطبيبُ الإخصائيُّ م. س. سبينك (Spink) الأمثلةَ التاليةَ ـ مما هو جدير بالتنويه ـ ما ابتكره أو استحدثه الزهراوي (12) :

مقصٌّ اللوزتين وطريقة استعماله (صورة 1) ، المِخْدَع الخاصُّ بشق الأورام (صورة 2) ، المِبْضع الشوكي لعلاج الحبَن (Dropsy) (صورة 3) . ولعلَّ أبا القاسم ـ أو معاصريه ـ ابتكر مِقَصَّ الخِتان (صورة 4) والزرّاقة (Syringe (صورة 5)، والمِبْضَع. النشلَ لإخراج الحصاة (صورة 6) والتصميم الخاصَّ بلَوْلب الرحم . إن الفصلَ الخاصَّ بإخراج الجنين يوحي بأن الزهراوي سبق مِلْقطَ الولادة (Forceps) المعروفَ بملقط تشامبرلين (chamberlen) (ت 1728 م) . ومن بين الجديد ما يذكره الزهراوي عن استعمال مُصْران الحيوان في الخياطة الجراحية ، ووصفُه للمرض المسمَّى في الأندلس بالنافر ، الذي ينتقل من عضوٍ إلَى آخر . ومن الجديد كذلك وصفُه الموضَّح بالصور للدكان واللولَب ، لعلاج فك خَرَزِ الظَّهْر (صورة 7) ، ووصفه لنوعٍ جديدٍ من الضمادات تُستعمل فيها أَلْية كبشٍ أو خِثْيُ البقر .

لقد ذاعت شهرةُ كتاب الجراحة بسرعة في أوروبا والعالم الاسلامي ، وتُرجم في وقت مبكر إلَى اللاتينية والبروفنسالية والعبرية . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ترجمَ الكتابَ إلَى اللاتينية في مدينة طُلَيطُلة جيرارد الكريموني (ت 1187 م) ، وكان تأثيره علَى الأثر كبيراً علَى الجراحين الايطاليين والفرنسيين . واحتلَّ الكتابُ المكانةَ اللائقةَ به لقرون ، كالمرجع عن الجراحة في سالرنه ومونبيلييه ، وغيرهما من مدارس الطب الأولَى في أوروبا . وقام الجرّاحُ الفرنسيُّ جاي دي شولياك (Guy de Chauliac) في عام 1363 م بجعل الترجمة اللاتينية لمقالة الزهراوي في الجراحة ملحقاً لأحد مؤلفاته (chirurgia magna) وقد وضع شولياك ـ أشهرُ جرّاحي القرن الرابع عشر ـ أبا القاسم الزهراوي في مرتبة أبقراط وجالينوس . وقد طُبعت ترجمةُ جيرارد الكريموني لكتاب الزهراوي في البندقية لأول مرة في عام

(12) Albucasis, p. IX.

والصفحات المشار إليها هي لطبعة لندن من كتاب Albucasis الصادرة عام 1973

1497 م ـ تَلَتْها طبعتان في عام 1499 و 1500 ـ وفي بازل بسويسرا عام 1541 م .

وفي القرن الخامس عشر ، ظهرت لمقالة الزهراوي في الجراحة ترجمة باللغة التركية أُهديتْ للسلطان محمد الثاني (الفاتح) [13] .

إن أولَ تحقيقٍ حديثٍ لكتاب الجراحة ـ مع ترجمة لاتينية له ـ ظهر في أكسفورد بإنجلترا سنة 1778 م ، علَى يد جون تشاننج (John channing) إلاّ أن الترجمةَ لم تكنْ دقيقةً ، إذ إن تشاننج لم يكُنْ طبيباً ، كما أنه اعتمد في التحقيق علَى مخطوطٍ واحدٍ للكتاب في مدينة حلب أو منها [14] .

أما أولُ ترجمةٍ لكتاب الجراحة إلَى لغة حديثة ، فقد قام بها إلَى الفرنسية لوسيين ليكليرك (Lucien Leclerc) وصدرتْ في باريس عام 1861 م بعنوان **La chirurgie d'Albucasis** [15] .

وصدرت في الآونة الأخيرة في لندن (1973) الطبعةُ النهائيةُ (définitive) لمقالة الزهراوي في الجراحة بعنوان : **Albucasis, On Surgery and Instruments** تولّى نشرَها معهدُ ويلكوم لتاريخ الطب ـ النص العربي وفي مقابله الترجمة الإنجليزية ـ وتعاون في إخراجها وترجمتها والتعليق عليها والتقديم لها مستشرقٌ هو الدكتور ج . س . لويس (G. S. Lewis) وطبيبٌ إخصائيٌّ هو الدكتور م . س . سبينك (.è S. Spink) واعتمدا فيها علَى سبع مخطوطات لمقالة الزهراوي في الجراحة : أربعٍ من تركيا ، واثنتين من مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد ، وواحدةٍ من بَتْنا بالهند .

إن مقالةَ الزهراوي في الجراحة ذاتُ أسلوب سلس لا تعقيد فيه ، وهو يلتزم دقةَ

---

(13) Albucasis, p. X.
Ullmann, p. 45.
Legacy of Islam, p. 331.
Hitti, P. K.., History of the Arabs, London, 1943,p.577.

(14) Albucasis, pp. X, Xi

(15) Ibid , XI

العالِم في الوصف والتعبير . كما في الفقرة التالية عند حديثه عن الإخصاء : « إن الإخصاء في شريعتنا محرم ، وهذا كان ينبغي لي أن لا أذكره في كتابي هذا ، وإنما ذكرتُه لوجهين : أحدُهما ليكون ذلك في علم الطبيب إذا سئل عنه ، وليعلم علاجَ من اعتراه . والوجهُ الآخر أنّا كثيرا ما نحتاج إلَى إخصاء بعض الحيوان لمنافعنا ، كالحُملان والتيوس والقطط ، ونحو ذلك من الحيوان . فأقول إن الإخصاءَ يكون علَى ضربيْن : إما بالرضّ وإما بالشقّ والقَطع ، فالذي يكون بالرض فطريقُ عمله ... » (16) .

وفي العرض التالي لأبواب مقالة الزهراوي في الجراحة وفصولها ، ركّزنا في التعليق علَى الأصيل والجديد المستحدث في ما أورده الزهراوي ، دون ما اقتبسه عن الأوائل ، واعتمدْنا في ذلك ـ وأفدنا كثيراً ـ علَى الملاحظات الطبية القيّمة التي ذكرها الطبيبُ الإخصائيُّ م . س . سبينك في هوامش طبعة الكتاب الأخيرة التي صدرتْ في لندن عام 1973 .

يقول الزهراوي في مستهلّ المقالة : « وقد قسَّمتُ هذه المقالةَ علَى ثلاثة أبواب ، البابِ الأول في الكيّ بالنار ، والكيِّ بالدواء الحار [Cauterization by caustics] مبوبٍ مرتَّبٍ من القرن [أي الرأس] إلَى القدم ، وصورِ الآلات وحدائد الكيِّ ، وكلِّ ما يُحتاج إليه في العمل باليد [Operating] . والباب الثاني في الشقِّ [Incision] والبطِّ [Perforation] والفَصْدِ [Blood-letting] والحِجامَة [Cuping]، والجراحات وإخراج السِّهام ونحو ذلك ، كلُّه مبوَّبٌ مرتَّبٌ وصور الآلات . والباب الثالث في الجَبْر [Setting of bones] والخَلْع [Dislocations] وعلاج الوَثْي [Sprains] ونحو ذلك ، مبوَّبٍ مرتَّبٍ من القَرْن إلَى القدم ، وصورِ الآلات (17) .

الباب الأول في الكيِّ (56 فصلاً) :

تحدّث الزهراوي في بداية هذا الباب عن منافع الكيِّ ومضارِّه ، ويُبدي رأياً

(16) Albucasis, p 453.

(17) Ibid, p 7.

يخالف فيه الأوائلَ الذين ذكروا « أن الكيَّ بالذهب أفضلُ من الكيِّ بالحديد ... والكيُّ به أحسنُ وأفضلُ من الحديد كما قالوا ، إلاّ أنك إذا أحميْتَ المكواةَ في النار من الذهب ، لم يتبيَّنْ لك متَى تحمي علَى القَدْر الذي تريد لحُمرة الذهب ، ولأنه يسرع إليه البَرد ، وإن زدتَ عليه في الحَمْي ، ذاب في النار وانْسبَكَ ، فيقع الصانعُ من ذلك في شغل . فلذلك ، صار الكيُّ بالحديد عندنا أسرعَ وأقربَ من الصواب للعمل » [18] . إن مخالفةَ الزهراوي الأوائلَ الرأيَ جاءت استناداً لممارسته هذه العملية ، وما اكتسبه من خبرة من هذه الممارسة .

وفي الحديث عن كيِّ شقاق الشفة (Harelip re lip) في الفصل الثامن عشر ، يستقلُّ أبو القاسم عن الأوائل إذ يوصي بالكيِّ لعلاج شقاق الشفة [19] .

وفي الفصل الثامن والعشرين في بطِّ وَرَم الكبد بالكيِّ ، يصف الزهراوي ورماً حقيقيا في الكبد ، وهو ينفرد بذكره ، ولم يسبقه إليه أحد . وجديرٌ بالملاحظة أنه في حين يقترحُ إخراج المِدَّة Pus، ويرسم آلةً مدهشة لذلك ، فإنه ينصح قُرَّاءه بأن « هذا النوع من الكيِّ لا ينبغي أن يستعمله إلاّ من طالتْ دربتُه في صناعة الطب ، وجرتْ علَى يديه هذه الأمراضُ بالتجربة مراراً ، فحينئذٍ يُقدم علَى مثل هذا العمل . وتَرْكُه عندي أفضل [20] .

ان تخلُّعَ الـورْك (Hip dislication) عرَفـه ووصفَه كـافـةُ من صنَّف في الـطب ، ابتداءً من أبقراط (ت 377 ق.م) إلا أنَّ الزهراوي هو أول من اقترح الكيَّ كعلاجٍ لذلك [21] .

يتحدث أبو القاسم في الفصل الخمسين من هذا الباب عن كيِّ السرطان ، فيقول : « إذا كان السرطانُ مبتدئاً وأردتَ توقيفه ، فاكوه بمكواةِ الدائرة حواليه كما

(18) Ibid.,p. 15

(19) Ibid, pp. 60-61.

(20) المصدر السابق ص 88 ، 89

(21) نفس المصدر ص 112 .

تدور. وقد ذكر بعضُ الحكماء أن يُكوى كَيَّةً بليغةً في وسطه» ، إلاّ أنه ــ بناءً علَى خبرته العملية ــ يخالفهم ، إذ يمضي فيقول : «ولست أرى أنا ذلك ، لأني أتوقعُ أن يتقرَّخ [السرطان] ، وقد شاهدتُ ذلك مرات. فالصواب أن يُكوى حواليه بدائرة كما قلنا ، أو بكيّات كثيرة» [22].

في الفصل السادس والخمسين يتحدث الزهراوي حديثَ الممارس عن الكيِّ لوقف النزف (Haemorrhage) الحادث عند قطع الشريان Artery ، ويحذِّر من إصابةِ عَصبٍ أثناء مراحل الكيِّ. «كثيراً ما يحدث نزفُ الدم من شريانٍ قد انقطع ... فإذا حدث لأحدٍ ذلك ، فأسرعْ بيدك إلَى فم الشريان ، وضَعْ عليه إصبَعَكَ السبَّابة ، وشُدَّه نعِمًّا حتّى يُحصرَ الدمُ تحت إصبعك ، ولا يخرج منه شيء ، ثم تضع في النار مكاويَ زيتونيّةً صغاراً وكباراً عدة ، وتنفخ عليها حتّى تصيرَ حاميةً جدا ، ثم تأخذ منها واحدةً إما صغيرةً وإما كبيرةً علَى حسب الجرح والموضع الذي انفتق فيه الشريان ، وتُنزل المكواةَ علَى نفس العِرْق بعد أن تنزعَ إصبعَك بالعجَلة ، وتمسكَ المِكواةَ حتّى ينقطعَ الدم. فإن اندفع عند رفعك الإصبعَ من فم الشريان ، وطفأ المكواة ، فخُذْ مكواةً أخرى بالعجلة من المكاوي التي في النار المعدَّة ، ولا تزال تفعلُ ذلك بواحدة بعد أخرى حتّى ينقطعَ الدم. وتحفَّظْ لا تحرقْ عصباً يكون هناك ، فتُحدث علَى العليل بليَّةً أخرى...» [23].

الباب الثاني في الشقِّ والبطِّ والجراحات ونحوها (97 فصلاً) :

يقدّم أبو القاسم لهذا الباب بعدد من التوصيات والتحذيرات للطبيب المزاول للجراحة فيقول : «... فينبغي أن تعلموا يا بَنِيَّ أن هذا الباب فيه من الغَرر فوق ما في الباب الأول في الكيِّ ، ومن أجل ذلك ، ينبغي أن يكونَ التحذيرُ فيه أشدَّ لأنّ العملَ في هذا الباب كثيراً ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذي به تقوم الحياةُ عند فتح عرق أو شقٍّ علَى ورمٍ أو بطِّ خراجٍ أو علاج جراحة أو إخراج سهمٍ أو شقٍّ

(22) نفس المصدر ص 150، 151.
(23) نفس المصدر ص 163.

علَى حصاة ، ونحو ذلك مما يصحب كلّها الغررُ والخوفُ ، ويقع في أكثرها الموت . وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهةُ عليكم ، فإنه قد يقع إليكم في هذه الصناعة صنوفٌ من الناس بضروبٍ من الأسقام ، فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموتُ لشدة ما يجد من سُقْمه وطول بليّته وبالمرض من التقرر ما يدلُّ علَى الموت ، ومنهم من يبذلُ لكم مالَه ويُغنيكم به رجاءَ الصحة ، ومرضُه قتَّال . فلا ينبغي لكم أن تتساعدوا من أتاكم مِمَّن هذه صفتُه البتَّة ، وليكن حذرُكم أشدَّ من رغبتكم وحرصكم ، ولا تقدموا علَى شيء من ذلك إلاّ بعد علمٍ يقينٍ يصحّ بما يصير إليه العاقبةُ المحمودة ، واستعملوا في جميع علاج مرضاكم تقدمةَ المعرفةَ والإنذار بما وتؤول إليه السلامة ، فإن لكم في ذلك عونا على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد... »(24) .

وفي الفصل الثالث والعشرين في قدم الماء النازل في العين (Couching uching of cataract) يذكر أبو القاسم ثلاث آلات بالغة الأهمية ، تُعرف الأولَى باسم (مِقْدَح) (Couching needle) . ويبدو ـ كما يقول الطبيب الإخصائي سبينك ـ أن العربَ طوَّروا نوعاً من الإبر لقدح Couching الماء النازل في العين . يقول الزهراوي « فإنْ لم يُجبْكَ المِقْدَحُ للدخول في العين لصلابتها ـ لأن من الناس من تكون عينُه صُلْبَةً جدا ـ فينبغي أن تأخذَ المِبْضَعَ الذي يُسمَّى البريد [Scalpel] الذي هذه صورته » (صورة 8) . ويتحدث أبو القاسم بعد ذلك عن طريقة تمارَسُ في العراق فيقول : « وقد بلغني عن بعض العراقيين أنه ذكر أنه يَصنعُ بالعراق مِقْدَحاً منفوذاً [أجوف] يمتصّ به الماء ، ولم أرَ أحداً في بلدنا [الأندلس] صنع ذلك ، ولا قرأته في كتابٍ من كتب الأوائل ، وقد يمكن أن يكونَ ذلك مُحْدَثاً »(25) .

إن الفصل الرابع والعشرين في علاج اللحم النابت في الأنف (Nasal polyp) دليلٌ علَى أن الزهراوي لم يكُنْ مجرد ناقل عن كتب الاوائل . وهو يذكر مِقْطعاً حاداً ذا شفرة واحدة (دون أن يرسم صورة له) ومِسْعطاً (Funnel) تُقطر به الأدهانُ

---

(24) نفس المصدر ص 167 ـ 169 .

(25) نفس المصدر ص 252 . 254 . 257 . 258.

والأدويةُ في الأنف. إن السعطَ ابتكارٌ أصيلٌ، وقد أورد له أبو القاسم صورتَين مهمّتَين [26] .

من أطرف فصول الباب الثاني من مقالة الزهراوي في الجراحة لفصولُ الخمسةُ الّتي يتحدّث فيها عن جرد الأسنان وقلعها، وقلع أصول الأضراس، ونشر الأضراس النابتة علَى غيرها، وبخاصة الفصل الثالث والثلاثين في تشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الفضة أو بخيوط الذهب. وهو يرسم عدّةَ صُورٍ للمجارد (صورة 9) . إن عملية جرد الأسنان بالمجْرد (Scraper) لم تردْ في كتاباتِ الأوائل، ولذلك فإنها عملٌ أصيلٌ للزهراوي[27] .

يتناول أبو القاسم في الفصل الثلاثين قلعَ الأسنان، ويحذّر من التسرّع في ذلك خِشيةَ الوقوع في أخطاء الحجامين فيقول: «ينبغي أن تعالج الضرسَ من وجعه بكلّ حيلة وتتوانَى عن قلعه، فليس منه خلَفٌ إذا قُلِعَ، لأنه جوهرٌ شريف، حتّى إذا لم يكن بدٌّ من قلعه، فينبغي إذا عزم العليلُ علَى قلعه أن تتشبَّثَ حتّى يصحّ عندك الضرسُ الوجعُ، فكثيرا ما يخدع العليلَ الوجَعُ ويظنُّ أنه في الضرس الصحيح فيقلعه، ثم لا يذهب الوجع حتّى يُقلَعَ الضرسُ المريض. فقد رأينا ذلك من فعل الحجّامينَ مراراً... وإيّاك أن تصنعَ ما تصنعُ جُهّالُ الحجامين في جسرهم وإقدامهم علَى قلعه من غير أن يستعملوا ما وصفنا، فكثيرا ما يُحْدثون علَى الناس بلايا عظيمة أيسرُها أن ينكسرَ الضرسُ وتبقَى أصولُه...» [28] .

إن بول الأجيني ـ المصدرَ الاغريقيّ الذي يقتبس عنه الزهراوي عادةً ـ لا يُشير إلَى قلع أصول الأضراس، ويبدو أن معظمَ الفصل الحادي والثلاثين في قلع أصول الأضراس أصيل للزهراوي. فثمة الجفت (Forceps) وهي آلة تشبهُ أطرافُها منقارَ الطائر (صورة 10) دقيقة الرأس للحفر في اللثّة للوصول إلَى أصل الضرس [29] .

(26) نفس المصدر ص 258.
(27) نفس المصدر ص 272.
(28) نفس المصدر ص 277.
(29) نفس المصدر ص 280. 281

إن الفصلَ الثالثَ والثلاثين في تشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الفضة أو بخيوط الذهب فصلٌ مُمتع ، والصورُ المرفقةُ جميلةٌ وتبيّنُ بوضوحٍ الكيفيةَ التي كانَ يتمُّ بها تشبيكُ الأسنان . وفي نهاية هذا الفصل ، يشير أبو القاسم إلَى الأسنان الاصطناعية من عظام البقر ، وهو ما لم يذكرْه الأوائل ، ولو أن مارشال(Martial) (القرن الأول الميلادي) أشار إشارةً عابرةً إلَى الأسنان الاصطناعية [31] . يقول أبو القاسم : «إذا عرض للأضراس القُدّامية تزعزعٌ وتحرُّكٌ عن ضربةٍ أو سَقْطَةٍ ، ولا يستطيع العليلُ علَى شيء يؤكَل لئلا تسقط ، وعالجتَها بالأدوية القابضة [Styptic medecines] فلم يَنْجَعْ فيها العلاج ، فالحيلة فيها أن تُشَدَّ بخيط ذهبٍ أو فضة . والذهب أفضل لأن الفضة تتزنجر[Oxidizes] وتعفنُ بعد أيام ، والذهب باقٍ علَى حاله أبداً لا يعرض له ذلك . ويكون شدُّكَ الخيطَ عند أصول الأضراس لئلا يفلت . وهذه صورةُ الأضراس وهيئةُ التشبيك في ضرسيْن صحيحيْن ، وضرسيْن متحركيْن (صورة 11) ... وقد تَرُدُّ الضرسَ الواحِدَ أو الاثنين بعد سقوطهما في موضعهما وتشبِّكُ كما وصفْنا وتبقَى . وإنما يفعل ذلك صانعٌ دَرِبٌ رفيق . وقد يُنحت عظمٌ من عِظام البقر ، فيُصنع منه كهيئة الضرس ، ويجعل في الموضع الذي ذهب منه الضرس ، ويُشدُّ كما قلنا ، ويُستمتعُ بذلك» [31] .

ويتحدث أبو القاسم في الفصل السادس والثلاثين عن آلةٍ تشبه المقص (Tonil-guillotine) في علاج ورم اللوزتين ، وما يَنبتُ في الحلق من سائر الأورام . تُجذبُ اللوزةُ بصنَّارة ثم تُقطع بآلة تشبه المِقَصّ «تُصنع من الحديد الهندي أو الفولاذ الدمشقي» ، دون أن يذكر اسماً لها . ويبدو أن الزهراوي انفرد بذكرها ، ولذلك فهي جديرة بالتنويه [32] .

يتحدث الزهراوي في الفصل التاسع والثلاثين عن إخراج العلق الناشب في الحلق ، وهو ما لم يذكرْه الأوائل . إن روايةَ أبي القاسم المفصَّلة عن التبخير

---

(30) نفس المصدر ص 292

(31) نفس المصدر ص 293 ، 295 .

(32) نفس المصدر ص 300 ، 303 .

(Fumigation) لإزالة العلَق الناشب في الحلق يوضحها بصورة (صورة 12) [33].

وفي الحديث في الفصل التاسع والثلاثين عن الشقّ علَى أنواع السلَع (cysts)، ينتهج أبو القاسم إجمالاً نهجَ الأوائل، إلاّ أنه يورد ملاحظةً أصيلةً مع آلةٍ مناسبةٍ هي المِدَسّ (Exploring needle)، ويقول: «فينبغي إذا صرتَ إلَى علاج السلْعة أن تسبرَها وتفتّشَها أولاً بالآلة التي تُسمَّى المِدَسّ... تأخذُ هذه الآلة وتدسُّها في أرطب مكانٍ تجده في الورم. ثم أخرج المِدَسَّ وانظرْ إلَى ما يخرجُ في أثره...» [34].

ويخصّص أبو القاسم الفصل السادس والأربعين لذكر الآلات التي تتصرّف في الشقّ والبطّ، ورسم صورها. يقول الطبيب الإخصائي سبينك إن في هذا الفصل المهم عددا كبيرا من الصور للآلات الشائعة والاستعمال بين العرب آنذاك. وكانت المسابر (Probes) والسكاكين والصنانير أكثرها شيوعا. وتوصف المسابرُ بأربعة أسماء: مِدِسّ، بريد، مِسْمار، مِرْوَد (الصورة 13، 14، 15، 16) [35].

كما يشير الفصل السادسُ والأربعون إلَى السكاكين الجراحية بثلاثة أسماء، هي ـ حسب ترتيب ورودها ـ مِشْرط، مِخْدَع، مِبْضَع. والمِبْضَع أكثرها استعمالاً للدلالة علَى سكين جراحي (الصورة 17، 2) [36].

إن الفصلَ الثالثَ والخمسين في علاج السرطان فصلٌ ممتعٌ يوجز فيه أبو القاسم آراء الأوائل، إلاّ أنه ـ كما يقول الدكتور سبينك ـ لم يكنْ مجرد ناقلٍ لآرائهم. إن تجاربَه الشخصيّةَ في إجراء عمليات للسرطان تشكّل واحدةً من اللمسات الصغيرة الكثيرة التي تبعثُ الحياةَ في صفحات كتابه، وتدل علَى أنه بالفعل أنقذ الجراحةَ من

(33) نفس المصدر ص 316.
(34) نفسُ المصدر ص 342. 343.
(35) نفس المصدر ص 348. 350
(36) نفس المصدر ص 354.

أن تكون مجرَّد عملٍ أكاديمي [37] .

مع أن الأوائل ذكروا الاختتان ، إلاّ أنهم لم يصفوا عملياتِ التطهير. يبدأ أبو القاسم بذكر الآلات التي كان يستعملها الحجّامون في أيامه ، ومنها الموسَى والفَلْكَة ، ثم يذكر أنه يفضّلُ المقصَّ ، ويرسم صورةً جيّدةً للنوع الذي يحبِّذه. يقول أبو القاسم : «إن الأوائل لم تذكر الاختتان في شيءٍ من كتبها ، لأنه لم يَكُنْ يُستعمَل في شرائعهم ، وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة ، وذلك أني وجدتُ الجمهورَ من الصنّاع والحجّامين يستعملون التطهيرَ بالموسَى وبالمِقَصِّ ، ويستعملون الفلكة والرباطَ بالخيط والقَطْعَ بالظُّفْر. وقد جرَّبتُ جميعَ هذه الوجوه ، فلم أجدْ أفضلَ من التطهير بالمِقَصّ ، والرباطِ بالخَيْط» [38] .

وفي الفصل التاسع والخمسين عن كيفية حَقْن المثانة بالزرَّاقة (Syringe) وصورِ الآلاتِ الصالحةِ لذلك ، يقول الزهراوي : «إذا عَرَضَ في المثانة قُرْحةٌ أو جمُد فيها دمٌ أو احتقن فيها قَيْح ، وأردتَ أن تقطِّر فيها المياه (Lotions] والأدوية ، فيكون ذلك بآلةٍ تُسمَّى الزرّاقة ، وهذه صورتُها» (صورة 5) [39] .

يعلّق على ذلك الطبيبُ الأخصائيُّ سبينك بقوله إنّ هذا الفصلَ عن كيفية حقن المثانة بالزرَّاقة أكثرُ شمولاً من أي وصف وصَلَنا عن الأوائل ، وهو في الوقت ذاته ذو قيمةٍ أصيلةٍ بالغة. في حين نجد أن الأوائلَ لم يخصِّصوا لموضوع الزرّاقات سوى فقرةٍ أو بضعةِ سطور. فإن أبا القاسم يكرِّس فصلاً كاملاً ــ مع صور رائعة ــ لموضوع الزرّاقات وغيرها من آلات الحَقْن. وترد كلمتان للدلالة علَى ذلك : زرَّاقة (صورة ص 407) ، ومِحْقَن (صورة 18 ، صورة 19) [40] .

---

(37) نفس المصدر ص 380 .

(38) نفس المصدر ص 396 ، 397 .

(39) نفس المصدر ص 407 .

(40) نفس المصدر ص 406 .

إن طريقة إخراج الحصاة كانت ذاتِ أهميةٍ كبيرة لدى الأوائل ، الذين زاولوها . والفصلُ الستون في الباب الثاني من مقالة الزهراوي في الجراحة دليلٌ علَى أنها كانت تحتلُّ مكانةً مهمّةً لدى الجرّاحين العرب ، كما أنه يدل علَى المعلومات التي اكتسبها الزهراوي عن الموضوع ، عن طريق الخبرة العملية المباشرة [41] .

ويشتملُ الفصلُ السابعُ والسبعون علَى صور الآلات التي يُحتاج إليها في إخراج الجنين : لَوْلَبٌ يُفتَح به فمُ الرحم ، صورة أخرى ألطفُ وأخفّ ، صورة لولبٍ آخرَ ، صورةُ المِدْفَع الذي يُدفَع به الجنين ، صورة مِبْضَعَيْن عريضيْن لقطع الجنين (صورة 20) .

ويتناولُ الفصلُ الرابعُ والثمانون علاجَ الجراحات . ويبدو أن هذا الفصلَ ـ بالنسبة لجروح العنق ـ أقدمُ إشارةٍ إلَى هذا النوع من الإصابة . ولعلّه ـ كما يقول الدكتور سبينك ـ المصدرُ الذي استمدَّ منه وليام ساليكيتو ، William am of Saliceto) (ت 1276 م) فَصْلَه حول هذا الموضوع .

أما جراح الصدر ، فقد تناولها الأوائلُ من أبقراط إلَى سيلسوس Celsus (القرن الأول الميلادي) ، وبعدُ ذلك ـ وعلَى مدى عشرةِ قرون ـ لم يتناولْها أحدٌ إلَى أن تحدَّث عنها الزهراوي . ويبدو أن إرشاداته جاءتْ ثمرةَ تجاربه الشخصية ، ولم يتبعْ فيها أقوالَ الكتّاب الأوائل [42] .

وفي الفصل الخامس والثمانين ، عن جراح البطن وخروج المعاء وخياطتها ، يذكر أبو القاسم اثنتيْن من موادِّ الخياطة التي استعملها الجرّاحون العربُ وهما : الخياطةُ بالنمل ، وهي طريقةٌ لم يعرفْها الأوائل ، والخياطةُ بالمُصران ، ولم يردْ ذكرٌ لاستعمالها في الأغراض الجراحية قبل فترة الجراحة العربية . ولعلَّ هذه أقدمُ إشارة إلَى مادة الخياطةِ بالمُصران ، التي أصبحتْ شائعةً اليوم [43] . يقول أبو القاسم في هذا الصدد :

---

(41) نفس المصدر ص 410.

(42) نفس المصدر ص 526.

(43) نفس المصدر ص 538.

«وقد ذكر بعضُ أهلِ التجربة أنه متَى عَرَضَ في المِعاء جرحٌ وكان صغيراً فينبغي أن يُخاطَ علَى هذه الصفة ، وهو أن يؤخذَ النملُ الكبارُ الرؤوس ، ثم تُجمع شفتا الجرحِ ، ثم توضع نملةٌ منها وهي مفتوحةُ الفم علَى شفتيْ الجرح ، فإذا قبضتْ عليه وشدَّتْ فمَها قُطعَ رأسُها ، فإنه يلصق ولا ينحلّ ، ثم توضع نملة أخرى بقرب الأولَى ، ولا تزال تفعل ذلك بعدة نمل علَى قَدَرِ الجرح ، ثم تردّه وتخيطُ الجرح ، فإنّ تلك الرؤوسَ تبقَى لاصقةً في المعاء حتّى يتغرَّى المعاءُ ويبرأ ، ولا تحدثُ بالعليل آفة البتَّة... وقد يمكن أن يخاطَ المِعاء أيضاً بالخيط الرقيق الذي يُسلُّ من مصران الحيوان اللاصق به بعد أن يُدخلَ في إبرة . وهو أن يؤخذَ طرفُ هذا الخيط من المصران فيُسلتُ نِعِماً ، ثم يُربط في طرفه خيطُ كتّانٍ رقيق مفتول ، ثم يُدخل ذلك الخيطُ في الإبرة وفيه خيطُ المصران ، فيُخاط به المِعاءُ ثم يُردُّ إلَى الجوف . وهذا الضربُ من الخياطة بالنمل والمصران إنما هو علَى طريق الطمع والرجاء . فأما إن كان الخرقُ كبيراً واسعاً ، ولا سيّما إن كان في أحد الأمعاء الرقاق ، فليس فيه حيلةٌ ولا منه برءٌ البتَّة» (44) .

وفي الفصل الثالث والتسعين، يذكر الزهراوي الشقّ علَى المرض الذي يُعرف في الأندلس باسم النافر ، وهو علَّةٌ لم يردْ ذكرُها في كتب الأوائل . يقول أبو القاسم : «هذا المرض الذي يسمَّى في بلدنا [الأندلس] النافر ، هو وجعٌ يعرضُ في بعض الأعضاء ، ثم ينتقل من عضو إلَى عضو. وقد رأيتُه علَى ما أصفه لك . دُعيت إلَى امرأةٍ عليلةٍ في بعضِ البوادي ، فكشفتْ عن ذراعها وأرَتْني نفخاً يسيراً في عرق حبل الذراع . فلما بقيتُ ساعةً رأيتُ ذلك النفخ يدبُّ مع الزند ـ كما تدبُّ الدودة ـ صاعداً إلَى منكبها بأسرع ما يمكن أن يكون ، كالزئبق إذا سال من موضع إلَى موضع . فزال الوجعُ من ذلك المكان ، وثبت في المنكب . ثم قعدتُ ساعةً فجرى في سائر الجسم ، حتّى صار في الذراع الآخر. ثم حكتْ لي أنه يدور جسمَها كلَّه علَى ما شاهدتُ ، فعجبتُ من سرعة انتقاله من عضو إلَى عضو، ولم أكن قبلُ رأيتُ هذا المرضَ بعيني هكذا علَى هذه الصفة . إلاّ أني رأيت جماعةً يجدون الوجعَ ينتقل من

(44) نفس المصدر ص 551.

عضوٍ إلَى عضو، ولم أره بعيني كما رأيتُه في هذه المرأة ،.ولم أقدِّرْ ذلك إلاّ أن يكونَ من أجلِ أن المرأة كانت من أهلِ البادية [الريف] يابسةَ البدن مكشوفةَ العروق ، فمن هنا ظهر للحسِّ ذلك الريحُ المنتقل ، ووجب أن لا يظهرَ علَى هذا القياس في أهل الرفاهيَّة والأبدانِ الرطبةِ الخفيَّةِ العروق . فإذا أردتَ علاجَه وأحسَّ صاحبُه بالوجع ، فإنْ ظهرَ إليك بالعيان ـ كما ذكرْنَا ـ فشُدَّ فوقه وتحته بالعجلة ، وشُقَّ عليه حتَّى يخرجَ ذلك الريحُ المحتقِن ، واكوِ المكانَ . فإن لم تره بعينك ، فعالجْه بنفض البدن ، وما ينفي الرياح ويفتُّها مثل حَبِّ المُنْتِن (Foetid pills) وحَبِّ السكبينج [من فصيلة الصمغ العربي] ونحوِها من الأدوية » [45] .

يخصِّصُ الزهراوي فصلاً طويلاً للحديث عن الحجامة وكيفيّةِ استعمالها ، ويذكر أنواعَ المحاجم فيقول : « ... وهذه المحاجمُ قد تُستعمَل فارغةً بالمصِّ فقط ، وقد تُستعمَل بالنار ، وقد تُستعمَل مملوءةً بالماء الفاتر في علل الشَّوْصة [Pleuritic complaints] ، وذلك أن تُملأَ المحجمة ـ ولتكن كبيرة ـ بالماء الحار وحدَه ، أو بماءٍ قد طُبخَ فيه بعضُ الحشائش التي تصلح لذلك ، ثم توضع مملوءة علَى الموضع وتُمسَك وتُزال ، وتُعاد مراتٍ على قَدَرِ الحاجة » (صورة 21) [46] .

ويعلّق الدكتور سبينك على ذلك بقوله ان المحجمةَ المملوءةَ بالماء يبدوا أنها استنباط انفرد به العرب ، وأنها من ابتكارهم[47] .

يتحدث الزهراوى فى الفصل الرابع والتسعين عن اخراج السهام ، ويَرْوي كيف استخرجَ سهاماً لمسلمٍ ويهودي ونصراني ، دون أي تمييز أو تحاملٍ ، مَبديا خلق الطبيب الحق . كما يوصي قُرّاءَه من الأطباء بضرورة الاجتهاد والابتكار في الحالات الغريبة الطارئة التي تُعرَضُ لهم . يقول أبو القاسم : « ... وأنا أُخبرك ببعض ما شاهدتُه من أمر هذه السهام ، لتستدلَّ علَى علاجك . وذلك أنَّ سهماً كان قد واقع

(45) نفس المصدر ص 606 ـ 607.

(46) نفس المصدر ص 669.

(47) نفس المصدر ص 658.

[التصق] لرجلٍ في مأْق عينه في أصل الأنف ، فأخرجتُه له من الجهة الأخرى تحت شحمة الأذن ، وبرِيءَ لم يَحدُثْ في عينه مكروه . وأخرجتُ سهماً آخر ليهوديٍّ كان قد واقعه في شحمة عينه ، تحت الجَفْنِ الأسفل ، وكان السهمُ قد توارى ولم ألحقْ منه إلاّ طرفَه الصغيرَ الذي يلصق في الخشبة . وكان سهماً كبيراً من سهام القسيِّ المركَّبة مربَّعَ الحديد أملس ، لم يكُنْ فيه أُذنان . فبريء اليهوديُّ ولم يَحدُثْ في عينه حادث سوء . وأخرجتُ سهماً آخرَ من حلق نصراني ، وكان السهمُ عربياً وهو الذي له أذنان ، فشقَقْتُ عليه بين الوَداجين [Jugulars] ، وكان قد غار في حلقه ، فلطفتُ به حتّى أخرجتُه فسَلِمَ النصرانيُّ وبريء... وأنا أُخبرك بكيفيّة إخراجِ بعضِ السهام ، لتجعلَ ذلك قياسا ودليلاً علَى ما لم أذكرْه ، لأنَّ أجزاءَ هذه الصناعة وتفصيلَهَا لا يُدرَكُ بالوصف ، ولا يحيط به كتاب . وإنما الصانعُ الحاذقُ يقيس بالقليل علَى الكثير ، وبما حضر علَى ما غاب ، ويستنبطُ عملاً جديداً وآلةً جديدةً عند النوازل الغريبة ، إذا نزلتْ من هذه الصناعة . فأقول إن السهامَ إنما تخرجُ من الأعضاء التي نشبتْ فيها علَى نوعيْن : إما بالجذب من الموضع الذي دخلت منه ، وإما من ضدِّ الجهة الأخرى... » [48] (صورة الكلاليب ، صورة 22 ـ 23) .

الباب الثالث في الجبر (35 فصلاً) :

يستهلُّ الزهراوي هذا البابَ بقوله : « هذا البابُ أيضاً من وكيد ما يُحتاج عليه في صناعة الطب ، وهو جَبْرُ الكسر والفكّ [Setting of the fracture or dislocation] الحادثيْن في العظام » [49] .

ويعزو أبو القاسم ما اكتسبه في هذا المجال إلَى كتب الأوائل اولاً ، وإلَى ما اكتسبه من تجاربه ثانياً . كما يقرِّر أن الأندلسَ علَى عهده خِلْوٌ من المُحسنين في جبر الكسر والفكّ الحادثين في العظام ، ويعلِّل لذلك فيقول : « اعلموا يا بَنِيَّ أنه قد يَدَّعي هذا البابَ الجُهَّالُ من الأطبَّاء والعوامّ ، ومن لم يتصفَّحْ قطُّ للقدماء فيه

(48) نفس المصدر ص 613 ، 615 ، 617
(49) نفس المصدر ص 677

كتاباً ، ولا قرأ منه حرفاً . ولهذه العلّةِ صار هذا الفنُّ من العلم في بلدنا [الأندلس] معدوماً ، وإني لم ألْقَ فيه قطُّ محسناً البتَّة . وإنما استفدتُ منه ما استفدتُ لطول قراءتي لكتب الأوائل ، وحرصي على فهمها ، حتّى استخرجتُ علمَ ذلك منها . ثم لزمتُ التجربة والدُّرْبةَ طول عمري . وقد رسمتُ لكم من ذلك في هذا الباب جميع ما أحاط به علمي ، ومضت عليه تجربتي ، بعد أن قرَّبتُه لكم وخلَّصتُه من شُعب التطويل ، واختصرتُه غايةَ الاختصار... » (50) .

يقول الطبيبُ الأخصائيُّ م . س . سبينك إن هذا الباب أقصرُ أبواب المقالة الثلاثين في الجراحة ، وفيه يتناول أبو القاسم كسورَ الرأس ، والكسورَ والخلع بصفة عامة . أما بالنسبة لكسور الرأس ، فإنّ أبا القاسم لم يُورِدْ شيئاً أصيلاً ، إلا أن وصفه عظيمُ القيمة ، إذ أنه يوضح بالصور كثيراً من الآلات التي ذكرها الأوائل ، كالمِقْطَع (Chisel) (صورة 23) ، والمِثْقَب (Drill) (صورة 24) ، والمِشْعَب (Perforator or drill) (صورة 25) (51)

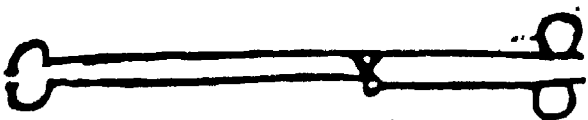
(50) نفس المصدر ص 677 .
(51) نفس المصدر ص 676 . 682 . 684



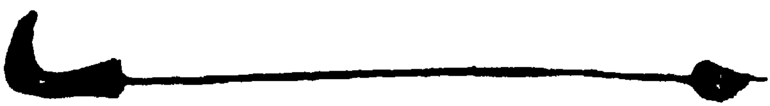
Marsh



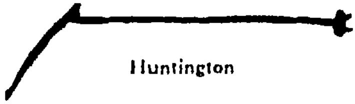
Huntington



Huntington (margin)



Marsh



Huntington

صورة 1

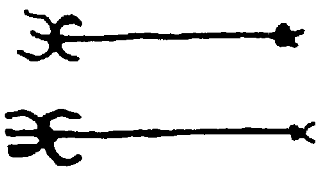


Huntington



Marsh

صورة مخدع متوسّط :



Huntington

صورة مخدع صغير :



Huntington

صورة 2



Huntington



Marsh

صورة 3

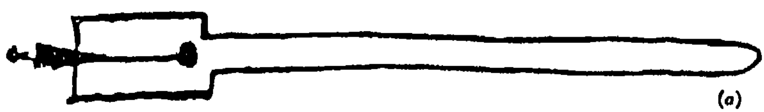


Marsh



Huntington

صورة 4

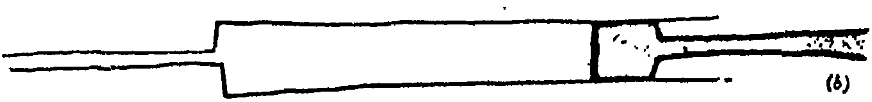


(a)

Marsh



Huntington



Huntington
(margin)

صورة 5

النشل الذي هذه صورته :



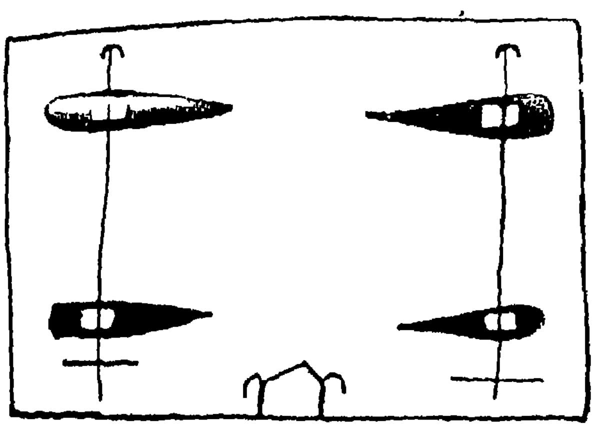
Marsh



Huntington

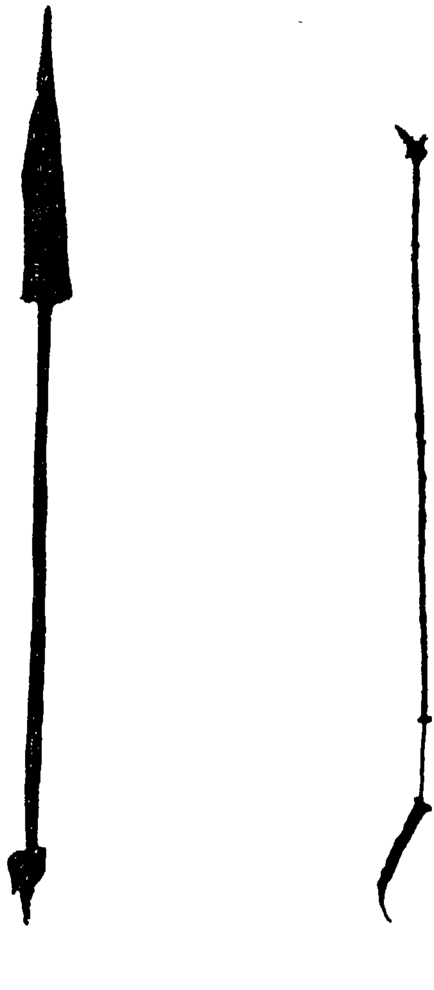
صورة 6

وهذه صورة اللولب والدكّان والعليل :



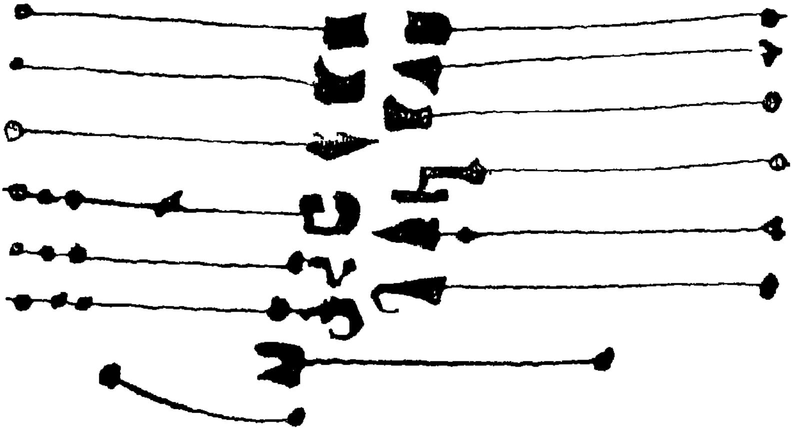
Huntington

صورة 7

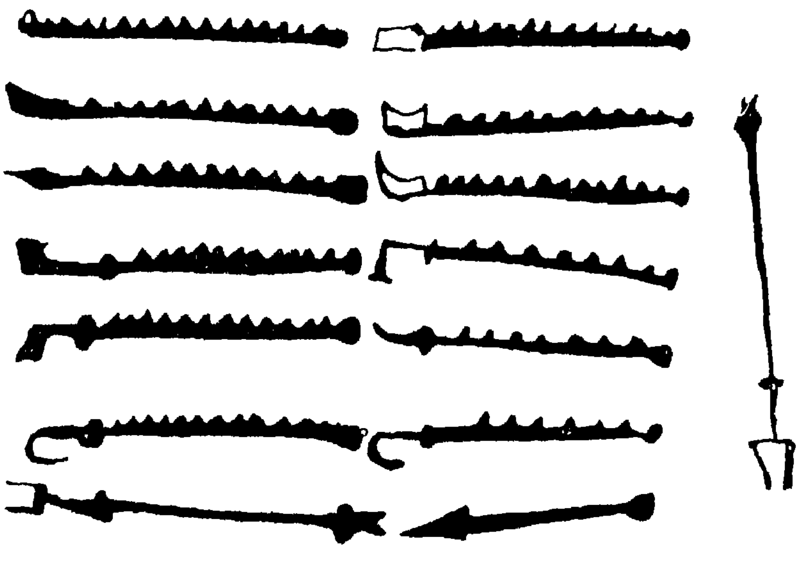


Huntington

صورة 8



Marsh



Huntington

صورة 9



Huntington



Marsh

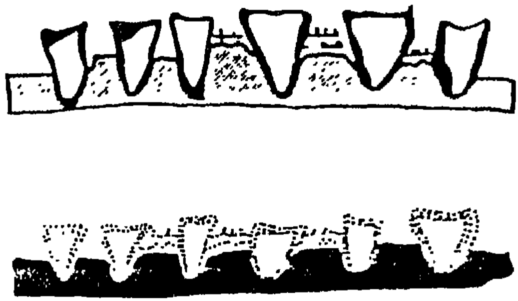


Marsh



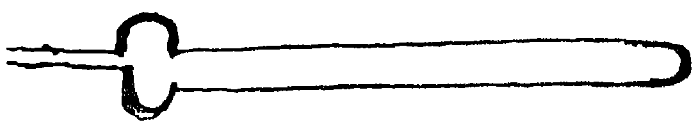
Huntington

صورة 10



Huntington

صورة 11



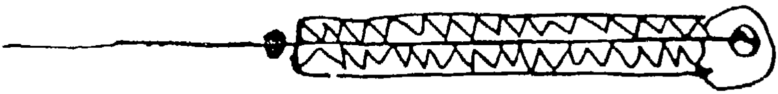
Marsh



Huntington

صورة 12

صورة مدسّ كبير :



Marsh



Huntington

صورة مدسّ وسط :



Marsh



Huntington

صورة مدسّ صغير :



Huntington



Huntington

صورة 13

صورة مسبار وسط :



Huntington

صورة مسبار صغير :



Huntington



Huntington

صورة مسبار من رصاص وسط .



Huntington

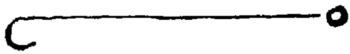
صورة مسبار من رصاص صغير :



Huntington

صورة 14

صورة صنّارة بسيطة كبيرة :



Huntington

صورة صنّارة بسيطة وسط :



Huntington

صورة صنّارة بسيطة صغيرة :

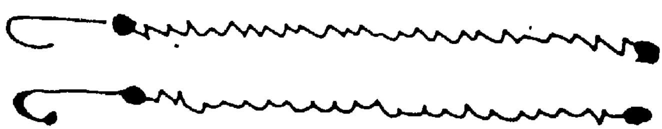


Huntington

صورة صنّارة عمياء كبيرة :



Huntington



Marsh

صورة صنّارة عمياء وسط :



Huntington

صورة 15

صورة صنّارة عمياء صغيرة :

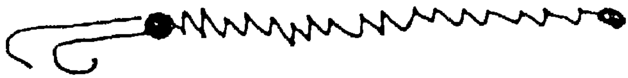


Huntington

صورة صنّارة كبيرة ذات المخطافين :



Huntington



Marsh

صورة صنّارة وسط ذات المخطافين :



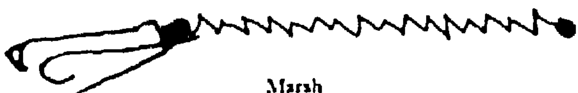
Huntington

صورة صنّارة صغيرة ذات المخطافين :

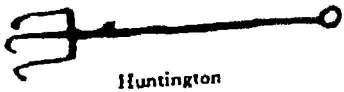


Huntington

صورة صنّارة كبيرة ذات الثلاثة مخاطيف :



Marsh



Huntington

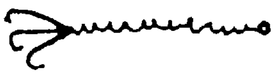
صورة 16

صورة صنّارة وسط ذات
الثلاثة مخاطيف :

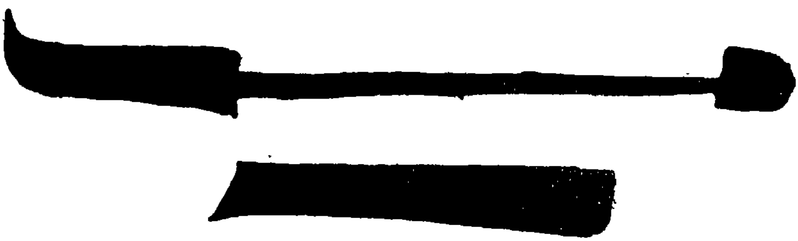


Huntington

صورة صنّارة صغيرة ذات
الثلاثة مخاطف :



Huntington



Huntington

صورة مشرط متوسّط :



Huntington

صورة مشرط صغير :



Huntington

صورة 17



Marsh



Marsh

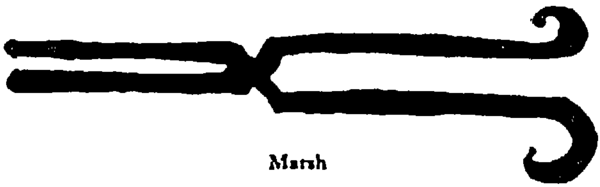
صورة مبضع متوسّط :



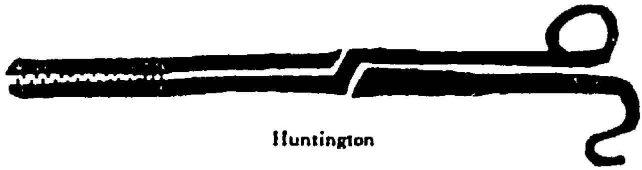
Marsh

صورة مبضع صغير :

صورة 18

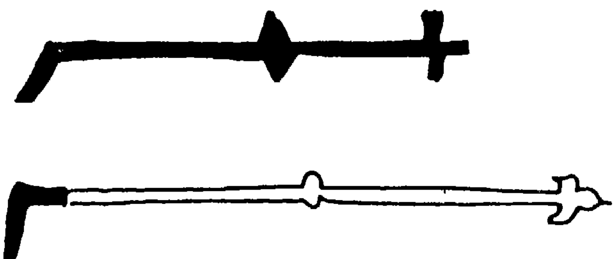


Marsh



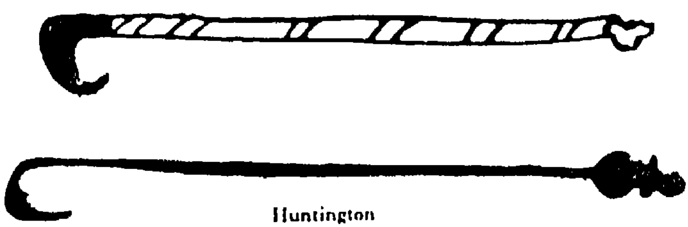
Huntington

صورة مدفع أيضا :



Huntington

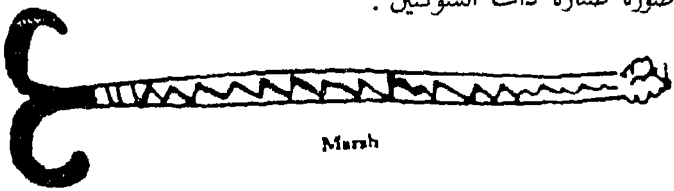
صورة صنّارة :



Huntington

صورة 19

صورة صنّارة ذات الشوكتين :

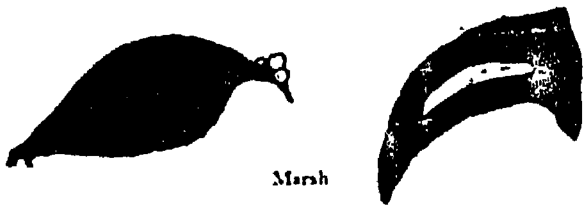


Marsh



Huntington

صورة مبضعين عريضين لقطع الجنين :



Marsh



Huntington

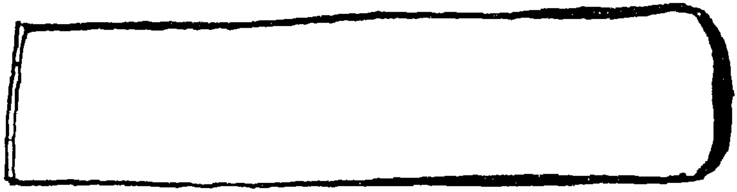


Marsh



Huntington

صورة 20



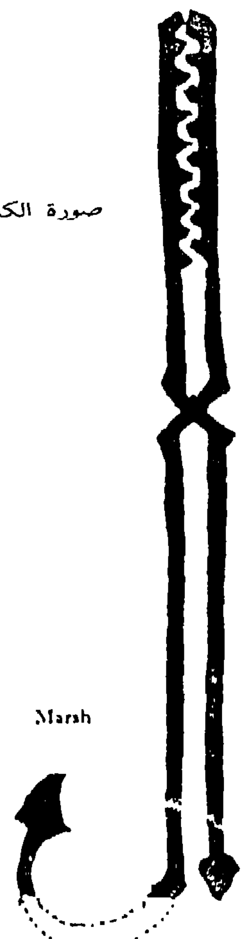
Huntington

صورة 21

صورة الكلاليب التي تجتذب
بها السهام :



Huntington

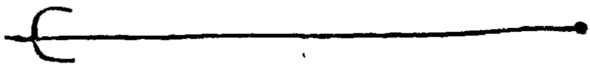


Marsh

صورة 22



Marsh

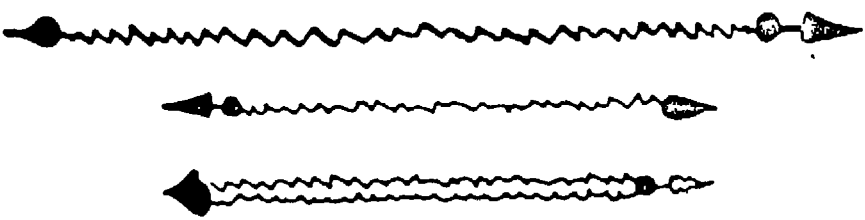


Huntington

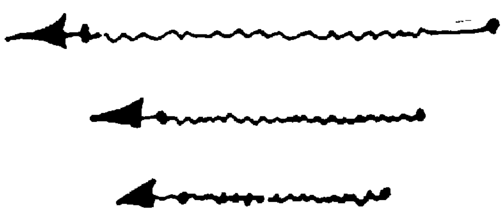


Huntington

صورة 23



Marsh



Huntington

صورة 24



Marsh



Huntington

صورة 25

ابن حيّان القرطبي
وموقفه في كتابيْ (المقتبَس) و (المتين)
من أحداث الأندلس في عصره

اخترنا لهذه الدراسة شيخَ مؤرخي الأندلس وعمدتَهم أبا مروان بن حيّان (ت 469 هـ/1076 م) الذي شهد في مطلع شبابه أيامَ الدولة العامرية، ثم كُتب له أن يَشهدَ الفتنةَ التي تلتْها والتي أدّت إلَى سقوط الخلافة الأموية بقرطبة وقيام ممالك الطوائف في الأندلس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ولابن حيان كتابان معروفان، أولُهما (المقتبَس) الذي تناول المؤرخُ في أجزائه العشرة تاريخَ الأندلس من الفتح العربي إلَى نهاية الدولة العامرية في أواخر القرن الرابع الهجري. وكتابُ (المتين) ـ في ستين مجلدا ـ وفيه تناول ابنُ حيان بالتفصيل أخبارَ الفتنة وقيام ممالك الطوائف في الأندلس (من 399 هـ الَى 462 هـ).

ونستهلُّ البحثَ بالحديث عن الوضع في الأندلس في عصر ابن حيان. ثم نورد نبذةً عن سيرة ابن حيان ومؤلفاته. وسنعرض بعد ذلك إلَى موقف ابن حيان من مجرى الأحداث في الأندلس والمغرب علَى عهده في كتاب (المقتبَس) أولا، ثم في كتاب (المتين)، مبيّنين آراءه في تلك الأحداث.

الأندلس في عصر ابن حيان :

شهدت الأندلس عصرَها الذهبيَّ في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي علَى عهد الخليفتيْن الأمويّين عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) وابنه الحكم الثاني

(المستنصر بالله). وقد استخلف الحكمُ قُبيْل وفاته ابنَه الصبيَّ هشاما ـ ولما يبلغ العاشرةَ من العمر ـ متجاوزا إخوتَه وأبناء عمومته الأكفاء. وكما كان منتظرا، فقد حدث صراعٌ علَى السلطة بين العناصر الأندلسية في القصر، وعلَى رأسها جعفر المصحفي حاجبُ الحكم المستنصر، وبين العناصر الصقلبية بالبلاط، انتهت بانتصار الجماعة الأندلسية وتنصيب هشام خليفة. إلاّ أن الصراع علَى السلطة استمر، وانتهى باستبداد أندلسي في الحكم هو محمدُ بن أبي عامر الملقَّبُ بالمنصور. وقد حقّق المنصورُ للأندلس فترةً طويلةً من السلام والمنعة والرخاء (368 ـ 392 هـ/ 978 ـ 1002 م) وأنشأ ـ توطيداً لمركزه ـ جيشاً نظامياً ثابتاً قوامه عناصرُ من المغاربة استدعاها من بر العُدوة.

خلف المنصورَ ابنُه عبدُ الملك حاجباً للخليفة هشام الثاني، فسار علَى سياسة أبيه في الجهاد ضد الممالك النصرانية بشمال إسبانيا، كما جلب المزيدَ من المغاربة من شمال افريقيا، وبخاصة من صنهاجة بزعامة زاوي بن زيري. وقد قُدِّر لهذه العناصر المغربية أن تلعبَ دوراً حاسماً في مسار الأحداث في الأندلس فيما بعد.

وهكذا فإن الأندلس نعمتْ بفترة طويلة ـ قرابةَ قرن ـ من السلم والرخاء من عهد الخليفة الناصر إلَى نهاية أيام الحاجب عبد الملك بن أبي عامر (398 هـ/ 1008 م). إلاّ أن كلَّ ذلك تبدَّل إثر وفاة عبد الملك وتولّي أخيه عبد الرحمن الحجابة للخليفة هشام الثاني. وكان عبدُ الرحمن هذا عاجزاً سيىءَ السيرة. ونقم عليه أبناءُ البيت الأموي حمله هشاما علَى تسميته خَلَفاً له. فقام أحد الأمويين ـ محمد بن هشام بن عبد الجبار ـ بالاستيلاء علَى السلطة ونصَّب نفسه خليفة. إن هذه الثورةَ في قرطبة بدأت فترةً من الحرب الأهلية يشير إليها ابنُ حيان بالفتنة المبيرة والفتنة البربرية (399 ـ 422 هـ/ 1009 ـ 1032 م)، وفيها تناوب الخلافةَ أمويون وغيرُ أمويين إلَى أن أعلن أبو الحزم بن جهور نهايةَ الخلافة بقرطبة (422 هـ/ 1031 م). والحقيقة أن الخلافةَ الأموية في الأندلس انتهت بالفعل بوفاة الحكَم المستنصر (366 هـ/ 976 م)، إذ إن ابنه المستخلَف هشاماً كان خليفةً بالاسم، وكانت السلطةُ الحقيقية بأيدي العامريين لأكثرَ من ثلاثين عاما.

ويرى ابنُ حيان أنه كان من الممكن للأندلس تجنّبُ هذه الفتنة المدمرة لو أن الحَكَم استخلف أخاه المُغيرةَ أو أحدَ أبناء عمّه بدلا من ابنه الصبي هشام. يقول ابنُ حيان : «انتهت خلافةُ بني مروان إلَى الحكم تاسع الأئمة فيهم، فتناهت في السرو والجلالة والكمال والأبهة... إلا أنه ـ تغمّد الله خطاياه ـ مع ما وُصف من رجاحة كان ممّن استهواه حبُّ الولد وأفرط فيه. وخالف الحزمَ في توريثه المُلك بعده في سن الصبا دون مشيخة الأخوة وفتيان العشيرة ومن يكْمل للإمامة دون محاباة. فرطَ هوًى ووهلة انتقدها الناسُ علَى الحكَم وعدوُّها الجانيةَ علَى دولته... فتخطَّى جماعتهكم إلَى ابنه هشام، وهو في الوقت طفل ما بلغ الحُلم» [1]. أما ابنُ عِذاري المراكُشي فيحمِّل مسؤوليةَ الفتنة محمدَ ابن هشام بن عبد الجبار بسبب عدائه للبربر، وتحريضه أهل قرطبة علَى القيام عليهم ونهب دورهم، «فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سببَ الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسمِّيها أهلُ الأندلس بالفتنة البربرية. ولو سمَّوْها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحقَّ والأَوْلَى» [2].

إن الفتنةَ التي بدأت بثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقَّب بالمهدي علي عبد الرحمن بن أبي عامر أدَّتْ إلَى انقسام الأندلس بين جماعات أو طوائفَ متصارعةٍ هي جماعاتُ الأندلسيين والبربر والصقالبة. إن عرضاً للأدوار التي قامت بها هذه الجماعاتُ أثناء فترة الفتنة من شأنه أن يُلقي الضوء علَى تطوّر الأحداث إبان الفتنة وبعدها.

أهــل قرطبــة :

إن الفتنةَ التي نشبتْ بعد سقوط الدولة العامرية (399 هـ/1009 م) كانت

---

(1) ابن بسام الشنتريني، علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الرابع. المجلد الأول. الدار العربية للكتاب 1979. ص 57.

(2) ابن عِذاري المراكُشي، أبو العباس : البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب. الجزء الثالث. باريس 1930. ص 76.

كارثةً للأندلسيين عامة ، ولأهل قرطبة علَى وجه الخصوص . وكان أهل قرطبة قد شهدوا أيامَ عزّ ورخاء واستقرار في عهديْ الناصر والمستنصر ، وفي عهد دولة بني عامر .

وكان المنصور قد أعفَى الأندلسيين من الخدمة العسكرية ، وأنشأ جيشا نظاميا في معظمه من البرابرة . وقد رحَّب الأندلسيون بهذه السياسة ، إذ في مقابل دفع ضريبة سنوية أمكنهم التفرّغُ لشؤونهم الزراعية والصناعية والتجارية . إلاّ أن هذه السياسةَ كانت لغير صالحهم علَى المدى الطويل . إذ عجزوا عند قيام الفتنة عن الدفاع عن أنفسهم .

وفي فترة الفتنة ، عانت قرطبةُ كثيرا ، فقد نُهبت مدينتا الزاهرة والزهراء وتعرضتا للدمار . وفي وقعة قنتيْش سنة 400 هـ/ 1009 م هُزم أهل قرطبة علَى أيدي البرابرة وحلفائهم ، وفقدوا ألوفا من رجالهم ، كان من بينهم الفقيهُ البارزُ القاضي أبو الوليد ابنُ الفرضي [3] .

وخلال فترة الفتنة ، ظلَّ أهلُ قرطبة علَى ولائهم للعناصر الأموية أملاً منهم في عودة أيام الخلافة الزاهرة . إلاّ أن الخلفاءَ الأمويين الثلاثة الذين وُلُوا الخلافة ما بين عاميْ 414 ـ 422 هـ/ 1023 ـ 1031 م لم تتعدَّ سلطتهُم مدينةَ قرطبة وأحوازها . أما بقية الأندلس ، فقد آلتْ إلَى حكامٍ منِ الأندلسيين أو البرابرة أو الصقالبة ، وهم المعروفون بملوك الطوائف . ويمثّل صاحبُ طليطلة اسماعيلُ بنُ ذي النون نموذجاً منهم . وكان من أشدِّهم نفوراً من وحدة الأندلس في ظل خلافةٍ أموية : «والله لو نازعني سلطاني هذا الصدِّيقُ لقاتلته ولما سلَّمتُ له . فكيف أسلِّمُ سلطاني لمن يُدعَى إليه من بني أمية ممّن لا يوجب الله طاعتهم؟» [4] .

البرابـــــرة :

إن البرابرةَ الذين لعبوا دَوْراً بارزاً في الفتنة التي أعقبتْ سقوطَ الدولة العامرية

(3) ابن بسام الشنتريني . 1/1 . ص 43 .
(4) نفسه . 4/1 . ص 113 .

كانوا قد وفدوا إِلَى الأندلس حديثا . وكانوا ينتمون إِلَى مجموعتيْ زناتة وصنهاجة . وقبل القدوم إِلَى الأندلس ، كانت زناتة في المغربين الأقصَى والأوسط من أنصار الأمويين في الأندلس ، بينا كان ولاء صنهاجة في افريقية للعُبيْديين الفاطميين ، مما أدّى إِلَى قيام حروب طويلة بين الجماعتين [5] . ولما كان المنصور بحاجة إِلَى كفاةِ المحاربين لغزواته المتواصلة بشمال إسبانيا ، فإنه استدعَى زناتة إِلَى الأندلس وبذلك - كما يقول ابن عذاري - استبدل المنصورُ الأندلسيين بالبرْبر . أما عبدُ الله بن بلقين - آخر أمراء بني زيري في غرناطة - فيقول إن المنصورَ استجلب « من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها مَنْ بلغه فروسيتُه وشدّته . وتسامع الناسُ بالجهاد ، فبادر إليه من شرق العُدوة مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابنُ أبي عامر علَى العدوّ . وهم كانوا العُدةَ في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء . وكان من أدهاهم رأيا وأبعدهم همّةً زاوى بنُ زيري عمّنا ، وبعده حبوس ابن ماكسن ابن أخيه ... فإليهما كان الرأي والمشورةُ في الأمر والحكم علَى من دونهم من الأجناد » [6] .

وقد واصل عبدُ الملك بن أبي عامر سياسةَ أبيه الخاصةَ بجلب البرابرة من بر العُدوة . ومن أبرز من قَدِمَ إِلَى الأندلـس علَى عهده زاوى بن زيري عمّ المعزابن باديس صاحب افريقية ، ولكن زاوى - كما يقول ابن حيان - لم يكن راضيا عمّا حباه إياه عبدُ الملك ، وكان كثيرا ما يذكر أنه يريد العودةَ إِلَى وطنه . يقول ابن حيان : « فاستقلّوا ما وصلهم به عبد الملك علَى كثرته . وما استقروا الدارَ إلاّ علَى قلعة ... والأقدار موكّلةٌ بثني عزم عبد الملك عن إسعافهم بسراحهم لما كان قدّره - عزّ وجهه - من الفتنة وتفريق شمل الأندلس بأشباههم . فلم يخْرجوا عنها إِلَى أن قاموا علَى الجماعة وشغبوا عليها بعد عبد الملك ... وكان عبدُ الملك راغباً في رفع منزلته وولاّه الوزارةَ أرفعَ خطط أصحاب السلطان بالأندلس ، ووصل إليه الرسول بالصك في ذلك ، وطلب أن يصلَه عليه . فقال : لو جئتَنا بمالٍ لأسهمْناك ، وإنما

(5) ابن عِذاري المراكُشي . 3/ص 262 .

(6) ابن بلقين ، عبد الله : كتاب التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) . القاهرة 1955 ، ص 16 - 17 .

خُطَّتنا الإمارةَ لا الوزارة » [7] .

ولم يُخفِ محمد بن عبد الجبار عداءه للبربر، وقام العامةُ بقرطبة ـ بتحريض منه ـ بنهب أموالهم والاعتداء علَى شيخهم زاوى بن زيريّ . إن هذه السّياسة من جانب ابن عبد الجبار هي ـ كما تقدم في رأي ابن عذاري ـ السببُ المباشرُ للفتنة التي يسمّيها الكتّابُ الأندلسيون بالفتنة البربرية ، وهي أجدر بأن تُسمّى بفتنة ابن عبد الجبار [8] . وعلَى ذلك ، فإن البربر انحازوا لمنافس ابن عبد الجبار في الخلافة ، وهو سليمان بن الحكم ، واستولْوا علَى قرطبة ، وأوقعوا بأهلها . ولما توطّد حكمُ سليمان ابن الحكم ، بفضل مساعدتهم له ، أقطعهم أراضي في الأندلس أقاموا فيها إمارات لهم .

الصقـالبـــة :

كان الصقالبة أصلا نصارى ، وقعوا في الأسر أو بيعوا رقيقا ، من شمال إسبانيا أو من وراء جبال البيرانيز . ولم يكونوا بالضرورة من الجنس السلافي أو الصقلبي بشرق أوروبا . وكان الناصرُ قد استحوذ علَى أعدادٍ كبيرةٍ منهم للخدمة في جيشه وبلاطه لاعتماده علَى ولائهم . وواصل المستنصرُ سياسةَ أبيه تجاه الصقالبة . وقد أبدى الصقالبةُ ولاءً مستمرا للبيت الأموي ، وحظُوا بمناصبَ كبيرة .

ولما استبدَّ المنصورُ بن أبي عامر بالحكم ، حارب الصقالبةَ وصادر ممتلكاتِهم ، واستعاض عنهم بالمغاربة من شمال افريقيا . ومع ذلك ، فإن المنصورَ شكَّل فرقةً خاصةً به من الصقالبة ، وذُكر أن ابنَه عبدَ الملك كان في خدمته ألفا صقلبيٍّ من رجال أبيه ممّن اشتهروا بالفروسية والرماية .

ولما ولي محمدُ بن عبد الجبار الخلافةَ (399 هـ/1009 م) ، أبعد الصقالبةَ العامريين عن قرطبة ، فتوجَّه هؤلاء إلَى شرق الأندلس ، حيث سيطروا علَى عدد من المدن الساحلية كألمريَّة وبلنسية ودانية ، وأقاموا لأنفسهم إمارات فيها . ومن

---

(7) ابن بسام الشنتريني 4/1 . ص 81 ـ 82 .
(8) ابن عذاري المراكشي 3/ص 76 . 78

أشهر الصقالبة في فترة الفتنة خيرانُ العامري صاحبُ ألمرية الذي خلفه أخوه زهير فيها ، ومجاهدُ العامريُّ صاحبُ دانية والجزائر الشرقية (جزر البليار) ، الذي خلفه فيها ابنُه عليٌّ بن مجاهد.

النصارى بشمال إسبانيا :

كانت خلافة قرطبة في عهديْ الخليفتين الناصر والمستنصر أكبرَ قوة في شبه جزيرة ايبرية. واعترف ملكُ ليون وملكةُ نبارة وأميرا قشتالة وبرشلونة بسيادة الناصر، ودفعوا له الجزية ، وكانوا يحكِّمونه في خلافاتهم العديدة. واستمرت السيادةُ الإسلاميةُ في شمال شبه الجزيرة في عهد الحكم المستنصر، وعلَى إثر وفاته أخذ حكامُ النصارى يغيرون علَى مناطق الحدود. فبدأ المنصور بن أبي عامر غزواته السنويةَ المظفرةَ ضدهم. ولما علم نصارى الشمال بوفاة المنصور

(392 هـ / 1002 م)، استأنفوا غاراتهم في مناطق الثغور. وما إن توطّد حكمُ عبد الملك بن المنصور في قرطبة حتى جهّز حملة مظفرة ضد صاحب برشلونة ، فناشده أمراء النصارى السلم.

في فترة الفتنة بالأندلس ، تبدّل الوضع تماماً ، واستعان المتخاصمون في الأندلس بأمراء النصارى ضد بعضهم البعض ، وتنازلوا لهم عن عدد من القلاع والحصون التي كان قد استولى عليها الناصر والمنصور، وبدا وكأنّ سقوط الأندلس الإسلامية في أيدي النصارى أمرٌ وشيكُ الوقوع لو اتحدت كلمة هؤلاء. ولكن فترة الفتنة تزامنت مع حدوث انقسامات ومنازعات في صفوف النصارى كذلك.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، تعرَّضتْ ممالكُ الطوائف من جديد إلَى خطر النصارى بشمال إسبانيا. فقد ضمَّ صاحبُ قشتالة فرديناند الأول إلَى مملكته ليون وجليقية. وهزم أخاه غارسية صاحبَ نباره ، ثم ركَّز همَّه في السنوات العشر الأخيرة من حياته علَى التوسّع علَى حساب جيرانه المسلمين ، بادئا بذلك ما يُسمَّى بحرب الاسترداد. في سنة 449 هـ/1057 م ،

استولَى علَى مدينتيْ فيزو ولميجو من ابن الأفطس صاحب بطليوس. ثم حوّل أنظارَه إلَى ابن هود صاحب سرقسطةَ، والمأمون بن ذي النون صاحبِ طليطلة. واستولَى علَى عدد من حصونهما، واضطرَّ ثلاثتُهم إلَى دفع ضريبة سنوية تأمينا لأراضيهم. ثم جاء دَوْرُ المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، فأغار فرديناند علَى أراضيه عام 455 هـ/1063 م. وعجز المعتضد عن صدّ هذه الغارات، ووافق علَى أداء الجزية للملك النصراني. وفي سنة 456 هـ/1064 م. استولَى فرديناند علَى مدينة قلمريّة (بشمال البرتغال حاليا) من ابن الأفطس. ثم هاجم بلنسية بشرق الأندلس في العام ذاته، وهزَمَ صاحبَها عبدَ الملك بنَ عبد العزيز في وقعة بطرنة بظاهر بلنسية.

وكانت وفاة فرديناند الأول في عام 457 هـ/1065 م. ولو أنه عاش لَواصلَ التوسّعَ علَى حساب أمراء المسلمين وأخذَ الجزية منهم، وهي السياسة التي انتهجها من بعده ابنه الفونس السادس. وهكذا فإن إسبانيا المسيحية أخذت ـ وقد اتحدتْ كلمتُها ـ تهدِّدُ الأندلس المجزأة.

نبذة عن سيرة ابن حيان ومؤلفاته:

وُلد أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي عام 377 هـ/987 م، وتوفي عام 469 هـ/1076 م. وعلَى ذلك، فإنه شهد في مطلع شبابه وحدةَ الأندلس ومنعتَها علَى عهد الدولة العامرية. ثم شهد قيامَ الفتنة وزوالَ خلافة قرطبة وقيامَ ممالك الطوائف في الأندلس. وقد آلمه كثيرا ما آلتْ إليه حالُ الأندلس من تمزّق وفرقة، بعد أن نعمتْ بالوحدة والمنعة أيام الخلافة التي يسمِّيها ابنُ حيان بأيام الجماعة. فأخذ في تدوين تاريخ عصره بعمق وإسهاب، فكان كتابُ (المتين) في ستّين مجلدا، ولسوء الحظ، فإن كتاب (المتين) ـ وهو كتاب ابن حيان الأصيل ـ لم يصلْنا إلاّ في مقتطفاتٍ ونتَف أوردها ابنُ بسام الشنتريني في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، كما احتفظ ببعض فقرات الكتاب المؤرخون التالون لابن بسام، كابن الأبار، وابن عِذارى، وابن الخطيب. إن الفقراتِ التاريخيةَ في كتاب ابن بسام الشنتريني الموسوعي الذي أرّخ فيه للأدب

الأندلسي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي مقتبسةٌ في معظمها من كتاب (المتين) لابن حيان. يقول ابنُ بسام: «واعتمدتُ المائةَ الخامسةَ من الهجرة، فشرحتُ بعضَ محنها... وأحصيتُ عللَ استيلاء طوائف الروم علَى هذا الإقليم [الأندلس]... وعوَّلتُ في معظم ذلك علَى تاريخ أبي مروان بن حيان... فإذا أعوزني كلامُه، وعزَّني سردُه ونظامُه، عكفتُ علَى طَللي البائد، وضربتُ في حديدي البارد» (9). ويقول ابنُ بسام في موضع آخرَ من (الذخيرة) إنه يلخِّص أخبارَ ملوك الجزيرة اعتماداً علَى ابن حيان «لأني إذا وجدتُ من كلامه فصلاً قد أحكمَه أو خبراً قد سرده ونظمه، عوَّلتُ علَى ما وصف... إقراراً بالفَرْقِ، وإعفاء لنفسي من معارضة من أحرز بأفقنا في وقته قصَبات السَّبْق...» (10).

وقبل تصنيف (المتين)، كان ابنُ حيان قد ألَّف كتاب (المقتبَس) في عشرة أجزاء أو أسفار وهو ـ كما يُستدل من عنوانه ـ اقتباساتٌ عن مؤرخين سابقين لابن حيان لم تصلنا كتُبهم. ويؤرخ ابنُ حيان في (المقتبَس) للأندلس من الفتح العربي إلَى نهاية الدولة العامرية. وتتخلَّل الكتابَ فقراتٌ من إنشاء ابن حيان نفسه يُبدي فيها رأيه الصريحَ في الأمراء الذين يتحدث عنهم.

وتتميَّز كتاباتُ ابن حيان بالتفصيل والدقة، كما تتميَّز بالصدق والصراحة والجرأة في القول، وبعصبيته لقوميته الأندلسية، وميوله لبني أمية، وتمجيده لأيام الجماعة أو الخلافة بقرطبة، ونفوره الشديدِ من ملوك الطوائف لما جنَوْه علَى الأندلس من فُرْقةٍ وتمزّقٍ مما أطمع الرومَ بها (11).

ويُعتبر ابنُ حيان في طليعة المؤرخين العرب من حيث البيانُ وبلاغةُ الأسلوب، والتقصّي والمجاهرةُ في الرأي، والتحليلُ والتعليلُ للأحداث. وعليه اعتمد مؤرخو الأندلس من بعده إلَى يومنا هذا. ولو قُدِّر لكتاب (المقتبَس) ـ بجميع أجزائه ـ وكتابُ (المتين) الوصولُ إلينا كاملَيْن لتوفرت لدينا معلوماتٌ وافيةٌ عن تاريخ

(9) ابن بسام الشنتريني. 1/1. ص 17 ـ 18.
(10) نفسه. 2/1. ص 35.
(11) مكي. محمود علي: مقدمة (المقتبس). الجزء الثاني. تحقيق مكي. القاهرة 1971. ص 86 ـ 88.

الأندلس من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، أي لفترة مداها ثلاثةُ قرونٍ ونصفُ القرن.

وقد أثنَى المؤرخون القدامى والمحدثون علَى تاريخ ابن حيان. فابن حزم الأندلسي في رسالته عن فضل أهل الأندلس وذكر رجالها يقول إن التاريخَ الكبيرَ في أخبار أهل الأندلس لأبي مروان بن حيان «من أجلِّ كتابٍ أُلِّف في هذا المعنَى» [12] . وفي الترجمة التي عقدها الحُمْيْدي لابن حيان يقول إن ابنَ حيان «له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد» [13] . ويسمِّيه ابنُ بشكوال «صاحبَ لواء التاريخ. أفصحَ الناس فيه وأحسنَهم نظماً له» [14] . أما ابنُ الأبار فيسمِّيه «جهينةَ أخبار المروانية» [15] .

والمستشرقُ الهولنديُّ المعروف ، ذو الفضل الكبير علَى الدراسات الأندلسية ورائدُها ، شديدُ الإعجاب بابن حيان مؤرخاً وأديباً ، فهو يقول : «إن كتّاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيان صدقَ الرواية بقدر ما يُعجبون بجمال أسلوبه ، وجزالة لغته ، وزين عباراته. وأنا اؤيدهم في ذلك كلَّ التأييد. ولا أتردد في القول بأن كتبه ـ لو بقيت ـ لألْقت علَى تاريخ الأندلس الغامض ضياءً باهراً وصوَّرتْه لنا أحسنَ تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغاً يجعلنا نستغني بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخَ هذه العصور... إنه ليسوق التاريخَ مساق من يُبْدي رأيه وحكمَه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء... ولا نجد من بين مؤرخي العرب إلاّ القليلين ممَّن نستطيع أن نقارنَهم به ، ولن نجد من نقدِّمه عليه» [16] .

---

(12) ابن حزم الأندلسي ، علي : رسائل ابن حزم. الجزء الثاني. تحقيق إحسان عباس. بيروت 1981 . ص 184 .

(13) الحُميدي ، محمد : جذوة المقتبس. القاهرة 1952 . ص 188 . ترجمة رقم 397 .

(14) ابن بشكوال ، خلف : كتاب الصلة. القاهرة 1955 ، ص 150 . ترحمة رقم 345 .

(15) ابن الأبار ، محمد : الحلّة السِّيراء. القاهرة 1963 ، 1/ص 210 .

(16) بالنثيا ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. القاهرة 1955 . ص 211 .

كتـــاب (المقتبَـــس) :

يؤرخ ابنُ حيان في (المقتبَس) ـ كما أسلفنا ـ للأندلس من الفتح العربي إلَى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. والكتاب في معظمه عملٌ غيرُ أصيلٍ لابن حيان، إذ فيه يقتبس عمّن سبقه من مؤرخي الأندلس، كأبي بكر بن القوطية، وأحمد بن محمد الرازي، والخشني، وابن الفرضي، وعريب بن سعد، وصاعد البغدادي، وابن عبد ربه. ومع أن (المقتبَس) لا يشتمل إلاّ علَى القليل من كتابة ابن حيان نفسه، إلاّ أنه يدل علَى مجهود وعلم كبيريْن، وأخباره التاريخية كثيراً ما نجدها في الذروة : لا يُبدي تحيُّزاً، وهو معتدلٌ في آرائه، ذو نظر ثاقب، ومقدرة علَى وصف الأشخاص وتقييمهم [17].

ولم يُعثر الى الآن الا على اربعة اجزاء من مجمـل اجزاء « المقتبس » العشرة، وقـد تمّ نشرُ الأجـزاء الأربعة وهى : الجـزء الثانى، ويتنـاول الفـترة 232 ـ 267 هـ، والجزء التالث، ويتناول الفترة 275 ـ 298 والجزء الخامس، ويتناول الفترة 299 ـ 330 والجزء السابع ويتناول الفترة 360 ـ 364 هـــ .

وفضـلا عن ذكر اخبـار الاندلسٍ يبقى (المقتبس) ـ وبـدقة ـ عـلى بعض اخبـار اسبانيا المسيحية مما جعل باحثا حديثاً يقرر بـان « ابن حيان ينبغى ان يجعـل فى طليعة من يرجع اليهم عند الحديث عن تاريخ اسبـانيا المسيحيـة حتى اواخر القـرن العاشر الميلادى [18] . ولعل ابن حيان كان يعرف عجمية مستعـربى الأندلس، او انـه استمد اخبـاره من المستعربـين بقرطبـة، وكانـوا على اتصـال باخـوانهم فى الـدين فى شـمال اسبانيا .

يتوخَّى ابنُ حيان الدقّةَ في تحديد التاريخ الهجري، فيذكر اليومَ والشهرَ من السنة الهجرية، وما يقابل ذلك بالميلادي، كقوله عن حادثةٍ فلكيةٍ وقعتْ في سنة 320 هـ بأنها كانت «ليلةَ السبت لثمان بقين من المحرم سنة 320، وهي ليلةُ ستّ

---

(17) Goldman S., "Ibn Hayyan and His Place in Spanish Moslem Historiography", in tranactions of Glasgow Oriental Society, Vol VII (1934 - 5), p. 3.

(18) محمود علي مكي، ص 80.

عشرةَ خلتْ من أكتوبر الشمسي»[19] .

وابن حيان لا يكتفي بذكر مناقب الأمراء كما فعل مؤرخو البلاط الذين أخذ عنهم في (المقتبس)، بل يضيف إلى ذلك من عنده بابا في الذم، حيث يقتضي الأمر ذلك . فعند ذكر الأمير الأموي عبد الله بن محمد، يتحدث ابن حيان عن هوان الدماء عليه، حتّى من ولديه وإخوته، كما يشير إلى شدّة بخله[20] .

ويخصِّص ابنُ حيان أكثرَ من ثلثيْ الجزء الثالث من كتاب (المقتبَس) لأخبار الثائرين والمنتزين علَى الإمارة بقرطبة ـ وعلَى رأسهم عمرُ بن حفصون ـ ويحمل عليهم بشدة، لما كان في قيامهم علَى الإمارة من تصديع وحدة الأندلس وجماعتها[21] .

وفي الجزء الخامس ـ وهو في معظمه يتناول السنواتِ الثلاثين الأولَى من إمارة الناصر ـ يُسهب ابنُ حيان في الحديث عن التدابير التي اتخذها الناصرُ للقضاء علَى ثورات عمر بن حفصون وأبنائه من بعده، وكيف تمكّن الناصرُ من القضاء عليها بالمداراة والحزم معا، ثم ما اتخذه الناصرُ من تدابيرَ لمطاردة أهل البِدَع المخالفة للسنّة، ومن بينهم أصحابُ ابن مسرّة ومع إعجاب ابن حيان بالناصر، فإنه لا يتوانَى عن ذكر معايبه، كانهماكه في المعاصي، واستهتاره باللذات، وتغليظ العقوبات، وتهوينه الدماء وتعليق أبناء السودان في ناعورة قصره، ويذكر من جملة وسائل تعذيبه الأسودَ الفتّاكةَ التي أتَى بها خصّيصا من بر العُدوة[22] .

وابن حيان ـ بالرغم من معاداته لجماعتيْ صنهاجة وزناتة اللتين قدمتا إلَى الأندلس في القرن الرابع الهجري بقصد المشاركة في الجهاد أيام الناصر والمستنصر، وفي عهد بني عامر لدوْرهما في شب نار الفتنة في مطلع القرن الخامس الهجري ـ ينشر كتاباً بعث به الناصرُ إلَى الأمير الزناتي موسَى بن أبي العافية، فيه تقريظٌ لزناتة، جاء

---

(19) ابن حيان : المقتبَس، الجزء الخامس. تحقيق ب، شالميتا ورميله. مدريد 1979، ص 473.
(20) ابن حيان : المقتبَس، الجزء الثالث. تحقيق الأب ملشوروم. أنطونية، باريس 1937، ص 39
(21) المصدر السابق. ص 50 ـ 147.
(22) ابن حيان : المقتبس. 5/ص 37 ـ 40.

فيه قوله : «ولكم في الديانة بصائرُ قوية ... ولم تكونوا لأهل البِدَع سراعا ... المشهورةُ في الحرب ملاحمكم ، لم تزالوا مجاهدين في سبيل الله حقَّ جهاده» [23] .
ويذكر الناصرُ في كتابه الخليفةَ العُبيْديَّ الفاطميَّ عبيْدَ الله المهدي ، ويدعو زناتة إلَى وحدة الصف في قتاله فيقول : «... وأن تجعلوا جدَّكم وبأسكم في جهاد عدوّكم هذا الذي قاتلكم وناصبكم ، وأراد تبديلَ كلمتكم وتفريقَ جماعتكم وإدخالَ الشبهات علَى إسلامكم ... فمرة يتألَّه عند الجماعة ممَّن ركن إليه ، وتارةً يتنبَّأ ، وتارة يتسمَّى بما لم يره اللهُ له أهلاً ... كيف وهو الساقط الدعيّ ... والزنيمُ اليهودي» [24].

وفي الجزء الخامس من (المقتبس) معلوماتٌ مهمّةٌ عن قيام الناصر بتعزيز الأسطول وإنشاء دور صناعة السفن. وبفضل الأسطول ، استولَى الناصرُ علَى فُرضتيْ المجاز سبتة وطنجة ، مما مكَّنه من تقديم العون لحلفائه الزناتيين ، إذ أخذ في مدِّهم بالرماة والسفن لصدّ الغارات المتكررة التي كان يشنُّها عليهم العُبيْديون وحلفاؤهم من صنهاجة [25] .

وقد قلَّد الناصرُ عدداً من رجالات أهل الذمة مناصبَ رفيعةً ، وكان يوفدهم في سفارات إلَى ملوك النصارى. ولم يعترض ابنُ حيان علَى ذلك مما يدل علَى روح التسامح التي كان ينظر بها إلَى الأمور. فقد أوفد الناصرُ طبيبَه اليهوديَّ حسداي ابنَ إسحاق (ابن شبروط) سفيراً إلَى صاحب جليقية وإلَى صاحب برشلونة ، كما أوفد سفارةً من أساقفة أهل الذمة في مهمة إلَى صاحب جليقية [26] .

وعن المبادلات التجارية بين الأندلس وبين الإمارات المسيحية بجنوب إيطاليا ، يذكر ابنُ حيان ضمن أحداث سنة 330 هـ/942 م نبأ وصول تجار مدينة مَلْف

---

(23) المصدر السابق. ص 327.
(24) المصدر السابق ص 7 ـ 328.
(25) المصدر السابق ص 289. 329.
(26) المصدر السابق ص 466. 4 ـ 455

Amalfi بجنوب إيطاليا «بضروبٍ من تجاراتهم النفيسة من سبائك الفضة الخالصة والديباج» ، برفقة رسول صاحب سردانية الذي جاء «يطلب الصلحَ والألفة» [27] .

وفى الجزء السابع من كتاب (المقتبس) وفيه يتناول ابن حيان بالتفصيل احداث اربع سنوات من خلافة الحكم المستنصر (360 ـ 364 هـ / 970 ـ 974 م) يركز المؤرخ على السفارات التى كانت تفد الى بلاط الخليفة من ملوك النصارى ، كما يسبب فى وصف المواكب والمراسم فى الأعياد . كما يتطرق ابن حيان فى هذا الجزء الى استدعاء المستنصر بنى برزال الزناتيين من اقليم مسيلة بجنوب شرق الجزائر للجهاد فى الاندلس ، بعد ان كان يعارض فى قدومهم ، وبالرغم من كونهم على خلاف مذهب اهل السُنة ، ويعقب بقوله : « فكان ذلك من بعده سبباً لتقدمهم طوائف الجند الاندلسى ، وهدمهم للملك العامرى ، والقاحهم للفتنة البربرية الحالقة » [28] .

كان الحكَمُ المستنصرُ من المعجبين بفروسية زناتة ، فكان «يتطلّع علَى فرسان البرابر إذا تحركوا للّعب ، شاخصاً إليهم معجباً بهم يقول لمن حوله : انظروا إلَى انطباع هؤلاء القوم علَى خيولهم... ما أعجب انقيادَها لهم ، كأنها تفهم كلامَهم » [29] .

ولما كانَ ابنُ حيان يعتبر هؤلاء القومَ سبباً في الفتنة بالأندلس ، وهي الفتنة الّتي أطاحت بخلافة قرطبة ، وأفْضَتْ إلَى قيام ممالك الطوائف ، فإنه يعقِّب علَى ذلك بقوله : «وذلك كلُّه من تهيئة المقدار المقضي من الله بهم عباده ما قدّر جريه علَى أيديهم لما اجتباهم الخليفة الحكم ـ رحمه الله ـ لولده المرشح لمكانه ... » . واستمر الحالُ علَى ذلك في عهد ابن أبي عامر «فعلاهم علَى طبقات أجناده ، واصطفاهم لنفسه ، واعتَدَوْا بعده علَى الخليفة في معنَى الامتعاض منهم ، لعدوانهم علَى ولده اعتداءً أصارهم إلَى ما هم الآن بصدده من إبطال الخلافة وتفريقِ الجماعة ، والتمهيدِ للفتنة ، والإشراف بالجزيرة علَى الهلكة » [30] .

---

(27) ابن حيان : المقتبس . 5/ص 478 . 485 .
(28) ابن حيان . المقتبس . 7/ص 189 .
(29) المصدر السابق . 7/ص 193 .
(30) المصدر السابق والصفحة .

كتـــاب (المتيـــن) :

إن كتابَ (المتين) ـ التاريخ الكبير ـ هو عملُ ابن حيان الأصيل ومن إنشائه. وفيه يتناول تاريخَ الفتنة وممالك الطوائف من نهاية الدولة العامرية (399 هـ/1009 م) إلَى عام 463 هـ/1071 م، أي إلَى قبيل وفاته.

لم يَبرحْ ابنُ حيان قرطبة وقت الفتنة، وعكف علَى جمع مادة تاريخه اعتماداً علَى ما شهده بنفسه، ودوَّنه في مذكراته، واستمدَّه من مكاتبيه ومراسليه في أنحاء الأندلس، وهو يذكر أسماءهم أحيانا. وكما تقدَّم، فإن كتابَ (المتين) ـ وهو في ستين مجلدا ـ لم يصلْنا إلاّ في مقتطفات ونتف احتفظ بها ابنُ بسام الشنتريني في كتاب (الذخيرة).

وأسلوبُ (المتين) أسلوبٌ أدبيٌّ بليغ، وبخاصة حينما يأتي ابن حيان علَى ذكر حدَثٍ مؤثرٍ له وقعه في نفسه، كأخبار الفتنة وملوك الطوائف وكائنة بربشتر، وعند حديثه عن البذخ وتفشي المظالم والفساد الإداري، وتقاعس ملوك الطوائف عن التصدّي للنصارى.

في مقدمة (المتين) يأتي ابنُ حيان علَى ذكر بداية فكرة تأليف الكتاب والدوافع لذلك، وأهليتِه للكتابة، وحرصِه علَى توخّي النزاهة والصدق في الحكم علَى الأحداث وصانعيها، كما يذكر مصادرَه ويحدِّد الفترةَ التي يؤرخ لها. يقول ابنُ حيان في مقدمة الكتاب: «فإني امروءٌ يُسِّرتُ لطلب هذا الخبر... فشُغلت به دهرا... أقصُّ أنباءهُ وأضرب أمثاله، وأحصي وقائعه وأحترز مواعظه. وأنسأتْني المدةُ إلَى أن لحقتْ بيدي منبعثَ هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمّة، المفرِّقةِ للجماعة، الهادمةِ للمملكة المؤثلة، المُغربة الشأو علَى جميع ما مضَى من الفتن الإسلامية، ففاضتْ أهوالُها تعاظماً أدهلني عن تقييدها، ووهَّمني ألاّ مخلصَ منها، فعطَّلتُ التاريخَ إلَى أن خلا صدرٌ منها، نفَّس الخناقَ وبلَّل الرماق، فاستأنفتُ من يومئذ تقييدَ ما استقبلته من أحداثها. فأنعمتُ البحث عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا. فلم أظفر منه إلاّ بما لا قَدْرَ له، لزهد مَنْ قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن. ونفيهم له عن أنواع العلم. وانثنيتُ خائبا خجلا ألوم نفسي علَى التقصير وأحدوها بالأمل. وأعذر من قال: هممتُ ولم أفعل. وشرعت في التقييد، غِبَّ ذلك

التنفيذ . عير محن به . ووصلتُ القولَ فيما فاتني قبلُ من ذكر انبعاث تلك الفتنة وأخبار ملوكها ، ومشهور جروبها . مما أصبتُ به عندي تذكرة . أو أخذته عن ثقة . أو وصلتْني به مشاهدة . أو حاشته إليَّ مذاكرة . حتّى نظمتُ أخبارها إلَى وقتي مكمَّلةً ... غيرَ محابٍ ولا حائف في الصدق عليها . سالكاً سبيل من ائتسيت به من مستأخري أصحاب التاريخ بالمشرق ... ونظائرهم من أعلام الفقهاء الذين لحقوا الفتنةَ الحادثة عندهم بالمشرق بعد الثلاثمائة . من تصريحهم بأخبار أمرائهم المتوثبين علَى المملكة عند وهن متقلّدي الخلافة فيهم ... فركبتُ سَنَنَ من تقدَّمني فيما جمعته من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ... وأوعيتُ فيه ذكرَ دولهم المضطربة بسياساتهم المنفّرة . وأسباب تكار الأمراء المنتزين في البلاد عليهم . وسببِ انتقاض دولهم . حالٍ فحالٍ بأيديهم ، ومشهورِ سيرتهم وأخبارهم . وما جرى في مُددهم وأعصارهم ، من الحروب والطوائل . والوقائعِ والملاحم . إلَى ذكر مَقاتل الأعلام والفرسان ، ووفاة العلماء والأشراف . حسب ما انتهتْ إليه معرفتي . ونالته طاقتي » (31) .

شهد عصرُ ابن حيان تغييراتٍ سياسيةً كبرى في الأندلس ـ ذروة الدولة العامرية ، ثم قيام الفتنة ، وظهور ممالك الطوائف . إن المؤرخَ شهد الأندلس وقد أوهنتْها الخصوماتُ العرقية ، والمنازعاتُ بين ملوك الطوائف ، مما جعلها لقمةً سائغةً للنصارى المتربصين بها في الشمال . وكان لهذه الأحداث السياسية وقع كبير علَى ابن حيان ومعاصره ابن حزم القرطبي . ولعلَّهما أولُ مؤرخيْن حقيقيَّين للأندلس . إذ لم يكتفيا بتسجيل الأحداث والوقائع ، بل حاولا تقصِّيَ وفهمَ أسباب الكوارث التي حلَّت بالأندلس علَى عهدها (32) .

ولما كان (المتين) يقوم على البحث والتحرى الشخصَّيين ، فان الرواية لا يُخـلُّ بها التكـرار والازدواجية . ان كتـاب (المتين) تـاريخ يحـاول فيه صـاحبه فهم اسبـاب الأحداث ودوافع ممثليها والظروف التى كانت تتحكم فيها . والصور التى يرسمها ابن

(31) ابن بسام الشنتريني. 2/1 ، ص 576 ـ 578 .
(32) Goldman, p 2

حيان صور حيَّة وممتعة لا محاباة فيها ، وفيها عمق . انها قبل كل شيء صورٌ فرديةٌ سواءً اكان ابنُ حيان يصف اميراً او مغنية ، بخلاف الأوصاف المعهـودة لكثير من المؤرخـين المسلمين [33] .

كان ابنُ حيان ـ كصديقه ومعاصره ابن حزم ـ من أشد أنصار خلافة قرطبة الأموية التي كانت تمثِّل في عهد الناصر وحدةَ الأندلس ومُنعتَها . ومن هنا جاء نفورُه الشديدُ من ملوك الطوائفَ الذينَ شهدت البلادُ علَى عهدهم التجزئةَ والمنازعاتِ مما أوهنَها وأطمع فيها أعداءها المتربصين بها في الشمال . ينقل ابنُ حيان عن ابن مامة النصراني ، صاحبِ العسكر الذي كان مع الخليفة سليمان بن الحكم ، قولَه في أهل قرطبة : «كنا نظن أن الدينَ والشجاعة والحقَّ عند أهل قرطبة . فإذا القوم لا دينَ لهم ولا شجاعةَ فيهم ولا عقولَ معهم . وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم . فلما ذهبوا انكشف أمرُهم ... فليس في القوم عقلٌ ولا شجاعةٌ ولا دين» [34] .

أ ـ أيـام الجماعـة :

يؤكد ابنُ حيان في (المتين) علَى تعلّقه بما يسمِّيه بأيام الجماعة ، أي أيامِ وحدة الأندلس ، ومنعتها وازدهارها واستقرارها ، علَى عهد الناصر وابنه المستنصر ، وفي فترة الدولة العامرية . ولذلك فإنه يحمل بشدة علَى كل من عمل علَى تجزئة الأندلس وتفتيت وحدتها ، سواء أكان هؤلاء جماعاتٍ من زناتة وصنهاجة وفدتْ علَى الأندلس من المغرب منذ أيام الناصر ، أو كانوا ملوكَ الطوائف . فهو يحمل علَى صاحب قرمونة محمدِ بن عبد الله البرزيلي الزناتي «لفرط شروده عن الجماعة . وإنما كان مذهبُه طمسَ رسمِ الخلافة من معانها بقرطبة ... وطردَ قريشٍ عن سلطانها ، إبطالاً للإمامة ورسوخاً في الخارجية» [35] . وكان الحكمُ المستنصرُ والمنصور قد

---

(33) المرجع السابق. ص 3 ـ 4.
(34) ابن عذاري المراكشي. 3/ص 89 ـ 90.
(35) ابن بسام الشنتريني. 2/1، ص 21.

استدعيا بني برزال الزناتيين من المغرب الأوسط للجهاد في الأندلس في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي «فأصارهم اللهُ إلَى ما هم الآن بصدده من إبطال الخلافة، وتفريقِ الجماعة، والتمهيد للفتنة. والإشراف بالجزيرة علَى الهلكة»(36).

ويحمل ابنُ حيان علَى صاحب طليطلة اسماعيلِ بن ذي النون، ويصفه بأنه «أولُ الثوار لمفارقة الجماعة... وهو كان فَرطَ الملوك في إيثار الفُرقة. فاقتدى به مَنْ بعده». ولما نوظر ابنُ ذي النون هذا في شأن التأمير لبني أمية، ذُكر عنه ـ كما تقدَّم ـ قولُه: «والله لو نازعني سلطاني هذا الصدِّيقُ لقاتلتُه ولما سلَّمتُ له. فكيف أسلِّم سلطاني لمن يُدعَى له من بني أمية؟ توارثوا هذه الإمارة مخرقة وضعها قريش لاستعمال الناس. أحقُّهم بالمُلْك من استقلَّ به. والله ما أولِّي غيرَ نفسي»(37).

إن ابن حيان يرى الجماعةَ الأندلسيةَ وعلَى رأسها إمامٌ أو خليفةٌ من قريش، وهو غيورٌ علَى المسلمين ووحدتهم. فعند الحديث عن هشام المزعوم، الذي نصَّبه القاضي أبو القاسم محمدُ بن عباد خليفةً في اشبيلية عام 426 هـ، يقول ابنُ خيان ـ وكان يشكِّك في حقيقة الرجل ـ «فما نقول... غيرَ إخلاص الدعاءِ لكلمة المسلمين في الائتلاف، لما فيه الصلاح»(38).

كان ابنُ حيان ضد تعدد الخلافات ـ كما كانت الحال في العالم الإسلامي منذ مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ـ وكان يمقت العبيْديين الفاطميين وخلفاءهم، ويؤيد خلافةَ الناصر في قرطبة. وهو يرى في الأمويين امتداداً لخلافة الراشدين، ويقول إن دولةَ الجَماعة لم تعُدْ إلَى الأندلس إلاّ بقيام عبد الرحمن الناصر، وقضائه علَى المنتزين وتوحيده البلاد، ومحاربته أهلَ البِدَعْ ووقوفِه في وجه العبيْديين وتوسعِهم في المغرب. ويُفيض ابنُ حيان في حديثه عن سياسة الناصر تُجاه

---

(36) ابن حيان: المقتبس. 7/ص 193.
(37) ابن بسام الشنتريني. 1/4، ص 3 ـ 144
(38) المصدر السابق. 1/2، ص 38.

بر العدوة وتحالفه مع زعيمي زناتة محمد ابن خزر وموسى بن أبي العافية ، وتأييده هم ضد العبيديين وأنصارهم من صنهاجة . وكما يقول باحث حديث فإن ميولَ ابن حيان الأموية لم تكن «لسببٍ شخصيٍّ أو منفعي . ففي عهده تبرَّأ الكثيرون من الأسرة الزائلة... إن هذا الموقفَ من ابن حيان دليلٌ جديدٌ علَى نزاهته وجرأته في الحق» [39] .

وابنُ حيان شديدُ التعصّب لقوميته الأندلسية والاعتدادِ بها ، مثَلُه في ذلك مثَلُ الكثيرين من أعلام الأندلس ، كابن حزم وابن بسام الشنتريني . ويرى أحدُ الباحثين المُحدثين «أن اهتمامَ العالمِ والأديب بأمر وطنه وتاريخه لا يَعْني عصبيةً بقدر ما يعني لوناً من الحماس الذي لا تَثريبَ عليه» [40] .

ب ـ ملـوك الطوائـف :

يحمل ابن حيان على معظم ملوك الطوائف فى عهده لقضائهم على وحـدة الاندلس ومنعتها ، ولتخاذلهم عن نصرة المسلمين فى محنتهم . وخير مثال على ذلـك وصفه المؤثـر لمحنة مدينة بريشتر بالثغر الاعلى ـــ مـابين لاردة وسرسقـطة ـ عند تعـرضها لعـدوان وحشي من قبـل الصليبيين النـورمان (الأردمـانيـين) عـام 456 هـــ / 1064 م . وكانت بريشتر قبل نكبتها قد « رسخ فيها الايمـان وتدورس بهـا القرآن » [41] . فقـد وصل الى قرطبة نبأ كائنة بريشتر ومـا حل بـأهلها « فصـك الأسماع وأطـار الافئدة ، وزلزل الارض الاندلسية قاطبة » [42] . وكان الناس ينتظرون من ملوك الـطوائف ان يهبوا لنجدة المدينة المنكوبة . الا ان شيئا من ذلك لم يحدث . وهنا يحمل ابن حيان على من ينعتهم بأمراء الفـرقة الهمـل ، والفقهاء ، لخـذلانهم وتقصيرهم . اذ بـدلا من نجدة المدينة المنكوبة ، بادر امراء الطوائف الى اتخاذ التدابير الدفاعية كحفر الخنـادق وتعلية الأسوار . لقد حاصر النورمان مدينة بريشتر اربعين يوما دون ان يحرك اميرهـا يوسف بن سليمـان بن هود سـاكناً ، « أسلمهم .. لخـطبهم . ووكلهم الى انفسهم . وقعـد عن

(39) محمود علي مكي . ص 94 .

(40) الشكعة . مصطفى : «أبو مروان بن حيان بين الأدب الإبداعي وأدب كتابة التاريخ» مجلة (المناهل) . العدد 29 . السنة 11 . الرباط 1984 . ص 7 ـ 158

(41) ابن بسام الشنتريني . 1/3 . ص 180 .

(42) المصدر السابق والصفحة

النفير نحوهم .. وكان الخطبَ فى هذه النازلة اعظم من ان يوصف او يتقصى »[43]

ويمضي ابن حيان إلَى الحديث عما دها أهلَ الأندلس بسبب داء التقاطع بين أمراء المسلمين، الذين سادهم «الجهل، واقتطعهم الزَّيْف، وأركستهم الذنوب. ووصمتْهم العيوب... شاءٌ من الناس هامل. يعلِّلون نفوسَهم بالباطل»[44]. لقد غفلوا عن سدّ الثغور. ولذلك فإن عدوَّهم «الساعيَ لإطفاء نورهم يتبحبح عراصَ ديارهم... يقطع كلَّ يوم طرفاً منهم ويُبيد أمةً، ومَنْ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموتٌ عن ذكرهم... ما ان يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكِّرٌ بهم أو داعٍ لهم، فضلا عن نافرٍ إليهم أو مواسٍ لهم، حتّى كأنْ ليسوا منا. أو كأنَّ فتقَهم ليس بمفضٍ إلينا»[45].

إن نقمةَ ابن حيان علَى ملوك الطوائف تتمثل في حملته ـ كما أسلفنا ـ علَى صاحب طليطلة اسماعيل بن ذِي النون، الذي كان الخليفةُ سليمان بن الحكم قد أحسن إليه، فأنعم عليه بالوزارة، وسمَّاه ناصرَ الدولة. ومع ذلك، فإن ابنَ ذي النون هذا «استقلَّ ذلك كلَّه وآثر الفُرقة... فاقتدى به من بعده... فصار جرثومةَ النفاق وأولَ من استنَّ سُنَّةَ العصيان والشقاق، ومنه تفجَّر ينبوعُ الفتن والمحن»[46]

إن التمزّقَ السياسيَّ الذي ابتُليتْ به الأندلس بعد الفتنة امتدَّ كذلك إلَى المغرب، حيث استقلَّ في سبتة سقوت البرغواطي، الذي حدث نزاعٍ بينه وبين صاحب اشبيلية المعتضد ابن عباد سنة 457 هـ. وهكذا فإن ما حلَّ بالأندلس تجاوزها إلَى العُدوة المغربية. وفي ذلك يقول ابنُ حيان: «وهذه نادرة من طَخْيات هذه الفتنة المبيرة، أن تخطَّت من هذه الجزيرة إلَى ما وراء بحرها الزقاقي، الذي كان منه دخولُ العرب أيام فتحهم لهذا الصقع»[47].

---

(43) المصدر السابق. ص 181، 183.
(44) المصدر السابق. ص 189.
(45) المصدر السابق والصفحة.
(46) المصدر السابق. 1/4، ص 143.
(47) المصدر السابق. 2/2، ص 658.

ج ـ البرابـــرة :

يحمِّل ابنُ حيان جماعاتِ زناتة وصنهاجة التي وفدتْ حديثاً إلَى الأندلس منذ أيام الناصر تبعةَ الفتنة التي شبَّتْ في الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري، ولذلك فإنه يسمِّي هذه الفتنةَ بالفتنة البربرية (48) . وكان ابنُ حيان في (المقتبَس) قد تتبَّع وصولَ هذه الجماعات المغربية ، ولاحظ اختلافَها عن الأندلسيين حضارةً ونحلةً . فبعد أخْذ مدينة سبتة من قِبَل الناصر سنة 931/319 م ، ذكر ابن حيان ـ نقلاً عن ابن مسعود صاحب (الأنيق) ـ أن البربر «استلانوا عمّا قليل غرائزَ أهل الأندلس . وحسدوهم ما ألْفَوْهم عليه من حسن الحال . فلم يلبثوا أن توثّبوا عليهم آخر أمر الدولة بيد المقدار وثبةً تركتهم أوزاعاً وسلبتْهم العزَّ والسلطان» (49) . إلاّ أن نقمة ابن حيان علَى هذه الجماعات ، لم تكن لسببٍ عرقيٍّ أو عنصري . فإنه في كتاباته يُبدي إعجابَه ببسالتها وكفاءتها القتالية . وكان بودّه أن يكون بأسُها هذا منصباً علَى أعداء المسلمين من النصارى . وهو يندِّد بأهل قرطبة لرفضهم كلَّ صلحٍ مع البربر ، وللجاجتهم في ذلك مع العجز والضعف.

وفي فقرة مشهورة ، يتحدث ابنُ حيان عن بأس هؤلاء المغاربة وشدّتهم في الحروب ، وعن الحاجة إليهم للحماية ، فيقول متحدّثاً عن فترة الفتنة بالأندلس : «فكان في كل بلد جملةٌ منها سالتْ عن أهل البلاد سيول بها ، وخلطوا الشرَّ بين رؤسائها... فطال العجَبُ عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليكَ قليلٍ عددُهم . منقطعٍ مددُهم . اقتسموا قواعدَ الأرض في وقتٍ معا . مضرِّبين بين ملوكها . راتعين في كلأها . باقرين عن فلذتها . حلُّوا محلَّ الملح في الطعام بيأسهم الشديد. وقاموا مقامَ الفولاذ في الحديد. فلا يُقتل الأعداءُ إلاّ ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم . فطائفةٌ عند ابن الأفطس تقاوم أصحابَها قِبلَ ابنِ عباد . وطائفةٌ عندنا بقرطبة تحيِّز أهلُها عن

---

(48) يرى الباحث المغربي عبد القادر زمامة أن ابن حيان يخطىء إذ يسميها «الفتنة البربرية» . إذ إنها كانت أساسا بين العامريين والأمويين . وتولى إيقاد نيرانها أهلِ قرطبة . واستنجد الفريقان المتصارعان بالنصارى وبفرق البربر التي شكلها ابن أبي عامر. فالفتنة علَى ذلك فتنة قرطبية ـ عبد القادر زمامة : «ابن حيان وأهل العدوة» . مجلة (المناهل) . الرباط 1984 . العدد 29 . السنة 11 . ص 5 ـ 436

(49) ابن حيان : المقتبس . 5/ص 299 ـ 300 .

الأضداد. فسبحان الذي أظهرهم ومكّن في الأرض لهم إلى وقت وميعاد »[50] .

وعن نبأ موت زاوى بن زيرى زعيم صنهاجة بعد خروجه من غرناطة عائدا الى القيروان يقول ابن حيان : « ونعى الينا عدوٌ نفسه زاوى بن زيرى موقد الفتنة بعد الدولة العامرية وورد النبأ الينا فى القيروان وطنه .. مهلكه كان ــ زعموا ــ من طاعونةٍ اصابته . فالحمد لله المنفرد باهلاكه ، الكفيل بقصاصه ، فلقد كان فى الظلم والجورْ والاستحلال للمحارم والقسوة آيةً من آيات الله . اهان الله مثواه . ولا قدّس صداه »[51] .

د ـ الفقهـــاء :

يسيء ابنُ حيان الظنَّ بالفقهاء في عهده ، ويتهمهم بالتواطؤ مع الأمراء ، والسكوت عن سوء أعمالهم ، ويَخْلصُ إلَى القول بأنه «لم تَزَلْ آفةُ الناس منذ خُلقوا في صنفيْن منهم ، وهم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلَّما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يَصْلحون ، وبفسادهم يُرْدَوْن. فقد خصَّ اللهُ تعالَى هذا القرنَ الذي نحن فيه من إعوجاجِ صنفيْهم لدينا هذين ، بما لا كفايةَ له ولا مَخْلص منه. فالأمراء القاسطون قد نكَّبوا بهم عن نهج الطريق . ذيادا عن الجماعة ، وحَوْشاً إلَى الفُرقة . والفقهاء أئمَّتهُم صموتٌ عنهم ، صدوفٌ عما أكَّد اللهُ عليهم في التبيين لهم . قد أصبحوا بين آكلٍ من حلوائهم . خائضٍ في أهوائهم . وبين مستشعرٍ مخافتَهم ، آخذٍ بالتقَّية في صدقهم . وأولئك هم الأقلُّون فيهم . فما القولُ في أرضٍ فسد ملحُها الذي هو المُصلح لجميع أغذيتها؟ »[52] .

ويتحدث ابنُ حيان عن وجهٍ آخرَ من وجوه فساد الفقهاء في زمانه ، إذ عند دخول هشام آخر خلفاء بني أمية قرطبة «زاد في رزق مشيخة الشورى من مال العين. ففرض لكل واحد 15 ديناراً مشاهرة. فقبلوا ذلك علَى خبث أصله.

---

(50) ابن بسام الشنتريني. 1/2 . ص 21.

(51) المصدر السابق 2/1 . ص 588.

(52) المصدر السابق. 1/3 . ص 180 ـ 181.

وتساهلوا في مأكلٍ لم يستطبّه فقيهَ قبلهم ، على اختلاف السّلَف في قبول جوائز الأمراء ، الذين سبكوا خبائثَ الضرائب والمكوس القبيحة ... وقد حُدِّثتُ أن هشاماً أطعمهم من قمح ولد القاضي ابن ذكوان أيام فرَّ عنه وأخذ ماله ، فقبلوه قبولَ مال الفَيْء. وهذه الأخبار تُكتبُ للغرائب. والفتنة تُنتج العجَب» (53) .

هـ ـ التقاعس عن القتال :

يشكو ابنُ حيان من تقاعس أهل الأندلس عن الجهاد والاستعداد له ، ويسخر من أهل طليطلة لخروجهم لقتالٍ عدوّهم في ثياب الحرير، فهزمهم عدوُّهم النصراني ، وقتلاهم يلبسون الملابس المرفّهة. ولم يعتبروا بما حدث ، «فنبذوا السلاح. وكلفوا بالترقيح. ونافسوا في النشب ، وعطّلوا الجهاد ، وقعدوا فوق الأرائك مقعدَ الجبابرة المتفاتنين بين أهلِ موسطه الأندلس ، ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حِسبَةً. فتبّاً لهم تبّاً» (54) .

ولما حلَّت الكارثةُ بأهل برشتر علَى أيدي الصليبيين النورمان سنة 456 هـ/1064 م ، تطلَّع الناس إلَى مبادرةٍ من ملوك الطوائف لنجدتهم ، «ولقد طما العجبُ من أفعال هؤلاء الأمراء ، إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلاّ الفزعُ إلَى حفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم السوءةَ السوّاء من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليهم. أمور قبيحاتُ الصور ، مؤذنات الصدور بأعجازٍ تُحِلُّ الغِيَر» (55) .

و ـ تفشّي الظلم والفساد :

يتحدث ابنُ حيان عن الصقلّبيين مبارك ومظفر أميري بلنسية وشاطبة ـ بشرق الأندلس ـ فيقول إنهما كانا يستخرجان الجبايةَ من رعيتهما «بالعنف من كل صنف ، حتّى تساقطت الرعيةُ وجلتْ أولا فأولا ، وخربت أقاليمُهم آخرا» (56) . وكان

---

(53) المصدر السابق. 3/1. ص 7 ـ 518.
(54) المصدر السابق. 3/2. ص 850 ـ 851.
(55) المصدر السابق. 3/1. ص 181.
(56) المصدر السابق. 3/1. ص 16

هذان الأميران الصقلبيان يعهدان بجباية الضرائب إلَى شرار العمال «ويستزيدان عليهم [الرعية] في الوظائف [الضرائب] الثقال ... حتّى لغدا كثيرون منهم يلبسون الجلود والحُصَر، ويأكلون البقل والحشيش». فجلت الرعيةُ عن ديارها «فلا يأسف هذان العلجان ومن تلاهما... بل يتخذان ما جلا أهله من تلك القرى ضياعا مستخلصةً [أملاكاً للأمير]... علَى هذا السبيل، سلك أكثرُ الثوار المنتزين علَى أكنافها [الأندلس]، الثائرين بأطرافها، بعد افتراق سلطان الجماعة بقرطبة آخرَ دولة بني عامر»(57).

يأخذ ابنُ بسام الشنتريني علَى ابن حيان تهجُّمَه الشديد علَى الآخرين، وثَلْبَهُ لأعراضهم، مما جعل ابنَ بسام يُحجم عن ذكر أسماء مَنْ حمل عليهم ابنُ حيان ويشير إليهم بفلان. مع أن ابن حيان كان منصفاً وصريحاً في الاتهامات التي وجّهها إليهم. يقول ابن حيان ــ كما ذكر ابنُ بسام ــ «ومضَى فلان ... وكان مصاحباً للظلَمة من أمراء الفتنة. خوَّاضاً في دولهم المدلهمَّة، معيناً علَى مظالمهم الموبقة»(58). وعن سوء أفعال أحدهم ــ ابن باشُه ــ يقول ابنُ حيان: «بيده بادت قصور بني أمية الرّفيعة ... وصار من البديع أن قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة وقت النظر لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة، فاغتدى ابن باشه عليها أعظم آفة، يبيع أشياءَ جليلةَ القدر رفيعةَ القيمة ... ولم يكُ مأمونا علَى باقة بقل ... ولم يزل يُنفق ما غلَّ بمرأى ومسمع في أبواب الباطل ... فلما أذن اللهُ تعالَى بحط أعلامها وطمس آثارها. أتاح لها هذا الأنْيسيانَ الضعيفَ القوي ... كإتاحة الجُرَذ المَهين لسد مأرب ... فدكدكها حتّى عادت كومَ رماد، ومصايد ضِباب، ولم يُقلعْ عنها حتّى أوقع النارَ علَى صخورها، وصيَّرها كِلساً لكلِ مرتاد»(59).

ومن أمثلة استشراء الفساد في فترة الفتنة هذه، يذكر ابنُ حيان رجلاً أثرى من الحرام، فيقول إنه «مع انطلاق يده علَى الأوقاف، وأكل أموال اليتامَى والضعاف،

---

(57) المصدر السابق. 1/3. ص 19 ــ 20.

(58) المصدر السابق. 2/1. ص 599.

(59) المصدر السابق. 2/1. ص 600 ــ 601.

أخذ بأوفر حظٍّ من الفلاحة، وضَرَبَ بأعلَى سهمٍ وأفوز قدَحٍ في التجارة، ثم تجاوزهما. ثانياً عِنانَه إلَي الاستعمال والعمارة... ولا يستكفُّ سحتَ الظلَمة بأفحش القبح كلَّ القبح. كلُّ هذا من داء الفتنة المبيرة. ولا يزال مع ذلك مضاعَ الجار» (60).

ز ـ البذخ والإسراف:

يروي ابن حيان أمثلةً عن البذخ والإسراف في التبذير في عصره، فيقول إن من أهل بلنسية «من قُدِّرتْ نفقتُه علَى منزله مائةَ ألف دينار وأقلَّ منها وفوقَها» (61). ويقول كذلك إنه بلغه «أنه دُخل دارُ رجلٍ من أصحابها [أميريْ بلنسية وشاطبة] يُعرف بمؤمَّل القشتالي. ووقع البصرُ بها من سرْوها واكتمال النعمة فيها علَى ما لم يُشاهَدْ مثلُه قطُّ في قصر الإمارة بالحضرة العظمَى قرطبة» (62).

أما الأميران مبارك ومظفر. فإن جبايتَهما بلغتْ لأول أيامهما إلَى 120 ألف دينار في الشهر ـ سبعون ببلنسية. وخمسون بشاطبة ـ «فانغمسا في النعيم إلَى قمم رؤوسها. وأخلدا إلَى الدَّعة. وسارعا في قضاء اللذة. حتّى أربيا علَى من تقدَّم وتأخر» (63).

وقد أفاض ابنُ حيانٍ في وصف البذخ الذي تميَّز به الإعذارُ الذنوني في الملبس والمأكل والشراب فقال: «احتفل المأمون بن ذِي النون [صاحب طليطلة] في مدعاةِ إعذار حفيده يحَيى... أبيدتْ لمطابخه أُمَمٌ من الأنعام. جُمع فيه بين المشَّاء والطيَّار والعوَّام. وانتُسفت لمخابزه أهراءٌ من الطعام» (64).

(60) المصدر السابق. 1/2. ص 591.
(61) المصدر السابق. 3/1. ص 17.
(62) المصدر السابق. 3/1. ص 18.
(63) المصدر السابق. 3/1. ص 15، 18.
(64) المصدر السابق. 4/1. ص 7 ـ 128.

بنو هـــلال
ودورهم في الجهاد في افريقيا والأندلس
الى نهاية القرن السادس/ الثاني عشر الميلادي

كان قدومُ قبائل بني هلال وبني سُلَيْم إلَى المغرب من مصرَ في منتصف القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، علَى إثر القطيعة التي حدثت بين صاحب افريقية الأمير الزيري المعز بن باديس وبين الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر. وبعد الهزيمة الكبرى التي ألحقها الهلاليون بجيش المعز بن باديس في وقعة جبل حَيْدران سنة 444 هـ/1052 م سُرعان ما اجتاحت قبائلُهم سائرَ أفريقية، وأقام رؤساؤها إمارات مستقلةً لهم في قابس وصفاقس والقيروان وباجة وبنزرت. أما المعز ابن باديس، فقد انتقل من القيروان إلَى المهدية، ولم تَعُدْ سلطته تتجاوز الشريطَ الساحليَّ القريبَ منها. ولم تحُلْ سوء العلاقات بين رؤساء قبائل بني هلال وبين الأمراء الزيريين دون مبادرة هذه القبائل الوافدة إلَى المشاركة في التصدي لغزوات الروم علَى مدن ساحل افريقية، كما حدث عند تعرض المهدية ذاتها لهجوم جنوي بيزي كبير عام 480 هـ/1087 م، وفي التصدي للنورمان في حصن الديماس ـ قرب المهدية ـ عام 517 هـ/1122 م، وفي التصدي لهم كذلك في طرابلس الغرب عام 538 هـ 1142 م، مما يدحض التهمةَ التي نسبها بعضُ الباحثين المُحدثين لهذه القبائل من ضعف في شعورها الديني [1].

(1) يُنظر ـ علَى سبيل المثال ـ ألفريد بل: الفِرَق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بنغازي 1969، ص 218 ـ 219.

وكذلك مادة Hilal في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية)، المجلد الثالث، ليدن ـ لندن 1971، ص 386 ـ 387، بقلم هـ. ر إدريس.

ولم يمض أكثرُ من قرن على وصول القبائل الهلالية ، حتّى كانت قد استقرّت في المغربين الأدنَى والأوسط علَى حساب الدولتين الصنهاجيّتين في المهدية وبجاية . ولما قامت دولةُ الموحدين في المغرب الأقصَى في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، أدرك سلاطينها منذ البداية القيمةَ القتاليةَ لقبائل العرب الهلالية . فحرصوا علَى توجيهها للجهاد معهم في الأندلس التي كان يحيق بها خطر كبير من جانب ممالك قشتالة وأراجون والبرتغال . والمصادر التاريخية العربية حافلة بأخبار الدَّوْر الذي قامت به قبائلُ بني هلال في الجهاد في الأندلس إلَى جانب الموحدين ، وهي أخبار تشهد بشجاعتهم واستماتتهم في القتال ذَوْداً عن المسلمين وديارهم .

لقد كان لقدوم العرب الهلاليين إلَى المغرب ـ تغريبتهم ـ آثار اقتصادية واجتماعية وعنصرية ولغوية عميقة في كافة أقطار الشمال الإفريقي ، إلا أننا في بحثنا هذا سوف نقتصر على الحديث عن دورهم في الجهاد ضدّ الروم والافرنج دفاعا عن أرض الاسلام والمسلمين ، واستناذا ـ في المقام الأول ـ إلى المصادر العربية ، كما سنستشهد ـ بالنسبة لحملة المهدية ـ بمصدر لاتيني فريد .

جهاد الهلاليين في أفريقية :

في عام 480 هـ/1087 م ، هاجم أسطول جنوي بيزي كبير عاصمةَ الزيريين المهدية وربضها (ضاحيتَها) زويلة ، فطلع جنودُ الروم ـ كما يقول ابن الأثير ـ إلَى البر ، ونهبوا وخرّبوا وأحرقوا ودخلوا زَويلة ونهبوها ، وكانت عساكرُ الأمير تميم ابن المعز غائبةً عنها في قتال الخارجين عن طاعته [2] . لقد كانت البابوية دون شك وراء هذه الحملة التي سبقت أولَى الحملات الصليبية في المشرق بعشر سنوات ، وعرَّج المحاربون ـ ومعظمهم من جنوة وبيزة ـ علَى رومة للحج والتبرك بزيارة كنيسة القديس بطرس . إن المصدرَ الرئيسيَّ والمعاصرَ لأخبار حملة المهدية قصيدةٌ باللغة

(2) ابن الأثير، علي : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، بيروت 1980 ، ص 147 .

اللاتينية تُعرف بقصيدة نصر البيزّيين Carmen in victoriam Pisanorum نظمَها صاحبُها ـ وهو أحد رجال الدين ـ في خريف عام 1087 م ، أي بُعيْد عودة الأسطول المُشارك في حملة المهدية ، وكلُّها تمجيدٌ لما حقّقته الحملةُ من تقتيلٍ للمسلمين في جزيرة قوصرة (بنطلارية) والمهدية وزَويلة ، وما ظفرتْ به من أسلابٍ وغنائم. إلاّ أن ما يهمُّنا في هذا المقام ما تشتملُ عليه القصيدةُ من تنويهٍ وإشادةٍ بالدَّور الذي قامت به القبائلُ العربيةُ الهلالية في التصدّي للمُغيرين علَى المهدية ، بالرغم من العداء القائم آنذاك بينها وبين صاحب المهدية الأمير تميم بن المعز. في القصيدة اثنا عشَر بيتاً يتحدَّث فيها صاحبُ القصيدة ـ وهو شاهد عيانٍ شارك في الحملة ـ عن أسلوب قتال العرب الهلالية ، وفروسيّتهم ، وتصدّيهم للغزاة في زَويلة كرًّا وفرًّا. وفيما يلي نورد هذه الأبيات متبوعة بترجمتها من اللاتينية :

Et cum starent ad videndum donorum potentiam,
Ecce gentes Arrabites intrarunt Sibiliam;
Leves multum supra modum cum discurrunt pedites,
Euro vento lmeviores cum bellantur equites.

بينما كانوا [الروم] ينظرون إلى وفرة الغنائم
اذ بالقبائل العربية [الهلالية] تدخل زَويلة
ويجري مُشاتهم هنا وهناك بسرعةٍ مذهلة
ويحارب فرسانُهم بسرعةٍ تفوق سرعة الريح الشرقية.

Docti retro et astuti fugando respicere,
Valent melius ın fuga hostes interficere;
Leviores super omnes gentes in giro volubilis,
Macris equis insidentes corporibus ductiles.

كانوا مهَرةً محنّكين في النظر الى الوراء أثناء فرّهم
وهم أثناء فرّهم أسرعُ في قتل أعدائهم،
إنهم أسرعُ من كافة البشر في الالتفاف في دوائر
ممتطين خيولاً ضامرةً يوجّهونها بأجسامهم.

Et istorum tam valentium iam centena milia,
Urbs relicta a Pisanis tenebant Subilia;
Ripa maris inisitentes et implente litora,
Turbant relipuos Pisanos servantes navilia.

احتل مائةُ ألفٍ من هؤلاء البواسل زويلة،
المدينةَ التي أخلاها البيزيون،
وتدفّق هؤلاء العربُ نحو الساحل وملأوا الشاطىء،
وأوقعوا هزيمةً ببقية البيزيين الذين كانوا يحرسون المرسى.

Cowdrey, H.E.J., "The Mahdia Campaign of 1087". in English Historical Review, vol. 362, Jan 1977, p. 28. (3)

ان نجاح حملة المهدية كان لعدة أسباب أوردها التجاني ، من أهمها « مفاجأة الروم دون استعداد لهم ، وأخذ أهبة للقائهم ، وخلوّ كافة الناس من الأسلحة والعُدد ، وقِصَرُ الأسوار وتهدُّمُهَا »[4] ، فضلاً عن ضخامة الحملة التى كانت تضمّ ما بين 300 و 400 قطعة بحرية . وقد استوفى وصف الحملة إبو الحسن علي بن الحداد فى قصيدة طويلة أورد التجانى بعض أبياتها ، ومنها :

غزا حمانا العدوُّ في عَددٍ هم الدبَى كثرةً أو النَّغَفُ
عشرون ألفاً ونصفُهَا ائتلفوا من كل أوْبٍ لبئسَما ائتلفوا
جاءوا علَى غِرةٍ إلَى نفَرٍ قد جهلوا في الحروب ما عرفوا
وهم من العيش في بُلَهْنيةٍ وليس للدهر أعينٌ طُرُفُ
في سفنٍ كالجبال ليس لها إلاّ من السُّمْر والظُّبَى شعَفُ[5] .

وكان للقبائل العربية دور مرموق في الهزيمة التي أُلحقت بالنورمان في جزيرة الأحاسي وقصر الديماس في صيف عام 517 هـ/1122 م ، إذ ما نزل قسم كبير من عسكر النورمان إلَى البر في جزيرة الأحاسي حتّى تصدّت لهم طائفةٌ من العرب والأجناد «وكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم ، وقتلوا منهم قوماً وانتهبوا بعضَ أسلحتهم » . وأحاط العربُ بقصر الديماس ـ وكان قد اعتصم به نحوَ مائةٍ من جند النورمان ـ إلَى أن نفَدَ ما في الحصن من ماء وطعام ؛ فخرج النورمان من الحصن « فتخطَّفتْهم سيوفُ الأعراب فقُتلوا عن آخرهم »[6] . ويذكر ابن الأثير أن صاحبَ المهدية الأمير الزيري الحسنَ بن علي استنفر المقاتلةَ لحماية المهدية « فأتاه من

---

(4) التجاني ، عبد الله : رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، تونس 1958 ، ص 331 .
(5) المصدر السابق ص 332 .
الدَبى : الجراد قبل أن يطير. النغف : الدودَ الذي يكون في أنوف الإبل والغنم ، والنغف عند العرب كذلك ديدان تولَّد في أجواف الحيوان والناس وفي غراضيف الخياشم والأوْب : الناحية . بُلَهْنية : سعه العيش. أعين طُرُف : مطبقة الجفون. شعَفة الشيء : أعلاه .
(6) المصدر السابق ص 336 .

أهل البلاد ومن العرب جمعٌ كثير». ويضيف ابن الأثير أنه لما نازل النورمان الحصنَ المعروف بالديماس قاتلتْهم طائفةٌ من العرب كانوا هناك (7).

وقد أشاد كبيرُ شعراء صقلية عبد الجبار بن حمديس بانتصار المسلمين في قصر الديماس، فقال في قصيدةٍ يمتدح فيها الحسنَ بن علي (8):

فسَلْ عنهُمُ الديماسَ تَسْمعْ حديثَهم فهم بالمواضي في جزيرته جَزَرْ

وقال في قصيدة أخرى (9):

ولو نظمَ الديماسُ منثورَ هامِهِم لقَلَّد جيدَ القصر منه سِخابا

وقد نوَّه الأميرُ الزيريُّ بدوْرِ القبائل العربية في إحراز النصر ودفع عاديةِ النورمان، فهو يقول في أحد كتبه «فاستظهرْنَا باستقدام قبائل العرب المُطيفةِ بنا، فأقبلوا أفواجاً أفواجاً، وجاءوا مجيءَ السيل يعتلجُ اعتلاجاً ويتدفَّقُ أمواجاً، وكلهم علَى نياتٍ في الجهاد خالصة، وعزماتٍ غير مترددة في مواقف الموت ولا ناكصة... [وعلى أثر نزول عسكر النورمان إلَى البر في جزيرة الأحاسي] تسرَّع إليهم من جندنا ومن أنضاف إليهم من العرب المُنجدةِ لنا طائفةٌ أوسعتْ أعداءَ الله طعناً وضرباً، وملأت قلوبَهم خوفاً ورعباً... [وبعد احتلال النورمان حصن الديماس] تسرَّبتْ العربُ إليهم من كل فج...» (10).

وفي سنة 537 هـ/1142 م، تعرضت مدينةُ طرابلس الغرب لهجوم النورمان من البحر، ولعلَّ ذلك كان بالتواطؤ بينهم وبين صاحب المهدية الحسن بن علي لخروج مدينة طرابلس عن طاعته، إذ يذكر ابنُ الأثير «أن أهلَهَا [طرابلس الغرب]

---

(7) ابن الأثير 8/ ص 312.
(8) ابن حمديس، عبد الجبار: ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1960. ص 254
(9) المصدر السابق ص 57. والسخاب: قلادة من قرنفل ونحوه ليس فيها لؤلؤ أو جوهر.
(10) رحلة التجاني ص 337 ـ 339.

في أيام الأمير الحسن صاحبِ افريقية لم يدخلوا أبداً في طاعته ، ولم يزالوا مخالفين مشاققين له ، قد قدَّموا عليهم من بني مطروح مشايخَ يدبِّرون أمرَهم » [11] . وقد يكونُ أهلُ طرابلس الغرب نقموا عليه تشيُّعه ورجوعَه إلَى الولاء للخلافة الفاطمية في مصر. وكاد النورمان أن يستولوا علَى المدينة في صيف ذلك العام ، لولا النجدةُ السريعةُ والحاسمةُ التي وصلتْ إلَى المدينة المحاصَرةِ من القبائل العربية الهلالية (زُغبة التي كانت قد استقرَّتْ في أحواز طرابلس الغرب) . ويحدثنا ابنُ الأثير عن ذلك فيقول : «وفي هذه السنة [537 هـ] سارت مراكبُ الفرنجِ من صقلية إلَى طرابلس الغرب فحصروها ... وعلَّقوا الكلاليبَ في سور البلد ونقبوه . فلما كان الغد ، وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل البلد ، فقويَ أهلُ طرابلس بهم ، فخرجوا إلَى الأسطول ، فحملوا عليهم حملةً مُنكَرَةً ، فانهزموا هزيمةً فاحشة ، وقُتل منهم خلقٌ كثير ، ولحق الباقون بالأسطول ، وتركوا الأسلحةَ والأثقالَ والدوابَّ والآلات ، فنهبها العربُ وأهلُ البلد ، ورجع الفرنجُ إلَى صقلية » [12] .

كان النورمان ــ بحلول عام 548 هـ / 1153 م ــ قد احتلوا المهديـةَ ومعظمَ مدن ساحل افريقية ، فيما عدا مدينة تونس ومدينة أو مدينتين أخريين . يقـول ابن ابي دينار القيرواني إن صاحب صقلية ــ وهو رجار الثاني ــ « نازل قلعة إقليبية فلم يقـدر عليها لتجمُّعِ أكثر العرب فيها »[13] .

ان للرواية التي يوردها ابنُ الأثير عن رفض رؤساء القبائل العربية الهلالية القاطع تلقّي معونة من غير المسلمين ضد سلطانٍ مسلمٍ مغزًى كبيـراً . ففى سنة 548 هـ / 1153 م استولى سلطانُ الموحدين عبدُ المؤمن بن علي على بجـاية مُنهيـاً بذلـك دولة بني حماد أصحاب القلعة ، فأنفتْ قبائلُ بني هلال النازلة فى شرق الجزائـر من الخضوع لسلطان الموحدين ، كـما أنها كانت تخشى أن يقـوم الموحـدون بترحيلهم جُملة من بـلاد المغرب ، فعقدت لذلك العـزمَ على الـوقوف فى وجههم . يقـول ابنُ الأثير : « واتصـل

(11) ابن الأثير 9/ ص 6.

(12) نفس المصدر السابق والصفحة.

(13) ابن أبي دينار القيرواني . محمد . المؤنس في أخبار إفريقية وتونس . تحقيق محمد شمَّام . تونس 1967 . ص 95.

الخبرُ بالملك وجار الفرنجي ــ صاحب صقلية ــ فأرسل الى أمراء العرب وهم محرز بنُ زياد، وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى ابن حسن، وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن، ويعرض عليهم أن يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن، فشكروه وقالوا: «ما بنا حاجة الى نجدته، ولا نستعين بغير المسلمين» [14].

جهادهم في الأندلس قبل قيام دولة الموحدين:

إن أخبار قدوم بني هلال إلَى افريقية وأخبار إقدامهم وبلائهم في القتال كانت قد وصلتْ إلَى بلاد الأندلس ولما تَمْضِ أكثرُ من خمس وثلاثين سنةً علَى وصولهم من مصر. فلما ازداد خطرُ صاحب قشتالة علَى ممالك الطوائف في الأندلس بعد أخذه طليطلة، اجتمع مشائخُ قرطبة عام 479 هـ/1086 م بالقاضي عبد الله ابن أدهم، وعرضوا عليه الكتابةَ إلَى عرب افريقية مستغيثين بهم حتّى إذا «وصلوا إلينا قاسمْناهم أموالَنا وخرجْنا معهم مجاهدين في سبيل الله. قال القاضي: نخاف إذا وصلوا إلينا يُخَرِّبونَ بلادنا كما فعلوا بإفريقية... والمرابطون أصلحُ منهم وأقربُ إلينا» [15]. إن هذه الروايةَ التي يوردها كل من ابن الأثير والنويري ينبغي ــ في رأينا ــ أن تؤخذَ بتحفظ وحذَر شديديْن. في سنة 479 هـ/1086 م كان المرابطون قد اتموا سيطرتَهم علَى المغرب الأقصَى وغرب الجزائر، وكانوا قد وعدوا بنصرة أهل الأندلس بمجرد أن يتحقق لهم ذلك. ثم إن القاضي ابنَ أدهم ــ كسائر فقهاء الأندلس ــ كان يميل إلَى المرابطين ويتطلّع إلَى مجيئهم لما تناهَى إلَى الأندلس من تقريبهم للفقهاء وتعظيمهم لهم. كما أن المعتمدَ بن عباد ــ صاحبَ اشبيلية وقرطبة ــ كان علَى علمٍ بما حلّ بالإمارتين الصنهاجيتين في القيروان وقلعة بني حماد علَى أيدي بني هلال، فكان يخشَى بطبيعة الحال أن يحلَّ به نفس المصير لو تمَّ استدعاءُ تلك

(14) ابن الأثير 9/ ص 41

(15) المصدر السابق 8/ ص 141. النويري. شهاب الدين. نهاية الأرب. قطعة في مجموعة (تاريخ بني عباد(Historia Abbadidarum) نشرها ر. دوزي. ليدن 1852. المجلد الثاني ص 133 ــ 134.

لقبائل إلَى الأندلس. ثم إن سمعةَ القبائل الهلالية في الأندلس كانت قد شوَّهتها الروايات المغرضةُ والمبالَغُ فيها كثيراً التي أذاعها النازحون عن بلاط بني زيري في القيروان إلَى الأندلس كابن شرف والحُصْري والحلواني، والتي نجد صداها في التراجم التي عقدها ابنُ بسام الشنتريني لهؤلاء الأدباء، وفي الفصل الذي أورده عن قدوم العرب الهلالية إلَى افريقية اعتماداً علَى تلك الروايات المضلِّلة (16).

ومهما يكن من أمر، فإن مجرد تفكير زعماء الأندلس باستصراخ بني هلال لهو دليل في حدّ ذاته علَى أن أخبار كفايتهم القتالية ورغبتهم في المشاركة في الجهاد ضد الروم كانت قد ذاعت في الأندلس بعد فترة قصيرة من وصولهم إلَى المغرب. إن الباحثَ في تاريخ المغرب في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد يلاحظ تشابهاً كبيراً بين العرب الهلالية وبين المرابطين. فهما جماعتان متزامنتان من الرُّحَّلِ الأشداء ذوي البأس والمراس قدمتا من أطراف الصحراء وقامتا بدوْرٍ خطيرٍ في تاريخ الشمال الإفريقي والأندلس لتلك الحقبة. إلاّ أنه في حين أن المرابطين قُيِّضَ لهم زعامة روحية تتمثّل في المُصلح عبد الله بن ياسين وزعامة سياسية موحدة تتمثل في أمراء المرابطين، وعلَى رأسهم يوسف بن تاشفين، فتمكنوا بفضلهما من تحقيق وحدة الصف والعمل، فإن بني هلال افتقروا إلَى مثل هذه الوحدة، مما بدَّد جهودهم وفرَّق صفوفهم، وجعلهم عرضةً للاستغلال من قِبَلِ أُمراء شمال إفريقيا لأغراض هؤلاء الأمراء الخاصة.

أحرز المرابطون في جهادهم في الأندلس انتصاراتٍ باهرةً كانتصارهم في وقعة الزلاقة سنة 479 هـ / 1086 م في عهد يوسف بن تاشفين، وفي وقعة أُقليش سنة 501 هـ / 1108 م في عهدِ ابنه علي بن يوسف. وكانت جيوشُ المسلمين تضمّ عناصرَ من المرابطين وأخرى من الأندلسيين، إلاّ أن مما يلفت النظرَ أن عناصر من

---

(16) ابن بسام الشنتريني. علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس 1979. ينظر القسم الرابع. المجلد الثاني ص 612 ـ 615. والقسم الرابع. المجلد الأول ص 169 ـ 245. ص 245 ـ 283. ص 284 ـ 300.

العرب الهلاليين شاركت هيه الأخرى في وقعة أُقليش ، مما يدل علَى أن بعض العرب الهلاليين انخرطوا في جيوش المرابطين المجاهدة في الأندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري . ويشار إلَى هؤلاء العرب في رسالةٍ لأبي الفضل جعفر بن شرف كتبها عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين قائد الحملة إلَى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف في فتح حصن أقليش حيث يقول : « فبرز فارس من العرب . فطعن فارساً منهم [الروم] فأذراه من مركبه ، ورماه بين يدي موكبه ، فانتهج ، ما ارتج ، وانفتح المبهم وأفصح المعجم ... » (17) . ويصف المؤرخُ الموحديُّ ابنُ القطان وقعةَ أُقليش بأنها « من غرِّ الوقائع وجليلها ... واستُشهد في هذه الوقيعة الإمام الجزولي ... وجماعةٌ من الأعيان والعربان رحمهم الله تعالَى » (18) .

جهادهم في الأندلس في عهد الموحدين :

أدرك سلاطين الموحدين منذ البداية القيمةَ القتاليةَ لقبائل العرب الهلالية ، فحرصوا علَى توجيهها للجهاد معهم في الأندلس ، ويكونون في الوقت ذاته قد تخلَّصوا من شغَب تلك القبائل عليهم متعاونةً ـ كما حدث أكثرَ من مرة ـ مع القائمين علَى دولة الموحدين كبني غانية الميورقيِّين ، وقراقوش الغزِّي ، مغتنمين فرصةَ بُعدهم في افريقية عن عاصمة الدولة في مراكُش وانشغالِ الموحدين في المغرب الأقصَى والأندلس .

---

(17) مؤنس . حسين : « الثغر الأعلَى الأندلسي في عصر المرابطين » . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد 11 . الجزء الثاني . ديسمبر 1949 . ص 129

(18) ابن القطان : نظم الجمان . تحقيق محمود علي مكي . تطوان 1964 . ص 10 .
وعن مشاركة العرب الهلالية في الجهاد في الأندلس مع تاشفين بن علي يقول ابن عذاري : « وفي سنة ثلاثين وخمسمائة أغزى تاشفين بن علي بن يوسف الروم في شعبان المكرم [مايو 1136] بعدما استحضر زعماء المرابطين ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم . فقالوا : الدولة لنا . فإما تركها أو حمايتها لا يتقدَّما أحد إلَى لقاء عدونا . فإذا استشهدنا فالأمر لمن شاء الله بعدنا . ثم دعا العربَ فقالوا : ارم العدوَّ بنا ولا تُشركْ أحداً معنا . وسيرى الله عملنا » . ـ ابن عذاري المراكشي . أبو العباس أحمد : البيان المعرب . الجزء الرابع . تحقيق إحسان عباس . بيروت 1980 . ص 94 .

فبعد أن فرغَ أولُ سلاطين الموحدين عبدُ المؤمن بن علي من تحرير المهدية من الاحتلال النورماني سنة 555 هـ/1160 م «جمعَ أمراءَ العرب من بني رياح، الذين كانوا بإفريقية وقال لهم: قد وجبتْ علينا نصرةُ الإسلام، فإن المشركين قد استفحل أمرُهم بالأندلس، واستولَوْا علَى كثيرٍ من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين، وما يقاتلهم أحدٌ مثلُكم. فبكم فُتحت البلادُ أولَ الإسلام وبكم يُدفع العدوُّ منها الآن، ونريد منكم عشرةَ آلافِ فارسٍ من أهل النجدة والشجاعة، يجاهدون في سبيل الله، فأجابوا بالسمع والطاعة»[19]. ويذكر ابنُ صاحب الصلاة أن الأميرَ أبا يعقوب يوسف كان ينتظر بفارغ الصبر في اشبيلية وصولَ المَددِ إليه من المغرب، فعلم أن والدَه في أحواز فاس «وقد استاقَ في أتباعه من العرب بني رياح وبني جُشَم وبني عَديّ [من بني هلال] وقبائلَهم ما يضيق بهم الفضا، علَى عدد الذباب وعدد الحصَى»[20].

وعلَى أثر قيام ابن مردنيش ومحاولته الاستقلالَ في شرق الأندلس بمعاونة النصارى، وصل الخليفةُ الموحديُّ عبدُ المؤمن بنُ علي إلَى سلا، وقال ليوسف ابن سليمان ـ من أصحاب المهدي ابن تومرت ـ «ركِّبْ لي العربَ، ركِّبْ لي منهم أربعةَ عشرَ ألفاً وأُعطيك البشارة. فركَّبها حتّى تخاطفت العربُ علَى الخيل، ودخل عليه يوسف بنَ سليمان بالبشارة»[21].

ولما أراد عبدُ المؤمن الجوازَ إلَى الأندلس، استنفر أهلَ المغرب عامةً فكان فيمن استنفره العربُ الذين كانوا بشرق الجزائر من قبائل هلال بن عامر «فكتبَ إليهم رسالةً يستنفرهم إلَى الغزو بجزيرة الأندلس، وأمر أن تُكتَب في آخرها أبياتٌ قالها ـ رحمه الله ـ في ذلك المعنَى ومنها:

---

(19) ابن الأثير 9/ ص 65.

(20) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك: تاريخ المنّ بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت 1964، ص 144.

(21) البيذق، أبو بكر علي الصنهاجي: كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات الجزائر 1975، ص 150.

أقيموا إلَى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهل
وقوموا لنصر الدّين قومةَ ثائرٍ وشُدُّوا علَى الأعداء شَدَّةَ صائل
بني العمِّ من عُلْيا هلالِ بنِ عامرٍ وما جَمعتْ من باسلٍ وابنِ باسل
تعالَوْا فقد شُدَّتْ إلَى الغزو نيَّةٌ عواقبُها منصورةٌ بالأوائل

فاستجاب لهم منهم جمعٌ ضخم، فلما أراد الانفصالَ عن الجزيرة رتَّبهم فيها، فجعل بعضَهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في نواحي اشبيلية مما يلي مدينةَ شريش وأعمالَهَا، فهم بها باقون إلَى وقتنا هذا ـ وهو سنة 621 [1224 م] ـ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير، وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتَّى كثروا هنالك، فبالجزيرة اليوم من العرب من زُغبة ورياح وجُشَم بن بكر وغيرهم نحوٌ من خمسة آلاف فارسٍ سوى الرجَّالة»[22].

وفي وقعة الجِلاَّبِ قرب مُرْسية (560 هـ/1165 م)، التي هزمَ فيها الموحدون ابنَ مردنيش وجموعَه من الإفرنج، استُشهدَ سبعةٌ من شيوخ العرب، ويذكر ابن خلدون أن مقاتلة العرب في تلك الوقعة كانوا من زُغبة ورياح والأثبج[23].

ولما عزم ثاني سلاطين الموحدين يوسفُ بن عبد المؤمن علَى الغزو في الأندلس عام 566 هـ. استدعَى العربَ وخاطبهم بهذه القصيدة يحرِّضهم إلَى الجهاد، ويستدعيهم إلَى الغزوة العظمَى، ويصفهم فيها بما هم فيه من الشهامة والزعامة، ويستقربهم بالقربَى التي تجمعهم في قيس عَيْلان، وأنهم السيفُ الماضي في نصر الدين وحمايته، وهي من قول ابن طُفَيْل، نجتزئ منها الأبيات التالية:

أقيموا صدورَ الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
ألا فابعثوها هِمَّةً عربيةً تَحفُّ بأطراف القنا والقواضب

(22) المراكشي، عبد الواحد: المعْجِب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949، ص 224 ـ 225.
(23) البيذق ص 164.
ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العِبَر، الجزء السادس، بيروت 1979، ص 238.

أفرسان قيسٍ من هلال بن عامرٍ وما جَمعتْ من طاعنٍ ومُضارب
بكم نُصر الإسلام بدءاً فنصرهُ عليكم، وهذا عَوْدُه جدٌّ واجب
فقوموا بما قامتْ أوائلُكم به ولا تُغفلوا إحياءَ تلك المناقبِ

فاستجابت له القبائلُ العربيةُ في افريقية والزاب والقيروان، وكان عددُ الخيل الواصلةِ من افريقية أربعةَ آلاف فارس، ومن تلمسان ونظرها ألفَ فارس [24]. ويقول ابنُ خلدون إن يومَ قدومهم علَى الخليفة في مراكُش «كان يوماً مشهوداً، فأعرضهم وسائرَ عسكرهم، ونهض إلَى الأندلس» [25]. ويذكر ابنُ أبي زرع الفاسي أنه وَفَدَ علَى الخليفة في مراكُش سنة 577 هـ أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيشٍ عظيمٍ من وجوه رياح برسم الخدمة [26].

وفي إحدى الرسائل الرسمية الموحدية المؤرخة في منتصف شوال 576 هـ/4 مارس 1181 م، من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن مَحْشَرة، إلَى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة، أن أشياخَ العرب وأعيانَهم من جميع قبائل رياح جُمعوا «وعُرِّفوا أن الغرضَ فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس... وندبوا إلَى أن ينفروا إلَى ذلك بقضِّهم وقضيضهم... ونفروا إليه بجملتهم من غير استثناء... ولم يَبْقَ من جموع رياح كلِّها ـ علَى اختلاف قبائلها وتعدّد عشائرها واتساع أفخاذها وعمائرها ـ إلاّ من حضر ذلك من أعيانهم... وكلٌّ أظهر من جميل البِدار... ما أقرَّ العيونَ وشَرَحَ الصدورَ وملأ بالبشرى القلوب» [27]. وتضيف الرسالةُ أنه قد تمَّ ترحيلُهم جملةً بأنفسهم وأهليهم وأولادهم: «وكلٌّ رجا أن يُختم عملُه بالرباط في تلك الجزيرة، محتسبا على الله بنفسه» [28].

---

(24) ابن صاحب الصلاة ص 1 ـ 412.
(25) ابن خلدون 6/ ص 239.
(26) ابن أبي زرع الفاسي، علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ط. أوبسالة 1843، ص 139.
(27) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، اعتنى بنشرها إ. ليڤي بروفنسال، الرباط 1941، الرسالة السادسة والعشرون، ص 152 ـ 153.
(28) المصدر السابق ص 155.

ولما اعتزم الخليفةُ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن علَى معاودة الجهاد في الأندلس سنة 579 هـ ، ونهض إلَى سلا ، وافاه بها أبو محمد بن أبي إسحاق ابن جامع من أفريقية بحشود العرب [29] . وأمر الخليفةُ الناسَ بالجواز «فجازت قبائلُ العرب أولاً ، ثم قبائلُ زناتة ثم قبائل المصامدة... ثم جازت جيوشُ الموحدين والأغزاز...» [30] .

ولما سُقطت مدينة شِلْب بغرب الأندلس في يد صاحب البرتغال بمساعدة الصليبيين عام 586 هـ/1190 م ، جهَّز أبو يوسف يعقوب المنصور حملةً كبرى لاستردادها «فاستشرْنا الموحدين ـ أعزَّهم الله ـ وإخوانَهم العربَ ـ وفَّقهم الله ـ... فبادر كلُّهم بنياتٍ صادقةٍ وعزائمَ إلَى اغتنام الأجور مسابقة» [31] . ويذكر ابنُ أبي زرع الفاسي أن المنصورَ سيَّر في تلك الحملة جيشاً من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ، ففتح بهم أربعَ مدنٍ كان الفرنج قد ملكوها ، وهي شلب ، وباجة ، ويابرة ، وقصر أبي دانس [32] .

إن أكبرَ غزوات المنصور في الأندلس الغزوة التي تكلَّلتْ بالانتصار في وقعة الأَرَك Alarcos عام 591 هـ/1195 م علَى حلف كبيرٍ علَى رأسه صاحبُ قشتالة ، وكان لقبائل العرب الهلالية دَوْرٌ في إحراز ذلك النصر العظيم يذكره ابنُ أبي زرع الفاسي فيقول : «فكان أولَ من جاز البحرَ قبائلُ العرب ثم قبائلُ زناتة» . وقبل اللقاء ، استشار المنصورُ رؤساءَ القبائل «اتباعاً لأمر الله تعالَى ، واقتداءً بسنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم... فدعا أولاً أشياخَ الموحدين فاستشارهم ، ثم أشياخَ العرب ، ثم أشياخَ زناتة» . ثم عقدَ الراياتِ لأمراء القبائل ، لكلِّ أميرٍ راية . ولما لزمت كلُّ قبيلةٍ رايتَها «خرج جرْمون بنُ رياح أميرُ العرب يمشي بين صفوف

(29) ابن خلدون 6/ ص 240.

(30) ابن أبي زرع الفاسي ص 146

(31) مجموع رسائل موحدية . الرسالة الرابعة والثلاثون . ص 220 . وهي من إنشاء ابن محشرة في اشبيليه وموجهة إلَى الطلبة والموحدين بسبتة .

(32) ابن أبي زرع الفاسي . ص 140.

المسلمين، ويقوّي قلوب المجاهدين، ويتلو هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلّكم تُفلحون)[33] (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامكم)»[34]. وأقبلتْ قبائلُ العرب والأغزاز فأحاطت بالنصارى. ولما انسحب النصارى إلَى الربوة ليعتصموا بها، حيلَ بينهم وبينها، فرجعوا علَى أعقابهم، فرجعتْ عليهم العربُ والأغزاز «فطحنوهم طحناً، وأفنّوهم عن آخرهم وأسرعت خيلُ العرب إلَى أمير المؤمنين... وقالوا له: «قد هَزم الله تعالَى العدوّ»[35].

---

(33) سورة آل عمران. آية 200

(34) سورة محمد. آية 7

(35) ابن أبي زرع الفاسي. ص 146. 148. 150.

الأغزاز وقدومهم إلَى بلاد المغـرب والأندلـس

موطن الغُز وأساليبهم في القتال :

الغَز (Oghuz)هي التسمية العربية لفرع من القبائل التركية التي كانت تقطن قُبيْل ظهور الإسلام رقعةً واسعةً من أواسط آسيا تمتد من تخوم الصين شرقا إلَى البحر الأسود غربا. يقول ابنُ خلدون : «وكان الظهور فيهم [الأتراك] لقبيلة الغُز من شعوبهم وهم الخوز، إلاّ أن استعمال العرب لها عرَّب خاءها المعجمةَ غَيْناً، وأدغمت واوها في الزاي الثانية، فصارت زايا واحدة مشدَّدة»[1].

وكانت هذه القبائلُ تعيش في معظمها علَى الرعي وتربية الخيول، واشتهر أبناؤها فرساناً ورماةً بالقوس والنُّشاب، ويذكر ابن خلدون «أن أمم التّرك لهذا العهد قتالُهم مناضلةً بالسهام»[2]. ويحدِّثنا المَرْوزي ـ الذي كتَبَ في حدود سنة 514 هـ/1120 م ـ عن هؤلاء الأغزاز في موطنهم الأول في أواسط آسيا فيقول : «التّرك أمةٌ عظيمةٌ كثيرةُ الأجناس والأنواع، كثيرةُ القبائل والأفخاذ... ومن قبائلهم العظيمةِ الغُزِّية... فأما الذين يسكنون البراري والصحاري، وينتقلون شتاءً وصيفا، فهم أشدُّ الناس بأساً وأصبرهم علَى القتال والحروب... ونساؤهم يحاربن

(1) ابن خلدون. عبد الرحمن : التعريف بابن خلدون. القاهرة 1951 . ص 358

(2) ابن خلدون. عبد الرحمن : المقدمة . القاهرة. ص 274.

مثل الرجال ، وأنهن يقطعن أحدَ الثديين لترجعَ القوةُ كلُّها إلَى الذراع ، وكي تخفَّ أبدانُهن ويثبْتنَ علَى صهوات الخيل ... ولا يمنعهن من قطع الآخر إلاّ حاجتهن إلَى رضاع أولادهن واستبقاء النسل ، وإنما يقطعن الواحدَ لئلا يحبسَهنَّ عن رمي النُّشاب علَى ظهور الخيل »[3] .

كان اعتناقُ الغُز للإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، فأخذ أمراءُ المسلمين في تجنيدهم في جيوشهم للقيام بغزوات الجهاد ، وقد عُرفوا لدى المؤرخين العرب باسم (التركمان) ، ولدى الروم البيزنطيين باسم (Ouzoi) ، ومن أشهر قبائلهم السلاجقة ، الذين انتزعوا آسيا الصغرى من أيدي الروم البيزنطيين بعد انتصارهم الكبير في وقعة مانزيكرت عام 1071 م ، وسيطروا علَى معظم بلدان الشرق الأدنَى في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ـ والأتراك العثمانيون أبناء عمومتهم[4] .

وفي المصنَّفات المغربية تردُ كلماتُ (الغُز) و(الأغزاز) و(الغُزيون) و(الغُزِّيَّة) للدلالة علَى الجنود المرتزقة من التركمان ، الذين وفدوا إلَى شمال افريقيا عن طريق مصر، منذ منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

قام الغزُ بعد إسلامهم ـ بفضل قسيِّهم وخيولهم الخفيفة السريعة الحركة ـ بدوْرٍ بارزٍ في الذَّوْدِ عن أرض الإسلام في المشرق ، كما فعل معاصروهم المرابطون في المغرب والأندلس . وكان الصليبيون ـ بخيولهم ودروعهم الثقيلة ـ يخشَون هجماتِهم ، لما كان يتمتع به هؤلاء الغُز من خفة وسرعة في الحركة ، وإجادةٍ لأسلوب الكرِّ والفر

---

(3) المَروزي ، شرف الزمان طاهر : (أبواب في الصين والترك والهند) منتخبة من كتاب (طبائع الحيوان) . تحقيق ق . مينورسكي ، لندن 1942 ، كتاب (طبائع الحيوان) ، تحقيق ق . مينو

(3) المَروزي ، شرف الزمان طاهر : (أبواب في الصين والترك والهند) منتخبة من كتاب (طبائع الحيوان) ، تحقيق ق . مينورسكي . لندن 1942 ، ص 18 ، 25 ، 26 .

(4) كاهين ، كلود (Cohen Claude) : دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية ، بالإنجليزية) ، مجلد 2 ، ليدن ـ لندن 1968 ، ص 7 ـ 1108 . وكتابه Pre-Ottoman Turkey. London 1948, p 5.

في القتال ، وحذقٍ في رشق النبال ، يرمون بالنُّشاب وهم علَى متون جيادهم [5] .

ويحدثنا مؤرخ فرنسي شارك في الحملة الصليبية الأولَى عن قتال السلاجقة ضد الصليبيين في معركة دوريلايوم (Dorylaeum) في غربي الأناضول (1 يوليو 1097 م) فيقول إنهم « رماةٌ بالنُّشاب ؛ وكانوا كلُّهم من الفرسان ، أما نحن [الصليبيين] فكنّا مشاةً وفرسانا... ووسط الصيحات وقرع السلاح ودويّ الطبول ، أمطرَنا الأتراكُ بوابلٍ من النبال ، فبُهِتْنا وكدنا نهلك ، وجُرح الكثيرون منّا ، وولّينا الأدبار . وليس هذا بالأمر الغريب ، إذ إن مثلَ هذا القتال لم يكنْ مألوفاً لدينا » [6] . ويضيف هذا المؤرخُ الصليبيُّ أن الأتراك كانوا ينصبون الكمائنَ ثم يرشقون بالنبال ، وهم واثقون من شجاعتهم ، وجيادُهم سريعة الجري ، مما يساعدهم علَى الكرّ والفرّ [7] .

كان المحاربون الأتراك أسرعَ وأكثرَ مرونةً في المناورة من الفرنجة ، وقد عُزي ذلك إلَى سرعة جيادهم وخفة أسلحتهم . كان القوسُ سلاحَهم الرئيسي ، وكانوا يحملون كذلك الترسَ والرمحَ والسيفَ والهراوة ، وهي أخفُّ من أسلحة أعدائهم الثقيلة . وقد استغلَّ الفرسانُ الأتراكُ ذلك من أربعة وجوه : فكان بوسعهم أولا البقاءُ بعيداً عن عدوِّهم ، مختارين اللحظةَ المناسبةَ لهم لشنِّ الهجوم ، ويلجأون إلَى الكرِّ والفرّ . وثانيا ، استخدموا كثيراً التصنُّعَ في الانسحاب ، فينسحبون أحيانا لعدة أيام ، بُغيةَ إنهاك الفرنجة وإبعادهم عن قواعدهم ، ونصبِ الكمائن لهم . وثالثا ، فإنهم بفضل خفتهم وحركتهم ، كانوا يهاجمون جناحيْ العدو وساقتَه ، ويحيطون به كالنحل . ورابعا ، فإنهم بفضل خفتهم وحركتهم كذلك ، كانوا يهاجمون العدوَّ ويجبرونه علَى القتال أثناء زحفه ، مركِّزين علَى ساقة الجيش [8] .

---

(5) نصح أحد رجال الفرس بقطع اباهم الغز لكي يتعذر على فرسانهم استعمال قيستّهم المرعبة . Speros. V oyonis. Byzantium and Europe.LOndon 1967,p.132.

(6) The Chronicle of Fulcher of Chartres Univ. Of Pennsylvania Press 1971, p 46.

(7) المصدر السابق ص 51 ، 61 ـ 64 .

(8) Smail, R.C , Crusading Warfare (1097-1193) Cambridge Univ Press 1972, pp 78-79

وإلَى جانب سرعة الحركة (mobility) كانت الميزةُ الأخرى لقتال السلاجقة الرميَ بالنُّشاب ، يرشقونها وهم علَى صهوات جيادهم دون توقف [9] . وحتّى عند التقهقر ، كان بوسعهم الدورانُ فوق سروجهم ورشقُ نبالهم علَى مطارديهم . وكانت النبالُ تخْرُقُ دروعَ الفرنجة دون أن تجرحَ لابسيها في كثير من الأحيان . وكثيرا ما شبّه مَنْ كان يتعرض لهذه الهجمات بالقنافذ هم وخيولهم . وكان من نتيجة ذلك ، القضاءُ علَى تماسك العدو ، وإلحاقُ الخسائر لا بالرجال فحسب بل وبالخيول أيضا . ولما كان الفرنجةُ يعتمدون في انتصاراتهم في المعارك علَى هجمات فرسانهم ، فإن الأتراك كانوا يدركون أهمية تدمير خيول أعدائهم . وبعد إنهاك العدو وإرباكه ، كان الأتراك يواقعون العدوَّ بالرماح والسيوف. ولم يكن الأتراكُ علَى عجلٍ لمواقعة العدو، بل كانوا يمهِّدون لذلك برشق العدو بالنبال لإنهاكه وتفريق شمله ، وإلحاق الخسائر برجاله وخيوله ، ثم يختارون اللحظةَ المناسبةَ للاشتباك مع العدو [10] .

وبعد شبه الكارثة التي حلَّتْ بالصليبيين في موقعة دوريلايوم ، تبيَّن للقادة الصليبيين أن أساليبَهم الحربية التقليدية لا تصلحُ لمجابهة فرسان السلاجقة ، الذين كان من عادتهم أن يبدأوا هجومَهم برمي النبال من بعيد ، فترةً من الزمن ، علَى أمل أن يحملوا العدوَّ إما علَى شن هجوم سابق لأوانه ـ وكان بوسع فرسان الأتراك أن يتفادوْا هجوماً من هذا القبيل بسهولة ـ وإما أن يفرِّقوا بين صفوف العدو وبذلك يتسنَّى للأتراك شنُّ الهجوم بالرماح والسيوف، مستغلِّين الثغراتِ في صفوف الأعداء [11] .

كان الغُز السلاجقةُ من الأنصار المتحمسين للإسلام السنِّي ، وإلَى محاربة الصليبيين في الشام ومصر، ولكن الفاطميين الشيعةَ في مصر لم يكونوا مرتاحين لقدومهم إلَى مصر لصدّ حملة صليبية علَى البلاد. فقد كتب السلطانُ نورُ الدين زنكي الَى الخليفة الفاطمي العاضد في القاهرة مهنئاً برحيل الفرنج عن ثغر دمياط ،

---

(9) المرجع السابق ص 80.

(10) المرجع السابق ص 81 ـ 83.

(11) Beeler, J. Warfare in Feudal Europe (730-1200) Cornell Paperbacks, London 1972, p. 139.

رنلقّى كتاباً من العاضد يشكو فيه من الأتراك في مصر، فكتب إليه نورُ الدين يمتدح الأتراك «ويُعْلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلاّ لعلمه بأن قُنطارياتِ [رماح] الفرنج ليس لها إلاّ سهامُ الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلاّ منهم، ولولاهم لزاد طمعُهم في الديار المصرية»(12).

الأغزاز في المغرب والأندلس:

أ ـ قبل قيام دولة الموحدين:

هنالك إشارتان في المصادر المغربية عن وجود بعض عناصر الغُز في المغرب في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. فابنُ أبي زرع الفاسي يذكر أن يوسفَ بنَ تاشفين سلطانَ المرابطين جنَّد الأجنادَ في سنة 404 هـ/1062 م «وجعل في جيشه الأغزازَ والرماة»(13). إلاّ أنه ليس ثمة ما يؤيد هذا القول. ويبدو أن ابن أبي زرع ـ الذي ألَّف كتابه بعد ذلك التاريخ بقرنين ونصف القرن ـ يحسب أن كلمة (الغز) تعني فقط رامياً أو رامياً يستعمل قوسا من نوع خاص(14).

ويذكر ابن عذاري أنه ظهر في أفريقية حوالي سنة 488 هـ/1095 م غزّيٌّ يشار إليه أحيانا بأنه تركي ومعه مائة من أتباعه، فتلقَّاه الأمير الزيري تميمُ بن المعز وأكرمه وقال إنه سينتفع بهم كما ينتفع بمائة ولد، وإنه يعرف كيف يستخدمهم. إلاّ أنه سُرعان ما دب الخلافُ بين هؤلاء الأتراك وبين سيدهم الجديد، وبعد مناوشة اختَفَوْا من التاريخ دون أن يتركوا ـ كما يبدو ـ أيَّ أثر(15).

---

(12) أبو شامة، عبد الرحمن: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. القاهرة 1962. 1/2 ص 460.
(13) ابن أبي زرع الفاسي، علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس. أوبسالة 1843. ص 89.
(14) هوبكنز، ج. ف. ب.: النظم الإسلامية في المغرب، تعريب أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب 1980، ص 150.
(15) المرجع السابق ص 152. ابن الأثير، علي: الكامل في التاريخ. بيروت 1980. 8/ ص 174. ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت 1980، 1/ ص 302.

ويردُ ذكرُ الأتراك الغُز في إحدى رسائل (جنيزة القاهرة) [16] ، في قرينةٍ غير منتظرة تماما ، وذلك في خطاب من طُليطُلة إلَى ألمريَّة في العشرينات أو الثلاثينات من القرن الثاني عشر الميلادي (قبْل 1139 م علَى الأكثر) ، أي في أواخر أيام المرابطين في الأندلس. وكاتبُ الرسالة هو الشاعر اليهودي يهودا بن ليڤي (اللاوي) Judah ha-Levi ، الذي يكنِّيه العربُ بأبي الحسن ، وكان طبيباً ومن رؤساء الطائفة اليهودية. وتناول في الخطاب قضيةَ امرأةٍ يهوديةٍ كانت قد سافرت في قافلة من تجار المسلمين، وأسرَها النصارى. وكانت فديةُ الشخص الراشد 33 دينارا. وتذكرُ الرسالةُ ما تمَّ جمعُه من ذلك المبلغ أملا في أن يدفع الباقيَ الشخصُ الموجهةُ إليه الرسالةُ في ألمريَّة. وكان من بين من تبرَّعوا «الترك الغز» بقيمة أربعة دنانير. ولعلَّ مَنْ أشار إليهم خطابُ يهودا بن ليڤي كانوا تجاراً سلاجقةً مسافرين في نفس القافلة كالمرأة اليهودية [17] .

ب ـ علَى عهد الموحدين :

كان الموحدون أولَ دولِ المغرب استخداماً للغُز في جيوشهم ، لا سيَّما علَى عهد ثالث خلفاء الموحدين أبي يوسف يعقوب المنصور (حكَم 1184 ـ 1199 م) بعد أن قَدِمَ من مصر المغامرُ الأرمني شرفُ الدين قراقوش ـ الملقَّبُ بالغُزِّي ـ علَى رأس فرقة من الأغزاز عام 568 هـ/1172 م ، علَى عهد صلاح الدين الأيوبي ، وتمكَّن ـ بالتحالف مع بني غانية من فلول المرابطين في جزيرة ميورقة ـ من انتزاع معظم

---

(16) الوثائق المعروفة باسم جنيزة القاهرة Cairo Geniza هي رسائل للتجار اليهود عُثر عليها في نهاية القرن التاسع عشر في مخزنٍ ملحقٍ بكنيس في القاهرة . حينما هدم الكنيس وأعيد بناؤه . وقد نقلت إلَى مختلف المكتبات في أوروبا وأمريكا. إن هذه الرسائل تبلغ حوالي عشرة آلاف رسالة . ومعظمها باللغة العربية بحروف عبرية. ومعظمها صادر عن التجار اليهود في المغرب والأندلس وتتناول الفترة الزمنية 950 ـ 1200 م . وتعتبر مصدرا مهماً للباحثين في تاريخ المغرب الاقتصادي في هذه الفترة ـ ينظر تحت كلمة Geniza في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية بالأنجليزية ، 2/ ص 7 ـ 989 .

(17) Goitein, S.D., "Changes in the Middle East (950-1150)", in Islamic Civilisation 950-1150, edit D.H. Richards, Oxford 1973, p. 21.

أفريقية من أيدي الموحدين. ولمواجهة هذا الخطر، قاد يعقوبُ المنصور بنفسه حملة كبرى من مراكُش ضد قراقوش وحلفائه. وفي وقعة عَمْرة بأحواز قفصة، هُزم جيشٌ موحديٌّ علَى أيدي الأغزاز والموارقة (15 ربيع ثاني 583 هـ/24 يونيو 1187 م)، ووقع القائدُ الموحديُّ أبو الحسن علي بن الربرتير في أسر الأغزاز أصحاب قراقوش. ويبدو أن الغُزّ بقسيِّهم لعبوا دوراً هاماً في إحراز النصر إذ «ناشب الأغزازُ القتالَ... فدفع القائد أبو الحسن بن الربرتير بجملته... فغشيتْه وأصحابَه سحائبُ سهام أكبَّت منهم جماعةً لوجوههم كسقوط الأنعام... وكانت تغشاهم سحائبُ السهام كسحاب الغمام، وهم في مثل الحلقة من الازدحام... يتوقَّعون المنايا من كل الجهات، ويتدافعون علَى مثل ظهر القنفذ...»[18]. ولما علم المنصورُ – وكان بمدينة تونس – بما حلَّ بجنده، توجَّه بنفسه علَى رأس جيش كبير وأوقع ببني غانية والأغزاز هزيمةً كبرى عند حامَّة مطاطة بالقرب من قابس (9 شعبان 583 هـ/14 أكتوبر 1187 م). ولم تلبثْ أن سقطت قابس وقفصة في أيدي الموحدين، واستسلمَ مَنْ بهما من الأغزاز بعد أخذ الأمان وأُلحقوا بجيش الموحدين. وفي ذلك يقول شاعر المنصور أبو بكر بن مجبر:

وما أغنت قسيُّ الغز عنها فليست تدفع القدرَ السهامُ

وقال أيضا من قصيدة يمتدح فيها المنصورَ ويذكر هزيمةَ الأغزاز:

أنحَى الزمانُ علَى الأغزاز واجتَهدتْ في قطع دابرهم أحداثُه السودُ[19]

وفي الرسائل الموحدية التي كانت تُرسَل من ساحات القتال إلَى أشياخ الموحدين

---

(18) ابن عِذاري: البيان المُغرب، القسم الثالث (خاص بالموحدين)، تطوان 1963، ص 160.
(19) المصدر السابق ص 4 – 165.
الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975، ص 200 – 201.
التجاني، عبد الله: رحلة التجاني، طبعة تونس، 1958، ص 6 – 137. عند التجاني (خصرائهم) بدلا من (دابرهم) في الشطر الثاني من البيت.

وطلبتهم في مراكُش إشاراتٌ عديدةٌ إلَى هؤلاء الغُز. في رسالةٍ من إنشاء الكاتب ابن مَحْشَرة (13 شعبان 583 هـ/23 أكتوبر 1187 م) من ظاهر قابس إلَى الطلبة والموحدين والأشياخ بمراكُش ـ بعد أسبوع من وقعة حامة مطماطة ـ قولُه : «فقد علمتُمْ ما كان من الأشقياء الغُزِّيين وإخوانهم في الضلالة الميورقيين من التسحُّب علَى أرجاء هذه الجهة الافريقية وأكنافها... وكان بقابس بنو الشقي قراقوش وأهلُه... ومعهم جماعة من أوباشه الذين يَعتمد عليهم... فتحصَّنوا بقصبةٍ بها منيعةِ الجوانب... وأجمعوا علَى الاستماتة بها... وهذه المدينة العتيقة [قابس] روح هذه الجهات الإفريقية ومعناها... وما تمشَّى للأغزاز ـ أبادهم الله ـ ما تمشَّى إلاّ بمُلْكها...» [20]. وجاء في رسالةٍ مؤرخةٍ في 2 رمضان 583 هـ/5 نوفمبر 1187 م ـ أيْ بعد أسبوعين من الرسالة السابقة ـ من إنشاء ابن مَحشرة إلَى الطلبة والموحدين والأشياخ بتونس ، من ظاهر قفصة ، أن الموحدين ألفَوْا بقَفصة «جملةً ذميمةً من أشقياء الأغزاز وأتباعِهم... وفي يوم الحلول [بقفصة] وصل خطابُ قراقوش وأرسالُه راغباً في التوحيد خاضعا... مُعْلماً أنه إن قُبلتْ توبتُه وأُجيبتْ رغبته ، جاء إلَى الموحدين... مطيعاً سامعا. ووصلتْ في غده أَرسالُ أبي زيان ومخاطبتُه مُعرِّفاً بركونه إلَى هضبة هذا الأمر العظيم وركنِه... وهو زعيمٌ من زعماء الأغزاز يضاهي قراقوش في قدره ، ويقاسمه في أمره. وكان قد انتبذ عنه أنفَةً من مشاركته... واستبدَّ بطرابلس ونواحيها ، وأظهر دعوةَ التوحيد فيها...» [21]. وفي رسالةٍ من قَفصة بعد استيلاء الموحدين عليها (ذو القعدة 583 هـ/يناير 1188 م) إلَى الطلبة وأشياخ الموحدين بمراكُش أن التأمين اندرج علَى الأغزاز وأتباعهم وجميع أهل قفصة باستثناء «المرتدِّين المارقين والضالِّين الميورقيين» ، وعاد إلَى ملك الموحدين معقلُ قفصة الأشَب» ولم يَبْقَ في هذه الجهات كلِّها من الأغزاز من ينفخُ للفتنة في ضرَم... إذ أذهبت هذه الغزوةُ المباركة يوم الفتح الأعظم أنجادهم

(20) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كُتّاب الدولة المؤمنية. نشرها إ. ليفي ـ بروفنسال. الرباط 1941. الرسالة الثلاثون ص 183. 189. 190

(21) المصدر السابق. الرسالة الحادية والثلاثون ص 197. 198.

وأعيانهم وتملكت بقابس وقفصة أشداؤهم وشجعانهم فصار جماهيرُهم وأهلُ البسالة والنجدة منهم خَوَلَ الموحدين وعُبدانهم ، واجتمع منهم عندهم جملةٌ وافرة ، وجماعة ظاهرة ، وأعدادٌ جمّة متكاثرة ... »[22] .

وفي رسالةٍ تاليةٍ من إنشاء ابن مَحْشرة بتاريخ 10 ربيع أول 584 هـ/9 مايو 1188 م إلَى الطلبة وأشياخ الموحدين بمراكُش ، من منزل أبي سعيد ، «وكنّا ــ وفقكم الله ــ قد عرَّفناكم بمن استُولي عليه بقابس ... من الأغزاز ، ومن استُنزل منهم بقفصة ... وقد اجتمعتْ منهم كتيبةٌ جأواء ، وفيلق شهباء ، وجحفل نَجْباء ، ترتعص منه الأباطح ... وحصَلوا في ملكة هذا الأمر العزيز بكافة أحوالهم ، وجميع من معهم من بنيهم وأهليهم وأموالهم ... وقد قدَّموا بين يدي الموحدين ... غُنْماً يروق أهلَ المغرب منظرُه ... »[23] . وقد أُلحق الأغزاز ــ بعد استسلامهم ــ بجيش الموحدين المرابط في أفريقية ، إذ تشير الرسائلُ الموحديةُ إلَى «عسكرٍ من الموحدين والأغزاز والعرب» وإلَى «جيشٍ من الموحدين والأغزاز والأعراب»[24] .

ومهما كان الدافع أصلاً لقدوم قراقوش والأغزاز من مصرَ إلَى افريقية ، فإنه كان لقدومهم وأعمالهم الحربية في افريقية ــ وتحالفِهم مع بني غانية ــ مضاعفاتٌ وآثارٌ سيئة فيما بعد ، علَى علاقات الموحدين بالدولة الأيوبية . فبعد وقعة حطين ، واستردادِ بيت المقدس (583 هـ/1187 م) ، وتأهبِ ملوك أوروبا لتجهيز حملات عسكرية ضخمة إلَى فلسطين ، استنجد صلاحُ الدين بالسلطان يعقوب المنصور الموحدي لاعتراض سبيل الصليبيين الوافدين بحراً ، إلاّ أن أعمال الأغزاز في أراضي الدولة الموحدية كانت من الأسباب الرئيسية التي حالت دون تلبية المنصور لهذا الطلب .

ولعلَّ يعقوبَ المنصورَ تأثَّر ببسالة الأغزاز وفاعليةِ رُماتهم ، إذ حرص علَى

(22) المصدر السابق . الرسالة الثانية والثلاثون ص 206 ــ 208
(23) المصدر السابق . الرسالة الثالثة والثلاثون . ص 214 .
(24) المصدر السابق . الرسالة السابعة والثلاثون ص 254 . 256 .

تجنيدهم في جيوشه في المغرب والأندلس، وبالغ في إكرامهم لكسب ثقتهم وولائهم له. يذكر ابنُ الأثير أن يعقوبَ المنصور سيّر الأتراكَ «إلَى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدوّ» (25). وقد شارك الأغزاز في الغزاة الكبرى التي قادها المنصور في غرب الأندلس، واسترد فيها مدينةَ شِلْب من أيدي الصليبيين (586 هـ/1190 م)، ولما استعرضَ عناصرَ الجند لدى عودته إلَى إشبيلية «ركب السودانُ علَى النُّجُبِ البيضِ بأيديهم الدورقَ، وعلَى رؤوسهم طراطيرُ الطيلقان الشديد الحمرة، وصدور النجُب منظومة بجلاجيلَ علَى شكل السفرجل، والأغزاز بضروبِ الحلل. وظهر مرأىً تحار فيه الأبصارُ، وتذهل الخواطر والأفكار» (26).

ويشكو عبدُ الواحد المراكُشي من الحفاوة البالغة التي لقيها الغُزّ من جانب المنصور لدى وصولهم إلَى مراكش، والامتيازات التي حظُوا بها دون بقية جند الموحدين. فقد بالغ المنصور «في تكرمتهم، وجعل لهم مزيةً ظاهرةً علَى الموحدين، وذلك أن الموحدين يأخذون الجَامكيةَ [المرتب] ثلاثَ مرات في كل سنة... وجامكية الغُز مستمرة في كل شهر لا تختلّ. وقال [المنصور]: الفَرْقُ بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباءُ، لا شيءَ لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، والموحدون لهم الأَقطاعُ والأموالُ المتأصلة. هذا مع أنه أقطع أعيانَهم [الغُز] أقطاعاً كأقطاع الموحدين أو أوسع. فقد أقطع شعبانَ الغُزّيّ بالأندلس قرى كثيرةً تغلُّ في كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار، هذا خارجاً عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها» (27). إن شعبان الذي يشير إليه المراكُشي كان من أمراء الغز يقرضُ الشعرَ وذا ميولٍ أدبية، وهو شعبان ابن كوجبا من غُزّ المَوْصل، وَفَدَ علَى يعقوب المنصور «ورفع له أمدحا جليلة، وقدَّمه علَى إمارة مدينة بسطة [Baza] من الأندلس. قال أبو عمران بن سعيد: أنشدني لنفسه:

---

(25) ابن الأثير ـ علي: الكامل في التاريخ ـ الجزء التاسع ـ بيروت 1980 ـ ص 172.
(26) البيان المغرب ـ القسم الثالث (خاص بالموحدين) ص 180.
(27) المراكشي ـ عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ القاهرة 1949 ـ ص 289 ـ 290.

يقولون إن العدلَ في الناس ظاهر ولم أر شيئا منه سراً ولا جهراً
ولكن رأيت الناسَ غالبُ أمرهم إذا ما جنَى زيدٌ أقادوا به عَمْروا
وإلاّ فما بالُ النطاسيِ كلَّما شكوتُ له يَمنَى يدي فَصَدَ اليسرى[28]

وكان المراكُشي يعرفه شخصيا ، وهو يُطريه إذ يقول : «... لم يرد المغربَ من هذه الطائفة ـ أعني الغُز ـ ألطفُ حساً ، ولا أزكَى نَفْسا ، ولا احسن محاضرة ، ولا أطيبَ عِشْرةً من شعبان هذا المذكور ، ما لقيتُه إلاّ استنشدني أو أنشدني ... وفي الجملة ، كان له شغفٌ بالآداب شديد ، وكان يقرضُ شيئاً من الشعر ، وربما ندرتْ له الأبياتُ الجيدة»[29] .

وكما تقدَّم ، فإنه بعد أن استسلم للمنصور عددٌ وافرٌ من الأغزاز في قابس وقفصة ، ألحقهم بجيشه ونَقلَهم معه إلَى مراكُش واتخذهم رماةً في غزواته في الأندلس . ولذلك فإن اسم الغُز كثيراً ما يرد في كتب التاريخ الأوروبية في القرون الوسطَى ضمن جيوش الموحدين المحاربةِ في الأندلس . وكان لرماة الغز في جيوش الموحدين شهرةُ رماةٍ سَبْتة ، وكان الواحد منهم يحمل قوساً عُرف بالقوس الغُزِّي ، وكانوا يحتلُّون الصفوفَ الأمامية في الجيش ، ودَوْرُهم شبيه بدور المدفعية في الجيوش الحديثة ، إذ برشقهم للنبال علَى صفوف الأعداء كانوا يمهِّدون لتقدم الفرسان

---

(28) المقري . أحمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس . الجزء الثالث . بيروت 1968 . ص 3 ـ 134 .
(29) المعجب ص 290 ـ 291 .
ودخل الأندلس علَى عهد الموحدين عالم غُزِّي هو عمر بن عثمان الفارسي الغُزِّي من أهل جراسان (في حدود سنة 600هـ) وكان فاضلاً أخذ عنه الناس ورووْا . وحدّثوا عنه بالاجازة . صحيح السماع ثقة فيما يرويه . (ينظر ابن الزبير . أحمد : صلة الصلة . تحقيق إ . ليفي ـ بروفنسال . الرباط 1938 . ترجمة رقم 131
المراكشي . محمد : الذيل والتكملة . السفر الثامن . القسم الأول . تحقيق محمد بن شريفة . الرباط 1984 . ترجمة رقم 29 .
وفي مدينة بسطة الأندلسية يقول شعبان الغُزِّي :
سقى اللهِ صوبَ العيث أكنافَ بَسْطةٍ
ففيها انبساطُ النفس والعين والقلب
ابن سعيد . علي : المُغرب في حُلَى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . القاهرة 1955 . 2 / ص 77 .

والمشاة. وقد نوّه يعقوبُ المنصورُ بالغُز في وصيته حين قال : «وهؤلاء الأغزازُ أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها، فاتركوها علَى ما رتّبنا وربطنا، لأن الموحدين لهم سهام يرجعون إليها، وليس للأغزاز سهام»[30].

ج ـ بعـد الموحديـن :

ويرد ذكرُ الغُز في جيوش الدول التي أعقبت الموحدين في المغرب بعد منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كبني مرين في فاس، وبني عبد الواد (بني زيان) في تلمسان، والحفصيين في تونس.

فقد صار إلَى الأمير المريني يحيَى بن عبد الحق بعد أول انتصار له علَى الموحدين «كتيبةُ الروم والناشبةُ من الغُز»[31]. وقد ساهم رماةُ الأغزاز في الغزوات الأربع التي قادها مجاهداً في الأندلس أولُ سلاطين بني مرين أبو يوسف يعقوب. وفي إحدى هذه الغزوات، عند مهاجمة شريش، «تقدَّمت الأغزازُ ورماةُ المسلمين فرشقوهم بالنبال. ثم رجعت عليهم خيلُ بن مرين والعرب، فهزم النصارى»[32]. وفي غزاةٍ في الأندلس لثاني سلاطين بني مرين أبي يعقوب يوسف «خرج شيخُ الأغزاز قاصداً في مائة فارس إلَى قلعة الوادي [Alcala del Rio] فأغار عليها وقاتلها، فقتَلَ علَى بابها ما يزيد علَى سبعين علجاً وأسر كذلك»[33].

ويورد لسانُ الدين بن الخطيب ـ الوزيرُ والأديبُ الغرناطي، وكان لاجئاً آنذاك بفاس ـ وصفَ شاهدِ عيانٍ لجيش السلطان أبي سالم المَريني (سنة 761 هـ/1360 م) فيقول : «تقدَّمت الجمعَ كراديسُ الغُزِّ الرماة الناشبة، بين

---

(30) البيان المُغرب. القسم الثالث (خاص بالموحدين) ص 208.
(31) الزركشي. محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس 1966. ص 31.
(32) روض القرطاس ص 237.
(33) المصدر السابق ص 240.
وفي وقعة طريف (741 هـ/1340 م) كان جيش بني مرين يضمُّ ـ حسب الروايات المسيحية ـ ثلاثين الف رامٍ يحملون القسيَّ الغُزِّيَّة ـ ينظر :
H illgrth, J.N., The Spanish Kingdoms, Vol. I, Oxford U.P. 1976, p. 341.

أيديهم قوم من مشاهير الميدان وذوي الثِقافة »[34] . كما يبدو أن بعض فِرَقِ الجيش المَريني تأثرت بالأغزاز زياً وزحفاً للقتال ، ففي لقاءٍ مع جيشٍ لأحد الثائرين عليه (763 هـ/1361 م) ، أمر السلطان المريني مَنْ في جيشه «من القبيل المريني بالمناوشة والاختصاص بباكورة اللقاء ، ثم أردفوا بالناشبة ورماة القسيِّ العربية ، فرجفت راياتُهم علَى شأن غُزِّ المشارقة ، من المزمار والطبل ، وحَمْلِ جُمَّةِ الشَّعْر في أرينة سِنانِ الراية »[35] .

ولما بنَى السلطانُ المرينيُّ أبو يوسف بن عبد الحق فاسَ الجديد (المدينة البيضاء) عام 674 هـ/1276 م ، أمر بتقسيم المدينة إلَى ثلاثة أقسام منفصلة ـ القسم الأول للقصور الملكية ، والثاني اصطبلات كبيرة للخيول «أما القسمُ الثالثُ من المدينة ، فقد أُعدَّ لسكنَى الحرس الخاص بالملك ، وكان يومئذ مؤلفاً من المشارقة [الأغزاز] المسلحين بالقِسيِّ ، لأن استعمالَ قاذفات البارود لم يشعْ بعدُ في البلاد ، وكانوا يتقاضَوْن مرتباً عالياً من الملك ... ويشغل اليهودُ في أيامنا هذه [أوائل القرن السادس عشر] جزءَ المدينة الذي كان مقاماً قديماً لحرس الرماة »[36] .

ويبدو أن الأغزاز كانت لهم مقابرُ خاصةٌ بهم ، إذا أخذنا بما يذكره ابنُ أبي زرع الفاسي من أنه في سنة 719 هـ/1320 م أمر السلطانُ أبو سعيد «ببناء الجبوب برأس قبور الأغزاز ، فبُنيتْ »[37] .

وكان للسلطان أبي حمُّو الزيَّاني صاحبِ تلمسان قائدٌ غُزيٌّ هو موسَى بن علي

---

(34) ابن الخطيب . لسان الدين : نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب . تحقيق أحمد مختار العبادي . القاهرة (بدون تاريخ) . ص 311.

(35) المصدر السابق ص 339 .

(36) الوزان . الحسن : وصف إفريقيا . الرباط 1980 . الجزء الأول ص 8 ـ 219 .
يذكر الأميرُ أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر أنه كان عند شهود فاس اصطلاح . يسمُّون الدرهمَ بالغُزِّي «علَى جهة المداعبة . فإذا لَقِي أحدُهم صاحبَه يقول له : هل جاءك اليوم الغُزِّي . أو رأيته ؟ » ـ ابن الأحمر . أبو الوليد اسماعيل : نثير الجُمان في شعر من نظمني وإيَّاه الزمان ، تحقيق محمد رضوان الداية . بيروت 1976 ، ص 434 .

(37) روض القرطاس ص 6 ـ 277 .

الغُزّي عَهِدَ إليه أكثر من مره بقيادة جيشه في حروبه مع المرينيين والحفصيين[38]. وكان ليغمراسن الزياني فرقةٌ من الغُز ورثها عن الموحدين، وأخرى من الأكراد قدمتْ بعد استيلاء هولاكو علَى بغداد (656 هـ/1258 م). ويبدو أن الجماعتيْن اندمجتا آخر الأمر. ولعلَّ مثلَ هذا الاندماج يفسرُّ السببَ الذي من أجله عُرِف موسَى بن علي بالكردي والغزي في آن واحد[39].

أما الحفصيون، فكان جندُهم متعدِّدَ الأجناس، من بينهم علَى عهد أول سلاطينهم أبي زكريا (حكَم 1228 ـ 1249 م) جموعٌ من الغُز القدماء الذين هاجروا إلَى المغرب في مدة بني عبد المؤمن، ونحوُ ألفِ فارسٍ من المماليك الأتراك ابتيعوا من مصر»[40].

هذا، ولم يفقد الأغزازُ أهميتَهم في جيوش المغرب إلاّ بعد ظهور الأسلحة النّارية، وأصبح يُشار إليهم منذ القرن السادسَ عشرَ باسم الأتراك لا الغُز. يقول المستشرقُ الهولنديُّ دوزي إن الغُزَّ فقدوا منذ القرنِ السابعَ عشرَ المكانةَ المرموقةَ التي كانوا يحظَوْن بها في جيوش المغرب، وأصبح يُعهد إليهم بتكبيل السجناء بالحديد، وضربهم بالسياط، ثم بقطع رؤوسهم. ومن الطريف أن اللغةَ البرتغاليةَ احتفظت بكلمة algoz بمعنَى الجلاَّد[41].

---

(38) ابن خلدون، يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق عبد الحميد حاجيات. الجزائر 1980. الجزء الأول ص 213، 216. 217.

(39) هوبنكز: النظمُ الإسلامية ص 1 ـ 152.

(40) العمَري، ابنُ فضل الله أحمد: وصف إفريقية والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة (قطعة مستخرجة من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب. تونس 1922. ص 24.

(41) دوزي، ر.: ملحقُ القواميس العربية. طبعة بيروت 1968. 2/ ص 210

المصطلحات البحرية والمعلومات الملاحيَّة
في رحلة ابن جبير
(578 ـ 580 هـ 3 ـ 1185 م)

أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني فقيه وأديب أندلسي توجَّه من غرناطة إلَى المشرق لتأدية فريضة الحج في 8 شوَّال 578/4 فبراير 1183 م، ودوَّن في (رحلته) ملاحظاتِه اليومية عما شاهده وسمعه وخَبَرَه في رحلته الأولَى هذه الّتي استغرقتْ عامين وثلاثة شهور ونصف الشهر. وتُعتبر هذه الرحلة مصدراً مهمّاً لمؤرخ بلاد الشام إبان فترة الحروب الصليبية، ولمؤرخ صقلية وأحوال مسلميها علَى عهد النورمان.

ومن الناحية الفنية، تُعتبر رحلة ابن جبير ذروةَ ما وصل إليه أدبُ الرحلات العربية [1]. والرحلة أشبه بما يُعرف باليوميات (diaries)، إذ يدوِّن فيها ابنُ جبير أخبارَ رحلته يوماً فيوماً. ووصفهُ حيٌّ شيِّق كأسلوب المُخبرين الصحفيين في عصرنا هذا [2]. وقد صيغت الرحلة بأسلوب بارع يتميَّز بالبساطة والسلاسة والجزالة مَعاً،

---

(1) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. مدريد 1967، ص 472.

(2) بيلا، شارل: دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية، باللغة الأنجليزية). المجلد الثالث. ليدن ـ لندن 1971، تحت «ابن جبير»، ص 755.

مما يَنِمُّ عن موهبةٍ أدبيةٍ أصيلةٍ لدى ابن جبير[3] . وتتخلَّل الرحلةَ عباراتٌ أدبية وفقهية عديدة. كما ضمَّنها ابنُ جبير الكثيرَ من الآيات القرآنية والأمثال والأشعار[4] .

وقد قام ابنُ جبير برحلتين أُخريَيْن إلَى المشرق ، حجَّ في كلٍّ منهما ، ولكنه لم يدوِّن أخبارَهما كما فعل في الرحلة الأولَى. فكانت رحلتُه الثانية (587 ـ 5 / 1189 ـ 1191 م) بُعَيْدَ استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبي بيتَ المقدس من أيدي الصليبيين (583/1187 م) . يقول ابنُ عبد الملك المراكشي : «لما شاع الخبرُ المُبهج المسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس علَى يد السلطان الناصر صلاح الدين ... كان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثتْه [ابن جبير] علَى الرحلة الثانية»[5] . أما الرحلة الثالثة ، فكانت بعد وفاة زوجته عاتكة (601/1305 م) ، وكان كَلِفاً بها ، فعظُم وَجْدُهُ عليها ، ووصل مكةَ وجاور بحرم الله الشريف وببيت المقدس ، وحدَّث هنالك وسُمع منه وأُخذ عنه . ثم تحوَّل إلَى مصرَ فأقام في الاسكندرية يحدِّث ويؤْخَذ عنه ، وتوفي في الاسكندرية في 29 شعبان 614/1 ديسمبر 1217 م[6] .

إن رحلةَ ابن جبير غنيَّةٌ بالمصطلحات البحرية وأخبار الملاحة في البحرَيْن المتوسط والأحمر في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، فيما يتعلَّق

---

(3) بالنثيا . آنخل جنثالث . تاريخ الفكر الأندلسي . تعريب حسين مؤنس . القاهرة 1955 . ص 217 .

(4) تنظر ترجمة ابن جبير في :

المراكشي . محمد بن عبد الملك : كتاب الذيل والتكملة . السفر الخامس . القسم الثاني . تحقيق إحسان عباس . بيروت 1965 . ص 595 ـ 621

ابن الأبار : محمد بن عبد الله : التكملة لكتاب الصلة . القاهرة 1956 . ص 8 ـ 599 .

ابن الخطيب . لسان الدين الإحاطة في أخبار غرناطة . المجلد الثاني . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة 1974 . ص 230 ـ 239

المقَّري . أحمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . الجزء الثاني . تحقيق إحسان عباس . بيروت 1968 . ص 381 . 389 . 485 ـ 492 .

(5) المراكشي ص 605 .

(6) المصدر السابق ص 606 . 621 . ابن الأبار ص 599 .

بالمراكب وأصحابها وركابها، وكذلك فيما يتعلّق بالأنواء وهبوب الرياح ومواسم الأسفار البحرية وقياس المسافات. وقد لاحظ ذلك عددٌ من الباحثين المُحدثَين. يقول محمد مصطفَى زيادة إن رحلة ابن جبير جاءت قاموساً لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية، وتُعتبر وثيقةً في شرح فنون البحر في العصور الوسطَى [7]. ويقول المستشرق الفرنسي شارل بيلا (Ch. Pellat) إن الرحلة مصدر ثمين لدراسة الملاحة في البحر المتوسط في القرون الوسطَى [8]. ويقول حسين مؤنس: «لو درسْنا كلامَ ابن جبير عن البحر والسفن وأوصافه لما رأى وعاين فيه وعليها لكانت من ذلك رسالةٌ غاية في الأهمية عن الملاحة في البحريْن المتوسط والأحمر في القرن السادس/الثاني عشر الميلادي» [9].

وفي بحثنا هذا، سوف نركّز علَى دراسة ما تضمَّنته رحلةُ ابن جبير من مصطلحات بحرية ومعلومات ملاحية دوَّنها هذا الرحالةُ الأندلسي أثناء رحلته الأولَى، التي عبَر فيها البحرَ من سَبْتة إلَى الاسكندرية، ثم من عيْذاب إلَى جُدة، ثم من عكا إلَى صقلية، ثم من صقلية إلَى الأندلس. وسنتناول بالتعليق والشرح هذه المصطلحاتِ ونعقِّبُ عليها بملاحظات تاريخية، حيثما تدعو الحاجة إلَى ذلك. وقد ذيَّلْنا البحثَ بجامعِ مفرداتٍ (glossary) يشتمل علَى 25 اصطلاحاً بحرياً مما ورد في رحلة ابن جبير، مشروحةً ومرتبةً حسب حروف المعجم.

من سَبْتة إلَى الإسكندرية:

كان الإقلاع إلَى الإسكندرية من سَبْتة فُرضة المجاز علَى ساحل المغرب الشمالي والمُطِلَّةِ علَى بحر الزقاق. يقول ابن جبير: «وألْفيْنا بها [سبْتة] مركباً للروم الجنويين مُقلِعاً إلَى الإسكندرية... وأقلعْنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه [عام

(7) زيادة. محمد مصطفَى. رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة. القاهرة 1939. ص 4. 19.
(8) دائرة المعارف الإسلامية. 3/ ص 755.
(9) حسين مؤنس ص 442

578 هـ] وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير [1183 م] ... وكان طريقُنا في البحر محاذياً لبر الأندلس ... قابلْنا بر جزيرة يابسة ثم ... بر جزيرة ميورقة ... ثم جزيره منورقة » [10].

إن أول ما يلاحظه لقارىء حرصُ ابن جبير علَى تدوين التاريخَيْن الهجري والميلادي ، شأْنُه في ذلك شأنُ الكثير من الأندلسيين ، بحكم جوارهم ومخالطتهم للإسبان النصارى ، والمستعربين من أهل الأندلس: كما يفعل شيخُ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيَّان (ت 469/1076 م) في كتابيْه (المتين) و (المقتبَس).

لقد كان المركبُ الذي استقلّه ابنُ جبير مركباً جنويا. فقد آلت إلَى المدن الإيطالية منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي السيطرةُ علَى الملاحة في البحر المتوسط ، بعد أن كانت السيادة البحرية في القرنَيْن السابقَيْن للدول الإسلامية في الأندلس والمغرب والمشرق. وكانت أساطيلُ المدن البحرية الإيطالية ، كجنوة والبندقية وبيزا ، قد لعبتْ دوراً هاماً في إنجاح الحملات الصليبية بنقلها للمحاربين والمؤن والسلاح . إلاّ أن هذه المدن كانت تسعَى قبل كل شيء إلَى تحقيق المكاسب وتأمين مصالحها التجارية. ولذلك فإنها عقدتْ مع سلاطين المسلمين معاهداتٍ تجارية. فالجنويون عقدوا في سنة 1161 م معاهدةً تجاريةً مع أول سلاطين الموحدين عبد المؤمن بن علي. وجُدِّدتْ هذه المعاهدة التجارية أكثر من مرة حتّى نهاية القرن الثاني عشر. وكانت بجاية بادئ الأمر أهمَّ الموانئ المغربية التي كان يقصدها تجّارُ جنوة ومراكبُهم في شمال افريقيا ، ثم احتلَّتْ سَبْتة الصدارةَ في الوثائق الجنوية بالنسبة للفترة من سنة 1179 م إلَى سنة 1200 م. تليها بجاية [11] . ويلاحَظُ أن ابن جبير يذكر المراكبَ الجنويةَ أكثرَ من مرة في رحلته : فقد سافر من سَبْتة إلَى الإسكندرية علَى متْن مركب جنوي. وعاد من عكا إلَى مسِّينة علَى متن مركب جنوي. وسافر من أطرابنش بصقلية عائداً إلَى الأندلس علَى

(10) ابن جبير. أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير. بيروت 1968. ص 8.

متن مركب جنوي. فضلا عن مراكبَ أخرى للجنويين قابلها في صقلية قادمة من الإسكندرية في طريقها إلَى الأندلس.

ويعيِّن ابنُ جبير المراحلَ البحريةَ وأطوالَها بالمجاري، فهو يقول إن المسافة من سبْتة إلَى جزيرة منورقة نحوُ ثمانية مجاري «والمجرى مائة ميل». أما المجرى فيقابل المرحلةَ في قياس المسافات البرية. والمرحلةُ هي المسافة الّتي يقطعها المسافر براً في يوم واحد. وفي الفصل الذي خصَّصه أبو عُبيْد البكري (ت 487/1094 م) للحديث عن المراسي في شمال افريقيا، يَستعمل المجاري لتعيين المسافات بين هذه المراسي، وبينها وبين موانئ مصر والشام [11]. ويُعرِّف ابنُ جبير المجرى بأنه مائة ميل. ولا ندري ما إذا كان يقصد بذلك الميلَ العربيَّ (ويساوي 1941 مترا) أو الميلَ البحريَّ (ويساوي 1852 مترا). ولعلَّه يعني الميلَ البحريَّ الذي كان يستعمله الملاَّحون الجنويون في سفرته.

وابن جبير دقيق الملاحظة بارع الوصف لكل ما كان يجري علَى ظهر المركب. فهو يبادر إلَى تسجيل ملاحظاته بأسلوب أدبي شيِّق لا سيَّما عند اشتداد هبوب الرياح وحدوث الأنواء. ويضمِّن حديثَه إشاراتٍ إلَى بعض الآيات الكريمة، كقوله عند هبوب رياح عاتية في طريق المركب من جزيرة سردانية إلَى جزيرة صقلية «وجاءنا الموجُ من كل مكان [13] ... وزاد البحرُ اهتياجا. وارتدَّت الآفاقُ سوادا. واستشرت الريحُ والمطرُ عصوفا. حتّى لم يُثْبتْ معها شراع. فلُجِىء إلَى استعمال الشُّرعِ الصغار. فأخذت الريحُ أحدهَا ومزَّقتْه. وكسرت الخشبةَ الّتي ترتبط الشُّرعُ فيها. وهي المعروفة عندهم بالقَرِيَّة...» [14].

(11 Krueger, Hilmar . C., "Genoese Trade with northwest Africa in the Twelfth Century", in Speculum, Vol VIII (1933), pp. 379-381.

(12) البكري. أبو عُبيْد عبد الله: المُعرب في ذكر بلاد المَغرب. قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك. تحقيق دي سلان. باريس 1965. ص 81 ـ 86.

(13) إشارة إلَى سورة يونس. آية 22.

(14) رحلة ابن جبير. ص 10.

والقَرِيَّة كما يذكر ابن جبير هي الخشبة التي تربط بها الشرع. وهي لا يُستهان بحجمها، بدليل أن أندلسيا آخرَ قريباً من عهد ابن جبير يورد هذه العبارة «قُلبت القَرِيَّةُ علَى رأسه وفَلَقَتْه» (15). وتبدو قوةُ ملاحظة ابن جبير في إشارته إلَى استعمال البحريين للشُّرُعِ الصغار عند اشتداد هبوب الرياح، للتخفيف من أثرها علَى جري المركب.

ويمضي ابن جبير في تعيين المسافات البحرية بين جزر البحر المتوسط، فيذكر أن المسافة بين بر سردانية وبر صقلية نحو الأربعمائة ميل. وبين صقلية وجزيرة إقريطش (كريت) نحو سبعمائة ميل. ثم بدا منارُ الإسكندرية علَى بعد نحو عشرين ميلا. واستغرقت الرحلةُ من سَبْتة إلَى الإسكندرية علَى متن المركب ثلاثين يوما.

من عَيْذاب إلَى جُـدَّة :

بعد أن زار ابنُ جبير معالمَ الإسكندرية والقاهرة، توجَّه إلَى قوص في صعيد مصر، ومنها إلَى ميناء عَيْذاب علَى ساحل البحر الأحمر. وقد عبَّر عن دهشته لكثرة قوافل الإبل، وما تحمله من توابل الشرق، واستتباب الأمنِ والسلام، فهو يقول: «رُمْنا إحصاءَ القوافل الواردة والصادرة فما تمكَّن لنا. ولا سيَّما القوافل العَيْذابية المحتمِلة لسلع الهند الواصلة إلَى اليمن. ثم من اليمن إلَى عَيْذاب. وأكثرُ ما شاهدنا من تلك أحمالُ الفلْفُل» (16).

كانت هذه التجارةُ مع الشرق احتكاراً للدولة في مصر في العهدَيْن الأيوبي والمملوكي، وكانت تشكّل مصدراً كبيراً من إيرادات الدولة التي كانت تحتكرُ بيعَ توابل الشرق لتجار المدن الإيطالية، الذين كانوا بدورهم يجنون أرباحاً طائلةً من نقل هذه التوابل وبيعها في الأسواق الأوروبية.

---

(15) القشتالي. أحمد ابراهيم: تحفة المغترب ببلاد المغرب. تحقيق فرناندو لاجرانخا. مدريد 1974. ص 23.

(16) رحلة ابن جبير. ص 39.

ويقول ابن جبير إن عَيْذاب «من أجفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحطُّ فيها وتُقلع منها... ولهم [أهل عيذاب] أيضا من المرافق من الحجاج إكراء الجلاب منهم. وهي المراكب... والجلاب التي يصرِّفونها في هذا البحر الفرعوني مُلَفَّقةُ الإنشاء لا يُستعمل فيها مسمارٌ البتَّة. إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه إلَى أن يتخيَّط ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب، ويخلِّلونها بدسُرٍ [أوتاد] من عيدان النخيل. فإذا فرغوا من إنشاء الجَلْبة علَى هذه الصفة، سقَوْها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القِرش [16-أ] [كلب البحرsharrks] وهو أحسنها... ومقصدهم في دهان الجَلْبة لِيَلينَ عودُها ويرطب لكثرة الشِّعاب [الصخور المرجانية coral reefs] المعترضة في هذا البحر. ولذلك لا يُصرِّفون فيه المركبَ المسماري. وعودُ هذا الجلاب مجلوب من الهند واليمن. وكذلك القنبار المذكور. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرُعها منسوجة من خوص شجر المُقل [السِّدْر] فمجموعها متناسب في اختلال البِنْية ووهنِها» [17].

إن وصف ابن جبير لصنع الجلاب واختلال بِنْيتِها أوفَى ما وصلَنا عن بناء هذه المراكب التي شاع استعمالُها في البحر الأحمر والمحيط الهندي في القرون الوسطَى. وقبل ابن جبير، تطرَّق المسعودي (ت 345/956 م) إلَى موضوع الجلاب، وهو يؤكد أن «مراكبَ البحر الرومي والعرب كلُّها ذواتُ مسامير» وأن عدم استعمال المسامير في بناء المراكب «لا يكون إلاّ في البحر الحبشي [الأحمر] لأن ماء البحر يذيب الحديد، فترقُّ المسامير في البحر وتضعف. فاتخذ أهلُها الخياطةَ بالليف بدلا منها وطُليتْ بالشحوم والنُّورة [الكلس]» [18].

(16) أ يقول ناصر خسرو: «وقد حكى لي رجل أعتمد على قوله من مدينة عيذاب قال: كنت في سفينة محمّلة بالجمال لأمير مكة، فمات جمل منها فرموه في البحر فابتلعته سمكة في الحال، ولم يبق خارج فمها غير رجله، فجاءت سمكة أخرى وابتلعت هذه السمكة بالجمل، ولم يظهر عليها أثر ذلك، ويسمّي هذا السمك بالقرش» ـ ناصر خسرو: سفرنامة (رحلة ناصر خسرو). تعريب يحيى الخشاب، بيروت 1970، ص 119.

(17) رحلة ابن جبير، ص 41-42.

(18) المسعودي، أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، القاهرة 1964، ص 163.

وبعد ابن جبير بقرن من الزمن ، ذكر الرحالة الايطالي ماركو بولو أن السفن في هرمز والمحيط الهندي «رديئة جدا ويغرق كثير منها ، لأن ألواحها غير مربوطة بمسامير من الحديد ، بل هي مخيطة بخيطان مصنوعة من قشر جوز الهند... وهذه الخيطان لا تفسد من الماء المالح بل تعمر طويلا... وليس لديهم حديد لصنع المسامير. وهم يستعملون عوضاً عنها أوتاداً من الخشب. ولذلك فإن من المجازفة السفر في هذه المراكب... كما أن مراكبهم لا تُطلَى بالقار بل بنوع من زيت السمك... إن هذه المراكب التي تُبحر في المحيط الهندي كثيرا ما تتحطّم لوهنها. ولو كان البحرُ كثيرَ الاضطراب والهيجان والعواصف كما هو الحال عندنا [في البحر المتوسط] لما استطاع مركب منها إتمامَ رحلته دون أن يتحطّم» (19) .

فماركو بولو يتفق مع ابن جبير بشأن وهن الجلاب ؛ إلاّ أنه يعزو استعمالَ الياف جوز الهند إلَى عدم توفّر مادة الحديد اللازم لصنع المسامير.

ويتحدث الرحّالةُ المغربيُّ ابن بطّوطة بعد ابن جبير بقرن ونصف القرن عن «النارجيل وهو جوز الهند... وشجره شبه شجر النخيل. وعليه ليف شبهُ الشعر. وهم يصنعون منه حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً عن مسامير الحديد... ركبنا البحر من جُدّة في مركب يسمّونه الجَلْبة» (20) .

وتشير وثيقة برتغالية عن رحلة مقدّم البحر البرتغالي كابرال سنة 1500 م ، قرب ساحل شرق افريقيا ، إلَى المراكب العربية في مَلِنْدِه Mulidi (علَى ساحل كينيا حاليا) : «إن هذه المراكبَ حسنةُ الصّنع من الخشب الجيّد ، وهي مربوطة بالحبال ، لأنه ليس عندهم مسامير» (21) .

---

(19) Polo, Marco, the travels, london 1979, pp 66,68, 308

(19)أ ـ يعلّل القزويني عدم استعمال المسامير في بنـاء المراكب لخوف «الملاحين من جبال المغناطيس ـ وهي جبال كثيرة قد عـلا الماء عليها ــ فلهذا لا يستعمل المسامير في هـذا البحر خوفًا من جذب جبـال المغناطيس لها» ـ القزويني ، زكريا: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ص 231.

(20) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد: رحلة ابن بطوطة، بيروت 1968، ص 236 ـ 255.

(21) Freeman Grenville, G.S.P., the east Afraican Coast, London 1975 P. 61.

إن أقدمَ روايةٍ عن الملاحة في البحر الأحمر بلغة أوروبية كتبها رجلٌ من البندقية مجهولُ الإسم عام 1539 م. وهو يذكر أن المراكبَ في البحر الأحمر بدائيةُ الصّنع، وهي محيطةٌ لا مسمَّرة [22].

ويشكو ابنُ جبير من سوء معاملة أهل عَيْذاب للحجيج واستغلالهم لهم «وذلك أنهم يشحنون بهم الجِلابَ حتّى يجلسَ بعضهم علَى بعض وتعودَ بهم كأنها أقفاصُ الدجاج المملوءة... ويقولون: علينا بالألواح وعلَى الحجّاج بالأرواح!» [23].

وابن جبير يسمّي البحرَ الأحمرَ تارةً ببحر فرعون، وتارةً ببحر عَيْذاب، وتارةً ببحر جُدة. وهو في ذلك ينتهج الطريقةَ المتّبعةَ آنذاك في تسمية البحار بأسماء المدن أو البلدان الواقعة علَى سواحلها. فالبحر المتوسط كان يُعرف بالبحر الشامي، وبالبحر الرومي، وببحر الأندلس، وببحر المغرب [23_1].

ولكثرة ما عاناه ابنُ جبير من المتاعب في عَيْذاب وأثناء عبور البحر الأحمر منها إلَى جُدَّة فإنه يقول «والأوْلَى بمن يُمكنه ذلك أن لا يراها [عيذاب] وأن يكون طريقه علَى الشام إلَى العراق... ومنها إلَى عكة. فإن شاء دخل منها إلَى الإسكندرية وإن شاء إلَى صقلية أو سواها. ويمكن أن يجد مركبا من الروم يُقلع إلَى

---

(22) Tibbetts, Gr "Arab Navigation in the Red Sea", in Geographical Journal, Vol 27 (1961), p. 333

ذكرت صحيفةُ التايمز الصادرة في لندن بتاريخ 1981/7/3 أنه وصل إلَى ميناء كانتون بجنوب الصين في 1981/7/2 المركبُ العُماني (صُحار) الذي كان قد أقلع من سلطنة عمان في 1980/11/23 بعد أن قطع مسافةً تُقدَّر بستة آلاف ميل في مدة سبعة شهور وتسعة أيام (220 يوما). ولم تُستعمل المسامير في إنشائه بل أُنشىء بالطريقة القديمة التقليدية، وذلك بربط الواحه بخيوطٍ من قشر جوز الهند وقد أراد مصمّمو المركب (صُحَار) ــ نسبةً لميناء صُحار علَى ساحل عُمان ــ القيامَ برحلة تجريبية علَى ظهر مركب من هذا القبيل. علَى غرار رحلة السندباد البحري ورحلات عرب جنوب الجزيرة العربية في سالف الأزمان عبر المحيط الهندي إلَى الملايو وجزر الهند الشرقية وموانىء الصين.

(23) رحلة ابن جبير. ص 43

(23_أ) يسمّي الرحالة الفارسي ناصر خسرو (منتصف القرن الخامس الهجري) البحر الأحمر بحر القلزم ويقول: «ويسمّى هذا البحر بكل مدينة تقع عليه، فمرة يسمّى القلزم. ومرة عيذاب، ومرة بحر النعام». ــ ناصر خسرو: سفرنامه. ص 118.

سَبْتة أو سواها من بلاد المسلمين» [24]. كما يدعو الله تعالَى أن «يريح منها [عَيْذاب] بعمارة السبيل القاصدة إلَى بيته الحرام، وهي السبيل التي من مصر علَى عقبة أيلة [العقبة] إلَى المدينة المقدسة. وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظَّم يساراً. لكن للإفرنج [الصليبيين] بمقربة منها حصن مندوب [مشحون بالعساكر] يمنع الناس من سلوكه، والله ينصر دينه ويُعزُّ كلمته بمَنِّه» [25].

والحصن المندوب الذي يُشير إليه ابنُ جبير هو حصن التَّوْيك إلَى الجنوب الشرقي من البحر الميت والذي كان في حوزة الصليبي أرناط (Reynald) ـ صاحب حصن الكرك ـ وكان يعترض سبيل قوافل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز. وقد نظم ابن جبير قصيدةً طويلةً يمتدح فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي ـ وكان ابنُ جبير شديدَ الإعجاب بجهاده وورعه وعدله وكرمه ـ وفيها يشير إلَى الكُنْد أرناط :

وعمَّا قليلٍ يحلُّ الردى بكُنْدهمِ الناكثِ الغادر [26]

وتطرَّق ابنُ جبير إلَى نشاط بحري آخر كان يزاوله أهلُ عَيْذاب وهو صيد اللؤلؤ من مغاص في جزائر علَى مقربة من عَيْذاب. وأوانه شهرا يونيو ويوليو. «يذهب الغائصون عليه إلَى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام... والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد. ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة. فإذا شُقَّت ظهرت الشقَّتان من داخلها كأنهما مَحارتا فضة.

---

(24) رحلة ابن جبير. ص 43.

(25) المصدر السابق. ص 44.

(26) ابن شداد. بهاء الدين : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة 1964. ص 53. 77. 8 ـ 79. المراكشي ص 598.
في عام 1187م نكث أرناط صاحب الكرك والشَّوْبك العهدَ وهاجم غدراً قافلة للحجيج في طريقها إلى مكة المكرمة ورفض تسليم الغنائم. وعلَى الاثر واصلت قوات صلاح الدين هجماتها على حِصْنَي الشوبك والكرك. ونذر السلطان أنه إذا ظفر به قتله. فكان ذلك بعد نصره المؤزر في وقعه حطين (583/1187 م). ويسمي ابن شداد صاحبَ الشوبك «مقدَّم الإفرنج البرنس أرناط».

ثم يَشقُّون عليها فيجدون فيها الحبةَ من الجوهر قد غطِّي عليها لحمُ الصدف»(27).

وما إن اقتربت الجَلْبَةُ من بر الحجاز حتّى نشأ نوء أظلم له الأفق، وهبَّت ريح شديدة. فحُطَّ القِلْعُ إلَى أسفل الدقَل وهو الصاري. وكان ربّان المركب وهو الرائس بصيراً بصنعته. ويذكر ابن جبير أخطارَ الشِّعاب التي تكثر في البحر الأحمر وقرب مرسَى جُدَّة «وأبصرْنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنـواتية في التصرف بالجَلْبَة أثناءها أمراً ضخماً. يُدخلونها علَى مضايقَ ويصرِّفونها خلالها تصريفَ الفارس للجواد الرطب العِنان، السلس القياد»(28).

وهنا يشير ابن جبير إلَى ان الـرُّبان في الإصطلاح الملاحي في البحـر الأحمر يقابل الرئيس في اصطـلاح الأندلس والمغرب. كما لاحظ ذلك رحّالةٌ مغربيٌّ آخر هو ابن بطُّوطة بعد ابن جبير بقـرن ونصف القرن، إذ يقـول في رحلته «وهـم يُسمُّون رئيس المركب الـرُّبـان. ولا يـزال أبـدا في مقـدَّم المركب ينبِّـه صـاحب السكّان على الأحـجار، وهـم يسمُّـونها النبـات... وهـذا البحر لا يُسافـر فيـه بالليل لكـثرة أحـجاره»(29) وهـذه الأحـجـار هـي التـي يشـير إليهـا ابن جـبير باسم الـشُّعاب (coral reefs)، وهي صخور مرجانية تشكِّل خطراً كبيراً علَى الملاحة في مراسي البحر الأحمر. ويؤكد كاتب من مدينة البندقية في منتصف القرن السادسَ عشر علَى «أن الخطر الأكبر الذي يُواجِـهُ الملاّحين في البحر الأحمر يتمثَّل في إمكانية سنوح المركب إلَى قاع البحر علَى الشِّعاب التي تكثر قرب الساحل. ولذلك فإن ثمّة حاجة دائماً لوجود شخص يتولّي مراقبةَ السير لتفادي الاصطدام بها... ويُعرَف الواحدُ من هؤلاء المرشدين باسم الرُّبّان»(30). ويستعمل ابن جبير كلمةَ (النواتية) وهي تقابل كلمة (البحريين) في المغرب. والكلمة لاتينيةٌ من أصل يوناني.

---

(27) رحلة ابن جبير، ص 41 ـ 42.
(28) المصدر السابق، ص 45 ـ 46.
(29) رحلة ابن بطُّوطة، ص 238.
(30) Tibbetts, p. 333

استغرق عبورُ البحر الأحمر من عَيْذاب إلَى جَدة ثمانية أيام كابَد أثناءها ابنُ جبير أهوالاً شتّى بسبب وِهَن الجِلاب وكثرة الشّعاب «فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شِعابه المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضعف عُدّة المراكب واختلالها... وربما سنحت الجَلْبة بأسفلها علَى شِعبٍ من تلك الشّعاب أثناء تخلُّلها فنسمع لها هداً يؤْذن باليأس. فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا» (31).

من عكا إلَى جزيرة صقلية:

بعد تأدية فريضة الحج، عرَّج ابنُ جبير علَى العراق والشام. ثم توجَّه من دمشق إلَى عكا. وكانت عكا في أيدي الصليبيين. ولابن جبير ملاحظةٌ قيِّمةٌ عن علاقات المسلمين بالصليبيين في تلك الفترة، كثيراً ما استَشْهد بها مؤرخو الحروب الصليبية. فهو يلاحظ أن «اختلافَ القوافل من مصر إلَى دمشق علَى بلاد الإفرنج [الصليبيين] غيرُ منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلَى عكا كذلك. وتجار النصارى أيضا لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض... وأهل الحرب مشتغلون بحربهم. والناس في عافية. والدنيا لمن غلب» (32).

أمضَى ابن جبير يومَيْن في عكا ثم توجَّه براً إلَى صور «لمطالعة مركبٍ بها أُعلمْنا أنه يتوجَّه إلَى بجاية طمعا في الركوب فيه». مما يدلُّ علَى أن المراكبَ الجنويةَ كانت تقوم برحلات منتظمة عبر البحر المتوسط بين موانىء بلاد الشام ومصر وبين موانىء المغرب، وأن المسلمين ـ حُجَّاجَهم وتُجَّارَهم ـ اعتادوا أن يستقلُّوها في أسفارهم. ويبدو أن ابن جبير لم يتوفّق في الركوب من صور، فعاد بحراً إلَى عكا يلتمس «ركوبَ البحر مع تجار النصارى، وفي مراكبهم المُعَدَّةِ لسفر الخريف، المعروف عندهم بالصليبية» (33). إن هذه ملاحظةٌ دقيقةٌ من جانب ابن جبير. فالصليبية تُستعمل في مصر للدلالة علَى فترة فيضان نهر النيل في شهر سبتمبر، أي في فصل

(31) رحلة ابن جبير ص 47.
(32) المصدر السابق ص 235.
(33) المصدر السابق ص 244.

الخريف حينما تكون الرياحُ السائدةُ هي الرياحُ التجاريةُ الشرقية ، مما يعين المراكب الشراعيةَ المتوجّهةَ من بلاد الشام غرباً عبر البحر المتوسط ، ولذلك فإنها كانت موسمَ السفر البحري من المشرق إلَى الأندلس والمغرب (34)

أقلع المركبُ الجنويُّ الذي استقلَّه ابنُ جبير من عكا في منتصف شهر أكتوبر، والمركب «سفينة من السفن الكبار... وحاز المسلمون مواضعَهم بانفرادٍ عن الإفرنج. وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجّاج بيت المقدس ، عالَمٌ لا يُحصَى ينتهي إلَى أزيدَ من ألفيْ إنسان» (35) .

أما كلمة (البلغريين) التي يستعملها ابنُ جبير فهي من الإيطالية (pellegrini) المشتقَّة من اللاتينية (peregrini) ، بمعنَى الحجيج. ويعرِّف ابن جبير الكلمةَ تعريفاً دقيقاً إذ يقول إنهم من حجاج بيت المقدس من النصارى (36) . وأما ما ذكره ابنُ جبير من أن ركاب السفينة كانوا زهاء ألفيْ راكب فهو قولٌ صحيحٌ لا مبالغة فيه عن حجم المراكب آنذاك ، وتؤيده الوثائقُ في محفوظات مدينة جنوة. ففي وثيقة مؤرخةٍ في عام 1248 م ، يذكر صاحب السفينة (Oliva) أنه حَجز بالفعل 1100 مكان (plaza) في سفينته التي كانت ستتوجَّه إلَى بلاد الشام. ولم تكنْ سفينتُه تلك من أكبر السفن الجنوية ، بدليل أنه كان علَى ظهرها 75 بحّاراً ، في حين أن بعض السفن الجنوية في تلك الفترة كانت تُقلُّ مائةَ بحار. ومما يُذكر أن معظم ركاب هذه السفن كانوا من الحجاج النصارى القاصدين بيتَ المقدس. وكان لا يُحتفظ للحاج لواحد إلاّ بمساحة صغيرة علَى ظهر السفينة. وعلَى هذا الأساس، واستناداً كذلك إلَى ما ذكره ابنُ جبير، فإن في وسع المرء قبولَ ما يُنسَبُ إلَى الملك الأنجليزي

---

(34) دوزي (Dozy) ، ر. ب. أ. : ملحق القواميس العربية ، ليدن 1881 ، 1/ 840 ـ 841.
والصليبية نسبة إلَى عيد الصليب عند الأقباط ، وكان يحتفل به في 26 أو 27 سبتمبر، ويشار إليه عادة باسم الصليب أو الصليبية ، وتطلق الكلمة كذلك علَى الريح التي تهب آنذاك. وفي مثل فلسطيني : «مالك صيفيات بعد الصليبيات» ـ انظر:
Goitein, S.D, A editerranean Society, Vol. I, Univer. of California Press 1967, pp. 317, 482.

(35) رحلة ابن جبير. ص 5 ـ 256.

(36) ينظر جامع المفردات الملحق بالبحث.

ريتشارد الأول، الملقَّب بقلب الأسد، من أنه في طريقه بحراً إلَى سواحل بلاد الشام (1190 م) قابل سفناً للمسلمين تحمِّل الواحدةُ منها 1500 راكب (37).

وفضلا عن حجم المركب وعدد ركّابه، يتحدث ابنُ جبير مُعجَباً عن التسهيلات المتوفرة في المركب، ويشبِّه المركبَ بمدينة «جامعة للمرافق». فكل ما يُحتاج شراؤه يوجد. من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأُدُم. كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي [الدلاّع] والكُمَّثرى والشاه بلُّوط [القَسْطل] والجَوز والحمُّص والباقلاء [الفول] نَياًّ ومطبوخاً، والبصل والثوم والتّينِ والجبنِ والحوت... عاينّا جميعَ ذلك يُباع» (38).

ويعود ابنُ جبير الَى الحديث عن الريح الشرقية التي لا تهبُّ في بلاد الشام إلاّ في فصليْ الربيع والخريف، ولا يكون السفر لذلك إلاّ فيهما. «والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر. وفيه تتحرك الريحُ الشرقية. ومدتّها أقصرُ من المدة الربيعية. وإنما هي عندهم خُلْسَةٌ من الزمان، قد تكون خمسةَ عشرَ يوما وأكثر وأقل... فالمسافرون إلَى المغرب وإلَى صقلية والَى بلاد الروم ينتظرون هذه الريحَ الشرقيةَ في هذيْن الفصليْن انتظار وعد صادق» (39).

أقلع المركب من عكا في يوم 18 أكتوبر 1184 م، وكانت الريحُ موافقةً في الأسبوع الأول، ثم اشتدَّتْ الريحُ الغربيةُ مع حلول فصل الشتاء «فقصفتْ قريَّة الصاري المعروف بالأردمون، وألقتْ نصفَها في البحر مع ما اتصل بها من

---

(37) Byrne, Eugene, H., Genoese Shipping in the Twelfth and thirteenth Centuries Cambridge(Massachusetts) 1930, p.10.

تقدم الحملة الصليبية الثالثة (1189 ـ 1191م) دليلا ملموساً علَى ازدياد حجم السفن الإيطالية والبروفسالية. فقد بلغت من الكبر ما مكّنها من نقل جنود ملك أنجلترا ريتشارد الأول وملك فرنسا فليب أغسطس بحراً إلى بلاد الشام. ومنذ ذلك الحين. تمّ نقل جنود الحملات الصليبية اللاحقة طريق البحر دون سواه. ينظر

Pierenne, H., Economic and Social History of edieval Europe.London 1937. p 33

(38) رحلة ابن جبير. ص 258

(39) المصدر السابق. ص 256.

الشراع ... فتبادر البحريون إليها. وحُطَّ شراعُ الصاري الكبير. وعُطِّل المركب عن جريه. وصيح بالبحريين الملازمين للمُشاري المرتبط بالمركب. فقصدوا إلَى نصف الخشبة الواقعة في البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها... وشرعوا في رفع الشراع الكبير. وأقاموا في الأردمون شراعاً يُعرف بالدلُّون. وبتْنا بليلة شهباء [صعبة] إلَى أن وضح الصباح. وقد منَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بالسلامة. وشرع البحريون في إصلاح قَرِيَّةٍ أخرى من خشبةٍ كانت مُعدَّةً عندهم» [40].

أما الأردمون فهو الصاري دون الصاري الكبير حجماً. وقريَّته هي الخشبة المثبتة به. وأما العُشاري فهو أشبه ما يكون بقارب الإنقاذ في السفنْ الحديثة [31]. وأما الدلُّون فهو شراع دون الشراع الكبير [32]. إن وصف ابن جبير للتدابير التي اتخذها البحريون لمواجهة هذه الأنواء يكاد أن يكون وصفَ خبيرٍ بشؤون البحر، وهو مما يدلُّ علَى دقة ملاحظته واستعماله الاصطلاحات الفنية البحرية، مع أنه ليس من رجال البحر. فعند عصوف الريح وانقصاف قريَّة الأردمون، أنزل البحريون شراعَ الصاري الكبير لإيقاف سير المركب. وأنقذ البحريون ذلك الجزءَ من الأردمون الذي هوَى إلَى البحر، واستعاضوا عنه بشراعٍ يُعرف بالدلُّون.

يذكر مؤرخٌ حديثٌ للملاحة الجنوية في القرنيْن الثاني عشر والثالث عشر أن السفن الجنويةَ الكبيرةَ في القرن الثالث عشر كان في مقدمتها صارٍ عليه شُرُع. وكان علَى كللمن الصواري الأخرى شراعان. وكان يُحتفظ في كل مركب كبير بأربعة أو سبعة شُرُعٍ من أحجام مختلفة، لمواجهة الأنواء البحرية، ولاستعمالها كبديلٍ في حالة العطب في الأسفار البعيدة. كما كان يُحتفظ بقطع إضافية من أقمشة الشُرُع علَى سبيل الاحتياط. وكان الشُرُع مصنوعةً من القطن، وأجودها من صُنْع جنوة

(40) المصدر السابق. ص 7 ـ 258

(41) ينظر جامع المفردات تحت كلمة (عُشاري).

(42) ينظر جامع المفردات تحت كلمة (دلُّون).

هذا. ويرد ذكر الدلون (dolon) في القرن الثالث عشر علَى أنه أصغر شراع بديل للصاري الأمامي والصاري الأوسط. وكان آنذاك شراعاً مثلَّث الشكل (lateen) لا مربعاً.

ومرسيليا. وكان يُحتفظ عادة بشراع أمتن من المشمّع، لاستعماله عند هبوب الرياح العاصفة [43].

ثم سكنت الريحُ وهدأ البحر. ويُعرف ذلك عند البحريين بالغليني، بمعنَى سكون الهواء وركود البحر [44].

ويذكر ابنُ جبير أن عدداً من الركاب المسلمين والنصارى وافتهم المنيَّةُ، فقُذفت جثثهُم في البحر «وورث هؤلاء الأمواتَ... رئيسُ المركب. لأنها سُنَّةٌ عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيلَ لوارث الميت إلَى ميراثه. فطال عجبُنا من ذلك» [45].

ويضمِّن ابنُ جبير أخبارَ رحلته كثيراً من الآيات القرآنية والأشعار والأمثال. لا سيَّما في الملمَّات. فبعد انقضاء أربعةِ أسابيعَ علَى الإقلاع من عكا، عادت الريح فانقلبتْ غربيةً «فحُطَّت الشُّرع. واقتُصر علَى الدلالين الصغار دون أنصاف الصواري... وجاءنا الموجُ من كل مكان. وظننَّا أنّا قد أحيط بنا [46]... ولله درُّ لقائل:

لبحرٌ مرٌّ المذاق صعبٌ لا جُعلتْ حاجتي إليه
أليس ماءً ونحن طينٌ فما عسى صبرنا عليه

ثم يستسلم لقضاء الله وقدره وينشد:

سيكون الذي قضي سخط العبدُ أو رضي [47]

ويلاحظ ابنُ جبير أنه عند هدوء الريح تكون الشُّرع مصلَّبةً أي منشورةً علَى

---

(43) Byrne. pp 6-7.
(44) ينظر جامع المفردات تحت كلمة (غليني)
(45) رحلة ابن جبير. ص 8 ـ 259.
(46) سورة يونس. آية 22
(47) رحلة ابن جبير. ص 260 ـ 261.

هيئة صليب أو خطّيْن متقاطعيْن «وهو عندهم أعدلُ جري» [48].

استغرقت الرحلة من عكا إلَى مسّينة نحوَ شهريْن، وهي عادة تستغرق أسبوعين. وكان ذلك بسبب توالي الأنواء والرياح الغربية. ويذكر ابن جبير أنهم استطلعوا علَى ظهر البحر اهلّةَ ثلاثة أشهر. وكان يرقب الأهلّة ويحسب التواريخ علَى هذا الأساس [49]. ثم وصل بهم المركبُ إلَى مجاز مسّينة الذي يفصل جزيرة صقلية عن البر الإيطالي. وابنُ جبير دقيقٌ في وصفه لضيق المجاز ومخاطر الإبحار فيه معلّلا لذلك. فهو يقول: «وهذا المضيقُ ينحصر فيه البحر إلَى مقدار ستة أميال. وأضيق موضع فيه ثلاثةُ أميال... والبحر بهذا المضيق ينصبُّ انصبابَ السيل العرِم، ويغلي غَلَيان المِرْجَل، لشدة انحصاره وانضغاطه، وشقُّه صعبٌ علَى المراكب» [50].

دنا المركبُ من مسينة في يوم 3 رمضان 580/8 ديسمبر 1184م، وعندئذ وقع للمركب ما لم يكن في الحُسْبان، إذ دُفع نحو البر وتحطّم، ونجا ركابه بأعجوبة. ولندعْ رحالتَنا الأديبَ يصف لنا ما حدث وصفا دقيقا بليغاً، فهو يقول إنه في ليلة 3 رمضان «دهَمتْنا زعقاتُ البحريين بأن المركبَ قد أمالتْه الريحُ بقوتها إلَى أحد البرّيْن، وهو ضاربٌ فيه. فأمر رئيسهُم بحطِّ الشُّرع للحين. فلم ينحطَّ شراعُ الصاري المعروف بالأردمون. وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به. فلما أعياهم مزقّة الرائسُ بالسكين قِطَعاً قِطَعاً طمعاً في توقيفه. وفي أثناء هذه المحاولة، سنح المركبُ بكلكله علَى البر. والتقاه بسكّانيْه [51]، وهما رجلاه اللتان يُصرِّفْبها،

(48) المصدر السابق، ص 261.

(49) المصدر السابق، ص 263.

(50) المصدر السابق، ص 263.

يذكر الإدريسي مجاز مسينة فيقول: «وبحره صعب لا سيما إذا خالف الريح الماء، وإذا التقت المياه الداخلة والخارجة في وقت واحد، فإنه لا يكاد يسلم من نشب بينهما إلاّ أن يشاء الله تعالَى». ينظر: الإدريسي، محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قطعة في (المكتبة العربية الصقلية)، تحقيق م. أماري، ليبسك 1857، ص 34.

(51) كانت السفن توجّه بسكانين جانبيين ثقيلين (timores) عند مؤخر السفينة. وكان أثرهما فعالا في توجيه المركب، وأعجب بفعاليتها جوانفيل مؤرخ الملك الفرنسي لويس التاسع، فهو يتحدث عن السهولة التي كانت توجّه بها السفن الجنوية يمينا وشمالا كسهولة توجيه جواد بواسطة العِنان: ينظر rne

وقامت الصَّيْحةُ الهائلةُ في المركب... وتعاورت الريحُ والأمواجُ صفحَ المركب حتّى تكسَّرت رجلُه الواحدة. فألقَى الرائسُ مرسًى من مراسيه طمعاً في تمسكه به، فلم يُغْنِ شيئاً، فقطع حبلَه وتركه في البحر. فلما تحقَّقْنا أنها هي، قُمْنا فشدَدنا للموت حيازيمَنا[52] ... ونحن نُبصر البرَّ قريباً، ونتردَّدُ بين أن نُلقيَ بأنفسنا إليه سبحاً أو ننتظرَ لعلَّ الفرجَ من الله يَطْلع صبحاً. فأحضرْنا نيةَ الثبات، والبحريونَ قد ضمُّوا العُشاري[53] لإخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم [أمتعتهم]، فساروا به إلَى البر دفعة واحدة، ثم لم يطيقوا ردَّه، وقذفه الموجُ مكسَّراً علَى ظهر البر، فتمكَّن حينئذ اليأس من النفوس. وفي أثناء مكابدة هذه الأحوال، أسفر الصبح، فجاء نصرُ الله والفتح[54]. وحقَّقْنا النظر، فإذا بمدينة مسِّينة أمامنا علَى أقلَّ من نصف الميل، وقد حيل بيننا وبينها، فعجبْنا من قدرة الله عزَّ وجلَّ في تصريف أقداره، وقُلْنا: رُبَّ مجلوبٍ إليه حتفُه في عتبة داره»[55].

وعند شروق الشمس، خفَّتْ من مسينة الزوارق مغيثةً، وخرج صاحبُ صقلية غليام[56] متطلِّعا لتلك الحال. ويحمد ابنُ جبير اللهَ تعالَى علَى كون الملك الرومي حاضرا، فقد أمر بمائة رباعي[57] من سكَّتِه لمساعدة المسلمين، وذلك لأن أصحاب الزوارق المغيثة غالَوْا في أجورهم، فكان حضوره من لطف الله «ولولا ذلك، لانتُهب جميعُ ما في المركب انتهابا، وربما يُستعبد جميعُ من فيه من

(52) الحيزوم وسط الصدر. وشدُّ الحيازم كناية عن الصبر.

(53) كانت بعضُ السفن الكبيرة تحمل أكثر من قارب واحد للإنقاذ (عُشارى). فقد بنيت للملك لويس التاسع في جنوة سفينة كبيرة كانت تحمل أربعة قوارب إنقاذ (عُشاريات) تُسيَّر بالمجاديف ـ Byrne, p. 9

(54) سورة النصر. آية 1.

(55) رحلة ابن جبير. ص 264.

(56) هو وليام الثاني رابع ملوك النورمان في صقلية. حكَم 66 ـ 1189 م. يُنظر عنه وعن أوضاع المسلمين في عهده كتاب (تاريخ صقلية الإسلامية). تأليف عزيز أحمد، تعريب أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس 1980. ص 70 ـ 71. 82 ـ 84.

(57) الرباعي هو ربع الدينار الفاطمي. وقد ظل متداولا في صقلية أثناء فترة حكم النورمان للجزيرة، وعلَى منواله ضربت عملة نورمانية عرفت باسم (طريtari) وكانت كالرباعي شكلا وقيمة.

المسلمين، لأن العادةَ جرتْ لهم بذلك»[58].

من جزيرة صقلية إلَى الأندلس :

أمضَى ابنُ جبير ثلاثةَ شهور ونصفَ الشهر في صقلية النورمانية، زار خلالها الحاضرةَ بلرم، ووصَفَ في رحلته أحوالَ المسلمين فيها علَى عهد النورمان. ثم قَصَد ميناء أطرابنش (Trapani) في الطرف الغربي من الجزيرة. ومرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب «ولذلك يَقصدُ الرومُ كثيراً إليها، ولا سيَّما المُقلعون إلَى برِّ العُدوة [المغرب]، فإن بينها وبين تونس مسيرةَ يوم وليلة، فالسفر منها وإليها لا يتعطَّل شتاءً ولا صيفاً»[59].

وقد لاحظ ابنُ جبير أن صاحبَ صقلية كان جاداً في تجهيز أسطول كبير في كلٍّ من مسينة وأطرابنش، ولكن لم يُعرف مقصدُ هذا الأسطول «وعددُ أجفانه، فيما يقال، ثلاث مائةٍ بين طرائد[60] ومراكب، يقال أكثرَ من ذلك، ويَستعجب معه نحوَ مائةِ سفينة تحمل الطعام... فمنهم من يزعمُ أن مقصدَه الإسكندرية[61]... ومنهم من يقول إن مقصدَه ميورقة... ومنهم من يزعم أن مقصدَه إفريقية... ناكثاً لعهده في السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئةَ من جهة المغرب. وهذا أبعدُ الظنون من الإمكان، لأنه مُظهرٌ للوفاء بالعهد... ومنهم من يرى أن احتفالَه إنما هو لقصد

---

(58) رحلة ابن جبير، ص 265.

(59) المصدر السابق، ص 275.

(60) الطرائد جمع طريدة، وهي سفينة حربية اسطوانية الشكل كانت تستعمل في نقل الخيول والفرسان ـ ينظر جامع المفردات.

61) أغار النورمان بحرا علَى دمياط في سنة 1169 م. وفي سنة 1174 م، قام أسطول نورماني قوامه مائتان وثمانون شينيا بمهاجمة الاسكندرية دون جدوى. وذلك بفضل تحصينات المدينة والقوة العسكرية المصرية التي أعدها السلطان صلاح الدين. كما أغار الأسطول النورماني علَى تنيس مرتين ما بين سنتي 1175 و 1178 م ـ ينظر كتاب (تاريخ صقلية الإسلامية)، ص 71. انظر كذلك :
ابن الأثير، علي : الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، بيروت 1980، ص 129 ـ 130 (تحت حوادث سنة 570 هـ).
ابن شداد، بهاء الدين : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1964، ص 48 ـ 49.

القسطنطينية العظمى ... »[62].

كان صاحبُ صقلية وليام الثاني قد أرسل سنة 576/1180 ـ 1181 م وحدةً بحريةً لمهاجمة الجزائر الشرقية (جزر البَلْيار)، التي كانت عندئذ في قبضة بني غانية من بقايا المرابطين. ولم تُسفر هذه الحملةُ عن أية نتائجَ، إذ إن الجنويين حلفاء النورمان أبرموا صلحاً منفرداً مع بني غانية. وفي الوقت نفسه تقريبا عُقدتْ معاهدةٌ ـ وهي العهدُ الذي يشير إليه ابنُ جبير ـ بين وليام الثاني وبين السلطان الموحدي أبي يعقوبَ يوسف بن عبد المؤمن، ولعلَّ الباعثَ على عقدها هو المصالحُ التجاريةُ المتبادلةُ أكثرَ من العداء المشترك لبني غانية[63].

أما الأنباء الموحشةُ الطارئةُ من جهة المغرب التي يشير إليها ابنُ جبير فهي أنباء استيلاء علي بن غانية صاحب ميورقة على مدينة بجاية من أيدي الموحدين في 7 شعبان 580/13 نوفمبر 1184م، منتهزاً فرصةَ وفاة السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف إثْر غزاة شنترين في 18 ربيع الثاني 580/29 يوليو 1184 م، مُؤمِّلاً في إحياء دولة المرابطين في شمال افريقيا. إلاّ أن الموحدين شنُّوا هجوماً مضاداً واستردُّوا بجاية في صفر 581/مايو 1185 م، أي بعد شهرين من مغادرة ابن جبير لميناء أطرابنش[64]. ويلاحَظُ أن ابن جبير يحرص بالضرورة على مداراة الموحدين والثناء عليهم، إذ إن الأندلس كانت آنذاك جزءاً من إمبراطوريتهم.

أبحر ابنُ جبير من ميناء أطرابنش في 25 مارس 1185 م، مع نيِّف وخمسين رجلا من المسلمين على ظهر ثلاثة مراكب للجنويين. وغيرَ بعيدٍ عن أطرابنش، التقَوْا بمركب مَرْكون الجنوي المُقلع من الإسكندرية، وعلى مَتْنه مائتا رجل ونيِّف من الحجاج المغاربة، كان من بينهم جماعةٌ من أهل غرناطة من أصحاب ابن جبير.

---

(62) رحلة ابن جبير. ص 276 ـ 277.

(63) تاريخ صقلية الإسلامية، ص 71.

(64) لي تورنو. روجر: حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. تعريب أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1982. ص 83 ـ 84.

فأقلعت المراكبُ الأربعةُ سويةً قاصدةً جزيرةَ الأندلس. إلاّ أن الأنواء فرَّقت فيما بين هذه المراكب. ووصلَ المركبُ الذي يُقِلُّ ابنَ جبير إلَى جزيرة يابسة (Ibiza). إحدى الجزائر الشرقية (البَلْيار) وأرسَى بإزاء جزيرة فُرْمنتيرة (Formentera)، وهي جزيرة صغيرة جنوبي يابسة. ومنها لاح لهم عن بُعْدٍ برُّ الأندلس من ناحية دانية. وفي نهاية المطاف، أرسَى المركب في ميناء قرطاجنة الحَلْفاء مساء الخامس عشر من محرم 580/18 أبريلِ 1185 م، ومنها توجَّه ابنُ جبير بطريق البر عائداً إلَى منزله في غرناطة، ماراً بمُرسية ولورقة ووادي آش، بعد غَيْبةٍ دامتْ عامين كاملَيْن وثلاثةَ أشهر ونصف شهر.

جامع للمفردات البحرية Glossary

الواردة في رحلة ابن جبير

أردمون: صاري ، وهو دون الصاري الكبير حجماً. بالإيطالية artimone ، وبالأنجليزيةَ artimon .
وفي الملاحة الأوروبية في القرون الوسطَى شراعٌ مربعٌ صغير لاتقاء العواصف.

بحري (بحريون): نوتي . ملاَّح .

البَلْغريون: حجاج بيت المقدس من النصارى. من الايطالية pellegrini المشتقة من اللاتينية peregrini .

مجرى (مجاري): مائة ميل ، متوسط المسافة التي يقطعها المركب في يوم. والمجرى يقابل المرحلةَ ، وهي المسافة التي يقطعها المسافر براً في يوم.

جَفْن (أجفان): مركب بحري ، سفينة.

جَلْبة (جِلاب ، جَلْبات ، جَلْب): مركب كبير مصنوع من ألواحٍ مخيطةٍ بأمراسٍ من ألياف شجر النارجيل (جوز الهند). وكان هذا النوعُ من المراكب شائعَ الاستعمال في البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى أواخر القرون السوطَى.

حُطَّ الشراع: أُنزل.

دِسَار (دُسْر، دسُر): عود أو مسمار. خيطٌ من ليفٍ تشدُّ به ألواحُ السفينة.

دَقَل / دِقَلْ: صاري ship's mast. والدقل في منطقة المحيط الهندي هو الصاري في منطقة البحر المتوسط. وفي (لسان العرب) الدقَل والدَّوْقل خشبةٌ طويلةٌ تُشدُّ في وسط السفينة يُمدُّ عليها الشراع.

دلُّون (دلاَّلين): شراع في الأردمون. من اليونانية dolon، وهو اسم لشراع مثلَّث lateen في مراكب القرون الوسطَى. وفي القرن الثالث عشر، يرد ذكرُ الدلُّون علَى أنه أصغرُ شراعٍ بديلٍ للصاري الأمامي والصاري الأوسط.

رائس (رؤساء، رُيَّاس): رئيس المركب، قبطان.

ريَّان (ربابنة، ربابين): رائس، قبطان. لعلَّ الكلمة من الفارسية rah-ban.

سُكَّان المركب: (سُكَّانات): دفَّته، رِجْلُه التي يُصرَّف بها ships rudder. ويُعرف من يتولاَّه بالمسكِّن أو صاحب السُّكَّان helmsman.

سَنحَ المركب: اصطدم بصخرةٍ أو شِعْب.

شِعْب (شِعاب، شعبان، شعوب): صخرٌ أو حجرٌ مَرْجاني.

صاري (صواري): عمود يُنصب في وسط المركب وبه تُعلَّق الأشرعة أو القلوع مصلَّبة: علَى هيئة صليبٍ أو خطَّيْن متقاطعيْن.

الصليبيَّة: موسم الإبحار من المشرق في فصل الخريف. نسبةً لعيد الصليب عند الأقباط (26 ـ 27 سبتمبر). وتُطلق الكلمةُ في المشرق كذلك علَى الريح الشرقية التي تهبُّ في أواخر فصل الخريف.

وفي مَثَلٍ فلسطيني «مالَك صيفيًات بعد الصليبيًات».

طَريدة (طرائد): مركب حربي أسطوانيُّ الشكل كان يُستعمل في القرون الوسطَى لنقل الفرسان والخيول، وأكثرُ ما يُحمل فيه أربعون فارسا. وكان بالإمكان إضافةُ مجاذيف إلَى أشرعة الطريدة لزيادة سرعتها لأغراض المطاردة أو النجاة. وقد استعمل الأوروبيون في القرون الوسطَى هذا النوعَ من المراكب، وأخذوا اسمه من العربية. وكانت الطريدة تُعرف في جنوة باسم tarida، وكان بها مجاذيف وأشرعة.

عُشاري (عُشاريات): كثيرا ما ترد التسميةُ في المصنَّفات الأندلسية والمغربية بمعنَى قارب خفيف ذي مجاذيف، ومنها اقتُبست التسميةُ الإيطالية usciere المستعملةُ في القرون الوسطَى. وكانت العُشاريات تُحمل في السفن وتقوم بدوْر قوارب النجاة في السفن الحديثة.

وفي مصر كان العُشاري مركباً صغيراً يُستعمل لنقل البضائع والمسافرين في نهر النيل وبين ضفَّتيه.

غَلَيْني/غلِّيني: ركود البحر وسكونُه. يقال: غلَّن البحرُ أي سكَن. ويورد دوزي (ملحق القواميس العربية، 2/ص 225) غَلينة وغلِّينة بمعنَى هدوء البحر وسكونه.

قَريَّة (قَريَّات، قِرى، قَرايا): خشبة ترتبط بها الأشرعة. عودُ الشراع الذي في عرضه من أعلاه. من اليونانية Keraia.

قِلْع (قلوع، قلع، قلاع) شراعُ السفينة. والقلع هي الكلمة الكلاسيكية التي يستعملها الملاَّحون، أما كلمةُ الشراع فهي قليلة الاستعمال والتداول لدى الملاَّحين.

ميل (أميال): الميل العربي : 1941 مترا
الميل البحري : 1852 مترا
وعند ياقوت الحموي. الميل أربعةُ آلاف ذراع ، وقيل 1333 خطوة.

نَوْء (أنواء): شدة هبوب الريح واضطرابُ البحر.

نُوتي (نوتيَّة ، نَواتيَّة ، نَواتي): بحري ، ملاَّح. والكلمة معرَّبةٌ عن اللاتينية nautieus أو اليونانية nautikos.

جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب

في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من خلال رسائل «جنيزة القاهرة»

رسائل «جنيزة القاهرة» (1) :

إن عبارةَ «جنيزة القاهرة» تُشير إلَى خبيئة من المخطوطات عُثِر عليها في الفسطاط (مصر القديمة)، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وسُرعان ما استحوذتْ عليها المكتباتُ الجامعيةُ في أوروبا وأمريكا، وبخاصة مكتبة جامعة كمبردج في أنجلترا. وقد تمَّ اكتشافُ معظمِ هذه المخطوطات في غرفةٍ للخزين ملحقةٍ بكنيسٍ في الفسطاط، كما عُثِر علَى القليل منها في مقبرة البساتين القريبة من المدينة القديمة.

ويبلغُ عددُ القطع الكاملة من رسائل الجنيزة المحتفَظِ بها حوالي عشرة آلاف قطعة، وأما عدد الأوراق فيصل إلَى ربع مليون ورقة علَى أقل تقدير.

---

(1) عن «جنيزة القاهرة» انظر: مادة Geniza بقلم س، د، جويتين S.D.Goitein في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية باللغة الأنجليزية. المجلد الثاني، ليدن ـ لندن 1965، ص 7 ـ 989.
وكذلك مقدمة كتاب جويتين. Goitein
A Lediterranean Society, vol. I: Economic Foundations, University of California Press 1967, pp. 1-28.
أنظر كذلك مقدمة كتاب س. أ. شكيد S A. Shaked س
A. Te,tative Bibliography of Geniza Documents, Paris and the Hague 1964.

إنَّ معظمَ رسائل الجنيزة مكتوبٌ باللغة العربية بحروف عبرية. ويذهب الباحثون إلَى القول بأن الاحتفاظ بها كان لاعتقاد اليهود بأنَّ الكتابات بحروف عبرية ـ والتي قد تشتمل علَى ذكر اسم الله عزَّ وجلَّ ـ يجب أن لا تُحرَقَ أو تمزَّقَ بل يجب الاحتفاظُ بها ثم دفنُها ـ ومن هنا جاءت كلمةُ «جنيزة» الفارسيةُ الأصل ـ شأنُها شأنُ كلمة «جنازة» بالعربية ـ بمعنَى الدفينة [1-أ].

إنَّ معظمَ مادة جنيزة القاهرة ترجع إلَى عهد الدَّولتيْن الفاطميّة والأيوبية، أي الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلَى منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وأغلبُها يعود إلَى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهي رسائلُ متبادَلَةٌ بين التجار اليهود الذين نزحوا عن إفريقية واستقروا في مصر، وبين أقربائهم ووكلائهم الذين بقُوا في مدن إفريقية وتُشكِّلُ الرسائلُ التجاريةُ أكبَر وأهمَّ نسبةٍ من مجموع رسائل الجنيزة، التي تُعَدُّ مصدراً رئيسياً للتجارة والصناعة، فضلاً عن الملاحة ونقل البضائع براً وبحراً؛ وتُعنَى الرسائلُ بنقل أخبار أسعار السلع المتبادلة، وكميّتها، وبحركة القوافل والمراكب، وأسفار التجار، والوضعِ العامِّ بالبلاد المعنيَّة، وسلامةِ المواصلات. وفضلاً عن الرسائل التجارية، فإنَّ الجنيزةَ تشتمل علَى فتاوَى، وعقودِ تملُّك، وكشوفِ حسابات.

إنّ محتويات رسائل الجنيزة توضح تقريباً كلَّ جانبٍ من جوانب حياة الطبقة الوسطَى (البرجوازية) والدنيا في المغرب ـ بما في ذلك صقلية والأندلس ـ ومصر، وعلَى ذلك فإنها ثمينةٌ بأن تملأ فجوةً تركها المؤرخون الذين انحصر جلُّ اهتمامهم بالأحداث السياسية والعسكرية وحياة الطبقة الحاكمة. وبالنسبة للدراسات الإسلامية، فإن الأهمية الأولَى للرسائل تكمن في مادتها الوثائقية، كالرسائل، وكشوف الحسابات، وسجلات المحاكم، والعقود، وأسعار صرف العُملات.

(1 ـ أ) عن تحريق الكتب فيها اسم الله عند المسلمين، انظر:
ابن مرزوق التلمساني، محمد: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. تحقيق ماريا ـ خيسوس بيغيرا. الجزائر 1981. ص 470 ـ 471.

وبالإضافة إلَى مصرَ ذاتها ، فإنَّ أفريقية وصقلية تتمثَّلُ في رسائل الجنيزة بشـ
ملحوظ . وذلك راجع إلَى مكانة البلدَيْن البارزةِ في تجارة حوض البحر المتوسـ
خلال القرن الخامس/الحادي عشر للميلاد ، ونزوحِ كثيرٍ من يهود المغرب إلَى مـ
في النصف الثاني من ذلك القرن ، عقب الغزوة الهلالية . أما الأندلس ، فإنَّ الرسا
منها قليلةٌ في القرن الخامس/الحادي عشر للميلاد ، ولكنها أوفرُ عدداً خلال القـ
السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي . ومعظمُ رسائل الجنيزة المتصلة بتجارة الهـ
وجنوب الجزيرة العربية ترجعُ إلَى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي
وكان معظمُ المشتغلين بها من اليهود من أصلٍ مغربي .

ويلاحِظُ جُويْتين أنه مع أنَّ رسائل الجنيزة تتناول طائفةً دينيةً معينة ، إلاّ أ
تعالج موضوعاتٍ كالواردات والصادرات ، وأثمانِ السلع ، والصناعاتِ
والمِلاحة ، والوضع العامِّ بالبلاد ، وهي لذلك تُلقِي أضواءً جانبيةً علَى حياة المنط
الاقتصاديةوالاجتماعية[2] . ويزداد اهتمامُ الباحثين ـ باضطراد ـ بأهمية رسائل الجنـ
للباحث في التاريخ الإسلامي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في القرون الوسطَى
وكذلك بالنسبة لتاريخ اللغة العربية [3] . إلاّ أن باحثاً معاصراً بارزاً في التار
الاقتصادي الإسلامي يتساءل عن مدى تمثيل معلومات رسائل الجنيزة للحـ
الاقتصادية والاجتماعية للأكثرية الإسلامية من سكان المنطقة ، وهو يرى أنه يمكـ
التعميم ـ بشيءٍ من الثقة ـ استناداً إلَى المعلومات الاقتصادية ـ دون الاجتماعية
الواردةِ في رسائل الجنيزة ، إذ إن الحياةَ الاقتصاديةَ لمجتمعٍ في فترة معينة تنزعُ إلَى
يكونَ لها صفةٌ عامةٌ تتجاوز حدودَ الطوائف . كما أنَّ الدلائل المستمدَّة من المصا
الإسلامية في القرون الوسطَى تؤكد أوجهَ النشاطَ الاقتصادي التي تصوِّرها رسائـ
الجنيزة [4] .

---

(2) ...itein, S. D., "Medieval Tunisia the Hub of the èediterranean", in Studies in Islamic History and Institittions, Leiden 1966, p. 318.

(3) دائرة المعارف الإسلامية . 2/ ص 988.

(4) ...ovitch, A. L. Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol 17 (1974), p 219 (in a review of Goitein's èediterranean Society, vol II).

إن مما يَلفتُ نظرَ الباحث كونَ رسائل الجنيزة العربية اللغة مكتوبة بحروف عبرية، ويُخيَّلُ إلينا أنَّ القصدَ من وراء ذلك ـ علَى ما يحتمَل ـ كان الحيلولةَ دون اطلاع الآخرين ـ وبخاصةٍ تجار المسلمين ـ علَى ما في الرسائل من أخبار عن السلع وأثمانها، فضلاً عن التعمية علَى السلطات وأصحاب الأخبار الذين قد يحسبونها كتاباتٍ دينية لا تعنيهم. وزيادةً في الحرص من جانب كاتبي الرسائل علَى كتمان ما فيها من معلومات، فإنهم كانوا في بعض الأحيان يستعملون كلماتٍ أو عباراتٍ عبريّةً لطمس مدلولها علَى من لا يعرفُ اللغةَ العبرية. ففي رسالة من القيروان بتاريخ 9/8/1052 م مثلاً، يُخبر تاجرٌ أخاه في الإسكندرية أن ثمن الكتان المصري المُرسَل قبضَه بصعوبةٍ كبيرة، ثم يُضيف بالعبرية «خبأْتُ المبلغَ في باطن الأرض... إذ أُفضِّلُ أن تؤنّبَني ومالُك سالمٌ علَى أن تونّبني ومالُك مفقود»[5]. كذلك عند الإشارة إلَى سلعٍ يُحْظر التعامل بها أحياناً ـ كالحديد والقمح والفضة ـ فإنّ أصحاب الرسائل كانوا يُشيرون إلى السلع بأسمائها العبرية[6].

الوضع السياسي في المغرب في القرن الثاني عشر للميلاد:

يُقصد بالمغرب في هذه الدراسة كافةُ الشمال الإفريقي ـ إلَى الغرب من مصر ـ بما في ذلك صقلية والأندلس.

فس النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كان المرابطون يسيطرون من عاصمتهم في مراكُش علَى المغرب الأقصَى إلَى مدينة الجزائر شرقاً وبلاد السنغال جنوباً، فضلاً عن الأندلس. وفي عهدهم ساد الاستقرارُ في هذه الرُّقعة ـ إلَى أن قام الموحدون عليهم ـ ونشطتْ التجارةُ وبخاصة مع السودان الغربي المصدر الرئيسيٍّ للذهب، فكانت المثاقيلُ المرابطيّةُ لذلك غايةً في الجَوْدَةِ. واكتسبتْ سمعةً عالية، وأصبحت وسيلةَ التعامل الدولي، وكان عليها طلبٌ كبير في

(5) Goitein, A editerranean Society, I, p. 265.

(6) المرجع السابق ص 271.

كافة بلدان حوض البحر المتوسط ، حتّى إنَّ باحثاً حديثاً أطلق عليها اسمَ «دولار القرن الثاني عشر»[7] .

وفي مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، كان حكـمُ النورمان في جزيرة صقلية قد توطَّدَ بعد انتزاعهم الجزيرةَ من أيدي المسلمين ، وأما دولةُ بني زيري في المهدية ، فقد اعترَاها الوهَنُ إثر الغزوة الهلالية ، ونزاعِها مع الفاطميين في مصر ، ومع دولة بني حماد في بجاية ، وتعرُّضها لهجمات الجنويين والبيزيين (1087 م) ، وما نتج عن كل ذلك من تقلّصٍ في رقعة أراضيها التي انحصرت في الشريط الساحلي من أفريقية ، ثم فقدانها لجانب كبير من تجارة القوافل المُجزية مع بلاد السودان ، فضلاً عن التجارة مع صقلية ومصر. وكان النورمان ـ بعد سيطرتهم علَى صقلية يرنون بأبصارهم إلَى بسط سيطرتهم كذلك علَى افريقية ، منتهزين فرصة ضعف دولة بني زيري فيها ، وانشغال المرابطين في مواجهة قيام الموحدين عليهم في المغرب الأقصَى ، وضعف الدولة الفاطمية في المشرق ، وقيام الحروب الصليبية ، إلَى أن تَحقَّقَ لهم ذلك باستيلائهم علَى جزيرة جربة (1135 م) والمهدية (1148 م).
إن النورمان الطامعين في أفريقية كانت تحدوهم إلَى ذلك عواملُ اقتصاديةٌ في المقام الأول. فصقلية وأفريقية ازدهرتا علَى مرِّ العصور ، حينما كانتا وَثيقتَيْ الصلة وتضمُّها دولةٌ واحدةٌ ، كما حدث في أيام القرطاجنيين والرومان والبيزنطيين والعرب ، ذلك أن صقلية كانت المصدر الرئيسيّ للقمح بالنسبة لأفريقية ـ لا سيَّما في سنوات الجفاف والقحط ـ والأخشاب والحرير ، كما أنها كانت تستوردُ من أفريقية زيتَ الزيتون وذهبَ السودان الغربي. إنّ تردِّي الأوضاع في أفريقية الزيرية. وتفسُّخَها ـ بقيام العديد من الإمارات المستقلة ـ وتصدِّي النورمان لمراكب المسلمين في البحر المتوسط المتجهة من مصرَ وإليها ـ إنَّ كلَّ ذلك حدا بالجرابة إلَى ممارسة الغزو البحري ضد مراكب النورمان. وعلَى المرء أن يأخذ بتحفظٍ شديد ما يذكره الإدريسي ـ وكان يكتبُ في بلرم تحت رعاية رجار الثاني ـ عن الخراب الذي لحق بالمنطقة الساحلية من

---

(7) **Goitein, S.D.** Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton University Press 1973, p. 325, n.5.

أفريقية ـ وبخاصة منطقة طرابلس ـ قابس ـ عازياً ذلك إلَى عَيْثِ القبائل العربية ، إذ من المعلوم أنه منذ أن أخذ النورمان جزيرة جربة في خريف 539 هـ/1135 م ، حتّى استيلائهم علَى طرابلس الغرب سنة 541 هـ/1146 م ، تَعرَّضَ ساحلُ أفريقية المذكور باستمرارٍ لغارات النورمان المدمِّرة وعَيْثِهم ، مما جعل الأهالي يلزمون مدنهم ، أو ينتقلون بالضرورة إلَى المناطق الداخلية من البلاد [8] .

وشهد القرنُ السادسُ الهجري/الثاني عشر الميلادي نمواً ملحوظاً في النشاط البحري للمدن الإيطالية ، وبخاصة بعد قيام الحروب الصليبية ، بينما تدنّى مركزُ المسلمين في البحر المتوسط ، نتيجةً لحاجتهم الماسّةِ للأخشاب اللازمة لإنشاء المراكب ، بعد أن فقدوا مصدَرَيْن مهمَّيْن للأخشاب ، هما صقلية وشرق الأندلس ، لا سيَّما منطقة طُرْطوشة (1147 م) . وكان بطُرْطُوشة أكبر دور صناعة السفن عند المسلمين [9] .

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، حلَّ الموحدون محلَّ المرابطين في المغرب والأندلس ، وتوسّعوا شرقاً ، فَقَضَوْا علَى دولة بني حماد في بجاية (547 هـ/1152 م) ، وعلَى دولة بني خُراسان في تونس (554 هـ/1159 م) ، وأخرجوا النورمانَ نهائياً من أفريقية (555 هـ/1160 م) ، فتمّ لهم بذلك السيطرةُ علَى كافة أراضي المغرب والأندلس [10] . إلاّ أنّ الموحدين شُغلوا في الثُّلثِ الأخير من القرنِ السادس الهجري في الأندلس بمحاربة الممالك النصرانية ، وفي أفريقية بالتصدّي لبني غانية من فلول المرابطين في ميورقة ، وقراقوش

---

(8) الإدريسي . محمد : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . الجزائر 1957 . ص 76 ـ 97 .

Brett, M., "Ifriqiya As A Market for Saharian Trade", in Journal of African History, X, 3 (1969), pp. 363-4.

(9) الإدريسي . محمد : صفة المغرب ... والأندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . ليدن 1866 . ص 190 .

المكتبة العربية الصقلية (قطعة من كتاب نزهة المشتاق) . ليبسك 1857 . ص 32 ـ 35 .

(10) التجاني . عبد الله : رحلة التجاني . تونس 1958 . ص 343 ـ 348 .

الغُزّي، والقبائل العربيّة المتحالفة معهم. إنّ هذه الظروفَ ـ فضلاً عن المصالح التجارية ـ اقتَضَتْ أن يسالموا النورمانَ في صقلية والجنويين والبنزيين. فنجدُ الموحدين منذ عام 1160 م يعقدون معاهداتِ سلمٍ وتجارةٍ متجدّدةً مع الجنويين الذين أصبحَتْ لهم في القرن الثاني عشر الصّدارة الملاحيةُ في البحر المتوسط، بالرغم من الحروب التي كان الموحّدون يخوضونها في شبه جزيرة إيبرية ضد الممالك المسيحية فيها، وبالرغم كذلك من استعار الحروب الصليبية في المشرق.

اقتصاديات المغرب والأندلس في القرن الثاني عشر (حسب المصادر العربية والجنوية):

لعلَّ من المناسب إيرادَ نبذةٍ عن غلات بلدان المغرب الزراعية والحيوانية وثروتها المعدنية وصناعاتها ومبادلاتها التجاريّة مستقاةٍ من المصادر العربية، ومن وثائق مدينة جنوة التي كانت ـ في القرن الثاني عشر ـ في طليعة المدن الإيطالية المتاجرة مع المغرب والمشرق. ومن هذا العرض، يمكننا التثبّتُ مما في رسائل الجنيزة من معلومات عن مدى نشاط تجار الجنيزة في معاملاتهم التجارية بين المغرب والمشرق في تلك الفترة. إنّ هذه النبذةَ تُبرز لنا مَغْرباً وافرَ الغلات، كثيرَ الصناعاتِ القائمةِ عليها، كما تُبيِّنُ لنا نشاطَ التجار المغاربة بين أقطار المغرب، وبينها وبين السودان الغربي والمشرق.

في منتصف القرن العاشر الميلادي، يذكر المقدسيُّ المهديةَ ويقول إنها: «خِزانةُ القيروان، ومطرَحُ إصقلية ومصر» (11). وعن واردات الأندلس من المغرب يقول المقدسيّ «تُحمل من برقة ثيابُ الصوف والأكسية. ومن إصقلية الثيابُ المقصورةُ الجيدة. ومن أفريقية الزيتُ والفُستقُ والزعفرانُ واللوزُ والأنْطاعُ والقِرَب. ومن فاس التمورُ وجميعُ ما ذكرنا» (12).

وفي منتصف القرن العاشر أيضاً يذكر ابن حوقل ضمن غلاتٍ عديدة من بلاد

(11) المقدسي. محمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن 1906. ص 226.
(12) المصدر السابق ص 239.

المغرب ما يلي : فمن المرج القَطْرانُ والجلودُ والتمورُ والصوفُ والعسلُ والشمع ، ومن سُرْت الشبُّ السُرْتي والصوف. ومن قابس الحريرُ والجلودُ المدبوغة. ومن صفاقس زيتُ الزيتون ـ مُضيفاً أنَّ «زيتَ مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يُجلب ، لقلّته بالشام» ـ ومن إقليم قرطاجنة القطنُ وكذلك القِنَّبُ والكرويا والعصفرُ والعسلُ والسمنُ والحبوبُ والزيت. والمَرْجانُ بمرسَى الخرز ، والحديدُ والكتان من أرض بونة ، ومن البصرة ـ بشمالي المغرب الأقصَى ـ القطنُ «المحمول إلَى أفريقية وغيرها»[13]. ويوردُ ابنُ حوقل ضمنَ صادراتِ المغرب إلَى المشرق التمرَ والحريرَ والأكسيةَ الصوفيةَ والصوفَ والأنطاعَ والحديدَ والرصاصَ والزئبق[14]. وأما الأندلس فيذكر ابنُ حوقل من غلاتها الزئبقَ والحديدَ والرصاصَ والديباج واللبود[14].

وفي منتصف القرن الحادي عشر ، يذكر أبو عُبَيْدٍ البكري حريرَ قابس فيقول : «وحريرُها أطيبُ الحرير وأرقُّه ، وليس في عمل افريقية حريرٌ إلاّ في قابس». وأما زيتُ صفاقس فمنه «يمتار أهلُ مصرَ وأهلُ المغرب وصقلية والروم». ويصفُ البكري المهديّةَ بأنها «مرفأٌ لسفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها». ويذكر اللوزَ الفريك من إقليم تونس ، والفستقَ في قفصة ملاحظا أنّ «قفصة أكثرُ بلاد القيروان فستقاً. ومنها يُنْشَر بأفريقية ويُحمل إلَى مصرَ والأندلس وسجلماسة». وفي إقليم السوس بجنوبي المغرب الأقصَى تكثر زراعةُ قصب السكّر، ومنه يُستخرجَ السكر الذي يُحمل إلَى جميع بلاد المغرب. ويذكر البكري أودغشت ـ محطةَ القوافل جنوبي الصحراء الكبرى في طريقها من سجلماسة إلَى غانة ـ فيقول إن تَبايُعَ أهلِها بالتبر، وذَهَبُها أجودُ من ذهب أهل الأرض[15].

ومن معادن وطنه يذكر البكري العنبَرَ والقرمزَ ـ «وأطيبُ القرمز قرمزُ الأندلس ،

---

(13) ابن حوقل . محمد : صورة الأرض . بيروت . بدون تاريخ . ص 69 . 71 ـ 75 . 77 . 81 . 95

(14) المصدر السابق ص 109 .

(15) البكري . أبو عُبيْد : المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) . باريس 1965 . ص 17 . 20 . 30 . 41 . 47 . 161 . 159

ومن الأندلس يُحمل إلَى الآفاق» ـ والياقوت الأحمر، والمغنطيس، والمرجان، والذهب، والفضة ـ «ومعادن الفضّة بالأندلس كثيرة في كورة تُدْمير وجبال حَمَّة بَجَّانة» ـ والقصدير، والزئبق، والكبريت الأحمر، ومعدن الكحل «المشبه بالإصبهاني بناحية مدينة طُرْطوشة يُحمل منها إلَى جميع البلاد» [16].

أما الشريف الإدريسيّ الذي صنَّف كتابَه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) بمدينة بلرم في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، فيذكر من معادن المغرب الشبَّ الكُوَّاري، والنحاسَ الخالصَ من جنوب المغرب الأقصَى، والمرْجان من سبتة ومرسَى الخرز، والحديدَ الجيّدَ من بونة والأُربس وبجاية [17]. ويذكر من الغلات الزراعية القطنَ والكمونَ والكروياء والحنّاء في إقليم سجلماسة، وقصب السكر في تارودنت، والقطنَ في أرض تادلة» ومنه كلُّ ما يُعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصَى». ويذكر الإدريسيُّ من غلات قفصة التمرَ والقطنَ والكمون، ومن غلات قابس التمر وزيت الزيتون والرُّطَب. ومن غلات قرطاجنة القطنَ والقِنَّبَ والكروياء، والعصفر. والكتّانَ بأرض بونة. والزعفران في أرض الأُربس، والأخشاب بجبال بجاية [18]. ويشير الإدريسيّ إلَى أهمية تجارة المغرب مع بلاد السودان الغربي، ذاكراً ثلاثةً من المراكز الرئيسية لهذه التجارة: أُوجلة «ومنها يُدخل إلَى كثيرٍ من أرض السودان نحو بلاد كُوَّارٍ وبلاد كَوْكَوْ، وهي في رصيف طريقٍ الواردُ عليها والصادرُ كثير» ، كما أنّ من مدينة زويلة ابن خطاب «يُدخل إلَى جُملٍ من بلاد السودان» [19]. ثم وارقلان التي يتجوّل أهلُها «في بلاد السودان إلَى بلاد غانة وبلاد ونْقارة، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم» [20]. وأهمُّ هذه المراكز أغمات عاصمةُ المرابطين الأولَى قبل بناء مراكُش.

---

(16) البكري ـ أبو عُبيْد: جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك ـ بيروت 1968. ص 125 ـ 130.

(17) الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية . . . ص 25. 49. 85. 86. 63. 86. 108

(18) المصدر السابق ص 78. 50. 75. 76. 81. 63. 86.

(19) المصدر السابق ص 99

(20) المصدر السابق ص 89.

وأهلُ أغمات «أملياءُ تجارُ مياسير، يدخلون إلَى بلاد السودان بأعداد الجمالِ الحاملةِ لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملوّن والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع... ولم يكُن في دولة الملثمين [المرابطين] أحدٌ أكثرُ منهم أمولا ولا أوسع منهم أحوالا »[21]. وعند الحديث عن مسقط رأسه سبتة ـ ذات المياه الغنيّة بالمرجان ـ يقول الإدريسيّ: «وبمدينة سبْتة سوقٌ لتفصيله [المرْجان] وحكّه وصنعه خَرزاً وثقبه وتنظيمه. ومنها يُتجهّز به إلَى سائر البلاد، وأكثر ما يُحمل إلَى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيراً»[22].

أما الأندلس فأهمٌّ صادراتها الحريرُ من إقليم جيَّان «ولها زائدٌ علَى ثلاثة آلاف قرية كلُّها يُربَّى بها دودُ الحرير»، وزيتُ الزيتون من إقليم الشرف بالقرب من أشبيلية «وجلّ تجارتهم بالزيت يُتجهَّز به منها إلَى أقصَى المشارق والمغارب». والتين من إقليم مالقة «وتينها يُحمل إلَى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل إلَى الهند، وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة»[23]. ومن الصناعات الرئيسية بالأندلس صناعة الكاغد بمدينة شاطبة التي يُعمَلُ بها من الكاغد «ما لا يوجد له نظيرٌ بمعمور الأرض، ويعمّ المشارقَ والمغارب»، وإنشاءُ السفن في طُرطوشة ودانية. كما تُصنع في حصن بكيران ـ غربي شاطبة ـ «ثيابٌ بيضٌ تباع بالأثمان العالية. ويعمّر الثوب منها سنين كثيرة. وهي من أبدع الثياب عتاقةً ورقةً حتّى لا يُفرَّقَ بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض»[24].

في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وقع بالمغرب حَدَثان كان لها عواقبُ اقتصاديةٌ وخيمةٌ بالنسبة للأندلس وافريقية. فبعد نحو ربع قرنٍ من الصراع بين المرابطين والموحدين ـ مما شلّ اقتصاد الأندلس والمغرب الأقصَى ـ انتهتْ

---

(21) المصدر السابق ص 42.
(22) المصدر السابق ص 108.
(23) الإدريسي · صفة المغرب والأندلس... ص 202، 178، 200.
(24) المصدر السابق ص 192، 190

دولةُ المرابطين (541 هـ/1147 م)، وفي الوقت ذاته تقريباً سقطتْ قواعدُ مهمة في الأندلس في أيدي النصارى، منها ألمرية وطُرْطوشة ولشبونة. كما أتمَّ نورمانُ صقلية احتلالَهم لساحل أفريقية والإجهاز علَى دولة بني زيري فيها، باستيلائهم علَى المهدية. وها هو الإدريسي يصف لنا الآثارَ الاقتصادية التي ترتبت علَى سقوط ألمرية في يد صاحب قشتالة وليون - بمساعدة أسطولَيْ جنوة وبيزة - فيقول: «كانت [ألمرية] في أيام الملثم مدينةَ الإسلام... كان بها من طُرْز الحرير ثمانمائة طراز، يُعمل بها الحُلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والستور المكلَّلة والثياب المعيَّنة والخُمُر والعتَّابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير... وكانت ألمرية إليها تَقصدُ مراكبُ البحر في الإسكندرية والشام كلِّه»، كما كانت قاعدةَ الأسطول وبها تُنشأ السفن، كما كانت تُصنع بها صنوفُ آلات النحاس والحديد. ومما يدلُّ علَى كثرة الوافدين إليها من التجار أنه كان بها نحوُ ألفِ فندق لإيوائهم [25]. ويصفها ابن غالب بأنها «بابُ الشرق ومفتاحُ التجارة والرزق... وكان يُعمَل بها من الوشي والسقلاطوني والبغدادي وسائر أجناس الديباج وجميع ما يُعمل من الحرير ما لم يُعمَلْ مثله بصنعاء وعدن، ومنها كان يُسْفَنُ إلَى جميع الآفاق... ملَكَتْها النصارى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة [1147 م] ومكثتْ فيها عشرةَ أعوام، ثم استرجعها عثمانُ بنُ عبد المؤمن سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة [1157 م] [27]. ثم يحدثنا الإدريسيّ عما آلتْ إليه هذه المدينةُ المزدهرة بعد سقوطها في أيدي النصارى فيقول «وألمرية في هذا الوقت الذي أَلَّفْنا كتابَنا هذا فيه صارَتْ مِلكاً بأيدي الروم، وقد غيَّروا محاسنَها، وسَبَوا أهلَها، وخرَّبوا ديارَها، وهدموا مشيَّدَ بنيانها. ولم يُبْقوا علَى شيء منها» [27].

وقد حلَّ بالمهدية وقابس مثلُ ما حلَّ بألمرية من عَيْثٍ وسَبْيٍ وتخريب علَى أيدي

(25) المصدر السابق ص 197 - 198. السقلاطون كلمة يونانية تُطلق علَى ثياب الكتان.
(26) ابن غالب، محمد: تعليق منتقَى من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 1، جزء 2، القاهرة 1955، ص 283 - 284.
(27) الإدريسي: صفة المغرب والأندلس...، ص 198.

النورمان، إلاّ أنّ الإدريسي ـ بحكم ظروف تأليفه لكتابه ـ نجده أقلّ حدّةً في وصفه لما حدث لها بسبب النورمان. فعن المهدية يقول «لم تَزَلْ ذات إقلاع وحطٍّ للسفن الجهازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد، وإليها تُجلَب البضائعُ الكثيرةُ بقناطير الأموال علَى مرّ الأيام، وقد قلّ ذلك في وقتنا هذا... وكانت فيما سلف المسافرُ إليها كثير، والبضائعُ إليها مجلوبةٌ من سائر البلاد والأقطار، والأمتعةُ والمتاجرُ بها نافقة...» (28). وأما قابس التي كان البكري ـ قبل أقلّ من قرنٍ من تاريخ تأليف الإدريسي لكتابه ـ قد نوّه بإنتاجها من الحرير إذ قال «وحريرُها أطيبُ الحرير وأرقُّه، وليس في عمل أفريقية حرير إلاّ في قابس» (29)، فإنّ الإدريسي يكتفي بإيراد هذه العبارة المقتضبة «وكان بها فيما سلَفَ طُرُزٌ يُعمل بها الحريرُ الحسن»، دون تعليل ذلك» (30).

ولعلّ من المناسب، قبل الحديث عن العلاقات التجارية بين جنوة وبين بلدان المغرب أن نوردَ أسبابَ تدنّي الأوضاع الاقتصادية في افريقية منذ مطلع القرن الحادي عشر إلَى منتصف القرن الثاني عشر، كما ذكرها جويتين في بحثٍ موثّقٍ قيّمٍ له، وهي بإيجاز: انتقالُ الخلافة الفاطمية إلَى مصر. والغزوةُ الهلالية. واستيلاءُ النورمان علَى جزيرة صقلية، وحروبُ بني زيري ومنازعاتُهم مع جيرانهم، وتحوُّلُ طرق القوافل عبر الصحراء إلَى المغرب الأقصَى بعد قيام دولة المرابطين، وإلَى بجاية، وكذلك إلَى مصر الفاطمية، وظهورُ المدن الايطالية البحرية ـ جنوة وبيزة والبندقية ـ واستئثارُها تدريجياً بتجارة حوض البحر المتوسط. وأخيراً، وليس آخراً، التطوُّرُ الذي طرأ علَى صناعة إنشاء السفن، فأصبحت المراكبُ أكبرَ حجماً وأخذت تنتقل مباشرةً من غربي البحر المتوسط (الأندلس وفرنسا وإيطاليا) إلَى شرقيه (مصر والشام)، فلم تعُدْ بالتالي لافريقية وصقلية مكانتُهما السابقةُ كمحطتين متوسطتين لاستقبال سلع المشرق، ثم تولّي توزيعها في الحوض الغربي للبحر

(28) الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية...، ص 78.
(29) البكري: المغرب في ذكر بلاد المغرب، ص 17.
(30) الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 76.

المتوسط ، واستقبال سلع الأندلس والمغرب ثم تصريفها في المشرق (31)

كانت علاقاتُ جنوة علاقاتٍ عدائيةً مع المرابطين في غربي البحر المتوسط ، بخلاف ما أصبحت عليه مع الموحدين. في سنة 1161 م ، عقد الجنويون مع أول سلاطين الموحدين ــ عبد المؤمن بن علي ــ معاهدةً تجاريةً مهمةً ظلّت تُجدَّد إلَى نهاية القرن الثاني عشر ، ولا يردُ في الوثائق الجنوية ذكرٌ لأعمال عدائية أو مصاعبَ مع الموحدين (32) . ولعلَّ قيامَ هذه العلاقات التجارية بين دولة الموحدين الفتية وبين جنوة يرجع ــ كما أسلفنا ــ إلَى انشغال الموحدين في حروبهم في شبه جزيرة ايبرية ، وانشغالهم كذلك في التصدّي لبني غانية في الجزائر الشرقية أولاً ، ثم في افريقية ، كما يرجع كذلك لمصالح الجانبين التجارية البحتة ، لا سيما وأن تجارة المشرق انقطعَتْ ــ أو كادت أن تنقطع ــ بسبب الحروب الصليبية.

كانت أهمَّ الموانىء المغربية التي تعاملَ معها الجنويون في أعمالهم التجارية بجاية (من 1155 إلَى 1165 م) ، ثم احتلَّتْ سبتة مكانَ الصدارة في أواخر القرن الثاني عشر ، ووهران ، وطرابلس الغرب. ويرد ذكرُ جزيرة جربة دون قابس في الوثائق الجنوية (33) .

كانت جنوة تصدِّر إلَى بلاد المغرب بعضَ منتجاتها ، إلاّ أنَّ معظم البضائع كانت من لمبارديا وفلاندرز والأندلس والمشرق ، بحيث كان دَوْرُ الجنويين دَوْرَ الوسيط ، كما كان الحالُ بالنسبة لافريقية في القرنين العاشر والحادي عشر. وأهمُّ السلع التي ورد ذكرُها في الوثائق الجنوية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر هي : الفساتين ، والأقمشة الكتانية والحريرية ، والسجاجيد ، ومواد الصباغة كالزعفران واللاك (يُعطي لوناً أحمر) والنيلة. ثم الأحجارُ الكريمة ، والعطور ، والمِسْك ، والتوابل (وبخاصة الفُلْفل) ، والتين المجفّف ، والنحاس ، والورق ،

---

(31) Goitein, S.D., "Medieval Tunisia", PP. 308-311

(32) Krueger, H.C., "Genoese Trade with North West Africa in the Twelfth Century" in Speculum, vol VIII (1933), Cambridge, Massachusetts, p. 397.

(33) المرجع السابق ص 380 ــ 383.

وملح النُّشادر (لاستعماله في الدباغة)، والميروبالان (من الهند، وكان يُستعمل كُمسْهلٍ ومُهَضِّم، وفي الدباغة والصباغة) [34]

أما السلع التي كانت جنوة تستوردها من بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، فهي الجلود والمصنوعات الجلدية والقِرَب والصوف، والشبُّ (وكان يُستوردُ بكميّات كبيرة من شمال أفريقيا لاستعماله في الدباغة والصباغة)، والذهب وتبر الذهب، والقمح (ويرد ذكرُهُ في كلّ الوثائق، وبخاصة من سبتة ووهران وجربة) [35].

إن الجنويين كثيراً ما اتخذوا من بلدان المغرب منفذاً أو سوقاً لبيع الأقمشة الكثيرةَ التي كان يجلبها تجارُ شمال أوروبا من أسواق شامبين وفلاندرز ومن مراكز صناعة الأقمشة في لمبارديا. وفي المقابل، كان الجنويونَ يُرسلون إلَى لمبارديا وشمال أوروبا الكثيرَ من الجلود والشبّ، مما يجلبونه من مدن المغرب. وانَّ الكثير من مواد الصباغة والتوابل والأحجار الكريمة واللآلىء التي كانت تصل من الشرق إلَى موانىء مصر والشام، كان التجارُ الجنويون ينقلونها في سفنهم من الإسكندرية وبلاد الشام، ويبيعونها ـ لا في أسواق جنوة ذاتها ـ بل في أسواق المسلمين في شمال افريقيا [36].

لمحة عامة عماً في رسائل الجنيزة من معلومات عن اقتصاديات المغرب :

عكفْ الباحثون علَى دراسة رسائل جنيزة القاهرة منذ اكتشافها، وفي طليعة هؤلاء الباحثين س. د. جويتين، الذي نَشَرَ علَى مدى ثلاثين عاماً العديدَ من البحوث والدراسات في الدّوريات والمجلات العلمية، عن مختلف جوانب محتويات رسائل الجنيزة، وتوّج دراساته بأنْ أصدرَ في السنوات الأخيرة أربعةَ مجلداتٍ ضخمةٍ من الدراسات عن هذه الوثائق بعنوان (مجتمع البحر المتوسط ـ الجماعات

(34) Krueger. H. C., ' The Wars of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century in Speculuen, vol. Xii (1937), cambridge, Lassachusetts, pp. 9. 59-67.

(35) المرجع السابق ص 68 ـ 70.

(36) المرجع السابق ص 70ـ 71.

اليهودية في العالم العربي ، كما تصوّرها وثائقُ جنيزة القاهرة) [37] . والحقّ يقال إنّ دراسات جويتين ـ الذي يُجيد اللغتين العربيةَ والعبرية ـ تتميّز بالعمق والتمحيص والدقة . وكان جُلُّ اعتمادنا في هذه اللمحة علَى المجلد الأول من تلك المجلدات الأربعة ، وهو يتناول الأُسسَ الاقتصادية لذلك المجتمع .

إنَّ معظمَ رسائل جنيزة القاهرة تَبادلَها التجارُ اليهود ـ من افريقية أصلاً ـ بعد نزوحهم واستقرارهم في مصر ، مع أقاربهم ووكلائهم التجاريين في مدن أفريقية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . وتبين رسائلُ الجنيزة بمُجملها أنّ العالم الإسلاميّ آنذاك ـ من المغرب الأقصَى والأندلس غرباً إلَى عدن شرقاً ـ كان يشكِّلُ جماعةً تجاريةً حرّةً Free trade Community لا تتدخل فيها الدول ـ بالرغم من اختلافها سياسةً ومذهبا ـ في نشاط الأفراد الاقتصادي ، ولم يكُنْ يُفرَّق فيها بين التجار المحليين ، والتجار الأغراب ، وكان علَى أهل الذمة ـ كاليهود ـ أن يؤدّوا الجزيةَ وأن يُبرزوا ـ أينما كانوا ـ شهادةً تُثبت أداءهم لها . وأما الأجانب من خارج العالم الإسلامي ، فكان عليهم دفعُ رسم العشور في مناطق الحدود [38] . وكان النصارى يعامِلون تجارَ المسلمين بالمثل ، كما يفيدنا بذلك الرحالةُ ابنُ جبير أثناء مروره ببلاد الشام في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، فهو يقول : «واختلافُ القوافل من مصرَ إلَى دمشق علَى بلاد الإفرنج غيرُ منقطع . واختلافُ المسلمين من دمشق إلَى عكة كذلك . وتجارُ النصارى أيضاً لا يُمنَعُ أحدٌ منهم ولا يُعتَرض . وللنصارى علَى المسلمين ضريبةٌ يؤدّونها في بلادهم . وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين علَى سلَعِهم ...» [39] .

ويُستفاد من رسائل الجنيزة أنّ اليهودَ في المجتمع الإسلامي كانوا يمتزجون بحريةٍ

---

(37) Goitein S.D. A èediterranean Society. The Jewish communities of the Arab world as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, University of California Press

(38) Goitein, S.D. A Mediterranean Society, vol, I University of California Press, 1967, pp. 61, 70, 344.

(39) ابن جبير، محمد : رحلة ابن جبير، بيروت 1968 ، ص 235.

مع جيرانهم ، ومع أنه كان لهم أحياء خاصةٌ بهم ، إلاّ أنهم كانوا يستأجرون مساكنَ من المسلمين وبالعكس . وبخلاف ما كانت عليه الحالُ في أوروبا في أواخر القرون الوسطَى ، فإننا نجد يهودَ الجنيزة يمارسون مختلفَ الحرف بما فيها الزراعة ، ولو أنهم كانوا بارزين في بعض الحرف كالصياغة وصناعة الحرير والصباغة وصناعة الزجاج والمواد الصيدلية . كذلك فإنَّ قيامَ شركـاتٍ بين المسلمين واليهود في التجارة والصناعة لم يكنْ أمراً غيرَ مألوف(40) .

إنَّ نشاطَ تجار الجنيزة انحصرَ في البلاد الإسلامية ، وكان تجارُ الروم يفدون بأنفسهم إلَى أسواق المنطقة العربية لشراء السلع . وفي رسالةٍ كُتِبَتْ حوالي سنة 1050 م ، نقرأ أنَّ تجارَ الروم اشترَوْا كمياتٍ كبيرةً من المرْجان من افريقية . ولما كان هؤلاء الروم لا يستطيعون تصديرَه إلَى الهند إلاّ عن طريق مصر والشام ، فإنَّ ذلك يعني أنَّ التجارَ الأوروبيين ـ منذ تلك الفترة المبكرة (قبل بدء الحروب الصليبية بنصف قرن) ـ أصبحوا يتاجرون بين بلدٍ إسلامي وآخر(41) .

ويتبيَّن من رسائل الجنيزة أنَّ أهمَّ واردات افريقية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الملادي كان الكتانَ الخام بمختلف أصنافه من مصر ، وهو أكبرُ المواد بروزاً في رسائل الجنيزة ، وكانت البلادُ التونسيةُ آنذاك تصنع المنسوجاتِ الكتانية الفاخرة ـ وقد شُبِّهَتْ بمقاطعة لانكشير مركز صناعة المنسوجات القطنية بأنجلترا والتي كانت في البداية تعتمدُ علَى القطن الخام من مصر ـ وكان للثياب السوسية (السوسيات) شهرةٌ في المشرق(42) . كما كانت تستوردُ من مصر ـ أو عن

---

(40) Goitein, A. Mediterranean Society I. PP. 70-71

(41) Goitein S D." Mediterranean Trade in the Eleventh Century" in Studies in the Economic History of the Middle East (ed. è A. Cook, London)

(42) يذكر أبو شامة أن الفرنج الصليبيين استولوا علَى مركبيْن للمسلمين في طريقهما من مصر إلَى الشام . وكان علَى ظهرهما أمتعة تشتمل «عدة من الأثواب السوسية» ـ أبو شامة . عبد الرحمن : كتاب الروضتين . القاهرة 1962 . 1/2 ص 517 .
وعن الثياب السوسية وجودتها . انظر : البكري . ص 36 .
ومؤلف مجهول الاسم : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . الإسكندرية 1957 . ص 119 .

طريقها ـ السكرَ ومنتجاتِ الشرق الواردةَ إلَى مصر، وفي مقدمتها التوابل ـ كالفُلفل والقرفة والقرنفل ـ والعطور ومواد الصباغة والدباغة ـ كالبقَمِ واللاك والنيلة ـ والمواد الكيماوية ـ وبخاصة النشادر ـ والعقاقير الطبية. وكانت أهمّ صادرات أفريقية إلَى مصر الثيابُ الكتانية، والذهبُ والفضةُ ـ نقوداً وقطعاً ـ والحرير (وكان يأتي من صقلية والأندلس، ثم يعاد تصديره)، والمعادن ـ كالنحاس والرصاص والزئبق (لا يرد ذكرُ الحديد في الرسائل) ـ وزيتُ الزيتون، والعسل، والصابون، والشمع، والزعفران، والقار، واللوز المقشور، والأنطاع، والمرجان، والكتبُ (العربية والعبرية) وجلُودها المُزركشة (43).

في النصف الأول من القرن الحادي عشر، تورد رسائلُ الجنيزة أخبارَ إرسالِ كميات وافرة من العُمْلات الذهبية والفضية من افريقية إلَى مصر ثمناً للمنتجات المستوردة من مصر والشام والعراق، ثم تبدَّل الحالُ بعد الغزوة الهلالية وانقطاع مورد افريقية من ذهب السودان الغربي. وفي أواخر القرن الحادي عشر، كان الدينارُ المضروبُ في المهدية «مُموَّهاً» لتدنّي نسبة الذهب فيه، ولذلك فإن التجار الأجانب كانوا يبيعون سلعَهم بالدنانير المهدوية، ثم يبادرون إلَى شراء عُمْلةٍ متداوَلَةٍ دَوْلياً، وبخاصة الدنانير أو المثاقيل المرابطية، التي أخذت في أواخر القرن الحادي عشر تحلُّ محلَّ الدنانير الفاطمية في تجارة حوض البحر المتوسط (44).

إن رسائل الجنيزة غنيةٌ بالمعلومات عن الأسفار ونقل البضائع براً وبحراً، ومنها يتبيّن أنه لم تكن ثمةَ قيودٌ علَى السفر بين افريقية الزيرية ومصر الفاطمية، بالرغم من القطيعة التي نشأت بين الدولتين. وأن انتظامَ حركة القوافل والمراكب كان من شأنه أن انقسم العام إلَى مواسم نشاطٍ تجاري وأخرى ركودٍ تجاري، وهذا الوضع تعكُسه رسائلُ الجنيزة. كما أن الأعيادَ الإسلاميةَ كانت مناسبةً كبرى لبيع البضائع وبخاصة الملبوسات ـ وقد وردت العبارةُ التاليةُ في إحدى الرسائل «قد تحرّكت

---

(43) Goitein, "Medieval Tunisia", , pp. 321- "Mediterranean Trade" PP. 56-57

(44) Goitein, A Mediterranean Society, I.p 235

المعيشة ، وهو موسم»[45] . وفي فصل الشتاء ، حينما تتوقف الملاحة في البحر المتوسط ، كانت تتوجه من القيروان إلَى مصر ثلاثُ قوافل ، فضلاً عن قافلة سجلماسة إلَى مصر عن طريق القيروان ، وكانَ يشار إلَى تحركها «بيوم مَشْيِ الموسمِ» ، وكانت القوافل تُعرف بالمواسم لأنها كانت تتحرك في مواسمَ مُعيَّنة . وقد ازدادَ الاعتمادُ علَى المراكب للسفر ونقل البضائع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، بعد الغزوة الهلالية ، واختلال الأمن في افريقية . وبالنسبة لأصحاب رسائل الجنيزة فإن الأسفار كانت في معظمها بحراً حتّى بين مصرَ وافريقية[46] . والمراكبُ البحريةُ لم تكنْ هي الأخرى بمأمنٍ من القرصان ، وفي إحدى رسائل الجنيزة وصفٌ لهجوم شنَّه رجالُ ابنِ الثمنة ـ المتعاونِ مع النورمان بصقلية ـ قرب جرجنتGirgenti ـ علَى ساحل صقلية الجنوبي ـ علَى سفينة تونسية ، ونهبوا ما كان علَى ظهرها من منسوجات[47] .

وبالنسبة للقرن الثاني عشر الميلادي ، يرد في إحدى رسائل الجنيزة ذكرُ شحنٍ ثماني قطعٍ فخاريةٍ من النوع المعروف في الأندلس والمغرب باسم «المُخْفيات» تمَّ إرسالها من الأندلس إلَى مصر[48] .

وكانت جلودُ الكتب وأغْلفتُها تُصدَّر من أفريقية إلَى مصر جاهزةً ، وكلُّ ما ذُكِرَ عنها في رسائل الجنيزة أنها كانت مربعة . وتُشير رسالةٌ من منتصف القرن الثاني عشر إلَى إرسال 12 جلداً أحمرَ اللون ، وستةِ جلودٍ سوداء ، وخمسةِ جلودٍ بيضاء[49]

وثمة كشفُ حسابٍ مفصَّلٌ عن شحنة من الأرجوان أُرسلَتْ حوالي سنة 1100 م من الفسطاط إلَى البلاد التونسية ، يبيِّن أنَّ ثمن البضاعة في بلد

---

(45) المرجع السابق ص 449 .
(46) المرجع السابق ص 195 . 275 . 277 . 280 .
(47) المرجع السابق ص 330 .
(48) المرجع السابق ص 111 . ينظر دوزي
Dozy, R. Supplément aux dictionnaires arabes. Leiden 1881 I, p 387.
Goitein, A Mediterranean Society I, P 112 (49)

المنشأ $\frac{1}{4}$ 66 دينار مصري ، وأنها بيعت بمبلغ $\frac{7}{24}$ 264 دينار محلي [=94 ديناراً مصرياً] . وبلغت تكاليفُ الشحن والمكوس حوالي 14 ديناراً . وعلَى ذلك فإنَّ نسبةَ الربح الصافي كانت 23٪ (50) .

وترد عبارةُ «واجب مُشتَرى» ــ نوع من ضريبة الشراء Purchase Tax ــ في إشارةٍ إلَى المهدية سنة 1100 م ، وكانت حوالي 7 , 2٪ من ثمن البضاعة (51) .

وكما تقدَّم ، فإنَّ المثاقيلَ المرابطية كان عليها إقبال كبيرٌ في القرن الثاني عشر الميلادي لجودتها ، بحيث أصبحتْ عُملة التبادل في منطقة البحر المتوسط . ففي رسالة جنيزة إلَى تاجر في الفسطاط من وكيله التجاري في المهدية حوالي سنة 1100 م ، يقول الوكيل «أرسلتُ لكم 100 دينار مرابطي وازن ، وثمنُها بعملة المهدية ــ 1/3 دينار . وكان شرائي لها بعد عناءٍ ومشقةٍ كبيرَين . وهي دنانير بكْرية [نسبة للأمير المرابطي أبي بكر بن عمر المتوفّى سنة 480 هـ/1087 م] واغْماتية [مضروبة بأغمات عاصمة المرابطين قبل بناء مدينة مراكش] » (52) .

وفي حدود سنة 1100 م ، أرسل تاجرٌ بالإسكندرية ثلاثَ عشرةَ سبيكةً من الفضة تزن 2900 درهم إلَى المغرب ، وأرفَقَها بالتعليمات التالية : اشترِ لي دنانيرَ مرابطيةً أغماتيةً أو رباعيات [لعلَّه يقصد ربعَ الدينار أو الرباعي المضروبَ بصقلية علَى عهد النورمان ، والمعروف عندهم باسم طري tari] ، ولا تشترِ شبراً واحداً من القماش » (53) .

وفي سنة 1100 م تقريباً ، أرسل تاجر في مصر شحنةً من الأرجوان إلَى مدينة صفاقس ، واشترى وكيلُه بثمنها كميةً كبيرةً من الدنانير المرابطية المضروبة بمدينة مراكُش ، ولم يحوِّلْ إلَى العملة المحليّة سوى قطعتين من الذهب (54) .

---

(50) المرجع السابق ص 202 .
(51) المرجع السابق ص 271 .
(52) المرجع السابق ص 235 .
(53) المرجع السابق ص 636 .
(54) المرجع السابق ص 340 .

أما المراكب فإنه كان يُشار إلَى أصحابها بألقابهم لا بأسمائهم. في رسالةٍ مورخةٍ في سنة 1140 م، إشارةٌ إلَى «مركب السلطان» وعن إبحاره مع «مركب القائد» من الأندلس إلَى مصر، والسلطان في هذه الحالة هو صاحب بجاية يحيى ابن عزيز، وأما القائد فهو علي بن عيسَى بن ميمون قائدُ الأسطول المرابطي في ألمريَّة، إذ يردُ ذكرُهما في معاهدةِ سلمٍ مبرمةٍ مع بيزة سنة 1133 م (55). وفي خطاب مؤرخ في أبريل عام 1137 م، يذكرُ الكاتبُ أنَّ مركباً كبيراً تمَّ إنشاؤه وأنه يأمل في أن يسافر فيه من الأندلس إلَى مصر حينما يصبح البحر آمناً من هجمات العدو. ولعلَّ هذا المركبَ هو «مركب السلطان» الذي وصل إلَى الإسكندرية في سبتمبر عام 1140 م (56). ويلاحظ جويتين أنه في حين أنه تمكَّن من جمع أسماء 150 مركباً للمسلمين من رسائل الجنيزة في القرن الحادي عشر، فإنه لم يجدْ في رسائل القرن الثاني عشر سوى «مركب السلطان» و «مركب القائد» المشار إليهما (57). لقد آلت إلى المدن الإيطالية في القرن الثاني عشر الميلادي السيطرةُ علَى الملاحة في البحر المتوسط، بعد أن كانت السيادةُ البحريةُ في القرنين السابقين للدول الإسلامية في الأندلس والمغرب، وكان من أهم الأسباب لذلك افتقارُ المسلمين لموارد الأخشاب بعد فقدان صقلية وشرق الأندلس. ويُلاَحَظُ أن ابن جبير يذكر المراكبَ الجنويةَ أكثرَ من مرة في رحلته: فقد سافر من سبتة إلَى الإسكندرية علَى متن مركب جنويٍّ، وعاد من عكا إلَى مدينة مسينة علَى متن مركب جنوي، وسافر من أطرابنش بصقلية عائداً إلَى الأندلس علَى متن مركب جنوي، فضلاً عن مراكب أخرى للجنويين قابلها في صقلية قادمةً من الإسكندرية في طريقها إلَى الأندلس، كما يذكر ابن جبير أنه قصدَ صور «لمطالعة مركبٍ بها أُعلمْنا أنه يتوجه إلَى بجاية طمَعاً في الركوب فيه»، مما يدل علَى أنَّ المراكب الجنويةَ كانت تقوم برحلات منتظمة عبر البحر المتوسط بين موانىء بلاد الشام ومصر وبين موانىء المغرب، وأن المسلمين

---

(55) المرجع السابق ص 310.
(56) المرجع السابق ص 308.
(57) Goitein, Trade..." p. 22

ـ حُجّاجَهم وتجارَهم ـ اعتادوا أن يستقلُّوها في أسفارهم [58].

ولم تكن الأسفارُ البحريةُ مأمونةً في القرن الثاني عشر أيام الحروب الصليبية، وغارات النورمان المتكررة علَى ساحل أفريقية، وسطوهم علَى مراكب المسلمين في وسط البحر المتوسط. وتتحدث إحدى رسائل الجنيزة في أوائل القرن الثاني عشر عن مركبٍ أندلسيٍّ أقلع من المهدية ودافع عن نفسه ضِد هجوم نصراني، إلاّ أن سفينةً مغربيةً أقلعتْ بعد ذلك المركب بقليلٍ صدمها العدو، فجنحتْ إلَى البر بعد أن تمكَّن المهاجمون من نهب شحنتها وسَبْيِ معظم ركابها [59].

مقتطفات من تسع رسائل من جنيزة القاهرة من القرن الثاني عشر:

إن رسائلَ الجنيزة منِ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ـ وبخاصة النصف الثاني منه ـ قليلةٌ بالنسبة لما كانت عليه في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي فيما يتصل بالمغرب والأندلس، ولكنها أوفرُ عدداً فيما يتصل بنشاط التجار اليهود ـ من أصلٍ مغربي ـ في منطقة المحيط الهندي. ويرجع ذلك إلَى أسبابٍ اقتصادية وسياسية. فمنذ بداية القرن الحادي عشر، أخذ كثيرٌ من تِجار اليهود بالمغرب والأندلس ينزحون إلَى مصر بعد انتقال الخلافة الفاطمية إليها من افريقية، وإثر الغزوة الهلالية، واحتلال النورمان لجزيرة صقليةَ، وازدياد نشاط المدن الإيطالية التجاري والبحري، واستئثارها ـ لا سيَّما بعد قيام الحروب الصليبية ـ بتجارة حوض البحر المتوسط. وفضلاً عن النزوح إلَى مصر، فإن الكثيرين من التجار اليهود في المغرب والأندلس نزحوا كذلك إلَى صقلية النورمانية، وإيطاليا، وشمال إسبانيا، وجنوب فرنسا. ويلاحظ أن أكبرَ تاجريْن جنوييّن في تجارة المدينة مع المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر كانا يهوديين أحدهما الصَّيْرفي ستابليس Stabilis والثاني بلانكاردس [60].

---

(58) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 8. 257. 282. 249

(59) Goitein, A Mediterranean Society, I.p 308

(60) Krueger H.c "Genoese Trade.."، pp. 388, 389

وأما بالنسبة لوضع اليهود في المغرب والأندلس علَى عهد المرابطين والموحدين، فإن وضعهم كما يبدو لم يتأثر كثيراً في أيام المرابطين، باستثناء الضريبة الخاصة التي فرضها عليهم يوسفُ بن تاشفين. يقول صاحبُ (الحللُ الموْشيّة) إن ابن تاشفين «افترض علَى اليهود في تلك السنة [464 هـ] فريضةً ثقيلةً اجتمع له منها جُملةُ مالٍ استعان به علَى ما كان بسبيله» (61). ولما دخل عبدُ المؤمن بن علي ـ أوّلُ سلاطين الموحدين ـ مدينةَ تونس سنة 554 هـ «عرض الإسلامَ علَى من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سَلِم، ومن امتنع قُتل» (62). ويرى أحدُ الباحثين أن عبدَ المؤمن أراد الانتقامَ من النصارى لما فعله رجار الثاني بالمسلمين في افريقية، وأن ابن الأثير أضاف اليهود بوصفهم من أهل الذمة، إذ بقيتْ جماعاتٌ كثيرةٌ من اليهود في شرق المغرب بعد قيام دولة الموحدين (63). وفي المغرب الأقصَى، نزح موسَى ابن ميمون عن قرطبة، واستقر في فاس في عهد عبد المؤمن بن علي، ولم ينتقل منها إلَى مصر إلاّ بعد عاميْن من وفاة عبد المؤمن. ومع أن وضعَ اليهود في المغرب ساء في عهد ثالث سلاطين الموحدين يعقوب المنصور (64)، إلاّ أن نزوح تجارهم عن المغرب كان للعوامل الاقتصادية الآنفة الذكر، فضلاً عن فترة الحروب طويلة الأمد بين الموحدين وبين بني غانية وحلفائهم في الطرف الشرقي من بلاد المغرب.

إن الرسائلَ التي اخترناها ترجع إلَى النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وكان اعتمادنا ـ في المقتطفاتِ المنتقاةِ منها ـ علَى الترجمة الأنجليزية للرسائل، في كتاب جوبتين (رسائل التجار اليهود في القرون الوسطَى) (65).

1 ـ رسالةٌ من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي مرسلةٌ إلَى أبي الفرج نِسيّم

---

(61) مؤلف مجهول الاسم: كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. الدار البيضاء 1979. ص 25

(62) ابن الأثير. علي: الكامل في التاريخ. الجزء التاسع. بيروت 1980. ص 23.

(63) Hirshberg, H.Z, A History of the Jews in North Africa i. Leiden 1974.pp. 134, 4145

(64) المراكشي. عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة 1949. ص 4 ـ 305. إلاّ أن ياقوت الحموي (ت 1229 م) يذكر أن درعة بالسوس الأقصَى «أكثر تجارها اليهود» الحموي. أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان. المجلد الثاني. بيروت 1979. ص 451.

(65) Goitein, S.D. Letters of Ledieval Jewish Traders, Princeton University Press 1973.

الرُّقِّي ـ نسبة إلَى بلدة الرُّقَّة القريبة من صفاقس بافريقية ـ بالإسكندرية من أحد أقربائه سليمان بن ابراهيم الرُّقِّي بالفسطاط ، وفيها يتحدث عن ركود السوق بسبب تفشّي وباء مما أَحدثَ ارتباكاً في أسعار صرف العُملة . وفي الرسالة معلومات عن أسعار سلع مغربية في الفسطاط ، وبيع كمية من الحرير للدولة ، كما يطلب صاحبُ الرسالة تزويده بكمية من مادة الميْعةِ الطبية ، إذ يبدو أنه كان عليها طلب في السوق.

وفيما يلي فقراتٌ من الرسالة : «الأعمال هنا ضعيفة ، وتكاد تكون متوقفة ، إذ ثمة بلبلةٌ كبرى في أسعار الصرف ، وفي هذا الوقت حوالي 50 درهماً للدينار الواحد. الوباء متفشٌ كثيرا في جهات المدينة ، وبسببه انقطعَ وصولُ الدراهم الجيدة ، وكلٌ واحد يواجه صعوباتٍ في أعماله التجارية [66] ، أما بالنسبة للسلع من المغرب «فإن القماش الأشقر «شقرة» ـ درجة أولَى ـ يسوى 4 دينار علَى الأكثر ، والأصناف الأخرى أقل من 4. الفُوطَ غيرُ المقصّرة 7 دينار [للعشرة] ، وأما الفوط الحمراء فليس عليها طلب... الملاحف سوقها راكدة... الزيت يباع 25 رطلاً بدينار ، لذلك فقد أمسكتُ عن بيع زيتي أملاً في أن يتحسّن الوضع قليلاً... كلَّمتُ أبا سعد عن الأقمشة التي أحضرتُها من المغرب فقال إنه أوصَى بإحضارها إلَى هنا [الفسطاط]... أرجو إرسالَ هذه الأقمشة إذا وُجد من ينقلها» [67] . «جباب الخَز لا تسوي شيئاً ، فالجُبّة تباع بأقل من أربعة دنانير. الرجاء إعلامُ أبِي الحسن بذلك... وأرجو إخبارَ أبي الحسن الشامي أن لا ينتقل بزيته ، فسوف يندم إن هو فعل. وقد أخبرني سيدي أبو سعد أن أبا البشر باع حريره للدولة وقبض الثمن ، ولم أشأ أن أسأله عن المبلغ الذي قبضه. سأبيع ما عندي ، لأنني لا أعتقد أن ثمّةَ أملاً كبيراً في تحسّن السعر»...

«تركتُ جبّتِي من القطن التي أرتديها عادةً فوق ردائي الفاختي ، وفي جيبها شهادةُ الضريبة [الجزية]... فأرجو إرسالَ الشهادة فور قراءتك للخطاب ، لأنني سلَّمتُ كفالةً عنها إلَى حين وصولها... الرجاء الكتابةُ لي بالتفصيل عن سعر الزيت

(66) المرجع السابق ص 240 ـ 241.

(67) المرجع السابق ص 241.

عندكم ، وعن الأوضاع ، فإنني قلقٌ جداً ... وابحثْ لي عن مَيعة لأنني لم أجدْهَا في الرزمة » (68) .

إن الأقمشة المختلفةَ المذكورة في الرسالة مصدرها ـ دون شك ـ المهدية أو سوسة . وأما زيت الزيتون فمصدره صفاقس ، فمن زيتها ـ كما يذكر البكري ـ كان « يمتاز أهلُ مصر وأهلُ المغرب وصقلية والروم » (69) . وكانت الأندلسُ المصدرَ الرئيسيَّ للحرير الخام الوارد إلَى مصر. وتؤكد الرسالة ـ وغيرُهَا من رسائل الجنيزة ـ أن اليهود من أهل الذمة كان عليهم إبرازُ شهادة تفيد بأدائهم ضريبةَ الجزية المفروضة عليهم .

2 ـ رسالةٌ مستهل القرن الثاني عشر للميلاد من الإسكندرية إلَى الفسطاط ، بعث بها هلال بن يوسف إلَى أبي الأفراح عروس بن يوسف ، الذي كان والده قد نزح عن المهدية واستقر في الفسطاط ، وكان أبو الأفراح يتاجر مع الهند ، بعدّة سلعٍ من المغرب والمشرق ، إلاّ أنه كان « أرجوانياً » في المقام الأول . إن الرسالةَ الّتي نقتبسُ فقرةً منها تشير إلَى شحنةِ أرجوان ـ « صوف » ـ مرسلةٍ بحراً من الإسكندرية إلَى المرية في الأندلس.

« سوف أسافر علَى المركب الأندلسي ، وسوف أشحنُ البضاعةَ ـ بإذن الله ـ في أول شهر مارس . ذكرتَ في رسالتك أنك سوف تُرسل صوفاً [أرجوانياً] آخر. لا تُرسلْ شيئاً من هذا القبيل ، لأن الأرجوان المصبوغ لا يسوي شيئاً في الأندلس ... » (71) . وفي رسالة تالية عن هذه الشحنة ، يذكر كاتبُ الرسالة : « ... حمَّلتُ الصوفَ علَى ظهر المركب ... إجمالي تكاليف الشحن 6 دنانير، دفعتُ

---

(68) المرجع السابق ص 242 ـ 243 .
المَيعة Storax كانت تُستعمل في الطب والعطور . وكان يرد ذكرها كثيراً ضمن سلع تجارة الهند .
(69) البكري : المُغرب في ذكر بلاد المَغرب ... ص 77 ـ 20 .
(70) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص 256 حيث يقول « وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب . وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلاّ في فصلي الربيع والخريف . والسفر لا يكون إلاّ فيهما ... فالمسافرون إلى المغرب وإلَى صقلية وإلَى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد
(71) Letters of Medieval Jewish Traders, pp 232-4.

منها 3 دنانير، وسوف يُدفع الباقي في المرية بعد الوصول بالسلامة...» (72).

إن الفقرتين المقتبستين السابقتين تفيدانا بمعلوماتٍ شتّى: فالأرجوان - جاهزاً أو للصباغة - كان يصدَّر إلَى الأندلس من الشرق عن طريق مصر، ويبدو أن سوقه آنذاك في الأندلس كان كاسداً، كما أنه يبدو أن أجرةَ الشحن كان يُدفع نصفُهَا مقدَّماً، ويُدفع النصف الثاني عند وصول البضاعة سالمةً إلَى المرفأ المقصود. وكان إقلاعُ المراكبِ المتوجّهةِ إلَى الأندلس والمغرب من موانىء المشرق في مستهلّ فصل الربيع.

3 - رسالةٌ إلَى «الأرجواني» عروس بن يوسف - المذكور في الرسالة السابقة - من زكري ابن هنتيل، في حدود 1100 م، بعث بها إلَى الفسطاط من الإسكندرية يقول فيها: «تسلّمت للتوّ رسالتكَ التي تذكرُ فيها أنك اشتريتَ بهاراً [شكارةً تزن 300 رطل] من اللاك (73) وكمية معبّأةً من الأرجوان. لكن من واجبي أن أبلغك بأنني لا أستطيع أخذَ أيةِ بضاعةٍ منك معي، لأنه بعد أن ودّعتك كنتُ أنوي السفرَ إلَى الأندلس، ولما وصلتُ إلَى الإسكندرية وجدتُ المركب الأندلسي قد تعطّل بكتابٍ من عند السلطان وفرغ جميعُ ما فيه. وسوف أسافر لذلك في مركبٍ متوجّهٍ إلَى المهدية. فإذا أردتَ أن ترسلَ بضاعتَك إلَى المهدية، أرجو أن ترسلَ لي خطاباً بذلك قبل الإقلاع، فإنه ليس من اللائق أن أصحبَ بضاعتك معي، ما لم تطلُبْ ذلك صراحةً خطياً. ولا تتأخرْ في الكتابة، لأن المراكبَ المهديةَ قد راجوا، وإلاّ فإن بضاعتَك سوف تبقَى هنا في الإسكندرية» (74).

---

(72) المرجع السابق ص 235 - 236.

(73) اللاك مادة للصباغة تؤخذ من عدة أشجار في جزر الهند الشرقية والهند.

(74) Medieval Jewish Traders, p.237

يترجم جويتين العبارة «بأن المراكب المهدوية علَى أهبة الإقلاع. وليس لديها أعمال أخرى هنا» ويتساءل عن معنَى «قد راجوا» ويقول أنه لم يقابله التعبير من قبل بهذا المعنَى. والمعنَى - في رأينا - هو أن المراكب قد أصبح عليها إقبال كبير - «راجت» - من قبل التجار بعد حجز الدولة للمراكب الأخرى. أو - وهذا أقل احتمالاً - أن المراكب قد انتظرت إذ أن «راجي» في بعض أنحاء المغرب مستعملة بمعنَى «انتظر». والتفسير الأول أكثر احتمالاً. عن «راجي» بمعنَى «انتظر». انظر: مؤلف مجهول الاسم: تاريخ الدولة السعدية. الرباط 1934. ص 67.

إن السلطانَ المشارَ إليه هو الخليفة الفاطمي المستعلي (حكَمَ 1094 ـ 1101 م) ، كما يبدو أن مصادرةَ المركب الأندلسي جاءتْ بسبب وصول أولَى الحملات الصليبية إلَى المشرق ، وذلك لتعزيز أسطول الفاطميين الحربي لمواجهة سفن البندقية وجنوة المساندة بحراً للحملة البرية . إن طُرطوشة ودانية ولقْنت علَى ساحل الأندلس الشرقي كانت بها أكبرُ دور الصناعة لإنشاء المراكب عندَ المسلمين ، لكثرة الغابات القريبة منها (75) . ولعلَّ المركبَ الأندلسيّ المشارَ إليه كان أكبرَ السفن الراسية في ميناء الإسكندرية آنذاك.

4 ـ رسالة من إسحاق النيسابوري بالإسكندرية إلَى أبي العلاء صاعد يوسف الدمشقي بالفسطاط ، في حدود سنة 1119 م ، وفيها يتحدث عن تَعطُّلِ الملاحة من الأندلس ، وأثّر ذلك علَى أسعار الحرير الأندلسي في السوق ، كما يتحدث عن أسعار المَرْجان المنظومِ وغير المنظوم ، فيقول : «أما بالنسبة للحرير ، فإنه عند وصول المركب الأندلسي توقفت الأعمالُ التجاريةُ فلم يشترِ أحدٌ ولم يبعْ أحد... وبعد ذلك بأيام ، بيعت كمياتٌ قليلة بـ 21 ـ 22 ديناراً لكل عشرة أرطال . ولما تأخر وصول جميع المراكب ، رغب التجارُ في الشراء ، إلاّ أن من كان عندهم حرير احتفظوا به . وقد انقضَى اليوم 33 يوماً لم يصلْ فيها سوى مركبٍ واحد ، ولم يُقْلع سوى مركبٍ واحد. يسود قلق واضطراب كبيران بشأن المراكب ، واليوم بيننا وبين عيد الصليب (76) 23 يوماً ، ولم يصلْ مركب واحد من المغرب ، كما لم تصلْ أيّةُ أخبار. الريح غيرُ موافقة ، فهي لا شرقية ولا غربية . وفي هذا اليوم دُفع 23 ديناراً

---

(75) يقول الحميري أن بطرطوشة «إنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها خشب الصنوبر ، الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ، ومنه تتخذ الصواري والقرى» ، كما يذكر إنشاء المراكب في دانية ولُقَنتْ ـ الروض المعطار ص 232 ، 391 ، 511 .

(76) عيد الصليب عند الأقباط 26 ـ 27 سبتمبر ، ويشار إليه باسم الصليب أو الصليبية ، كما تعني الكلمة الريح الشرقية التي تهب آنذاك فتساعد المراكب المتجهة من الشرق إلَى الأندلس والمغرب . وفي مثل فلسطيني «مالك صيفيات بعد الصليبيات» . يقول ابن جبير أنه قصد عكا يلتمس «ركوب البحر مع تجار النصارى وفي مراكبهم المعدة لسفر الخريف ، المعروف عندهم بالصليبية» ـ رحلة ابن جبير ، 244 . انظر كذلك : Medieval Jewish Traders, p. 245, n. 2
Dozy, R., Supplément, I pp.840-841

ثمناً للحرير الخشن. ولم يبعْ أحدٌ ولن يبيعَ أحد إلَى أن يُعرف ما سيحدث » [77].

« مَرْجان تراب ، [غير منظوم] يباع اليوم في « الصنعة » [دار المكوس] بمبلغ $11\frac{1}{2}$ دينار ، وبيع بعضه حتّى بثمانية دنانير [78] ، بينما ما عندي من مَرْجان يسوى 20 ديناراً ، وإلَى الآن لم يصلْ شيىءٌ من المَرْجان لا من بلاد الروم ولا من المغرب » [79].

إن سعرَ الحرير في الإسكندرية كان يخضع لقانون العرض والطلب ، وحينما تأخَّر وصولُ مراكب الأندلس ارتفع ثمنُ الحرير وأحجمَ التجارُ عن بيع ما لديهم منه أملاً في مزيد من ارتفاع ثمنه ، لا سيَّما وأن قرب حلول فصل الشتاء يعني تعطُّلَ الملاحة في البحر المتوسط بضعة شهور. أما المِرْجان المغربي فكان مصدره مرسَى الخرز وسبتة [80] ، وأما بالنسبة لبلاد الروم فإن المرْجان كان يُصاد في مياه طرابنش غربي جزيرة صقلية ، وعند سواحل سردانية [81].

5 ـ رسالة بتاريخ 10 أكتوبر 1138 م (29 شوال 532 هـ) من إسحاق بن بروخ التاجر المقيم بمدينة المرية إلَى أبي سعيد خَلْفون الموجود آنذاك بمدينة تلمسان ، حيث قَدِمَ إليها من فاس ، وكان قبل ذلك بالأندلس. وفي الرسالة يتحدث كاتبُهَا عن تسلّمه ثمن كميةٍ من النحاس المصقول بيعتْ في تلمسان ، وعن أسعار أصناف الحرير في سوق المرية حيث فُرضتْ قيود علَى الشراء بالعُملة المحلية ، ويذكر أسعارَ النحاس والشمع والفلفل وبعض العقاقير الطبية ، كما يتحدث عن حركة المراكب بين المرية وبين الإسكندرية. وهذه نُتَفٌ مما ورد في الرسالة : « ... قبل أربعة أيام ،

---

(77) Medieval Jewish Traders, pp. 245- 246

(78) يذكر جويتين أن الكلمة الواردة في الرسالة « صَنْعة » وقرأها « صناعة ». إن دار الصنعة ترد في المصادر المغربية بدلاً من دار الصناعة بنفس المعنَى. انظر الحلل الموشية ص 154 . وابن بطوطة ، محمد : رحلة ابن بطوطة ، بيروت 1968 ، ص 652.

(79) Idris, H.R. La Berbérie orientale sous les Zirides, Paris 1959, P. 537.
Medieval Jewish Traders, p. 247-248.

(80) ابن حوقل ص 76 ، البكري ص 55 ، الإدريسي : وصف إفريقيا الشمالية ص 85 ، 10.

(81) الإدريسي ، ص 85 ، ابن سعيد ، علي : كتاب الجغرافيا ، بيروت 1970 ص 143.

تسلّمتُ من تلمسان ـ مع أبي يعقوب بن المِنَّة ـ 100 مثقال... ثمناً للنحاس المصقول [82] ... وكنت أبلغتكم بأنني تسلّمتُ المائة مثقال المرسلة منكم من فاس. وقد طلبتَ مني أن أشتري بالمبلغ حريراً. والواقع أن سعر الحرير كان معقولاً. لذلك اشتريتُ حريراً بخمسين مثقالاً. ولكن عندما حان موعدُ إقلاع المراكب، واتّضحَ لي أنكم سوف تقضون بقية الصيف في الأندلس، أمسكتُ عن الشراء. وتركتُ المبلغ. إلاّ أنه ما بين يوم الشراء واليوم فَقدَ المثقالُ بعضَ قيمته. واليوم البضائع أغلَى ثمناً.

الأسعار للوَزْنة	مثقال
حرير خزاج مقشور	
خزاج صنف أول	5، الأجود 6، اليوم 4
الخشن جداً	3 ـ $2\frac{1}{2}$
حرير خز	$9\frac{1}{2}$ ـ 9

أما بالنسبة للنقد الذي يُدفع اليوم ثمناً للحرير، فإنه لا يُسمح بدفع أكثر من الثلث بالعملة المتداولة، والفرق بين المثقال المتداول [المرابطي] وبين المثقال الحمودي [83] هو ثُماني.

النحاس المصقول	8
النحاس المسبوك	7
شمع جيد من فاس	ـ 8 للمائة رطل
الفلفل	27 ـ 25 للمائة رطل.

(82) كانت الأدوات النحاسية من صادرات المغرب والأندلس الرئيسية إلَى السودان الغربي. وكانت تلمسان بداية إحدى الطرق الرئيسية للقوافل المتجهة عبر الصحراء إلَى السودان. يقول البكري «ويتجهّز إلَى أودغشت بالنحاس المصنوع». كما يذكر القزويني أن بنواحي البيرة وبلنسية وطليطلة معادنَ للنحاس. ويقول الإدريسي أن بمدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن «معدنَ النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها». ينظر البكري ص 159. والإدريسي ص 49. والقزويني. زكريا: آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت 1979. ص 502.

(83) لمن من المستبعد أن تكون الإشارةُ هنا إلَى الدينار الحمودي ـ نسبة إلَى دولة بني حمود بالأندلس في

وحسب طلبكم، سوف أشتري بثمن التوابل حرير خزاج صافياً...

وأود إعلامكم أن ثمن الميروبالان[84] أُعلن في السوق. بعتُ نصف رطل بنصْف مثقال، ثم لاحظتُ أنكم حدّدتم الثمنَ بمثقال ونصف المثقال للرطل، فتركته ولم أبعْ سوى نصف الرطل المذكور. أما التِّربد[85] فثمنُه اليوم مثقالٌ واحدٌ للرطلين.

بعد يوم من كتابة هذه الرسالة، وصل مركبٌ من الإسكندرية أمضَى في الطريق خمسةً وستين يوماً. وقال تجار المسلمين المسافرون فيه إنهم تركوا وراءهم مركبيْن علَى أهبة الإقلاع إلَى المرية، ولكنهم لم يُبصروا المراكبَ المُقلعةَ من الأندلس، وليس لديهم معلومات عنها»[86].

كان خَلْفون متسلِّمُ الرسالة تاجراً كثيرَ الأسفار بين الهند وعدن والأندلس والمغرب، مما يفسِّر تنوّعَ مصادر السلع التي كان يتَّجر بها. وكما تقدَّم، فإن النحاس ـ المصنوعَ وغيرَ المصنوع ـ كان عليه طلبٌ كبيرٌ في المغرب والسودان الغربي.

النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ـ كما يقول جويتين، بل إلى الدينار الحمّادي نسبة إلَى بني حماد في القلعة ثم في بجاية، وكان صاحب بجاية آنذاك يحيي بن العزيز وهو صاحب (مركب السلطان) الوارد ذكره أعلاه. كانت بجاية مدينة مزدهرة ولها نشاط تجاري كبير مع بلاد السودان، والمدن الإيطالية، والأندلس. وازدادت مكانتها التجارية أهمية نتيجة للمتاعب والقلاقل في دولتي المرابط بالمغرب الأقصى وبني زيري في المهدية. ويصف الإدريسي بجاية بأنها «في وقتنا هذا [منتصف القرن السادس/الثاني عشر الميلاد] مدينة العرب الأوسط، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة... وأهلها مياسير تجار. وبها من الصاعات والصنّاع ما ليس بكثير من البلاد. وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجارَ الصحراء وتجارَ المشرق» افريقيا الشمالية والصحراوية ص 63. وعن دينار صاحب بجاية انظر:

Hazard, H. W.,The numismatic History od Late èedieval North Africa"New York 1952, P. 95.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ص 130.

(84) الميروبالان myrobalan عشب طبي شرقي كان شائعَ الاستعمال لأوجاع الأمعاء أنظر:

Letters ofMedieval Jewish Traders, !p. 263, n.16.

(85) التربد مُقيِّىء مشتق من نبات يزرع في جزيرة سيلان وبلدان جنوب شرق آسيا. انظر المرجع السابق ص 263، حاشية رقم 17. وانظر كذلك: ،

DDozy, Supplément, Ip. 143.

(86) Letters of Medieval Jewish Traders, pp. 261-263

ويلاحظ إقبالَ التجار علَى شراء الحرير في الأندلس لتصديره الَى مصر والشرق في مقابل التوابل والعقاقير الطبية المستوردة منها. ولعلَّ الإشارةَ إلَى تدنّي قيمة المثقال المرابطي وتقلُّبِ الأسعار تعكسُ متاعب المرابطين في المغرب الأقصَى بسبب قيام الموحدين عليهم ، وتعطّلِ حركة القوافل الَى السودان الغربي مصدر الذهب الذي كان عمادَ المثاقيل المرابطية . وأن في مطالبة السلطات في المرية دفعَ معظم أثمان السلع بغير المثاقيل دليلاً علَى رغبتها في الاحتفاظ بها ، وفي الحصول علَى مثاقيل حمّاديةٍ وغيرِها ، كما تفعل الدول في يومنا هذا للحصول علَى « العُمْلاَت الصعبة ». ومما يُذكر أن هذه الفترة شهدتْ تقلّصاً في عدد الأماكن التي كانت تُضرب فيها العُملات المرابطية بالأندلس ، إذ لم تَعُدْ المثاقيلُ تُضرب إلاّ في إشبيلية والمرية [87] .

وكانت الأعشابُ الطبيةُ تلقَى رواجاً في المغرب والأندلس ، وكان بعضُ هذه الحشائش متوفّراً في الأندلس وجبال بجاية [88] ، إلاّ أن ما ورد في الرسالة منها من أصل شرقي . أما تتبُّعُ التجار لأخبار المراكب فكان لسببيْن ، أوّلهُما تأثيرُ وصول البضائع أو شحنها علَى أسعار تلك البضائع ، والثاني التأكد من سلامتها في وقتٍ كانت فيه مراكبُ المسلمين المقلعةُ في البحر المتوسط عرضةً للسطو من قِبَل قرصان النصارى .

6 ـ رسالة من أبي سعيد بن أبي الحسن الأبزاري في بلرمٍ إلَى أخيه الأكبر أبي البركات في الفسطاط ، في حدود سنة 1140 م . والرسالة تبيِّن ما نجم عن هجمات أسطول النورمان علَى ساحل افريقية ـ وبخاصةٍ بعد أخذ النورمان لجزيرة جربة سنة 1135 م ـ واعتداء مراكب النورمان علَى سفن المسلمين العاملة بين مصرَ وبين موانىء افريقية . وبالنسبة لتاجر توابلٍ كأبي سعيد ، فإن انقطاعَ الاتصال التجاري

---

(87) Hazard, p. 63

(88) الإدريسي ص 62 ـ 63 ، 59 . البكري : جغرافية الأندلس... ص 127 . وعن اهتمام الاندلسيين بالحشائش الطبية ، وبخاصة منذ أن تلقّى الخليفةُ الناصر لدين الله عام 337 هـ/949 م كتابَ الحشائش ديسقوريدس هديةً من ملك القسطنطينية ونَقْله من اليونانية إلَى العربية ، انظر ابن أبي أصيبعة ، أحمد : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت 1965 ، ص 393 ـ 394 .

مع الشرق كان يعني توقّفَ أعماله التجارية في المغرب ، وكان وصل إلَى بجاية من مصر ، ثم أراد العودةَ إلَى مصر ، إلاّ أن الروم ــ كما يقول في إحدى رسائله ــ صدموا وقلبوا مركبَ اللقنّي ــ نسبة إلَى مدينة لقُنْت علَى ساحل شرق الأندلس ــ « ووقعت السيف » علَى حد تعبيره (٩٥) . وقد جاء في رسالته الَى أخيه من بلرم : « دخلتُ صقلية مع أسرتي قادماً من مدينة تونس بسبب الحرمان والفاقة هناك ، والأهوالِ التي حلَّت بافريقية ... وكان هدفي التوجهَ إلَى مصر عن طريق صقلية ، إذ لم يَعُدْ من الممكن السفرُ إلَى مصر من افريقية مباشرة ... وفي الطريق إلَى صقلية ، حلَّتْ بنا كارثة لم أشهدْ مثلها قط . فقد هبَّتْ عاصفةٌ واضطُررنا إلَى النزول إلَى البرّ في جزيرة صغيرة اسمها قُور ، حيث أمضينا عشرين يوماً ولم نجدْ ما نأكلهُ غير « الحُرّيق » ، ولما تركْنا الجزيرةَ « تمنَّتنا البحار » مدة 35 يوماً وكدْنا نهلك ، فقد تركنا الجزيرةَ في أربعة قوارب لم يصلْ سالماً منها سوى قاربنا . ولما وصْلنا صقلية ، كنا مُنْهكي القوى بحيث لم نستطع أن نأكُلَ الخبزَ أو أن نفهمَ ما يُقال لنا لمدة شهر . وهذا ما منَعَني من المجيء إلَى مصر هذا العام ... وليس الخبر كالعيان ... اكتبْ لي عن الجزية (٩٠) .

إذا أردتَ الانتقالَ فأفضلُ شيء المجيءُ إلَى صقلية إذ إن توابلَ الشرق رائجةٌ بنا ، ولذلك فإن رحلتك سوف تكون نَزَاهاً وتجارةً ... » (٩١) .

7 ــ رسالة من تاجر أندلسي في مدينة فاس ــ بتاريخ 1140 مَ أو قُبيْل ذلك التاريخ ــ إلَى أبيه في مدينة ألمريّة بالأندلس ، وفيما يلي نصٌّ هذه الرسالة الطريْفة والغنية بالمعلومات عن وضع اليهود بفاس آنذاك ، والمكوسِ الإضافيةِ المفروضة علَى الأغراب عن المدينة ، والبضائع التي أحضرها من الأندلس لبيعها في المغرب ، وابتياعِهِ كميةً كبيرةً من الكُحل المغربي : « وصلتُ إلَى فاس يوم الجمعة . ولدى وصولنا قَابَلَنا المُخبرون وعرفوا بالضبط عددَ الأحمالِ الخاصةِ بنا . ثم ذهبوا إلَى

---

(89) Letters of Medieval Jewish Traders, p. 324

(90) عن أداء اليهود للجزية وضروره إبرازهم لشهادة تفيد ذلك انظر الفقرة الأخيرة من الرسالة الأولَى .

(91) Letters of Medieval Jewish Traders, p. 325-6.

المُشرف علَى المكوس وأخبروه . وصباح يوم الأحد ، استدعاني وابراهيم وقال له : هل أنتَ علَى استعدادٍ لأن تُقسمَ بأن جميعَ ما وصل معك مِلكُك ، وأن هذا الرجلَ ليست له حصةٌ فيه؟ ثم قال لي : هل أنتَ مستعدٌ لأن تُقسمَ بأنه لم يُجلبْ من طرفك شيء إلَى هذا المكان؟ وجرى بيننا حديثٌ طويل ، إلاّ أن من الواضح أنه كان يعلمُ أن أحمالَ خمسةٍ من الجمال وصلتْ معي . وبعد متاعبَ جمّةٍ اتُّفق علَى أن يأخذَ القائدُ [الوالي] 10 مثاقيل ، والمشرفُ 3 مثاقيل ، والمُخبرون مثقالَيْن ، والخدمُ نصفَ مثقال . وقد مرضتُ لمدة ثلاثة أيام غَيْظاً وحسرةً . ولو أنني كنتُ أمتلكُ من الشجاعة هنا ما أمتلكه في المرية ، لنجوتُ بأقلَّ من هذا . ولكنني واسيْتُ نفسي بمن لا خيارَ له ، وقلتُ لنفسي لعلَّ الله يعوِّضُنا عن الخسارة .

ويوم وصولنا كان الربح 3 و 2 ، واليوم 2 و 4 (92) .

بالله عليك لا تسافرْ إذا استطعتَ إلَى الخارج . سوف أتوجَّهُ ـ بمشيئة الله ـ إلَى مدينة مراكُش صحبةَ أول رفقةٍ مسافرةٍ إليها . وسأخبرك عند الضرورة عن الوضع ، وعليه يمكنكم اتخاذُ ما ترونه من قرار . وكل غايتي أن أُجنِّبكم مشاقَّ ومتاعبَ هذه الأسفار براً . . .

وأرغب في إفادتكم بأنني نشرتُ النصافي (93) ، وأول نصفية وقعت في يدي كانت قد تلفت بعض الشيء بسبب الماء عند ثناياها . ففقدتُ صوابي ، لكن من رحمة الله أن التلفَ لم يحدُثْ إلاّ لهذه النصفية الواحدة ، وكان ذلك بسبب هطول مطر غزير في الطريق . وحتّى اليوم بعثتُ عشرة أزواج من الأردية بمبلغ إجمالي مقداره 80 ديناراً ، بما في ذلك العشرة الرديئة «وخش» ـ لعلها «وحش» ـ والرداء الذي تلف بسبب الماء .

---

(92) يُفسَّر حويتين ذلك كالآتي : سلعة معيَّنة كانت تسوى 3 دينار و 2 قيراط فأصبحت تسوى 3 دينار و 2 ـ 4 قيراط . المصدر السابق ص 53 .

(93) النَّصْفية ـ وتُجمع علَى نصافي ـ قماش ثمين من الحرير أو الكتان كان يتهاداه الناس . ويبدو أنها كانت تباع مردوحة . انظر :

Dozy, Supplément, II, p. 688. Letters of Medieval Jewish Traders, p. 54, n. 6.

اشتريتُ كُحلاً ممتازاً درجة أولَى ـ حوالي 20 قنطارا ـ والقنطار بدينار واحد. إذا رأيتَ أن أشتريَ كميةً أكبر أخْبرني (94).

دُفِعَ لي ثمناً للآّك 24 ديناراً، ولن أبيع إذ قد أحصلُ علَى 25 ديناراً (95) النحاس الرجِّيف/الرجيف يباع هنا بتسعة دنانير للقنطار الواحد.

السقمونيا ـ «المحمودة» ـ تسوى 3 دنانير للرطل. تَقَصَّ وإذا وصل سعرُها في المرية هذا الثمن بعْهَا، وإلاّ أرسلْ لي النصفَ واحتفظْ بالنصف الباقي (96).

كل ما لنا من لاك ونصافي موجود في بيت ابراهيم، لأنني لم أرغبْ في أن أترك شيئاً معي في البيت (97). قد أستطيعُ بيعَ كلِّ النصافي في فاس.

كرهُ اليهود متفشٍ في هذه البلاد حتّى إن المرية بالقياس رحمةٌ (98)

---

(94) عن مواطن الكُحل بالأندلس بالقرب من بسطة وطرطوشة انظر البكري: جغرافية الأندلس ص 129 ـ 130. والقزويني ص 512. وكان الكحل يُصدَّر من المغرب الأقصى، (جنوبي مدينة مراكش وشمالي مدينة فاس)، وفي نفس الفترة كان ثمن الكحل في مصر خمسة أضعاف الثمن المذكور في الرسالة.

Letters of Medieval Jewish Traders, p. 54, n. 8.

(95) اللالك ـ بفتح الام أو كسرها ـ مادة صباغة من الشرق تعطي لوناً أحمر. وكان الالك يباع في المهدية بخمسين ديناراً للقنطار في أوائل القرن الحادي عشر، وبخمسة عشر ديناراً في منتصف ذلك القرن. انظر المرجع السابق ص 54، حاشية رقم 9.

(96) السَّقمونيا ـ أو المحمودة ـ مادة صمغية تؤخذ من بنتةٍ تُزرع في مناطق شمال شرقي البحر المتوسط كانت ـ ومازال ـ تستعمل مسهلاً قوياً. انظر:

Dozy, **Supplément, I**,p. 321.

(97) يرى جويتين أن كلمة «بيت» كانت تعني في المشرق غرفة أو حجرة. ولكنه يرجِّح تفسيرها في قرار الرسالة بمنزل **Letters of Medieval Jewish Traders,** p. 55, n. 12 إن كلمة «بيت» أو «دار» تعني اليوم في بعض جهات المغرب حجرة أو غرفة. وهذا المعنى هو المقصود في الرسالة، اللهم إلاّ إذا كان صاحب الرسالة ـ وهو من أصل مشرقي ـ يعني منزلاً حسب المدلول الشرقي لكلمة «بيت».

(98) كان من نتائج حرب «الاسترداد» المسيحية في شبه جزيرة ايبرية منذ منتصف القرن الحادي عشر للميلاد ـ ومشاركة بعض اليهود في قشتالة فيها ـ وتدخل المرابطين في الأندلس منذ وقعة الزلاقة سنة 479 هـ/1086 م، ازديادُ حدة مشاعر المسلمين تجاه أهل الذمة من مستعربين ويهود، كما يظهر من

8 ـ رسالة حررت في مدينة فاس في أواخر شهر ديسمبر من عام 1141 م . ونظراً لضياع أولها والعنوان علَى ظهرها ، فإن كاتبها غيرُ معروف . إلاّ أن من المرجح أنه كاتبُ الرسالةِ السابقةِ بَعثَ بهَا إلَى أبيه في المرية . وفضلاً عن أهمية الرسالة الاقتصادية ، فإنها ذات أهميةٍ تاريخيةٍ خاصةٍ ، إذ كُتبتْ في فاس قبل خمس سنوات فقط من سقوط المدينة في أيدي الموحدين . إن سيطرةَ الموحدين آنذاك علَى اقليم السوس بجنوب المغرب الأقصَى كان لها صداها في فاس . حيث ركدت السوق وتوقَّفت الأعمال . ومما يسترعي الانتباهَ إشارةُ كاتب الرسالة إلَى عبد المؤمنِ بن علي بالغاصبِ «الخارجي» لخروجه علَى سلطان المرابطين [98] . وفيما يلي مقتطفاتٌ من الرسالة :

«... إن قلبي يحترقُ لأنني جمعتُ ذهباً ولم أجد شخصاً أُرسله معه . ولذلك اضطُررتُ إلَى إرساله مع دافيد ، وهو أمر لا يسرُّني إطلاقاً ... كما سوف أُرسل معه نحاساً بقدر ما أجد [99] .

ولعلمِك ، فإن اللاك بقِي علَى سعره الأصلي فترةً قصيرة . ومنذ أن احتلّ «الخارجي» [يعني عبدَ المؤمن بن علي] السوس ، ساد الركودُ «ضرب بروحه الأرض» . ومازال عندي خمسةُ أعدال ، كما أن بروخ لم يتمكّن من بيع الكميات

القيود التي طالب ابنُ عبدون بفرضها عليهم في رسالته عن الحسبة . ويذكر جويتين أن إحدى رسائل الجنيزة المؤرخة في نفس الفترة الزمنية تقول إن بغض اليهود في المرية قد خفّت حدته قليلاً . انظر Letters of Medieval Jewish Traders, p. 55, n. 16 ابن عبدون ، محمد : رسالة في القضاء والحسبة . القاهرة 1955 ، ص 48 ـ 51 ، 57 .

(98ـأ) يقول ابن غازي إن الموحدين كانوا يسمُّون الناس المجسِّمين ويقاتلونهم قتال كفر . وكان الناس يسمُّونهم خوارج ـ انظر ابن غازي ، محمد : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون . الرباط ، 1952 ، ص 6 .

(99) يذكر الإدريسي أن بمدينة داي «معدنَ النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها ، وهو نحاس حلو لونه إلَى البياض يتحمل الترويج ويدخل في لجام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرّح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس ... ومن هذا المعدن يُحمل إلَى سائر البلاد ـ إفريقيا الشمالية والصحراوية ص 49 .

التي سلّمتها له . وهذا يزعجني أكثر من أي شيء آخر. ان كل اللاك معي في حجرتي . ولو أنني لم أكنْ قلقاً علَى البضائع الأخرى التي سلَّمتُها له ، لما أعطيتُه شيئاً . لكي لا يقالَ إن بضائعي عنده [100] .

سألتَني عن سعر البقَم [101] . رطلٌ ونصفُ رطل بمثقال واحد.

ذكرتُ في رسالةٍ سابقةٍ أن صائغاً يهودياً هنا ساعدني كثيراً في تحصيل الديون ودفعها . وهو يرغب في الحصول علَى ميزانٍ ومجموعة أوزان ، وقد سلّمني الثمنَ بالكامل . وبالإضافة الَى رسالتي إليك ، فقد كتبتُ إلَى الميزانيٍّ مباشرة . الرجاء الاهتمام بهذه الرسالة [102] .

... ألفتُ انتباهكم إلَى أنّ شحنةَ الشَّبِّ [103] التي أرسلتَها لكم تشتمل علَى 7 أعدالٍ من النوع الممتاز جداً كلَّف القنطارُ منها أكثرَ من الثمن العادي بمقدار ربع مثقال . أما الكمياتُ الباقيةُ فأصنافها متفاوتة ، إلاّ أن الصفقةَ كلّها كانت بسعر منخفض . وقبل إعلان سعر السوق «قبل خروجه» . ارتفع ثمنُ القنطار بنسبة ربع مثقال . ولَكَ إما أن تبيعَ كلَّ صنفٍ علَى حدة ، وإما أن تخلطَها معاً ، وأنتَ أدرى بالسوق . وبعْ كذلك جميعَ الحاويات ، وكلُّ حاوية تسوى درهماً واحداً . إن إجماليَّ

---

(100) كان بروخ هذا تاجراً محلياً . ولم يرغب كاتب الرسالة في أن تحوم حوله الشبهات بأنه يريد التملص من دفع المكوس بادعائه أن بضاعته تخص تاجراً محلياً . Letters of Medieval Jewish Traders, p. 266, n. 14

(101) البقَم brazilwood عود صباغة هندي يعطي لوناً أحمر . وقد خلط بعض اللغويين بينه وبين العندم ويذكر الكيماويون المسلمون استعمال البقَم في صنع الأدوية . انظر E. I. p. 961

(102) كانت ألمريّة «في أيام الملثم مدينة الاسلام ... وبها تُصنع صنوف آلات النحاس والحديد» ـ الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس ص 197 . ويلاحظ جويتين وحدة الأوزان في الأندلس والمغرب الأقصى . ولكنه يستغرب أن مركزاً صناعياً كبيراً كفاس لم يكن فيه ميزاني . فلعل موازين المريّة كانت أدق وأجود صناعة Letters of Medieval Jewish Traders, p. 266, n.17

(103) كان الشب alum يوجد بكثرة إلَى الجنوب من بلاد المغرب الأقصى علَى تخوم الصحراء . إلاّ أن أجود الشب «الذي يكون في بلاد كوار ... وهو كثير الوجود ويتجهز منه في كل سنة إلَى سائر البلاد بما لا يحصي كثرة» . انظر الإدريسي ص 26 وكذلك :
Krueger, "the Wares of Exchange...p. 69

الشبِّ الخاص بكم هو 45 قنطار ... لو كنتُ أمتلكُ شجاعةً لأرسلتُ لكم 100 قنطار ، لكنني لم أجرؤ لأنه كان عليه طلبٌ كبير... » [104] .

9 ـ رسالة من ابراهيم بن يِجُو في عدن ، إلَى أخيه في المهدية أو أي مكان آخر في افريقية ، مؤرخةٌ في منتصف شهر سبتمبر عام 1149 م . وكان صاحبُ هذه الرسالة المؤثرة قد فارقَ أهلَه في المهدية منذ سنوات . وفي الرسالة يعبِّر عن قلقه الشديد بشأن مصير أهله في افريقية بعد استيلاء النورمان علَى المهدية سنة 1148 م . وكان أهلُه في الواقع قد فرُّوا إلَى صقلية ، واستقروا في مدينة مازر في حالة يائسة من التشرد والفاقة . ويبدي كاتبُ الرسالة استعدادَه لمساعدتهم مالياً بعد أن جمع ثروةً طائلةً من مزاولته التجارةَ بين الهند وعدن ومصر . وفيما يلي فقراتٌ من الرسالة :

« ... أُعلمك يا أخي بأنني أبحرتُ من الهند ووصلتُ سالماً إلَى عدن ـ حرَسهَا الله ـ مع أموالي وأطفالي ... وأودُّ الآن إعلامَكَ أن لديَّ ما يكفي لسدِّ حاجتنا جميعاً ...

إنني عاتبٌ عليك يا أخي لأنك جئتَ إلَى مصرَ ولم تتوجَّه إلَى عدن . بعثتُ لك في مصر كميةً من غالية الزِّباد تسوي 40 دينارا ، ووزنها حوالي 50 أوقية ... وعلمتُ بعد ذلك ... إن غالية الزَّباد [104 ـ أ] وصلت إلَى مصر [الفسطاط] ولأنهم لم يجدوك فيها فإنهم أرسلوها ليك إلَى صقلية مع يهودي موثوق به من الجزيرة . أرجو أن تكونَ قد وصلتك .

---

(104) كان كاتبُ الرسالة يخشَى أن يقومَ التجارُ الأندلسيون بإرسال الشبّ إلَى المريَّة فيهبط بالتالي ثمنه فيها . المرجع نفسه ص 267 . حاشية رقم 22 .

Letters of Medieval Jewish Traders.pp. 265-267

(104 ـ أ) قطط الزباد (civets) توجد في غابات أثيوبيا . تصاد وهي صغيرة وتربّى في أقفاص . ويستخرج منها الزباد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم . وهو عرَقها . « يضرب القط ... ليتحرك في قفصه حتَى يعرق . ثم يجمع العرق تحت إبطيه وفخذيه وذنبه . وذلك ما يكوِّن الزباد » انظر . الحسن الوزان : وصف افريقيا . الجزء الثاني . الرباط 1982 . ص 267 .

قابلتُ سليمانَ بنَ جبَّاي الذي أخبرني أن الحال قد وصلتْ بكم إلَى درجة أصبحتم لا تحصلون فيها إلاَّ علَى رغيف واحد من الخبز في اليوم. لذلك أطلبُ أن تجيء إليَّ بدون تأخير مهما كانت الظروف، وأنا أتكفَّلُ بإعالتكم... لي ابنٌ وابنة، خُذْهما وخذ معهما كلَّ ثروتي، فذلك أفضلُ من أن يأخذَهَا الأغراب.

...بعد مجيئك إليَّ سنعيش إما في عدن، وإما في الفسطاط، وإما في الإسكندرية. إذا تعذَّر علينا الذهابُ إلَى المهدية أو افريقية، أي تونس أو القيروان [105].

...سمعتُ عمَّا حلَّ بساحل افريقية، طرابلس الغرب، وجربة، وقرقنة، وصفاقس، والمهدية، وسوسة. إلاَّ أنه لم تصلني أيةُ رسالةٍ تمكِّنني من معرفة من مات، ومن بقِي علَى قيد الحياة. أناشدك الله أن تكتبَ تفاصيلَ دقيقةً، وأن تبعثَ برسائلك مع أناسٍ يُعتمد عليهم، كي يطمئنَّ بالي...» [106]

---

(105) يقول حويتين إن ما يلفتُ الانتباهَ ظهورَ مدينة تونس التي كانت ضئيلةَ الأهمية في القرن الحادي عشر للميلاد. وكذلك انتعاشَ القيروان المرجع السابق ص 204. حاشية رقم 10.
إن أهمية ذكر المدينتين ـ في نظرنا ـ تكمن في كونهما من مدن افريقية القليلة التي سلمتْ من غزو النورمان وعيثهم. وفي كون كاتب الرسالة اختار لسكناه هو وأقاربه مدينتين احتفظتا باستقلالهما عن النورمان.
كان بمدينة تونس بنو خراسان. وكانت القيروان يحكمها أمير عربي من بني هلال.
Letters of Medieval Jewish Traders.pp. 203-206
وفي خطاب مؤرخ في منتصف القرن الثاني عشر يرد ذكر القيروان كمكان يستطيع أن يعيش فيه اليهود
Hirschberg. p 116

(106) استولَى النورمان ـ علَى عهد رجار الثاني ـ علَى جزيرة جربة سنة 529 هـ/1135 م ثم تواصلت حملاتهم المدمرة علَى مدن ساحل افريقية من سنة 537 هـ/1143 م فاستولوا علَى مدينة برشك وجزيرة قرقنة سنة 539 هـ/1144 م. وعلَى طرابلس الغرب في سنة 541 هـ/1147 م وعلَى سوسة وصفاقس وقابس والمهدية سنة 543 هـ/1148 م. انظر عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية. تعريب وتعليق أمين توفيق الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس 1980. ص 66 ـ 67. والهوامش 29. 30. 31. 32. 33. ص 133 ـ 134.

النشاط الإقتصادي والعلمي
بمدينة سبتة المغربية
القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

تمهيـــد :

في عام 818 هـ/1415 م ، تعرَّضَتْ مدينةُ سبتة المغربية لعدوان برتغالي مباغت أدّى إِلَى احتلالها . وكان من وراء هذا العدوان البرتغالي دوافعُ دينية واقتصادية واستراتيجية في المقام الأول . ومما سهَّل سقوطَ المدينة في أيدي المُغيرين البرتغاليين ـ فضلاً عن عامل المباغتة ـ ما كان يعانيه المغربُ الأقصَى آنذاك من تفكّك واضطراب في أواخر أيام دولة بني مرين ، وكذلك المنازعاتُ القائمةُ بين سلاطين فاس وبين سلاطين بني الأحمر في غرناطة .

تتحكَّم مدينةُ سبتة بالملاحة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ، وكان لها دَوْرٌ مهمٌّ في افتتاح العرب الأندلس ، وظلّتْ ـ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس ـ أندلسيةَ الطابع .

وتكاد سبتة أن تكون جزيرةً ، إذ يحيط بها الماءُ من كافة الجهات تقريباً ، مما جعل المرابطين يستعينون علَى أُخذها بأسطول المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية .

وقد غصّتْ سبتة بالنازحين من الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حينما أخذتْ قواعدُ المسلمين في الأندلس ـ كقرطبة

وبلنسية واشبيلية ـ تهاوى في أيدي صاحبيْ قشتالة وأرغون. وقد ذكر أبو عُبَيْدٍ البكري (منتصف القرن الحادي عشر) بأن سبتة لم تزلْ دارَ علم، وازداد علماؤها بازدياد الهجرة الأندلسية. ومن بين أبرز من أنجبتْهم سبتة من العلماء القاضي عياض ن موسَى السبْتي، والشريفُ الادريسي، والفقيه المحدِّثُ ابن رُشَيْد الفهري، والكاتبُ البارعُ عبد المهيمن الحضرمي، والفقيه أبو العباس أحمد وابنه الرئيس محمد أبو القاسم العزفي، الذي أقام في سبتة أسرةً حاكمةً منذ منتصف القرن الثالث عشر.

واشتهرت سبتة في ميدان التجارة براً وبحراً، وكان يقصدها تجارُ المدن الإيطالية ـ وبخاصة تجار مدينة جنوة ـ حيث كانت لهم فنادقُ فيها. كما كانت مدينةُ سبتة بداية لطرق القوافل المؤدية إلَى غانة والسودان الغربي.

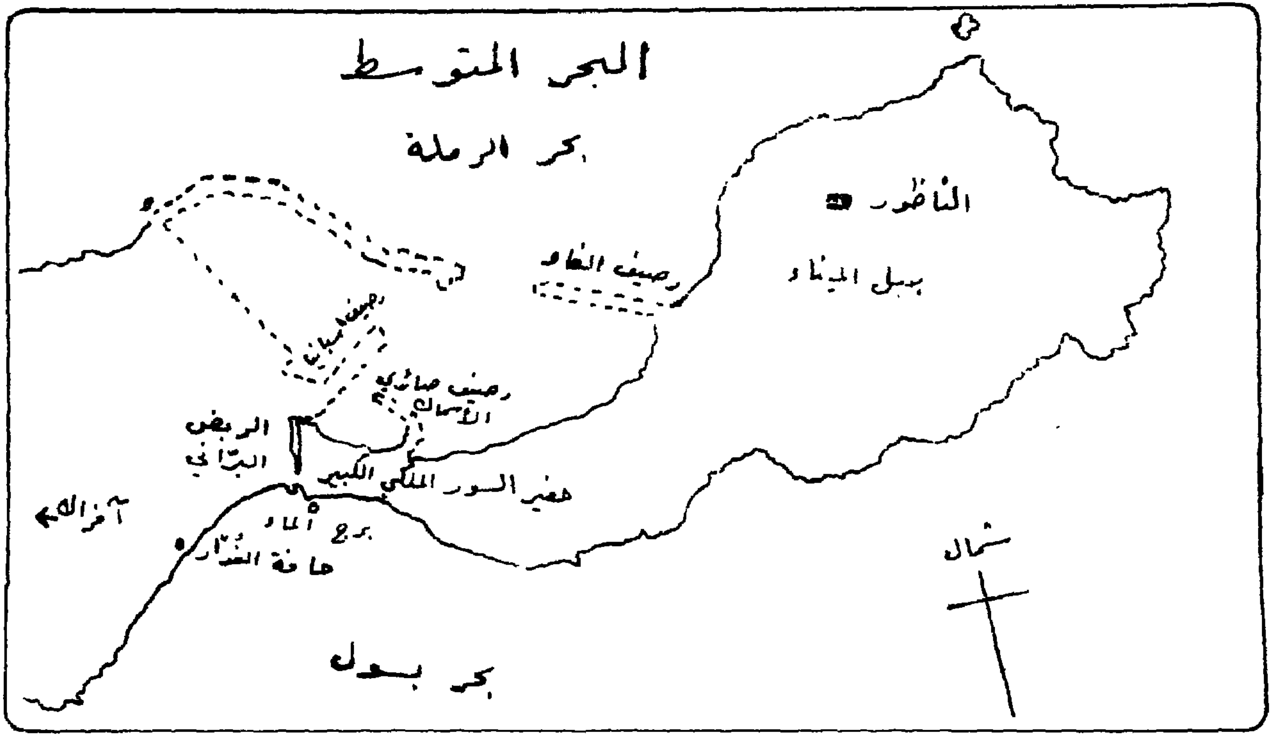
واشتهرَ أهل سبتة بركوب البحر وإنشاء المراكب، وكانت بالمدينة دارُ صناعةٍ لإنشاء السفن، كما كانت القاعدةَ الرئيسيةَ لأسطول الموحدين. وكان لرماة سبتة في جيوش الموحدين وبني مرين شهرةُ الأغزاز من التركمان في الرماية.

نبـذة تاريخيـة :

بعد افتتاح المسلمين الأندلسي عن طريق سبتة فُرضة المجاز قلّما يرد ذكرُ المدينة في المصنَّفات الأندلسية إلَى أن ملكها الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين اللّه) عام 319 هـ/931 م تخوُّطاً من خطر العُبيْديين، واتخذها قاعدة للأسطول في بر العُدوة لإمداد حلفائه هناك، ومنها تمَّ استيلاؤه علَى مليلة ونكور (1). وفي عهد الدولة العامرية، اتخذها الحاجبُ عبد الملك ابن المنصور منفًى للعصاة من فتيانه (2).

(1) ابن حيان. أبو مروان حيان: المقتبس في أخبار الأندلس. الجزء الخامس. مدريد 1979. ص 288 - 299.

(2) ابن بسام الشنتريني. علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. الدار العربية للكتاب 1979. 1/4 ص 78.



خريطة تقريبية لسبتة في أواخر الفترة الإسلامية
كانت المدينة ذاتها تقع على البرزخ شرقي الحفير الكبير. وقد حدّ من امتداد المدينة شرقا طبيعة الأرض الجبلية.

وفي فترة ملوك الطوائف، انتزى في سبتة سقوت البرغواطي (427 هـ/1036 م) حتّى قدوم المرابطين، الذين تعذّر عليهم بادىء الأمر أخذ سبتة إلَى أن أمدَّهم المعتمدُ بن عباد بقطعة بحرية فتسنَّى لهم أخذ المدينة من العز بن سقوت (صفر 476 هـ/صيف 1083 م). ويذكر ابن بسام الشنتريني أن العزَّ هذا كان يمارس القرصنةَ البحريةَ «فضجَّتْ منه الأرضُ والسماء» (3).

وقد ازدادت أهميةُ سبتة كفُرضةِ المجاز إلَى الأندلس بعد قيام دولة المرابطين وضم الأندلس إلَى هذه الدولة، فازداد بالتالي الاتصالُ بين العُدْوتين. وكذلك كان الحال في عهد الموحدين. فمن سبتة كان جوازُ عبد المؤمن بن علي إلَى جبل الفتح. إن المسجدَ الجامعَ بسبتة وسورَ الميناء السفلي بناهما يوسف بن تاشفين (4). كما أن ابنه عليَّ بن يوسف عمل علَى إصلاح سور سبتة (5). وبُني ليوسف بن عبد المؤمن منزلٌ بسبتة «هو باق هناك إلَى اليوم [621 هـ/1224 م]» (6). واتخذ الموحدون سبتة قاعدةً لأساطيلهم الغزوانية. يقول ابن خلدون إن سبتة كانت منذ قيام دولة الموحدين «ثغرَ العُدْوَةَ، ومرقَى الأسطول، ودارَ إنشاءة الآلات البحرية، وفُرضةَ الجواز إلَى الجهاد. فكانت ولايتُها مختصةً بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن» (7). ويذكر صاحبُ (الحللُ الموشية) أن يوسف بن عبد المؤمن بنَى دارَ الصناعة بسبتة «علَى ما هي عليه الآن [783 هـ/1381 م]» (8).

ونظراً لتحكم سبتة بالملاحة في بحر الزقاق، ونشاطها التجاري، طمع الجنويون في الاستيلاء عليها، فلجأ تجارهم المتواجدون فيها إلَى خديعةٍ عام 633 هـ لتحقيق

(3) المصدر السابق 2/2. ص 662.
(4) مؤلف مجهول الاسم: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. الدار البيضاء 1979، ص 72
(5) ابن القطان: نظم الجمان. تطوان 1964، ص 113.
(6) المراكشي. عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة 1949، ص 248.
(7) ابن خلدون. عبد الرحمن: كتاب العبر. بيروت 1959، 7/ص 382.
(8) الحلل الموشية ص 158. أحمد: البيان المغرب، القسم الثالث. تطوان 1960، ص 6 ـ 347.

هذا الهدف باءت بالفشل بفضل نُصرة قبائل منطقة سبتة لصاحب المدينة آنذاك أبي العباس الينشتّي (9).

إن ضعفَ الدولة الموحدية في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أدّى إلَى انتزاء أبي العباس اليَنشتّي في سبتة خمس سنوات (630 ـ 635 هـ)، ثم إلَى إعلان واليها ابن خلاص ولاءه للحفصيين في تونس. واستمر هذا الولاء حتّى وفاة أول سلاطين الحفصيين أبي زكريا (637 هـ/1250 م). وفي هذه السنة، أقنع أبو العباس حجبون الرنداحي قائدُ البحر كبيرَ مشيخة سبتة أبا القاسم محمد العزفي بقبول رئاسة المدينة مع ولاءٍ للموحدين. وعقد السلطانُ الموحديُّ المرتضَى «لأبي القاسم العزفي علَى سبتة مستقلاً من غير إشراف أحدٍ من السادة ولا م الموحدين... وعقد لحجبون الرنداحي علَى قيادة الأساطيل بالمغرب» (10). وفي عهد إمارة بني العزفي ـ التي استمرت نحو سبعين عاماً ـ شهدتْ سبتة أوجَ قوتها ورخائها. وعمل أبو القاسم العزفي علَى تنمية تجارة سبتة عبر البحر المتوسط، وشارك في جهاد المرينيين في الأندلس بتزويد الأساطيل والرماة الناشبة. وبعد وفاة أبي القاسم (ت 677 هـ/1279) سار ابنهُ أبو طالب علَى السياسة ذاتها، فظلَّ علَى ولاءٍ اسمي لبني مرين، وشارك بنشاط في عمليات الجهاد في الأندلس. وكان لأسطول سبتة دَوْرٌ مهمٌّ في الهزيمة البحرية التي أُوقعت بأسطول قشتالة في شهر يوليه 1279 م عند حصار الفونس العاشر ملك قشتالة للجزيرة الخضراء (11).

وفي عام 1305 م، استولى سلطانُ غرناطة محمد بن نصر علَى سبتة بمداخلةِ صاحب القصبة بالمدينة، ونُقل بنو العزفي إلَى غرناطة حيث بقُوا إلَى أن خُلع هذا السلطان في شهر مارس 1309 م. وفي يوليو 1309 م ـ إثر ثورة داخلية بالمدينة ـ

---

(9) ابن عذاري، أبو العباس. أحمد: البيان المغرب، القسم الثالث، تطوان 1960، ص 6 ـ 347.

(10) ابن خلدون: كتاب العبر، 3/ ص 383.

(11) **The Encyclopeadia of Islam** (New Edition), **Supplément 1-2**, Leiden 1980, S.v. 'Azafi (J.D. Latham), 112.

استسلمت سبتة للسلطان المريني الربيع ، الذي أذن لبني العزفي بالعودة من غرناطة والاستقرار في فاس.

وفي سنة 710 هـ/1310 م ، عاد يحيى بن أبي طالب العزفي والياً علَى سبتة من قبَلِ السلطان المريني أبي سعيد. وفي سبتة ، رأس يحيَى مجلسَ شورى ، وحظي باستقلال ذاتي في مقابل أداء ضريبة سنوية لسلطان فاس.

وبانتهاء ولاية العزفيين علَى سبتة سنة 728 هـ/7 ـ 1228 م ، آلتْ رئاسةُ مجلس الشورى بالمدينة إلَى الشريف الحسيني أبي العباس أحمد ، وكان خصماً لبني العزفي ومقرَّباً من السلطان أبي سعيد ، ولعلَّ له دَوْراً في إنهاء رئاسة العزفيين في سبتة. والسلطان أبو سعيد هو الذي أمر ببناء البلد المسمَّى آفراك علَى سبتة سنة 729 هـ [12].

مع ذلك، فقد لمع اسم أحد العزفيين ـ وهو محمد بن علي العزفي ـ قائدا لأسطول السلطان المريني أبي الحسن ، وهو الأسطول الذي دمّر أسطول قشتالة قبالة الجزيزة الخضراء سنة 1340م ، وظلّ محمد العزفي قائدا للأسطول إلى أن لقي مصرعه بعد عشر سنوات في العمليات ضد بني عبد الواد[13] .

والسلطان أبو الحسن هو الذي أمر بإنشاء برج الماء ببحر بَسول من ساحل سبتة الجنوبي «فصان ذلك البرجُ جميعَ المرسَى ، فلا يتهيأ لأحدٍ من المراكب الدخولُ لذلك المرسَى إلاّ أن يكون صديقاً ، وإلاّ فهو يُشرف علَى جميع ما يدخل تحته» [14].

إن ضعفَ مملكة غرناطة ، والصراعَ علَى السلطة بين أبناء البيت المريني ، وكذلك المنازعات بين بني مرين وبني عبد الواد أصحاب تلمسان ، كلٌّ ذلك كان له

---

(12) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون. بيروت 1979 ، 7/ ص 247.

(13) Ei,,Supplement, 1-2, 112-113.

(14) ابن مرزوق التلمساني ، محمد : المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. الجزائر 1981 ، ص 399.

أثره في مدينة سبتة ، التي كانت قد غَصَّتْ بالنازحين عن الأندلس . ونشطتْ حركةُ الغزو البحري من قِبَلِ هؤلاء النازحين ضد مراكب اسبانيا وأراضيها . ورداً علَى ذلك ، هاجم صاحب قشتالة ــ هنري الثالث ــ تطوان مغتنماً فرصةَ انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان سنة 1399 م ، ودمَّرها وأباد نصفَ سكانها واسترقَّ النصف الآخر . وكان من نتيجة هذا الهجوم الوحشي أن ازداد نشاطُ غزاة البحر . وازدادت الحميَّةُ للجهاد ضد النصارى [15]

إن أعمالَ غزاة البحر من قواعدهم في بر العُدوة كانت إحدى الذرائع التي تذرَّع بها البرتغاليون عند عدوانهم علَى سبتة عام 1415 م . فضلاً عن عدائهم للإسلام والمسلمين ، وأطماعهم في خيرات المدينة وما ذُكر عن ثرائها بفضل الاتجار مع السودان الغربي .

النشــاط الإقتصــادي :

أ ــ التجــارة :

إن أهلَ سبتة ــ بحكم موقع بلدهم علَى بحر الزُّقاق بين المغرب والأندلس ـ اشتهروا بمزاولتهم للتجارة ، كما أنهم استغلوا ثروةَ مياه سبتة من المرجان والأسماك ؛ وقامت في بلدهم بعضُ الصناعات كإنشاء المراكب وعمل القسِّي وتصنيع المرجان والصياغة وصناعة الورق والأدوات النحاسية .

ويبدو أن التجارةَ بين سبتة واشبيلية كانت نشطةً في القرن الحادي عشر الميلادي كما يُستدلُّ مما أورده ابن بسام الشنتريني من أن المعتضدَ بن عباد صاحبَ اشبيلية اعتقل تاجراً من سبتة ، وعلَى الأثر اعتقل صاحبُ سبتة سقُّوت البرغواطي عدَّ

---

(15) جوليان . شارل ــ أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة . تونس 1978 . ص 248.

تجّار من اشبيلية، فنشأت بينهما وحشةٌ سنة 457 هـ/1065 م «وقامت حروب هلك فيها رجالٌ وتلفتْ أموال»[16]. ويضيف ابن بسام بأن سَقُّوت هذا كان يمارس القرصنةَ بحراً «فضجَّتْ منه الأرضُ والسماء»[17].

• ويشبِّه ابنُ سعيد المغربي (أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) سبتة بمدينة الإسكندرية «في كثرة الحطِّ والإقلاع، وفيها التجّارُ الأغنياءُ الذين يبتاعون المركبَ بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة»[18].

ويحدثنا ابنُ بطُّوطة بأنه أثناء وجوده في مدينة قنجنفو(Fuchow) بالصين في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي قابل تاجراً من سبتة ـ قوام الدين السبّتي ـ كان قد وصل إلَى الصين حيث «عظُم شأنُه واكتسب الأموالَ الطائلة». وبعد ذلك ببضع سنوات، قابل ابنُ بطُّوطة أخاً لهذا التاجر السبّتي في السودان الغربي[19].

كان لسبتة منذ قيام دولة الموحدين تجارة مزدهرة مع بلدان الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبخاصة جنوة وميورقة وبلنسية. وكانت سبتة ـ علَى حدّ قول ابن الخطيب ـ «محطَّ قوافل العصير والحرير والكتّان»[20]. وغدت سبتة بالتالي منفذاً لمنتجات المغرب والسودان الغربي ومركزاً لتصريف السلع التي يجلبها تجارُ جنوة ومرسيليا ومملكة أرغون. وبالنسبة للتجار الجنويين، احتلَّتْ سبتة مكانَ الصدارة بين موانىء شمال افريقيا، وحلَّتْ محلَّ بجاية، وأصبحت محطةً لرحلات المراكب من جنوة إلَى إسبانيا وفرنسا، بل ـ وكما يتبيّن من رحلة ابن جبير ـ أصبحتْ سبتة

(16) ابن بسام التنتريني. 2/2. ص 658.

(17) المصدر السابق. 2/2. ص 662.

(18) ابن سعيد المغربي. علي: كتاب الجغرافيا. بيروت 1970. ص 139.

(19) ابن بطوطة. محمد: رحلة ابن بطوطة. بيروت 1968. ص 626.

(20) ابن الخطيب. لسان الدين: معيار الاختبار. ضمن كتاب (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس) لأحمد مختار العبادي. الإسكندرية 1983 ص 102.

نقطةَ البداية والنهاية للرحلات البحرية إلَى المشرق (21) . وكان تجارُ مرسيليا ـ عن طريق وكلائهم من اليهود في سبتة ـ يبيعون عمـــلاتٍ عربيةً (انصاف دراهم Millares) تضرب في مونبلييه(22) .

وفي عهد بني العزفي (647 ـ 728 هـ/1249 ـ 1328) حظيتْ سبتة بفترةٍ من النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي ، بـل إن السفن كانت تُستأجر من بعض الدول البحرية بحوض البحر المتوسط . ويُستفاد من نصٍّ مؤرخٍ في سنة 1302 م أن صاحبَ سبتة أبا طالب العزفي كان شريكاً في مِلْكية سفينةٍ قطلانية (23) .

إن ثراء سبتة أطمع فيها الجنوبيين الذين حاولوا ـ دون جدوى ـ الاستيلاء عليها بالخديعة عام 633 هـ ، فانتُهبت أموالُهم التي في فنادقهم ، ثم وقع الصلحُ وبموجبه عُوِّض أهلُ سبتة الجنوبيين عما فقدوه (24) .

ومما ساعد علَى ازدهار سبتة في هذه الفترة بُعدُهَا عن العواصم السياسية للمغرب الأقصَى وعن الفتن والقلاقل الداخليةَ ، مما جعل تبعيتَها لمراكز السلطة في الغالب تبعيةً اسمية (25) .

وفي أوج حكم العزفيين ، حظيتْ سبتة بقوة سياسية واقتصادية حقيقية ، حتّى إن صاحبَ أرغون ـ جيمس الأول ـ عقد معاهدةَ سلمٍ مع صاحب سبتة (فبراير 1269 م) ، فكان ذلك أولَ اتفاق يُعقد بين صاحب أرغون وبين دولة مغربية . وفي

---

(21) Krueger, H. "Genoese Trade with North-west Africa...", in Speculum, III (1933) p. 382.

ابن جبير، محمد : رحلة ابن جبير، بيروت 1968 ، ص 8 .

(22) جولياد . ص 161 .

(23) Latham, D., "The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period", in Islamic Quarterly, XV (1971) p. 192.

(24) ابن عذاري . 3 ص 346 ـ 347 .

(25) Latham p. 192

عام 1294 م، عيّنت أرغون سفيراً لها لدى أبي حاتم العزفي [26].

ويبدو أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلَى سبتة طِراف السلع، كما يتبيّن من قصة القائد أبي السرور ـ صاحب ديوان سبتة ـ الذي أنعم علَى الأديب النَّحْوي أبي عمران موسَى الطرياني «بتحفٍ مما يكون في الديوان مما يجلبه الإفرنجُ إلَى سبتة» [27].

إن السلطانَ المرينيَّ أبا الحسن حرص علَى تأمين طرق القوافل ما بين فاس والمدن الأخرى كسبتة، وذلك بإنشاء مراكز علَى طول الطرق يُجري لساكنيها إقطاعاً من الأرض «ويُلزَمون فيها بيعَ الشعير والطعام، وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم علَى اختلافها والمرافق التي يُضطرون إليها هم وبهائمهم، ويحرسونهم ويحوطون أمتعتَهم، فإنْ ضاع شيءٌ تضمَّنوه» [28].

إن الوصفَ الذي تركه لنا عن سبتة أحدُ أبنائها محمد بن القاسم الأنصاري في كتابه (اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سَنيِّ الآثار) يدل علَى أن المدينة ـ حتّى أوائل القرن الخامس عشر ـ كانت تنعم بالرخاء والازدهار والعمران. فالأنصاري يحدثنا عن أسواق سبتة وحوانيتها وتربيعاتها وفنادقها، فيقول إن عددَ الأسواق 174 سوقاً «ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأًى سوقُ العطارين الأعظم... والسوقُ الكبيرُ وسوقُ مقبرة زكلو من الجانب الشرقي من المدينة. ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصُّفْرية [النحاسية] سوقُ السقاطين، وما أدراك ما سوقُ السقاطين: رفاهيةَ متجرٍ وكثرةَ أنواعٍ وحسنَ ترتيب ووضع» [29].

أما عددُ الحوانيت فأربعة وعشرون ألفاً، وعدد التربيعات (الأسواق الصغيرة المربعة الشكل) للحرارين والقزازين خاصة إحدى وثلاثون تربيعة.

---

(26) نفسه، ص 193

(27) المقري. أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. بيروت 1968. 4/ ص 131.

(28) ابن مرزوق التلمساني. ص 429.

(29) الأنصاري. محمد بن القاسم: اختصار الأخبار... الرباط 1983. ص 36.

وكان بسبتة 360 فندقاً «أعظمها بناءً وأوسعها ساحةً الفندقُ الكبير المُعدُّ لاختزان الزرع [القمح]، وهذا الفندق من بناء محمد العزفي... يحتوي علَى 52 مخزناً ما بين هريٍ وبيت...»[30]. ويليه من الفنادق المُعَدَّةِ لسكنَى التجار وغيرهم فندقُ غانم. ويشتمل علَى ثلاث طبقات وثمانين بيتاً [حجرة] وتسع مصريات [شقق]». ويميل الأنصاري إلَى الظن بأن فندق غانم من بناء المرابطين، والأرجح أنه من أيام الموحدين، ولعلّه يحمل اسم غانم بن مردنيش قائدِ الأسطول الموحدي بسبتة علَى عهد ثاني سلاطين الموحدين يوسف بن عبد المؤمن. وثمة فندقُ الوهراني، وعلَى بابه عُقابٌ غريبُ الشكل[31].

ويتحدث الأنصاري عن ديار الإشراف المالي فيقول إنها أربعة: دار الإشراف علَى عمَالة الديوان أمام فنادق تجار النصارى ـ وفنادقهم سبعة ـ ودارُ الإشراف علَى سكة المسلمين. ودار الإشراف علَى شدِّ الأمتعة وحلِّها [الجمارك]، ودار الإشراف علَى البناء والنجارة وما يتصل بها[32].

ب ـ الصنـــاعات:

لما كانت مياهُ سبتة غنيةً بالمَرْجان الجيد فإنها كانت تصدِّره إلَى الأندلس والمشرق والهند. ويذكر ابنُ حوقل (منتصف القرن العاشر الميلادي) أنه يُعمل من المَرْجان بسبتة «قُويْريات [أواني] لِطاف»[33].

ويذكر الشريفُ الإدريسي ـ وهو من أبناء سبتة ـ أنه يُصاد بمدينة سبتة «شجرُ المَرْجان الذي لا يعدلُه صنفٌ من صنوف المَرْجان المستخرج بجميع أقطار البحار. وبمدينة سبتة سوقٌ لتفصيله وحكِّه وصُنْعه خرَزاً وثقبه وتنظيمه، ومنها يُتجهَّز به إلَى

(30) نفسه. ص 38.

(31) نفسه. ص 31.

(32) نفسه. ص 41 ـ 42.

(33) ابن حوقل. محمد: كتاب صورة الأرض. بيروت (بدون تاريخ)، ص 79.

سائر البلاد ، وأكثرُ ما يُحمل إلَى غانة وجميع بلاد السودان لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيراً» [34] . ومما يُذكر أنه كان علَى المَرْجان الأحمر طلبٌ وإقبالٌ كبيران في بلدان المحيط الهندي التِي لم يتوفَّر لديها سوى المَرْجان الأبيض [35] .

ولما كانت الأخشابُ الصالحة تتوفر في أحواز سبتة ، فإن المرابطين والموحدين أنشأوا فيها دوراً لصناعة السفن . ويذكر صاحبُ (الحُلَل المَوْشيَّة) أن ثاني خلفاء الموحدين يوسف بن عبد المؤمن «بنَى دار صنعة الإنشاء بسبتة علَى ما هي عليه الآن [783 هـ/1381 م]» [36] . ويتحدث الأنصاري عن دار الصناعة في مضرب الشبكة . ولعلَّها ـ كما يرى الباحثُ الأستاذ ديريك ليثام ـ كانت غيرَ بعيد عن مرسَى العبَّارة إلَى الجزيرة الخضراء ، أي قرب رصيف اسبانيا(e de Espana [37] .

وكان عددُ المَنجْرات لبناء المراكب وعمل القسّي ـ التِي اشتهرت سبتة بصن أربعين مَنْجرة ، بقِي منها في زمان الأنصاري خمسَ عشرةَ مَنْجرة [38] .

أما المقاصر (المصابغ) فعددها 25 مِقْصَراً «وكلها تحت الأسوار والأبر ج والأبواب... ولكل مِقْصَرٍ برجٌ من أبراج السور خاصٌّ به ، تُحطُّ فيه الأمتعةُ لي ؟ وتُنشر نهاراً إلَى أن تتمَّ قصارتُهَا وتتخلَّص ، فلا يُخاف عليها طول تلك المدة مں لص ، ولا تُكلِّف بحملها بالغداة والعشيِّ مؤونةً كما في سائر البلاد» [39] .

---

(34) الإدريسي . محمد : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اخترا الآفاق) . الجزائر 1957 . ص 108 .

يذكر الحسن الوزان أن سبتة اشتهرت بعمالها المهرة «في المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجف والمحابر وغيرها . وكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة . وقد رأيت بعضها في إيطاليا . وكثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشق» ـ الحسن الوزان : وصف افريقيا . الجزء الأول . ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر . الرباط 1980 . ص 245 .

(35) Lombard, M., **The Golden Age of Islam.** The Netherlands 1975, p. 66.

(36) الحُلل المَوْشية . ص 158 .

(37) Latham, pp. 198-9

(38) الأنصاري . ص 37 .

واشتهرتْ سبتةُ شهرةَ شاطبة بشرق الاندلس بإنتاج ورقٍ عُرف بالورق السِّبتيّ، وكان بفاس مصانعُ لإنتاج مثل هذا الورق[40].

ج ـ الغلات الزراعية والبحرية والغابات:

يبدو أن مدينةَ سبتة لم تكُنْ تفتقر للماء العذب منذ أقدم العصور. فابنُ حَوْقل (منتصف القرن العاشر الميلادي) يقول إن ماء سبتة من داخلها يُستخرج من آبارٍ بها، كما أن في خارجها أيضاً آباراً كثيرةً عذبةَ الماء[41].

أما البكري ـ بعد ابن حوقل بقرنٍ من الزمن ـ فيقول إن حماماتِ سبتة يُجلب إليها الماءُ علَى الظهر من البحر، ثم يضيف في موضعٍ آخر بأن الماء «يُجلب في قناة من نهر أويات [علَى بُعْد ثلاثة أميال من المدينة] علَى ضفة البحر القبلي [بحر بَسول] إلَى الكنيسة، التي هي اليوم [460 هـ/1068 م] الجامع[42]. وبعد البكري بقرنٍ من الزمن، يذكر الشريف الإدريسي وجودَ عين ماء لا تجفُّ البتَّة بأعلَى الجبل في وسط المدينة»[43].

وكان ثالثُ خلفاء الموحدين أبو يعقوب المنصور أمر سنة 580 هـ/1184 م بجلب الماء إلَى سبتة من قرية بَلْيونَش ـ علَى ستة أميال غربيها ـ في قناةٍ تحت الأرض، إلاّ أن الأعمال لم تتمَّ حتّى سنة 587 هـ/1191 م[44].

إن كثْرةَ الحمامات والسِّقايات التي يذكرها الأنصاري بشيء من التفصيل تدلُّ

---

(39) نفسه، ص 49.

(40) جوليان، ص 160.

(41) ابن حوقل، ص 79.

(42) البكري، أبو عُبَيْد عبد الله: المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك)، باريس 1965، ص 103 ـ 104.

(43) الإدريسي، ص 107.

(44) مؤلف مجهول الاسم: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الإسكندرية 1958، ص 138.

على أن سبتة لم تكن تفتقر إلَى الماء، فهو يقول إن عددَ السِّقايات بالمدينة 25 سقاية، منها سقاياتٌ مُعدَّةٌ لسقي الدواب كسقاية جُبِّ الميناء الذي ابتناه الفقيهُ الرئيسُ أبو القاسم محمد العزفي بالربض البراني [45]. وعند الحديث عن الطواحين ـ وعددها 103 ـ يقول الأنصاري إن جميعَ هذه الطواحين بمياهها فيها، لا تفتقرُ ولا تحتاج إلَى شراء ماء من سقَّاء... وكذلك جميعُ مساكن سبتة حيثما كانت بأقطار المدينة، حتّى ذلك موجود في المِصْريات والعلِّيات المحمَّلة» [46]. ويبدو من هذا الوصف أن الماء كان يجري توزيعهُ في مدينة سبتة بحِيَلٍ هندسية.

وكان بسبتة من البساتين والأجنَّة منذ القرن العاشر الميلادي ما يقوم بأهلها، علَى حدّ تعبير ابن حَوْقل [47]، أي أن المدينة كانت مكتفيةً ذاتياً من ناحية الخضروات والفواكه. أما أحواز سبتة فلم تشتهر بزراعة الحبوب، مع أن سبتة ذاتها كانت منفذاً مهماً لصادرات المغرب من القمح [48]. ولذلك نجد أهلَ سبتة يحرصون علَى إنشاء المطامير ـ أي الاهراء تحت الأرض ـ لخزن القمح للتصدير والاستهلاك المحلي، وكان عددُ هذه المطامير أربعين ألفاً ماعدا مخازن الفندق الكبير والأهراء التي بالقصبة «يمكثُ الزرع [القمح] في هذه المطامير الستين سنةً والسبعين سنةً ولا يلحقه تغيرٌ لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية. فسبتة في ذلك شبيهةٌ بقاعدة طُلَيْطُلة من بر الأندلس» [49].

واشتهرت سبتة ـ فضلاً عن المَرْجان ـ بوفرة أسماكها. يقول الإدريسي إنه «يُصاد بها من السمك نحوٌ من مائة نوع، ويصاد بها السمكُ المسمَّى التُّن الكثير. وصَيْدهم له يكون زَرْقاً بالرماح... تَنشبُ في الحوت ولا تخرج. ولهم في ذلك دربةٌ وحكمةٌ

(45) الأنصاري، ص 39 ـ 40.
(46) نفسه، ص 43.
(47) ابن حوقل، ص 79.
(48) Krueger, p. 382 يذكر الحسن الوزان أن بادية سبتة فقيرة ووعرة مما جعل المدينة تعاني دائماً من قلة الحبوب (الوزان، 1/ ص 246).
(49) الأنصاري، ص 42.

سبقوا فيها جميعَ الصيادين» (50).

ويقول الأنصاري إن عددَ المضارب (أماكن ضرب شِبَاك السمك) تسعةُ مضارب، منها ما هو بداخل سبتة، ومنها ما هو خارجها. أما المصايد التي كان علَى علمٍ بها فكانت نحو 330 مَصْيداً (51).

وفي أحواز سبتة تتوفر أشجار «الأرْز والبلوط والطخش والبقس وما أشبهه من مكارم الخشب وأنواعه، ومعادن الحديد والقار... مما يعود نفعهُ علَى الثغر، ويُستعان به علَى الإنشاء [إنشاء السفن] وما يرجع إلَى الأمور الجهادية [صنعُ القسيِّ]» (52).

ومما تقدَّم يبدو أن قضيةَ التموين لم تكُنْ تشغل بالَ أهلِ سبتة في أيام السلم والحرب علَى السواء، ما لم تتعرَّض المدينةُ ـ كما حدث في سنة 1274 م ـ لحصارٍ من البر والبحر معاً (53).

النشاطُ العلميُّ بمدينة سبتة:

إن نشاطَ سبتة لم يقتصرْ علَى نشاطها في مجالات البحر والتجارة والصناعة، فقد كانت المدينة منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي مركزاً مرموقاً للدراسات العربية والفقهية والطبية، بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها، وهي العناصرُ التي تزايد عددُها منذ أوائل القرن السابع الهجري/الثالثَ عشرَ الميلادي، وخاصة بعد سقوط اشبيلية عام 646 هـ/1248 م. وتزخر كتبُ التراجم والطبقات بأسماء قضاةٍ ومحدِّثين وقرّاء ومفسِّرين ونَحْويين وأطباء من أبناء سبتة من أصولٍ أندلسية، من أشهرهم القاضي عياض (ت544 هـ/1149 م)، والشريف

(50) الإدريسي. ص 108.

(51) الأنصاري. ص 51.

(52) نفسه. ص 56 ـ 57.

(53) Latham. p. 199.

الإدريسي، وابن رُشيْد الفِهري وأبو العباس العزفي، وابنه أبو القاسم العزفي، وعبدُ المهيمن الحضرمي، وابنُ عبد المنعم الحميري، وأبو القاسم التُّجيبي.

يذكر أبو عُبيْدٍ البكري (ت 487 هـ/1094 م) سبتة فيقول إنها «لم تَزلْ دار علم»[54]. ويصفها لسانُ الدين بن الخطيب في إحدى مقاماته بأنها «بَصرةُ علوم اللسان... وخِزانةُ كتب العلوم»[55]. وكانت المناظراتُ الأدبيةُ تجري بين علماء سبتة، كالمناظرة التي جرت حول استعمال «ماذا» بين النَّحْويِّ الشهير أبي الحسين بن أبي الربيع، وبين الأديب مالك ابن المرحَّل[56]. ولمالك بن المُرحَّل في سبتة:

سلامٌ علَى سبتةَ المغربِ أُخَيَّـةِ مكةَ أو يثربِ

ولعلَّ هذا البيتَ هو الذي حدا بلسان الدين بن الخطيب إلى القول عن أهل سبتة وتعصّبهم لبلدهم إنهم لا يفضِّلون «علَى مدينتِهم مدينةً، الشكُّ عندي في مكةَ والمدينة»[57]. كما أن رسالة الشُّقُندي في فضائل أهل الأندلس كان الباعثَ علَى كتابتها جدَلٌ وقع في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى بن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب[58].

ومن كبار أعلام سبتة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي الفقيهُ المحدِّثُ أبو عبد الله محمد بن رُشَيْد الفِهري (ت 721 هـ/1322 م) الذي ألّف بعد رحلته إلَى الشرق وتأديته فريضةَ الحج كتابَ (مِلءُ العَيْبة فيما جُمع بطول الغَيْبة). وأبو محمد عبد المهيمن الحضرمي (توفي في تونس سنة 749 هـ/1348 م فى

---

(54) البكري. ص 103.
(55) ابن الخطيب: معيار الاختيار. ص 102.
(56) المقَّري. 4/ ص 145.
(57) ابن الخطيب: معيار الاختيار. ص 102.
ابن القاضي. أحمد: دُرَّة الحجال في أسماء الرجال، تونس 1972، 3/ ص 26.
(58) المقَّري. 3/ ص 186.

الطاعون الجارف) الكاتب البارع الضليع في العربية ، ومن كتَّاب بني مرين ، وهو من بيوتات سبتة ، وكان والده محمد ولي قضاء سبتة أيام بني العزفي وغُرِّب معهم إلَى غرناطة ، وكان مجلسه «يَغُصّ بعمائم العلماء ، وهم كأنّما علَى رؤوسهم الطيرُ هيبةً له وتأدّباً معه» [59].

ويذكر الأنصاري مدرستَيْن شهيرتَيْن بسبتة : مدرسة الشيخ المحدِّث علي الشارّي الغافقي السبْتي ، والمدرسة الجديدة التي ابتناها السلطانُ المريني أبو الحسن ، ويصفها ابن مرزوق بأنها كانت غايةً [60].

وفي أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، كان عددُ الخزائن العلمية بسبتة 17 خزانة «تسع بدور الفقهاء والصدور كبني القاضي الحضرمي ، وبني أبي حجة وأشباههم ، وثمانٍ موقفةٌ علَى طلاب العلم ، أقدمها الخِزانةُ الشهيرة خِزانة الشيخ علي الشارّي... التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله ، وهي أولُ خِزانةٍ وُقفتْ بالمغرب علَى أهل العلم» [61]. كان الشيخ علي الشارّي جَمَّاعةً للكتب «انتقَى منها جملةً وافرةً فحبسها في مدرسته التي أحدثها... وعيّن لها من خيار أملاكه وجيِّد رباعه وقفاً صالحاً ، سالكاً في ذلك طريقَ أهل المشرق» [62]

وقد أورد صاحبُ (بُلْغة الأمنية) أسماءَ سبعةٍ وأربعين رجــلاً وامرأةٍ واحدةٍ من علماء سبتة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي في مختلف الفنون والعلوم [63]. وفيما يلي نُبَذٌ يسيرةٌ عن أربعة من علماء الطبقة الأولَى :

---

(59) النُّباهي . أبو الحسن : المرْقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) بيروت (بدون تاريخ) . ص 132 .

(60) الأنصاري . ص 27 . ابن مرزوق التلمساني . ص 406 .

(61) الأنصاري . ص 29 .

(62) ابن الخطيب . لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة . القاهرة 1977 . 4/ ص 188 .

(63) مؤلف مجهول الاسم : بُلْغة الأمنية ومقصدُ اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرسٍ وأستاذٍ وطبيب . تحقيق عبد الوهاب ابن منصور . الرباط 1984 .

1 ـ أبو عبد الله محمد بن هاني اللخمي (ت 733 هـ/1333 م)، وكان موضعُ إقرائه بمسجد القفال «يديره ظهرَه إلَى جوار القِبْلة من بعد صلاة الصبح، ويمشي دولةً [محاضرةً أو درساً] إثْرَ دولةٍ في الفنون العلمية إلَى أن تزول الشمس. وفي بعض الأوقات، يقول له الطلبة: يا سيدي، هذه جنازةٌ قد أُتي بها، فينصرف». وقد استُشهد مدافعاً عن جبل الفتح[64].

2 ـ أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي: سبتيٌّ حافظ للغات العرب... كان يُقرىء الطلبةَ في المجلس الواحد دولاً في علوم شتَّى... وآخر ذلك دولةٌ في الطب. ويدخل إليه أصحابُ العلل والزَّمْنى شيوخاً وكهولاً لحضور دولته الطبية[65].

3 ـ أبو القاسم بن عمران الحضرمي (ت 750 هـ/1349 م): يحملُ صحيحَ البخاري عن الحجَّار، وهو سنَدٌ عالٍ متصلُ السماع لا نظيرَ له في المغرب. وكان ناظراً في خزانة الجامع الأعظم[66].

4 ـ أبو عبد الله محمد بنُ زيدٍ السَّمَّار: فقيهٌ مشاركٌ قعدَ للإقراء «ثم ترك ذلك كلَّه وأناب وتزهَّد، وانتقل... إلَى السعي في طلب الحلال من وجوهه الجائزة، فكان يسمِّر الدوابَّ ولا يتعرَّضُ لتسمير الخيل والبغال خِشْيةَ أنْ يقصده بذلك الأمراء»[67].

ومن رجال الطبقة الثانية في (بُلغة الأمنية):

أبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصاري (ت 802 هـ/1400 م) أستاذُ المدرسة الجديدة (مدرسة السلطان أبي الحسن)، وكان فقيهاً محدِّثاً صوفياً فرضياً حسابياً مشاركاً في أصول الدين والنحو والتاريخ. «وكان متودِّداً للطلبة مباسطاً لهم، حسنَ

(64) بُلغة الأمنية، ص 23.
(65) نفسه، ص 24 ـ 25.
(66) نفسه، ص 31 ـ 32.
(67) نفسه، ص 32.

التعليم والإلقاء، حريصاً علَى الإفادة»[68].

أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي قاضي سبتة، وهو إمامٌ في العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض. كان يُقرىء من كتب العربية جُملَ أبي القاسم وألفيةَ ابن مالك، يقرِّب العباراتِ إلَى أفهام المتبدئين من الطلبة. وكانت له عنايةٌ باقتناء الكتب العلمية وبحثٍ عن أُصولها العتيقة[69].

ومن مشاهير أطباء سبتة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي:

1 ـ الطبيب الماهر الأشهر أبو عبد اللّه محمد الشريشي (ت 764 هـ/1323 م) المعروفُ عند العامة بحكيم الرِّعَاء. استدعاه السلطانُ أبو عنان إلَى حضرته، وكان السلطانُ يقول: اختُصَّتْ سبتة بأربعة رجال دون سائر بلاد المغرب، كَمُلوا في عصرهم خَلْقاً وخُلُقاً. وسمَّاهم، من جملتهم الطبيبُ أبو عبد اللّه هذا[70].

2 ـ الطبيب أبو عبد اللّه محمد الجيَّاني (ت أواخر 789 هـ 1387 م) وكان فضلاً عن معرفته بالطب ـ مهندساً من أهل النجدة ممارساً للحروب الجهادية. قدَّمه السلطانُ أبو العباس بن أبي سالم ناظراً علَى البناء بسبتة[71].

3 ـ الطبيب أبو عبد اللّه محمد بن مروان المعافري (ت 817/أوائل 1415 م)، وكان حسَنَ الاطلاع علَى كتب الأوائل والمتأخرين في الطب «عارفاً بالعِلل... بصيراً بالعقاقير والأعشاب والنبات... وولي آخرَ عمره النظرَ في كتب الخزانة الشهيرة التي بشرقي صحن الجامع العتيق بها، فانتفع الطلبةُ مدةَ نظره بكتبها الطبية بسبب إرشاده وإفادته»[72].

---

(68) نفسه. ص 44 ـ 45.
(69) نفسه. ص 49. 51.
(70) نفسه. 51 ـ 52.
(71) نفسه. ص 53.
(72) نفسه. 54 ـ 55.

4 ـ الطبيبة عائشة ابنةُ الشيخ الكاتب أبي عبد اللّه بن الجيَّار المحتسب بسبتة. قرأت علمَ الطب علَى صهرها الشيخ أبي عبد اللّه الشريشي ونبغتْ فيه. وكانت امرأةً عاقلةً عاليةَ الهمة، نزيهةَ النفس، معروفةَ القدر لمكان بيتها، عارفةً بالطب والعقاقير. وكانت لها رباعٌ تغتلُّها عهدتْ بتوقيفها في وجوه البر وسبيل الخيرات [73].

(73) نفسه، ص 55 ـ 56.

لمحة عن الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط
في القرن السادس عشر الميلادي
من خلال رحلتي الوزان والتمقروتي

وُلد الحسن بن محمد الوزان في غرناطة قُبَيْلَ سقوطها في أيدي الإسبان عام 1492 م ، فانتقلتْ أُسرتُه إِلَى المغرب واستقرَّتْ في مدينة فاس ، حيث نشأ الحسن وتلقَّى تعليمه في جامع القرويين فيها . وقد برع فيما بعد كاتباً وأديبا ودبلوماسيا ، فضلا عن تمكُّنه من العلوم الفقهية والرياضيات ، واكتسب درايةً وخبرةً واسعةً منذ حداثة سنّه لكثرة الجولات والرحلات التي أُتيح له القيامُ بها في أنحاء المغرب الأقصَى والسودان الغربي وشمال افريقيا والمشرق ، وكان شديدَ الملاحظة لكل ما يُبصره ويسمعه . كما يتبيّن من وصفه للبلدان التي مرَّ بها ، اجتماعياً واقتصادياً وسياسيا . وكان من سوء حظ الحسن الوزان ــ وهو في طريقه إِلَى المغرب عائداً من رحلةٍ زار فيها عدداً من بلدان المشرق ــ أن وقع في أيدي القراصنة الصقليين بالقرب من ساحل جزيرة جربة عام 923 هـ/ 1518 م ، فأهدَوْه للبابا ليون العاشر الذي أطلق عليه اسمَه بعد «تنصُّره» . وفي رومة أَلَّف كتابَه المعروف (وصف افريقيا Description de l'Afrique) باللغة الإيطالية عام 933هـ/1526 م ، معتمداً ــ كما يبدو ــ علَى مسودَّةٍ للكتاب بالعربية كانت في حَوْزته حينما أسره القرصان[1] .

---

(1) عن حياة الحسن الوزان انظر :

Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors, Oxford U. P., 4̀70, pp. 142-5

وكذلك مقدمة الجزء الأول من كتاب (وصف إفريقيا) لمترجميْ الكتاب عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. الرباط 1980 ، ص 3 ــ 12 .

إن كتاب (وصف افريقيا) أشبهُ ما يكون بالمذكرات عن انطباعات المؤلف عن البلدان التي زارها ، وهو يتميَّز بالحيوية وبصراحة الكاتب في سرد أخباره دون أي تعصّب أو تحامل. ومنذ ظهور الكتاب ، أدرك الأوروبيون أهميته ، فترجموه إلَى لغاتهم وأفادوا مما فيه من معلومات أوردها شاهدُ عيانٍ عن أراضٍ كانوا يجهلونها. والكتاب ـ كما يقول بوڤيل ـ «منجم من المعلومات الجديدة التي طالما كان يُبحث عنها ، وظل علَى مدى قرنين ونصف القرن لا غِنًى عنه لكل من له اهتمام بافريقيا ، كما أن الكتابَ مهمٌّ اليوم ـ وعلَى مجال أضيق ـ للدراسة التاريخية» (2) . إن رواية الوزان تبيِّن بوضوح أن تجارةَ السودان لعبتْ دَوْراً رئيسياً في حياة المغرب الاقتصادية «إذ يذكُر مراراً تجاراً نشطين في الاتجار مع بلاد السودان ، كما يذكر بضعَ عشرةَ مدينةً عبْر شمال افريقيا ـ من المحيط الأطلنطي غرباً إلَى طرابلس شرقا ـ كانت نشطةً في التجارة عبر الصحراء. ومما هو جدير بالملاحظة أن أهمَّها ـ كفاس وسجلماسة وتلمسان وورقلة وغدامس ـ مدنٌ داخلية ، وكانت التجارة في أيدي وسطاء كانوا يَحولون دون تجار الساحل ـ الذين كان يتاجر معهم النصارى ـ والمشاركة مباشرةً في التجارة عبر الصحراء» (3)

مرَّ الحسن الوزان (ليو الإفريقي) بالمغرب الأوسط في عام 921 هـ/1516 م في طريقه إلَى المشرق لمقابلة السلطان العثماني سليم الأول موفَداً من قِبَل سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي حينما نشط الأخَوان بربروسا (عروج وخير الدين) في التصدّي للغزاة الإسبان في مدن الجزائر وبجاية وغرب الجزائر. وقد أورد الوزان في كتابه (وصف افريقيا) عرضاً شاملا للموارد الاقتصادية للمغرب الأوسط (القطر الجزائري) والأعمال التي كان يزاولها الأهالي. وبالرغم مما مرَّ بالبلاد من حروب بين الحفصيين والزيانيين ، وبين الزيانيين والمرينيين ، وبالرغم كذلك من هجمات الإسبان المتكررة علَى مدن الساحل منذ احتلالهم للمرسَى الكبير عام 911 هـ/1505 م ،

---

(2) Bovill, p. 154.

(3) المرجع السابق ص 144 ـ 145.

فضلا عن فداحة الضرائب في بعض المدن وتعسُّف الأعراب وحدوث الأوبئة ، فإن المغرب الأوسط في أوائل القرن السادس عشر كان إجمالاً ينعم بالرخاء . فالوزان يُشيد بوفرة الغلات الزراعية والمنتجات الحيوانية كالقمح والشعير وزيت الزيتون والخروب والتين والتمور والجلود والصوف والقطن والكتان والقنَّب والسمن والشمع والعسل وكان الحديد يُستخرج ويُستغل في جبال تلمسان وبجاية ، وكذلك الزنك في جبل ونشريس ، والمَرْجان بالقرب من ساحل عنابة . وازدهرتْ صناعةُ المنسوجات القطنية والكتانية والصوفية والحريرية في عددٍ من المدن . وكانت الصباغةُ عملاً رئيسياً في كلٍّ من دلس والعُبَّاد في ظاهر تلمسان .

أما التجارة فكانت تشكِّل موردًا هاماً للبلاد . فمدن الساحل كانت تتاجر بنشاط مع تجار جنوة والبندقية وقطلونية ، أما المدن الداخلية القريبة من الصحراء ـ وكذلك تلمسان ـ فكانت تَجْني أرباحاً طائلةً من احتكارها لتجارة السودان الغربي . وكان لقدوم أعدادٍ كبيرةٍ من النازحين الأندلسيين (الموريسكيين) بعد سقوط غرناطة عام 1492 م واستقرارهم في المدن الساحلية أثرٌ كبيرٌ في ازدهار الزراعة وقيام صناعة المنسوجات الحريرية كما في شَرْشال .

أما الغزو البحري ، أو ما يُعرف بالقرصنة ، فكان نشطاً ـ وبخاصة بعد قدوم الموريسكيين ضد مراكب الإسبان والجزائر الشرقية (البَلْيار) وسواحل إسبانيا ، من وهران والجزائر وبجاية ، مما جعل هذه المدن هدفاً لغارات الإسبان واحتلالهم لها .

أمضَى الوزان بضعةَ شهورٍ في المغرب الأوسط (1516 م) ـ يَذكُر أنه أقام نحو شهريْن في المَدْية [4] ـ وشهد عن كثبٍ الصراعَ الدائرَ بين عروج والإسبان في بجاية ، كما ذكر بأنه علَى إثر وفاة الملك الكاثوليكي فرديناند (12 ذو الحجة 921 هـ/23 يناير 1516 م) «أراد أهلُ الجزائر أن يفسخوا الهدنة ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لإسبانيا ، فأرسلوا إلَى بربروس ليكون قائداً لهم نظراً

(4) الوزان ، الحسن : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر الرباط 1982 ، ص 41.

لقيمته العسكرية العظيمة وكفايته في محاربة المسيحيين. وكان الخلافُ قائماً بين بربروس وأحد المتسلطين علَى إمارة الجزائر، فقتله غيلةً في أحد الحمامات. وكان هذا المتآمر زعيمَ الأعراب القاطنين بسهل المتيجة واسمه سليم التومي [بل سالم التهامي] من قبيلة ثعْلبة التي هي فرع من عرب المعقل، استولَى علَى الجزائر عندما احتل الإسبانُ بجاية 915 هـ/1510 م، واستقر فيها عدةَ سنوات إلَى أن أتَى بربروس فقتله ونودي به ملكاً، فضرب السكَّةَ... ذلكم كان أصلَ قوة بربروس وعظمته»(5). ويذكر الوزان أن أهلَ قصر جيجل كانوا قد خضعوا قبل ذلك (920 هـ/1514 م) «من تلقاء أنفسهم إلَى بربروس الذي لم يَفرضْ عليهم سوى زكاة عشْر الحبوب والثمار، مما هو معمول به، ولم يترك نائباً عنه في القصر سوى مندوبٍ واحد»(6).

دخل الوزان مملكةَ تلمسان قادماً من فاس، ولاحظ غِنَى الإقليم بأشجار الخروب وبالعسل. كما لاحظ كثْرةَ بساتين الفاكهة في أحواز تلمسان لا سيما التين والعنب، ووفرة القمح وكثْرة أرحائه. وفي منطقة بريشك يكثْر التينُ والكتانُ والشعيرُ، وينقل أهلُها التين والكتان بحراً إلَى الجزائر وبجاية وتونس(7).

أما جبال مليانة فهي غنية بأشجار الجوْز، ويكثْر في اقليم تنس القمحُ والعسل، كما يكثْر القمح في سهل الميتجة قرب مدينة الجزائر وفي إقليم دلس. وفي شرق الجزائر يكثْر التين والجوْز في جبال بجاية ونكاوس وقصر جيجل، ويُحمل بحرا إلَى تونس. ولاحظ الوزان أن «الأراضي الزراعيةَ المحيطةَ بمدينة قسنطينة كلها خصبة، ويبلغ إنتاجها ثلاثينَ ضعف ما يُزرع فيها»(8). وتشتهر بونة باسم بلد العناب لكثْرة ما يُزرع

---

(5) المصدر السابق ص 39. عن هذه الأحداث انظر:

Clissold S., The Barbary Slaves ,Londen 1977, p. 23.

(6) الوزان 2/ ص 52.

(7) المصدر السابق ص 33.

(8) المصدر السابق ص 58.

من أشجار العناب في أحوازها، وهو يُجفَّف ويؤكل في فصل الشتاء [9]. وبالقرب من عَنابة تسكن قبيلة مرداس العربية، وتقوم بزراعة القمح وتربية الأغنام والماشية. ولذلك فإن التجار من تونس وجربة وجنوة يقصدون عَنابة لشراء القمح والسمن. وفي الواحات الجنوبية، يكثر النخيل في إقليم الزاب، وحول وركلة وبسكرة.

ولاحظ الوزان أن سوقاً يُعقد في المعسكر (إقليم بني راشد) «كل يوم خميس يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل... والحبال والسروج والأعنَّة وحاجيات الخيل» [10]. وفي عنابة كان السوق يُعقد في كل يوم جمعة خارج أسوار المدينة ويستمر إلَى المساء. وفي جبال الجزائر وقسنطينة، كانت تُعقد أسواقٌ تجاريةٌ تُباع فيها الحيوانات والحبوب والصوف.

وقد ازدهرت في عدد من المدن صناعات كانت تعتمد علَى المواد الأولية المحلية، وفي مقدمتها صناعةُ الأقمشة والمنسوجات القطنية والكتانية والصوفية والحريرية. يذكر الوزان ندرومة ـ التابعةَ لمملكة تلمسان ـ فيقول إنها مزدهرةٌ كثيرةُ الصنَّاع «ويُنتجون علَى الخصوص أقمشةَ القطن لأنه يُزرع بكثْرة في الناحية» [11]. أما سكان هُنَيْن ـ قبل نزوحهم عن المدينة إثْر احتلال الإسبان لمدينة وهران سنة 915 هـ/1509 م ـ فكانوا «يعملون كلُّهم تقريباً في القطن والمنسوجات» [12]. وكذلك الحال في مدن بريشك ومليانة وعنابة. وفي مدينة ميلة «عدد كبير من الصنَّاع وخصوصا مَنْ يعملون في نسج الصوف الذي تُصنع منه أغطية الأسرَّة» [13]. وتُصنع في جبال بجاية كمية كبيرة من القماش الخشن. وفي فقيق «تنسج النساءُ ثياباً من الصوف علَى شكل أغطية الأسرَّة لكنها دقيقة رفيعة حتَّى

(9) المصدر السابق ص 61
(10) المصدر السابق ص 26 ـ 27.
(11) المصدر السابق ص 14.
(12) المصدر السابق ص 15.
(13) المصدر السابق ص 60.

يظنّ أنها حرير» وتباع بثمن مرتفع في فاس وتلمسان [14]. وكان معظمُ الصُّنَّاع في العُبَّاد من الصاغين، وكذلك في دلس لوجود العيون والجداول بها [15].

وكانت شرشال حتّى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي مدينةً مهجورةً بسبب الحروب بين ملوك تلمسان الزيانيين وملوك تونس الحفصيين، إلَى أن قصدَها واستقرَّ بها الغرناطيون بعد سقوط غرناطة في أيدي النصارى عام 1492 م، فأنشأوا فيها صناعةَ المراكب «واشتغلوا بصناعة الحرير، إذ وجدوا هنالك كميةً لا تُحصَى من أشجار التوت» [16].

وفي تَفْسِرة القريبة من تلمسان يكثُر الحدادون لوجود معدن الحديد قريباً من البلدة. وتُصنع من الحديد في جبال بجاية سبائكُ صغيرةٌ تُستعمل كعُملة، كما تُضرب فيها نقودٌ صغيرةٌ من الفضة [17]. ولم يكن يُسمحُ لأحد بصيد المَرْجان في شاطىء عنابة لأن الملك الحفصيّ كان قد أكرى الشاطىء للجنويين [18]. ويكاد يكون كلُّ سكان مَلْيانة صُنَّاعاً «نسَّاجين أو خرَّاطين، ويَصنع هؤلاء أوانيَ من خشبٍ في غاية الحُسْن» [19].

كانت التجارةُ ـ وبخاصة مع المدن الإيطالية والسودان الغربي ـ تشكِّلُ مورداً رئيسياً للسكان والحكام في المغرب الأوسط. فمنذ الفتح الإسلامي للمغرب، نشطت تجارةُ القوافل عبر الصحراء إلَى ممالك السودان الغربيّ ـ كغانة ومالي وسنغاي ـ وكانت تلك التجارةُ عمادَ اقتصاد الدول الإسلامية التي تعاقبتْ في افْريقية رتيهرت وتلمسان وسجلماسة وفاس وأغمات ومراكش، وكذلك في الأندلس. وكانت السلعُ الرئيسيةُ التي تنقلها القوافل الَى السودان الغربي تشمل الحبوب والتمور

---

(14) المصدر السابق ص 132.
(15) المصدر السابق ص 24 ـ 42.
(16) المصدر السابق ص 34.
(17) المصدر السابق ص 102.
(18) المصدر السابق ص 62.
(19) المصدر السابق ص 35

والأقمشة والمصنوعاتِ المعدنيةَ والجلدية وصنوفاً من النُّظْم من الزجاج والأصداف والخواتم والقطران والأخشاب والعطور والملحَ، الذي كان أهلُ السودان في أمسّ الحاجة إليه. وكان التجارُ المغاربةُ يستبدلون هذه السلع بغلات السودان، وهي الذهب والعاج والأبنوس، فضلا عن الرقيق، إلاّ أن السلعةَ الرئيسيةَ كانت تبرَ الذهب.

أما العلاقات التجاريةُ مع المدن الإيطالية ـ لا سيَّما جنوة والبندقية ـ ومع التجار القطلونيين من برشلونة، فكانت وثيقةً منذ أيام الموحدين في القرن الثانى عشر الميلادي، وازدادت توثّقاً في أيام الحفصيين والزيانيين. وكان تجارُ المغرب الأوسط ـ وبخاصة تلمسان وبجاية ـ يقومون بدوْر الوسيط في تبادل السلع بين التجار الأوروبيين وبين السودان الغربي، فضلا عن تصديرهم لمنتجات المغرب ذاته إلى مدن السودان. وبالرغم من احتلال الإسبان لعددٍ من مدن الساحل منذ عام 911 هـ/1505 م، فإن تجارَ مدينتيْ جنوة والبندقية ظلُّوا يترددون على بقية موانىء المغرب الأوسط ويُرحَّب بهم من قِبَل الأمراء الحفصيين والزيانيين على حد سواء.

يذكر الحسنُ الوزانُ مدينةَ هُنيْن فيقول إنه «تأتي إلى هذا الميناء سنوياً سفن شراعيةٌ من البندقية تحقّق أرباحاً طائلة مع تجار تلمسان... ولما احتل المسيحيون وهران [915 هـ/ 1509 م] لم يعُدْ البنادقة يقصدونها... فطلب منهم أهلُ تلمسان أن يأتوا إلى هُنَيْن... كنتُ مع أحد كتَّاب ملك تلمسان جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية حَملتْ من البضائع ما يموِّن تلمسان لمدة خمس سنوات. وبلغت قيمةُ الرسوم التي قبضها الملكُ خمسةَ عشرَ ألفَ مثقال ذهباً مسكوكاً أرانيها الكاتب»[20]. ويضيف الوزانُ أن لمملكة تلمسان مينائيْن مشهوريْن هما وهران والمرسَى الكبير، «وكان يختلف إليهما كثيراً عددٌ وافرٌ من تجار جنوة والبندقية، حيث يتعاطوْن تجارةً نافقةً عن طريق المقايضة، غير أن هذين الميناثين سقطا في يد الملك

(20) المصدر السابق ص 15 ـ 16

الكاثوليكي فرناندو [كان سقوط المرسَى الكبير في عام 911 هـ/5 م وهران في عام 915 هـ/1509 م] فكان ذلك خسارةً عظمَى ـــ ـكة تلمسان»[21] . وكان في مدينة تلمسان فندقان ينزل فيهما تجار جنوة والبندقية «ولما كانت تشكّل مرحلةً بين أوروبا وبلاد السودان ، فإن الملك يجني أمولاً كثيرةً من دخول البضائع وخروجها [تجارة العبور أو الترانزيت]»[22] . وكانت وهران قبل احتلالها من قِبَل الإسبان مهبطَ التجار القطلونيين والجنويين «وما زالت بها الآن دار تُسمَّى دارَ الجنويين، لأنهم كانوا يقيمون بها»[23] .

ويُحمل الشمعُ والجلودُ من جبل بني بو سعيد إلَى شاطىء تنس لبيعها للتجار الأوروبيين ، كما أن السفنَ الأوروبيةَ كثيراً ما تقصد ميناءَ مستغانم . كما تأتي إلَى عَنابة كلَّ سنةٍ سفنٌ عديدةٌ من تونس وجربة ، وكذلك من جنوة ، لشراء القمح والسمن . ونظراً لجودة ميناء سكيكدة ، فإن صاحب قسنطينة أمر «ببناء منا ومخازن للجنويين الذين كانوا يتَّجرون في البلاد... ويتَّجر سكانُ جبل سكيك كثيراً مع الجنويين، فيدفعون لهم القمح مقابل أقمشةٍ وغيرها من منتجاد أوروبا»[24] . ويجني أهلُ القُلْ أرباحاً طائلةً «لأنهم يجنون من جبالهم الكثير م الشمع ، ويمتلكون كميةً عظيمةً من الجلود يبادلون بها البضائعَ التي يحملها أه جنوة إلَى مينائهم... وليس علَى ساحل مملكة تونس مدينةٌ أغنَى من القُل لأ بدأت تحقِّق في تجارتها مع الجنويين أضعافَ أضعافَ ما تعطيه إياهم ، ثم تب بالتقسيط في الجبال المجاورة البضائعَ المأخوذةَ من الجنويين محققةً بذلك أربا طائلة»[25] .

هذا بالنسبة لتجارة المناطق الساحلية مع التجار الأوروبيين ، وأما التجارةُ

---

(21) المصدر السابق ص 9.

(22) المصدر السابق ص 20 ـ 23

(23) المصدر السابق ص 30.

(24) المصدر السابق ص 55.

(25) المصدر السابق ص 54.

الصحراء مع بلاد السودان . فقد نشطتْ فيها تلمسان وقسنطينة وواحاتُ الجنوب . وينوه الوزان بتجار تلمسان فيقول إنهم «أمناء في تجارتهم... أهمُّ أسفارهم التجاريةِ إلَى بلاد السودان ، وهم وافرو الغنَى أملاكاً ونقوداً» [26] . وفي تيكوراين ، تلتقي القوافل ، وأهلُها أغنياءُ لكثرة تجارتهم مع بلاد السودان . ومزاب «رأسُ خطٍّ تجاري يلتقي فيه تجارُ الجزائر وبجاية بتجار أرضِ السودان» [27] . أما وركلة فتبلغ جبايةُ أميرها مائةً وخمسين ألفَ مثقال «وسكانُها أغنياءُ جداً لأنهم علَى اتصال بمملكة أكدز[Agades] ، منهم عددٌ كبيرٌ من التجار الأجانب الغرباء عن البلد ، لا سيما من قسطنطينة وتونس ، يحملون إلَى وركلة منتجاتِ بلاد المغرب ويستبدلونها بما يأتي به التجارُ من بلاد السودان» [28] . ويتحدث الوزان عن قافلةٍ سنويةٍ لأهل قسنطينة تقصد الواحاتِ الجنوبيةَ علَى تخوم الصحراء تحمل الأقمشة الصوفيةَ والكتانيةَ «وشيئاً قذراً يُسمَّى الحشيش» [29] . ويبدو أن مادة الحشيش هذه كان يأتي بها تجارُ قسنطينة من تونس ، إذ إن الوزان ـ عند حديثه عن مدينة تونس ـ يقول إن التونسيين يتناولون عادةً «بعضَ المستحضرات المسماة بالحشيش ، وثمنُه مرتفع» [30] .

إن ما يعرفُ بأعمال القرصنة في البحر المتوسط قبل القرن السادس عشر الميلادي كان يزاولها المسلمون ضد مراكب النصارى كجزءٍ من الجهاد والغزو البحري . وقد نشط هذا الغزوُ البحريُّ بعد سقوط غرناطة ونزوح الكثيرين من الأندلسيين (الموريسكو) إلَى سواحل المغرب ، حيث اتخذوا من موانئه مراكزَ لشنِّ الغارات علَى مراكب الإسبان وعلَى سواحل إسبانيا والجزائر الشرقية (البَلْيار) ، فكانت هذه الغارات ـ فضلاً عن مشاعر الإسبان الصليبية ـ حافزاً لقيام الإسبان باحتلال المرسَى

(26) المصدر السابق ص 21.
(27) المصدر السابق ص 135.
(28) المصدر السابق ص 136.
(29) المصدر السابق ص 59.
(30) المصدر السابق ص 78.

الكبير (1505 م) ووهران (1509) والبنيون قبالة مدينة الجزائر (1510 م) وبجاية (1510 م)، لوضع حد لنشاط هؤلاء الغزاة. إلاّ أن نشاطهم لم يلبثْ أن تجدَّد ونما بعد قدوم عروج واتخاذه جيجل مركزاً لنشاطه ضد الإسبان (915هـ/1514 م)، وتوسع رقعة نفوذه غرباً إلَى مدينة الجزائر وشرشال وتنس، ثم تلمسان (923 هـ/1517 م)[31]. وقد شهد الحسنُ الوزانُ هذه المرحلةَ من نشاط عروج ومحاولتَه إنقاذَ بجاية من الاحتلال الإسباني.

يذكر الوزان نشاطَ أهل وهران والجزائر وبجاية في ميدان الغزو البحري قُبَيْل احتلال الإسبان لهذه المدن فيقول إن تجار وهران كانوا «يجهِّزون علَى الدوام سفناً شراعيةً وأخرى مسلَّحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحلَ قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة «إلَى أن احتلَّ الإسبانُ المدينةَ (صيف عام 915 هـ/1509 م)[32]. وكانت سفنُ أهل مدينة الجزائر كذلك تُغير علَى جزر يابسة وميورقة ومنورقة وحتّى شواطىء إسبانيا «لذلك أرسل الملكَ الكاثوليكي فردناند أسطولا عظيما لحصار الجزائر، فشيَّدوا قلعةً جميلةً كبيرةً في جزيرة صغيرة مقابلة تماما للمدينة وقريبة منها... El Penon فاضطر أهلُ الجزائر إلَى إيفاد سفارة إلَى إسبانيا تطلب هدنةَ عشر سنوات مقابل بعض الخراج»[33]. وما إن علم أهلُ المدينة بوفاة فرديناند (ت 23 يناير 1516 م) حتّى فسخوا الهدنةَ للتخلص من الخراج الذي كانوا يؤدونه لإسبانيا، واستدعوا عروج ليكون قائداً لهم.

ويقول الوزان إن أهلَ بجاية كانوا «علَى قدرٍ عظيمٍ من الغنَى، يسلِّحون العديدَ من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطىء إسبانيا، ومن ثم كان سقوطُ المدينة وإرسال الكونت بيير نافارو لاحتلالها»[34].

---

(31) Julien, Charles -André, **History of North Africa**, London 1970, p.274. Nlissold, pp. 22-23.

(32) الوزان 2/ ص 30.

(33) المصدر السابق ص 38.

(34) المصدر السابق ص 50.

وكان من نتائج احتلال الإسبان لمدينة وهران أن هُجرتْ مدينة هُنَيْن ونزح سكانُها عنها [35]. أما مدينة تبحريت بالقرب من ندرومة، فإن أهلها «يعيشون في خوف دائم من هجوم النصارى عليهم ليـلاً، ولذلك يقيمون حرساً يقظاً في كل ليلة» [36]. وأما جبل أَغْبال القريب من وهران فكلُّ سكانه فلاحون وحطّابون «يحملون حطَبهم إلَى وهران. وكانوا في عيشة راضية يوم كانت المدينةُ [وهران] بأيدي المسلمين، لكن عندما احتلَّها النصارى أُصيب الجبليون بفقر مُدْقع، ولحقهم أذى كثير من هؤلاء المحتلين» [37].

ويورد الحسن الوزان تقديراً لعدد السكان في عَشْرٍ من مدن المغرب الأوسط علَى أساس الكانون(household/hearth)، وهو اصطلاح مغربي ـ أندلسي يقابل (البيتَ) في المشرق، «وكانت عمليةُ إحصاء القبائل تجري بحسب الكوانين لفرض عددٍ من الفرسان في الحروب أو الخراج السنوي لبيت المال» [38]. ويتبيَّن من التقديرات التِي أوردها الوزان أن بجاية كانت أكبرَ المدن آنذاك في المغرب الأوسط، وتناهز كوانينها ثمانيةَ آلاف «أقصدُ في القسم المسكون منها، إذ لو امتلأتْ دوراً لفاق عددُ كوانينها أربعةَ وعشرين ألفاً» [39]. وكذلك قسنطينة والتِي ـ نظراً لحجمها ـ يمكن أن تضمَّ ثمانيةَ آلاف كانون [40]. وتليها وهران وفيها ستةُ آلاف كانون [41]. وتضم مدينةُ الجزائر نحوَ أربعة آلاف كانون [42]. وتضم مدينة ميلة حوالي ثلاثة آلاف كانون [43]. أما تلمسان المدينة فإنها توسَّعت أيام بني عبد الواد، وكانت تضم نحوَ

(35) المصدر السابق ص 15.
(36) المصدر السابق ص 15.
(37) المصدر السابق ص 44.
(38) مقدمة الجزء الأول من كتاب (وصف إفريقيا). الرباط 1980. ص 21. لعلَّ الكانون كان يضم ثمانية إلَى تسعة أشخاص.
(39) الوزان 2/ ص 50.
(40) المصدر السابق ص 56.
(41) المصدر السابق ص 30.
(42) المصدر السابق ص 37.
(43) المصدر السابق ص 60.

ستة عشر ألف كانون في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، إلاّ أن سكانها تناقصوا ، ولما زارها الوزان لاحظ أنه «لا يسكنها إلاّ القليلُ من الناس» [44].

وجديرٌ بالذكر أن الأوبئةَ والمجاعاتِ كثيراً ما اجتاحت المغرب وأودتْ بحياة الكثيرين . فتلمسان اجتاحها وباء جارف عام 5 ـ906 هـ/1500 م [45] ، كما أن وهران تعرَّضتْ لوباء في سنة 915 هـ/1510 م ، وفي أثنائه احتلَّ الإسبانُ المدينة [46] . وظهر في المغرب الأقصَى وباء في صيف عام 926 هـ/1520 م «وكان إقبالُه من ناحية تلمسان» [47] .

رحلـة التمقروتـي :

لم تكن علاقاتُ سلطان المغرب أحمد المنصور السعدي وديةً بباشاوات إيالة الجزائر منذ أيام قلج علي ، ولذلك فإنه حرص علَى توثيق صلاته مباشرةً بالباب العالي في أستانبول عن طريق إيفاد السفارات وإرسال الهدايا . وفي صيف عام 997 هـ/1589 م أوفد لهذا الغرض سفارةً الَى السلطان العثماني مراد الثالث ضمَّتْ وزيرَ قلمه الكاتبَ الأديبَ محمد بن علي الفشتالي [48] ، والفقيهَ الأديبَ علي ابن محمد الجزولي التمقروتي ، وكان سفرُهما بحراً من تطوان . وقد استغرقتْ سفارتهما عاماً ونصفَ العام (مايو 1589 ـ ديسمبر 1590 م) ، وصنَّف التمقروتي كتاباً عن هذه الرحلة أسماه (النفحةَ المسكيةَ في السفارة التركية) يشتملُ علَى معلوماتٍ قيِّمةٍ عن أحوال البلدان التي زارها ذهاباً وإياباً.

---

(44) المصدر السابق ص 17 ، 23.

(45) Dols, M.W, **The Black Death in the Middle East**, Princeton U.P. 1977, p. 314.

(46) ابن القاضي ، أحمد : لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد ، ضمن (ألف سنة من الوفيات) ، تحقيق محمد حجي ، الرباط 1976 ، ص 282.

(47) المصدر السابق ص 287.

(48) ابن القاضي ، أحمد : درة الحجال في أسماء الرجال ، الجزء الثاني ، القاهرة 1971 ، ص 190 .

في الطريق إلَى أستانبول ، مر المركبُ الذي كان يستقلُّه السميرن بهُنَيْن وشرشال والجزائر ودلس وبجاية والقُل وبونة ، وفي طريق العودة أقام السفيران نحو شهرين في مدينة الجزائر.

ويلاحظ التمقروتي أن هُنَيْن ودلس وبجاية قد خربتْ نتيجةً لاحتلال الإسبان وهجماتهم. فهُنَيْن «اليوم خربةٌ لم يَبْقَ فيها إلاّ سورُها ومسجدُها» (49). وكانت هُنَيْن قبل احتلال الإسبان لمدينة وهران (1509 م) بلدةً آهلةً يعمل معظمُ سكانها في صناعة المنسوجات القطنية (50).

أما شرشال فيصفها التمقروتي بأنها «كثيرةُ العمارة والزرع والفواكه ، يُجلب منها الزرع [القمح] وغيرُه إلَى الجزائر» (51). وكما ذكر الوزان فإن شرشال عمرتْ وازدهرتْ بعد نزول الغرناطيين فيها في مطلع القرن السادس عشر، فنشطت الزراعة وقامت فيها صناعة الحرير (52).

أمضَى التمقروتي أسبوعاً واحداً في مدينة الجزائر في طريقه إلَى استبانبول ، ويصفها بأنها «مدينةٌ آهلةٌ مانعةٌ كثيرةُ الخصب» (53).

وأما دلس التي كان الوزان قد أشاد بوفرة قمحها وكثرة الصباغين فيها (54) ، فإن التمقروتي لاحظ أن حصن دلس «مليحٌ منيعٌ إلاّ أنه عفَى اليوم وخرب ، ولم يَبْقَ فيه إلاّ عمارةٌ قليلةٌ ضعيفة» (55).

وأفاض التمقروتي في الحديث عن تاريخ مدينة بجاية الزاهر، الحافلِ بالعلماء

---

(49) التمقروتي.. علي بن محمد الجزولي : النفحة المسكية في السفارة التركية - الطبعة الحجرية (بدون تاريخ) - ص 13.

(50) الوزان 2/ ص 15.

(51) التمقروتي ص 14.

(52) الوزان ص 2/ ص 34.

(53) التمقروتي ص 14.

(54) الوزان 2/ ص 42.

(55) التمقروتي ص 14.

الصلحاء، وأبدى تحسُّره لِمَا آلتْ إليه بجاية بسبب الاحتلال الإسباني، إذ هي الآن خرابٌ هدَّمَها النصارى... لم يَبْقَ بها إلاّ ديارٌ قلائلُ علَى طرف البحر وقلعةٌ صغيرةٌ تُسمَّى باللؤلؤة، ينزل بها متولِّي تلك الناحية من الترك يمنع المرسَى من العدو» (56).

وعن بونة يذكر التمقروتي أنها «تُعرف ببلد العُناب، لأن أكثرَ شجر فجوجها العُناب... ومنها ترفع السفنُ السمنَ الكثيرَ إلَى القسطنطينية» (57).

وفي طريق العودة من استانبول، أمضَى التمقروتي شهريْن في مدينة الجزائر، فأُعجب بنظام أسواقها، ووفرة سلعها، وكثْرة السفن في مرساها، كما أُعجب ببسالةِ رُيَّاسها وجُرأتهم فهو يقول «مرساها عامر بالسفن، ورُيَّاسُها موصوفون بالشجاعة وقوةِ الجأش ونفوذِ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضلُ من رُيَّاسِ القسطنطينية بكثير وأعظمُ هيئةً وأكثرُ رعباً في قلوب العدو، فبلادهم لذلك أفضلُ من جميع بلاد افريقية وأعمر، وأكثرُ تجاراً وفضلاً، وأنفذُ أسواقاً وأوجهُ سلعةً ومتاعاً، حتّى إنهم يسمُّونها اصطنبول الصغرى» (58). وقد لاحظ التمقروتي إقبالَ الأهالي علَى طلب العلم واقتناء الكتب، فقال «والكتبُ فيها أُوجدُ من غيرها من بلاد افريقية، وتوجد فيها كتبُ الأندلس كثيراً» (59). وكان الوزان قد لاحْظ كذلك أن سفيرَ صاحب الجزائر ــ وقد نزل الوزان ضيفا عليه ــ «عاد من إسبانيا حاملاً معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة إحدى مدن مملكة بلنسية» (60).

---

(56) التمقروتي ص 16.

(57) المصدر السابق ص 24 ــ 25.

(58) المصدر السابق ص 139.

(59) المصدر السابق ص 139.

(60) الوزان 2/ ص 39.

وقعة الأرك Alarcos المجيدة

مقدمـات الأرك:

إن البابويةَ كانت من وراء حرب «الاسترداد» التي نشطتْ في شبه جزيرة إيبرية منذ منتصف القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد. فالبابا إربان الثاني، عند دعوته في كليرمونت (1095 م) للبدء في حملة صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، أعفَى الإسبان من المشاركة فيها، ومنَحهم صكوكَ الغفران من الذنوب والآثام معتبراً استردادَ شبه جزيرة إيبرية من أيدي المسلمين كالاستيلاء علَى فلسطين [1]. وبمساعدة الصليبيين القادمين من بلدان شمال أوروبا في طريقهم بحراً إلَى فلسطين، استولَى أولُ ملوك البرتغال أفونسو هنريقيز (ابن الريق/ابن الرنك في المصادر العربية) علَى مدينة لشبونة من أيدي المسلمين عام 542 هـ/1147 م.

وجدير بالذكر الدَّوْرُ الكبيرُ الذي قام به فرسانُ النظُم الدَّيْرية العسكرية Military Orders في شبه جزيرة إيبرية في القرن الثاني عشر، وهو دَوْرٌ شبيهٌ بدوْر فرسان الإسبتارية والداويَّة في المشرق، وعلَى غرارهما تأسست في شبه جزيرة إيبرية نظُمٌ دَيْريةٌ عسكريةٌ جديدة بنفس الأهداف الصليبية، أهمُّها نظامُ شانت ياقبSantiago ونظامُ قلعة رباحCalatrava ونظام القنطرةAlcantara، وكلها قامتْ ونشطتْ في مناطق الثغور المتاخمة لأراضي المسلمين في الأندلس.

---

(1) Riley-Smith, J., **What Were the Crusades?**, London 1977, p. 24.

إن البابا سلِستين الثالث ـ وهو من أصلٍ إسباني ـ كان قد ساعد قبل انتخابه لكرسي البابوية (1191 م) علَى تأسيس نظام شانت ياقب، وجعل البابويةَ تولي المزيدَ من الاهتمام لحرب «الاسترداد»، وبخاصة بعد انتصار حطين وتحرير مدينة بيت المقدس (583 هـ/1187 م). إن جموعَ الصليبيين الشماليين انضمَّتْ إلَى ملك البرتغال شانجُه الأول (حكَم 1185 ـ 1211 م) وكان لها دَوْرٌ مهمٌّ في استيلائه علَى قصر أبي دانس ومدينة شلب بغرب الأندلس [2].

ولما خلَفَ أبو يوسف يعقوب أباه أبا يعقوب يوسف عام 580 هـ/1184 م ـ بعد أن استُشهد محاصراً لمدينة شنترين ـ كان يعتزم مواصلةَ الجهاد الذي شرع فيه والدُه في غرب الأندلس لولا وصولُ أنباءٍ بقيام بني غانية ـ من بقايا المرابطين بجزيرة ميورقة ـ ونزولهم في بجاية، واستيلائهم علَى الجزء الشرقي من بلاد المغرب. ولما استفحل أمرُ بني غانية ـ بعد تحالفهم مع قراقش الغُزِّي وبعض القبائل العربية بإفريقية ـ توجَّه أبو يوسف علَى رأس حملةٍ كبرى لمحاربتهم، وبعد هزيمة مبدئية للموحدين في عُمْرة بالقرب من قفصة (14/6/1187 م) ـ قبل معركة حطين بأقلَّ من شهر ـ ألحق أبو يوسف بالثائرين هزيمةً كبرى في الحامة من أحواز قابس (11/10/1187 م)، أي بعد اثنيْ عشر يوماً فقط من استرداد صلاح الدين الأيوبي بيتَ المقدس من أيدي الصليبيين. إلاّ أن هذه الهزيمةَ لم تَقْضِ نهائياً مع ذلك علَى حركة بني غانية الذين تولَّى قيادتَهم يحيى بن إسحاق، بعد وفاة أخيه علي (1188 م)، وظلُّوا شوكةً تَقُضُّ مضجعَ دولة الموحدين زهاء نصف قرن. كان بنو غانية ـ وولاؤهم كالمرابطين من قبلهم للخلافة العباسية في بغداد ـ من أهم الأسباب التي أوهنتْ دولةَ الموحدين وحالت دون تركيز سلاطينها علَى الجهاد في الأندلس، إذ كان بنو غانية يعودون من الصحراء إلَى إفريقية والمغرب الأوسط بمجرد انشغال الموحدين في محاربة الممالك النصرانية بإسبانيا، كما أن ملوك النصارى كانوا يغتنمون فرصةَ انشغال الموحدين بمحاربة بني غانية في افريقية لاستئناف غاراتهم علَى أراضي

---

(2) O'Callaghan, J.F., A History of Medival Spain, Cornell U. p. 1975, P. 245

المسلمين في الأندلس[3].

وفضلا عن انشغال الخليفة الموحدي ببني غانية وأنصارهم في افريقية، فإن أبا يوسف يعقوب واجه في بداية حكمه مع من بعض القبائل في المغرب الأقصى كغُمارة وبني مَرين. ومن عددٍ من أقربائه الذين ــ علَى حدّ قول عبد الواحد المراكُشي ــ لم يَروْه أهلاً للإمارة، ومن بينهم أخوه الملقَّبُ بالرشيد والي مُرْسية بشرق الأندلس، ويبدو أنه كان يطمع في الإمارة متواطئاً لتحقيق ذلك مع ملك قشتالة، وعمُّه سليمان بن عبد المؤمن والي تادلا من بلاد صنهاجة. فلما عاد أبو يوسف يعقوب ظافراً من حملته في افريقية ضد بني غانية بادر بقتلهما، وبعد ذلك «هابه بقيةُ القرابة... بعد أن كانوا متهاونين بأمره. وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشّفاً وخشونةَ ملبسٍ ومأكل»[4].

بعد تحرير صلاح الدين بيتَ المقدس، أخذ الأوروبيون في الإعداد للحملة الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة (1189 ــ 1192 م)، مما أتاح الفرصةَ للملك البرتغال شانجه الأول ــ بمساعدة الصليبيين من شمال أوروبا ــ لاجتياح غرب الأندلس جنوبي نهر تاجُه، فاستولَى علَى عددٍ من المدن والحصون في مقدمتها قصرُ أبي دانس Alcacer do Sal إلَى الجنوب من لشبونة. وفي صيف عام 1189 م، رسا في ميناء لشبونة أسطولٌ صليبيٌّ كان يُقلُّ محاربين من فلاندوز (بلجيكا حاليا) وانجلترا أبرموا اتفاقاً مع ملك البرتغال لمهاجمة مدينة شلب (Silves اليوم) قاعدة اقليم الغرب. وبعد مقاومةٍ بطوليةٍ دامتْ أربعةَ شهور، استسلمتْ مدينةُ شلب للغزاة في 20 رجب 585 هـ/سبتمبر 1189 م، ونزح سكانُها عنها، وتوجَّه معظمهُم إلَى اشبيلية واستغاثوا بأبي يوسف يعقوب المنصور، ، فاستنفر الناسَ للجهاد، وجاز بحرَ الزُّقاق (مضيق جبل طارق) في 1190/5/1 م. وفي حين تركَ لحشود الأندلس

(3) الزركشي، محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس 1966. ص 16.
ابن أبي دينار القيرواني، محمد: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. تونس 1967، ص 120.
(4) المراكشي، عبد الواحد: المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1949، ص 265، 6 ــ 278.

محاصرة شلب، زحف المنصورُ علَى رأس جيش الموحدين شمالاً فحاصر مدينة شنترين ـ وفيها اعتصم ملكُ البرتغال ـ وعاث في أحوازها وأحواز لشبونة، ثم عبر نهر تاجُه وافتتح حصن طُرِّش Torres novas، وهاجم حصن طُمار Tomar معقلَ فرسان الهيكل (الداوية)، وعاث أياماً في تلك الجهات [5]. وتذكرُ إحدى الرسائل الموحدية بتاريخ 26 جمادي الأخرى/31 يوليو 1190 م أن صاحبيْ قشتالة وليون طلبا من المنصور المصالحةَ عند بداية هذه الغزاة، فأسعفهما المنصورُ إلَى ذلك «فرأينا أن من [مصلحة المسلمين] تشتيتَ أعدائهم وتفرقَ كلمتهم واختلافَ آرائهم... وتجرّد العزم لغزو ابن الريق [شانجُه الأول ملك البرتغال] إذ هو أقربُ داراً وأصعب جوارا... واستمرَّ الموحدون علَى سيرهم إلَى أن جازوا وادي تاجو... وقصدوا مزرعةَ شنترين... فانتسفوا زروعها... ثم نهدوا إلَى قلعة للأعداء تسمَّى طُرِّش [فاستأمن أهلها]... فأجبناهم إلَى ذلك لما ظهر فيه من النظر، وليكونوا لقومهم وأهل ملّتِهم من المثلات والعبر... ثم توجَّهوا إلَى مدينة طُمار [Tomar]، وهي من القواعد المنيعة [كانت قاعدةً لفرسان الداوية]... وملكُهم ابن الريق بشنترين... ملازمٌ لانحجاره... لا يبرز لمُقارعة...» [6].

وفي هذه الفترة، ظهر أسطولٌ أنجليزيٌّ أمام لشبونة في طريقه إلَى فلسطين للانضمام إلَى أسطول ملك أنجلترا ريتشارد الأول (الملقَّب بقلب الأسد) المحاصر لمدينة عكا، فاستعان به ملكُ البرتغال لتعزيز حاميَّة شنترين، فانسحب الموحدون، ولعلَّ انسحابَهم عن شنترين كان بسبب الأوبئة، وقد تفشَّت آنذاك في منطقة وادي تاجُه كما يذكر المؤرخون البرتغاليون.

وفي شهر أبريل 1191 م، غادر المنصورُ اشبيلية علَى رأس جيشه الرئيسي

---

(5) ابن عِذاري المراكشي. أبو العباس: البيانُ المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين). تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وزملائه. الدار البيضاء 1985، ص 206.

ابن خلدون. عبد الرحمن: كتاب العبر، بيروت 1979. 6/ ص 245.

(6) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، نشرها أ. ليفي بروفنسال، الرباط 1941 الرسالة الرابعة والثلاثون، ص 222 ـ 226.

وزحف نحو قصر أبي دانس حيث اجتمع به أسطوله ، فاستولَى علَى هذا الميناء الهام من أيدي فرسان شانت ياقُب ، كما استولَى علَى حصنيْ بلمالة والمعدن ودكّهما (يونيو 1191 م) .

ثم عرَّج المنصورُ علَى شلب وحاصرها حصاراً شديدا ورمَى أسوارها بالمجانيق ، فاستسلمت حاميتُها وعادت المدينةُ إلَى أيدي المسلمين (1191/7/10 م) ، وكان ذلك بعد أسبوعٍ واحدٍ من سقوط مدينة عكا في أيدي الصليبيين (1191/7/12 م) . وعاد المنصور ظافراً إلَى المغرب ، بعد أن استردَّ كلَّ ما كان قد استولَى عليه البرتغاليون جنوبيَّ نهر تاجُه باستثناء مدينة يابره [7] .

وفي الفترة التي كان فيها المنصورُ يواصل غاراته وحملاته في غرب الأندلس ضد ملك البرتغال وحلفائه الصليبيين ، وصل إلَى فاس في أواخر عام 1191 م عبدُ الرحمن بن منقذ رسولُ صلاح الدين الأيوبي للاستعانة بأسطول الموحدين ضد الصليبيين بثغور بلاد الشام ، أو للحيلولة دون وصول نجداتٍ صليبيةٍ بحرية عن طريق بحر الزُّقاق . ولما كان المنصور منهمكاً في غزواته بغرب الأندلس ، فإن ابنَ منقذ انتظره في فاس إلَى حين عودته . يقول ابنُ خلدون إن المنصورَ اعتذر عن الأسطول ونقَمَ علَى الأيوبيين « تجافيَهم عن خطابه بأمير المؤمنين ، ولم يُجبْه إلَى حاجته » [8] .

وحقيقةُ الأمر أنه في الفترة التي كان فيها صلاحُ الدين يحارب الصليبيين المحاصِرين لمدينة عكا (1189 ـ 1191 م) ، كان المنصور يخوضُ بالمثل حرباً ضروسًا في غرب الأندلس ـ براً وبحراً ـ ضد ملك البرتغال وحلفائه الصليبيين الوافدين من أقطار شمال أوروبا في طريقهم إلَى فلسطين. ولا شك في أن اعتذارَ المنصور عن تقديم المعونة لم يكن بسبب عدم مخاطبته بأمير المؤمنين بل كان بسبب

---

(7) ابن عذاري ، ص 210 ـ 212 . O'Nallaghan, p. 243

(8) ابن خلدون : المقدِّمة ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص 255 . كتاب العِبَر ، 6/ ص 546 .
المقَّري ، أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1968 ، 1/ ص 444 ـ 445 .

حاجته الماسَّة لكل قطع أسطوله لمواجهة الأخطار المُحدقة بالأندلس والمغرب من جانب ملوك إسبانيا والبرتغال، وفرسان النظم الديْرية العسكرية وجموع الصليبيين المتقاطرة من شمال أوروبا. أضفْ إلَى ذلك أن بني غانية ـ الموالين للعباسيين ـ كانوا ما يزالون يقضُّون مضجعَ دولة الموحدين في افريقية والمغرب الأوسط دون أن يصدر عنْ الخليفة العباسي أو صلاح الدين ما يستنكر أعمالَهم أو يَنْهاهم عنها [9].

وقعة الأرك ونتائجُها :

لما هادن المنصورُ ملكَ البرتغال وعاد إلَى مدينة مراكش تناهت إليه الأنباء بعودة يحيى بن إسحاق بن غانية من الصحراء إلَى افريقية، فعزم علَى قصده وإخراجه من افريقية كما فعل من قبل عام 583 هـ/1187. وفي هذه الآونة، انتهتْ ـ أو كادتْ ـ الهدنةُ المعقودةُ عام 1190 م مع ملك قشتالة الفونس الثامن ـ ومدتُها خمسُ سنوات ـ وأخذ صاحبُ قشتالة في شن الغارات في نواحي اشبيلية، فعَدَلَ المنصورُ عن التوجُّه إلَى افريقية، واستنفر الناسَ للجهاد في الأندلس، فاستجابت لندائه كافةُ القبائل بالمغرب ـ بما فيها بعضُ القبائل المنشقَّة أو الثائرة كبني مرين وغُمارة ـ مما جعل المنصورَ يشعر بارتياح بان وحدةَ الدولة الموحدية ـ بالرغم من قيام بني غانية في أطرافها الشرقية ـ كانت وحدةً قويةً متماسكةً إزاء العدو النصراني [10].

سار المنصورُ علَى رأس جيشه من اشبيلية في اتجاه الشمال الشرقي. وكما فتكت قوةٌ استطلاعيةٌ من فرسان المسلمين بمَفْرزةٍ من فرسان الداوية والاسبتارية قبيْل معركة حطين، فإن طلائعَ جيشِ الموحدين قضتْ قبيْل معركة الأرك علَى سريَّةٍ من فرسان قشتالة خرجت مستطلعةً قرب قلعة رباح شمالي قرطبة. وكما استشار صلاحُ

---

(9) نتَّفق في هذا الرأي مع الأستاذ محمد الرشيد ملين كما جاء في كتابه: عصر المنصور الموحدي (1184 ـ 1199 م). الرباط 1946. ص 144.

(10) لي تورنو. روجيه: حركة الموحدين في المغرب. تعريب أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس 1982. ص 86.

(11) ابن عداري. ص 218.

الدين أمراء جنده قبيْل حطين ، فإن المنصورَ شاور أمراء جيشه ورؤساء القبائل اقتداءً بسنّة رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلّم.

كذلك كما حرص صلاحُ الدين علَى عزل الصليبيين عن حلفاء لهم في حطين ، فإن المنصورَ استغلّ بدوْره الخلافاتِ والمنازعاتِ القائمةَ علَى الحدود بين ملك قشتالة الفونس الثامن وبين كلٍ من ملك ليون وملك نباره ، وسار للقاء القشتاليين دون أن يكون لهم حلفاءُ يشدّون أزرهم.

كان اللقاءُ قرب حصن الأرك Alarcos ، وهو حصن بمديرية قلعة رباح Calatrava يُعرفُ اليوم باسم Santa Maria de Alarcos. وكان حصناً شيَّده الفونس الثامن ـ علَى بُعْد نحو سبعة أميالٍ إلى الجنوب الغربي من المدينة الملكية Giudad Real ـ فوق جبلٍ ينحدر تدريجياً في اتجاه وادي آنه Guadiana. وفي السهل المتموِّج في أسفل الحصن دارت رحَى معركة الأرك الشهيرة [12].

إن المعلوماتِ ضئيلةٌ عن تفاصيل وقعة الأرك ، ويبدو أن القشتاليين شنُّوا هجوماً مباغتاً علَى طلائع الموحدين ، وكان علَى رأسها وزيرُ المنصور أبو يحيى حفيدُ الشيخ الموحدي الكبير أبي حفص عمر إنتي ، دون أن يُحرزوا نجاحاً يُذكر. وقام المنصور بمهاجمة جناح القشتاليين مما اضطرهم إلَى اللجوء إلَى حصن الأرك ، أو إلَى الفرار مع ملكهم في اتجاه مدينة طليطُلة [13]. وكان المنصور ـ كصلاح الدين في حطين ـ يجولِ بين صفوف جنده يحثّهم ويوجّههم.

إن المعركةَ التي انتهتْ بهزيمةٍ منكرةٍ للقشتاليين وملكهم بدأتْ في ضحَى يوم الأربعاء التاسع من شعبان عام 591 هـ/19 يوليو 1195 م ، وانتهت عند الزوال. واعتصم معظمُ فَلِّ القشتاليين في حصن الأرك ـ وكانوا خمسةَ آلاف ـ استنزلهم

---

(12) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية (باللغة الأنجليزية) ، ليدن ـ لندن 1960 1/ص 605 (تحت مادة Al-Arak ، بقلم هويثي ميراندا).

(13) انظر رواية ابن عذاري عن اللقاء في الأرك ، ص 219 ـ 220. دائرة المعارف الإسلامية ، 1/ ص 605.

المنصورُ وفودي بهم عددُهم من المسلمين. ويقول ابنُ أبي زرع الفاسي إن فعلةَ المنصور بالإفراج عن أسارى الأرك عزَّتْ علَى المسلمين وحُسبت له سقطة من سقطات الملوك [14] . وكذلك انتُقد صلاحُ الدين لإفراجه عن الفرنج من أهل المدن والحصون التي استسلمتْ له بعد حطين لأن معظَمهم لجأ إلَى مدينة صور وعاود منها محاربةَ المسلمين. ويُحكَى أن المنصورَ أعرب قبيْل وفاته عن ندمه لإطلاق سراح أسارى الأرك وقال إنه «لا بدَّ لهم أن يطلُبوا بثأرهم» [15] .

ويذكر الحميري أنه سمع بأن انتصارَ الأرك إنما «كان اتفاقياً بسبب إحراز الروم بعضَ رايات المسلمين... وانبعاث حفائظ بعض القبائل لما عاينوا رايةَ إخوانهم مقدَّمةً علَى العدو، فأوغلوا وهم لا يعلمون الحال. وكيف ما كان، فهو فتح مبين ونصر مؤزَّر» [16] .

احتل المنصورُ حصنَ الأرك وقلعةَ رباح وغيرهما من الحصون التي كانت تحمي الطريق المؤدية إلَى طليطلة. ولحسن حظ القشتاليين، فإن المنصور لم يبادر إلَى محاصرة طليطُلة بعد انتصاره في المعركة مباشرةً بل عاد إلَى اشبيلية [17] . ولدى عودة المنصور إلَى اشبيلية، اتخذ لنفسه لقب «المنصور بالله».

وفي العام التالي (592 هـ/1196 م)، غزا المنصورُ أرضَ قشتالة واستولَى علَى عدد من الحصون منها منتانجشMontanchezوترجالهTrujillo وشنتقروزSanta Cruz، عاث في وادي تاجه وفي أحواز طَلَبيرةTalavira، وتقدَّم إلَى فحص طليطُلة وخرَّب مزارعها [18] . وحالف المنصورُ خصميْ صاحبِ قشتالة، وهما صاحبُ نباره شانجه

(14) ابن أبي زرع الفاسي. علي: روص القرطاس. ط. أبسالة 1846. ص 150.

(15) المصدر السابق. ص 153.

(16) ابن عبد المنعم الحميري. محمد: كتاب الروض المعطار. بيروت 1975. ص 27.

(17) O' Nallaghan p. 244

(18) ابن عذاري. ص 223 ـ 224. دائرة المعارف الإسلامية. 1/ص 165.

السابع وصاحبُ ليون الفونس التاسع ، وزوَّد الأخيرَ منهما بالمال والجند لشنِّ الهجمات علَى أراضي صاحب قشتالة [19] .

وقد جاء في إحدى الرسائل الموحدية المؤرخة في 9 رمضان 592 هـ/5 أبريل 1196 م أنه أثناء غزو المنصور أراضي قشتالة «كان صاحبُ ليون ـ وهو ابن عم هذا الكافر المغرور [صاحب قشتالة الفونس الثامن] ـ توسَّل المسالمةَ لخدمته ، وألقَى الله بينهما حرباً ، [ولما طلب عددا من المسلمين لغزو قشتالة] ... فبْعث إلَى أرضه جيشٌ من المسلمين هالتْه شجاعتهم ... [وفي طريق العودة من غزو أرض قشتالة أخذ الموحدون معاقلَ من بينها قلعة بطربونةPiedrabuena] ... وفيها جملة كبيرة من محاربة الكافرين وشجعانهم الإفريريين [friars] ... نسالة جيش الصليب المفلول » [20] .

وفي العام التالي لوقعة الأرك ، أمر البابا سلستين الثالث ملكَ نباره شانجُه السابع بالتخلِّي عن تحالفه مع الموحدين ، كما اتخذ عدةَ خطوات لإجبار الفونس التاسع ملك ليون علَى وقف هجماته ـ بالتعاون مع الموحدين ـ علَى أراضي قشتالة ، فأصدر قرارَ حرمانٍ ضده . ولم يلبث أنْ أدرك ملكا قشتالة وليون عقمَ صراعهما ، وقبلا اقتراحاً بأن يتزوَّج ملكُ ليون من ابنة ملك قشتالة ، علَى أن تأخذ مهراً لها الحصونَ موضع النزاع بينهما . كما أصدر البابا مرسوماً عام 1197 م يقضي بالسماح للمحاربين من مقاطعة أكتين بجنوب فرنسا ـ وكانوا قد نذروا أنفسَهم للمضي في حملة صليبية لمحاولة استرداد بيت المقدس ـ بمحاربة المسلمين في إسبانيا بدلا من التوجُّه إلَى فلسطين [21] .

وفي عام 593 هـ/1197 م ، غزا المنصورُ للسنة الثانية علَى التوالي أرض قشتالة وتوغَّل شمالاً فهاجم حصنَ مجريط ووادي الحجارة . ولما عاود ملكُ قشتالة

---

(19) LOmax, p. 120

(20) مجموع رسائل موحدية . الرسالة الخامسة والثلاثون . ص 238 ـ 239 .

(21) O'callaghan, pp. 244-5. Lomax, p. 122

طلب الصلح وافق المنصورُ ـ بعد ترددٍ ـ علَى إبرام هدنةٍ معه مدتُها خمسُ سنوات (22) . ولعلَّ موافقةَ المنصور علَى الهدنة كانت بسبب وصول أنباء تجدُّد غارات يحيى بن غانية في افريقية.

إن الهزيمةَ الكبرى التي لحقتْ بملك قشتالة في الأرك كانت رادعاً للملوك شمال إسبانيا، إذ التزموا بشروط الهدنات المعقودة إلَى عام 1210 م ، بل إن الهزيمةَ كانت رادعاً كذلك لرجال الثغور من التحرش بالموحدين ، مع أن البابويةَ كانت تعارض إبرامَ الهدنات مع المسلمين. وتنفرُ من توقف حرب «الاسترداد» في شبه جزيرة إيبرية (23) .

لقد أحرز الموحدون في الأرك انتصاراً عظيماً مشهوداً كالانتصار الذي كان قد أحرزه المرابطون في وقعة الزلاقة (479 هـ/1086 م) ، إلاّ أنه ـ كانتصار الزلاقة ـ كان انتصاراً دفاعياً بحتاً لم يعقبْه استيلاءٌ علَى أراضٍ جديدة (24) .

إن انتصارَ الأرك أدّى إلَى إثارة الذعر في قلوب النصارى في أوروبا . فبعد حطّين بثماني سنواتٍ فقط ، انهارتْ الجبهةُ الغربيةُ للنصرانية ، وظهر صلاحُ الدين آخر ، وعلَى مسافةٍ أقرب من عواصم غرب أوروبا . ونقل النصارى الإسبانُ أخبارَ الهزيمة إلَى بقية بلدان غرب أوروبا ، كما نقل رهبانُ السسترشيان الإنجليز إلَى بلادهم حكاياتٍ عن وجود جيش مغربي ـ قوامه ستمائة ألف رجل ـ قادمٍ لاجتياح أوروبا . ولبعض الوقت ، فكّر ملكا أنجلترا وفرنسا في تجهيز حملة مشتركة ضد الموحدين ، ثم تخلّيا عن الفكرة (25) .

إن انتصاريْ حطّين والأرك كانا انتصاريْن عظيمين للمسلمين في أواخر القرن السادس الهجري ، حقّقهما صلاحُ الدين الأيوبي ويعقوبُ المنصور الموحدي مجاهديْن

---

(22) ابن عذاري ، ص 227 ـ 228 .

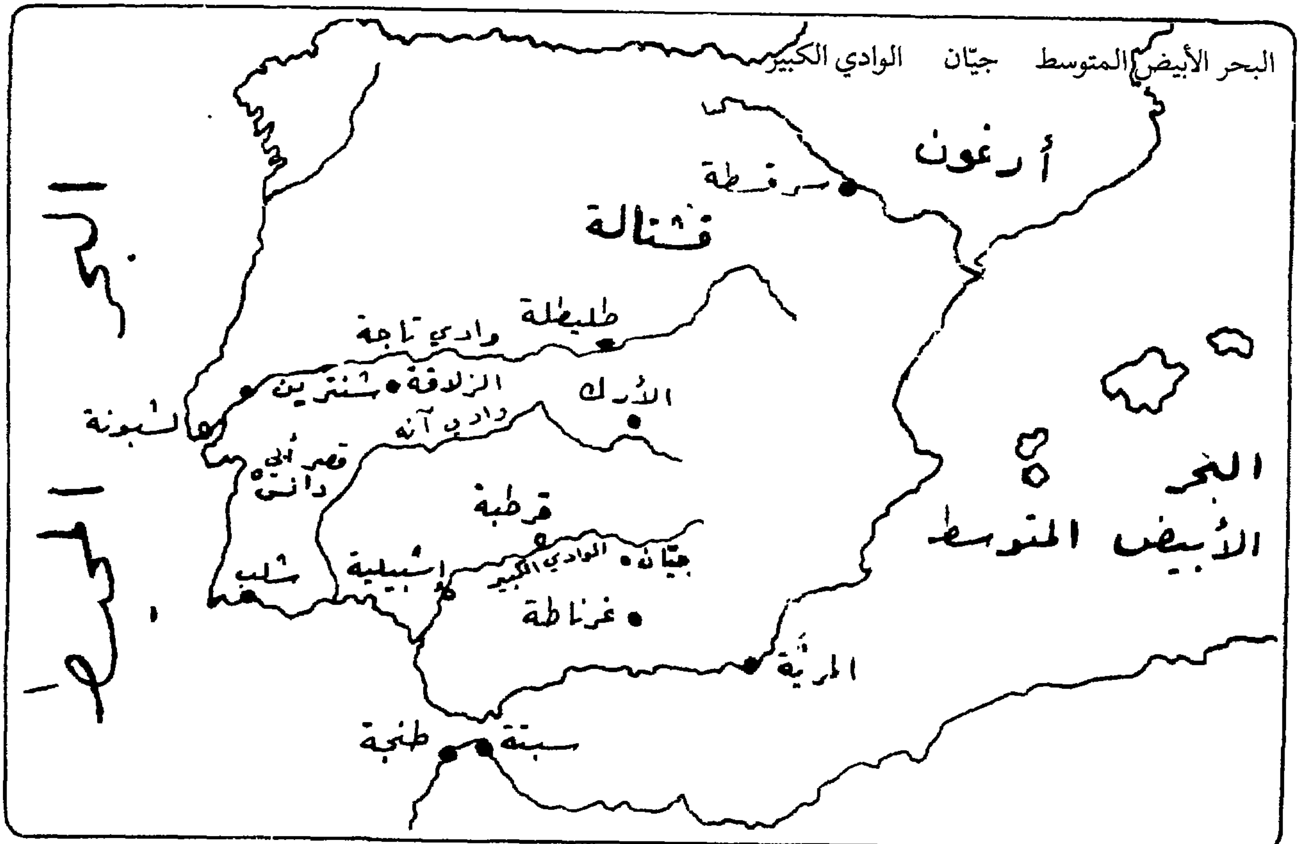
(23) Lomax, p. 121

(24) لي تورنو : حركةُ الموحدين في المغرب ، ص 86 .

(25) Lomax, p. 120.

أرغون سرقسطة قشتالة طليطلة وادي تاجة الأرك الزلاقة شنترين لشبونة

وادي آنة قصر أبي دانسْ قرطبة شلب المية غرناطة سبتة طنجة البحر الأبيض المتوسط



دفاعاً عن أرض العروبة والإسلام ضد الغزاة الصليبيين في المشرق والمغرب. فبفضل انتصار حطّين، حرّر صلاحُ الدين بيتَ المقدس وأرضَ فلسطين، وقضَى علَى المملكة اللاتينية المقامة في بيت المقدس منذ عام 1099 م، ثم تصدَّى للحملة الصليبية الثالثة (1189 ـ 1192 م) وأحبط أهدافَها، فاحتفظ ببيت المقدس وبمعظم الأراضي التي تمَّ تحريرُها بعد وقعة حطّين. وفي الأرك، حيث انتصر أبو يوسف يعقوب المنصور علَى ملك قشتالة ـ المدعومِ من قِبَل البابوية ـ حيل بين صاحب قشتالة وبين تحقيق أطماعه في الأندلس إلَى حين، ولو أن المنصور لم يَقْضِ علَى مملكة قشتالة. ولم ينجَحْ بعد انتصاره الباهر في أخذ طليطُلة قاعدةِ قشتالة، أو في الاستحواذ علَى أراضٍ جديدة، حتّى إذا ما اجتمعتْ كلمةُ ملوك قشتالة وليون وأرجون ونباره والبرتغال وقادوا ـ بتحريضٍ مستمرٍّ من البابا ـ حملةً صليبيةً مشتركةً كبرى للثأر من هزيمة ملك قشتالة في وقعة الأرك، كُتب لهم الظفرُ ـ بعد الأرك بسبعَ عشرةَ سنة ـ في وقعة العقَابِLas Navas de Tolosa (609 هـ/1212 م)، وفيها لحقتْ بولد المنصور وخليفته محمد الناصر هزيمةٌ كبرى كانت إيذاناً ببداية نهاية الإسلام في شبه جزيرة إيبرية.

لسان الدين بن الخطيب مؤرخٌ ثَبَتَ
لفترة ملوك الطوائف بالأندلس
(القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)

ترجع شهرةُ لسان الدين بن الخطيب في المقام الأول إلَى كونه مؤرخاً، وبخاصة لدولة بني نصر بغرناطة، منذ قيامها إلَى زمنه. كما أن ابنَ الخطيب مصدرٌ لا غِنًى عنه للباحث في تاريخ الفترات السابقة من تاريخ الأندلس، وبخاصة فترة ملوك الطوائف، التي يخصِّص لها قريباً من ثُلثِ القسم الثاني ــ الخاص بالأندلس ــ من كتاب (أعمال الأعلام)، وهو من آخر مؤلفاته. وفي كتاب (الإحاطة في تاريخ غرناطة)، يترجم ابنُ الخطيب لأمراء دولة بني زيري في غرناطة، كما يترجم لعددٍ من رجالات هذه الدولة، كالوزير سِماجة الصنهاجي، والفقيهِ ابن القُلَيْعي، ومؤمَّل مولَى باديس بن حبوس، ومقاتلِ بن عطيَّة البرزالي، مما يعين الباحثَ علَى المقابلة ــ والتثبُّت ــ بين هذه التراجم، وبين ما يذكره آخر أمراء بني زيري في غرناطة الأميرُ عبدُ الله بنُ بلقين عن تاريخ أسرته في كتابٌ (التِّبيان).

إن فترةَ ملوك الطوائف لم يتناولْها ابنُ الخطيب إلاّ في كتابيْه (أعمال الأعلام) و (الإحاطة في تاريخ غرناطة). وعلَى ذلك، فإن هذا البحث سوف يقتصرُ علَى ما ورد في هذيْن الكتابيْن من مادة، من حيث المصادرُ والمنهجُ والإضافاتُ والتعقيبات والأسلوب، وعلَى ما نستدركه علَى ابن الخطيب مادةً ومصادر.

مكانةُ ابن الخطيب بين مصادرنا عن تاريخ فترة ملوك الطوائف :

قبل العثور في الثلاثينات من هذا القرن علَى مخطوطٍ فريدٍ من كتاب (التّبيان) لعبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري في غرناطة ـ والذي حرَّره في أغمات عام 488 هـ/1095 م ـ كان مصدرنا الرئيسيَّ لتاريخ فترة ملوك الطوائف بالأندلس كتابُ (المتين) لشيخ مؤرخي الأندلس أبي مروان بن حيَّان (ت 469 هـ/1076 م) الذي أرَّخ فيه للفترة منذ أيام الدولة العامرية إلَى عام 462 هـ/1070 م. بَيْد أن هذا الكتابَ الضخم ـ في ستين مجلَّداً ـ لم يصلْنا إلاّ في مقتطفات وشذرات أوردها ابنُ بسام الشنتريني في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، الذي أرَّخ فيه للأدب الأندلسي في فترة ملوك الطوائف. ولمَّا كان كتابُ (المتين) ينتهي في حدود عام 462 هـ/1070 م، فإن الفترة التالية حتّى قدوم المرابطين وخلع ملوك الطوائف (487 هـ/1094 م) وصلنا تاريخُها أساساً عن طريق كتاب (التّبيان) للأمير عبد الله بن بلقين، وكتابِ (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) و ـ إلَى حدٍّ ما ـ عن طريق كتابيْ الفتح بن خاقان (قلائد العِقْيان) و (مَطْمَح الأنفس)، وهما كتابان أدبيان في المقام الأول.

وفي القرون الثلاثة التالية لفترة ملوك الطوائف، تناول تاريخَ الفترة عددٌ من المؤرخين الأندلسيين والمغاربة ـ معتمدين أساساً علَى كتاب (المتين) لابن حيان ـ وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن الصَّيْرفي الغرناطي (ت 557 هـ/1164 م) صاحبُ كتاب (الأنوار الجليَّة في أخبار الدولة المرابطية)، وأبو القاسم الملاَّحي الغافقي (ت 619 هـ/1222 م) الذي ألَّف كتاباً ترجم فيه لعلماء غرناطة، وابنُ الأبار (ت 658 هـ/1260 م) صاحبُ كتابيْ (الحُلَّة السِّيَراء) و (تكملة الصلة)، وابنُ القطان صاحبُ كتاب (نَظْم الجُمان)، وابنُ سعيد صاحبُ (المُغرب في حُلَى المَغرب)، وابن عِذاري المراكُشي صاحبُ كتاب (البيان المُغرب) الذي صنَّفه في حدود عام 712 هـ/1312 م، وكان اعتماده فيه بالنسبة لفترة ملوك الطوائف علَى كتاب (المتين) لابن حيان.

إلاّ أن أهمَّ مصادرنا المتأخرة لتاريخ فترة ملوك الطوائف ـ وبخاصة دولة بني

زيري في غرناطة ـ الوزيرُ والمؤرخُ والأديبُ الغرناطيُّ لسانُ الدين بنُ الخطيب (ت 776 هـ/1374 م) في كتابيْه (أعمال الأعلام) و(الإحاطة في تاريخ غرناطة). ومما يزيد من أهمية الكتابيْن أنهما يشتملان علَى مقتبساتٍ ومقتطفاتٍ من كتب ابن حيان، وابن الصَّيْرفي، والغافقي، وابن القطان ـ والتي لم تصلْنا ـ أوردها ابنُ الخطيب ذاكراً أسماء أصحابها في كل موضع يقتبس فيه، ومضيفاً ملاحظاته وتعقيباته بأسلوب مُرسلٍ بليغٍ غيرِ مثقل ـ في الغالب ـ بالأسجاع والمحسِّنات اللفظية. ويمكن اعتبارُ كتاب (أعمال الأعلام) ـ بحقٍّ ـ خيرَ مدخلٍ لتاريخ الأندلس ـ وبقلم مؤرخٍ أندلسي ـ من الفتح الإسلامي إلَى عهد ابن الخطيب. كما أن ما في كتاب (الإحاطة) عن أمراء دولة بني زيري في غرناطة ـ اعتماداً علَى ابن الصَّيْرفي والغافقي ـ يُعتبر مكمِّلاً لكتاب (التِّبيان) للأمير عبد الله بن بلقين، وموازنا لما ورد فيه من وجهة نظر مغايرة، مما يعين الباحثَ علَى التثبت من وجهات النظر هذه ـ المتباينة أحيانا ـ بالنسبة لأمراء دولة بني زيري ورجالها وأحداثها. وإنه لَمِمَّا يُؤْخذُ علَى ابن الخطيب أنه لم يقتبس من كتاب (التِّبيان) ـ وكانت بين يديْه نسخةٌ من الكتاب [1] ـ فلو أنه فَعل ذلك، لكان قدَّم صورةً متوازنةً ومكتملةً لتاريخ دولة بني زيري في غرناطة.

فترة ملوك الطوائف في كتاب (أعمال الأعلام):

اعتمد ابنُ الخطيب في تأريخه لفترة ملوك الطوائف في كتاب (أعمال الأعلام) علَى معظم من سبقه من المؤرخين وهم: أبو مروان بن حيان ـ ويُشير إليه أحيانا بالمؤرخ ـ وابنُ بسام الشنتريني، وابن خاقان، وابن أبي الفياض (ت 459 هـ/1066 م) صاحب (كتاب العبر)، وأبو محمد الرشاطي (ت 542 هـ/1147 م) صاحبُ كتاب (اقتباس الأنوار)، ومحمد بن علقمة

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، القاهرة (بدون تاريخ)، ص 56.
كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. بيروت 1956، ص 235.

(ت 509 هـ/1115 م) ـ دون أن يذكر اسمَه ـ وهو صاحب كتاب (البيان الواضح في المُلِمِّ الفادح) في محنة بلنسية. ويورد ابنُ الخطيب أحياناً معلوماتٍ لا ينسبها لمؤرخ معيَّن فيقول: ذكر المؤرخون، قالوا، قال أصحاب التاريخ. وكما أسلفْنا، فإن إغفال ابن الخطيب لكتاب (التِّبيان) للأمير عبد الله بن بلقين مما يُستدرَك عليه، إذ إن رواية صاحب (التِّبيان) لأحداث الفترة روايةُ أميرٍ مشاركٍ فيها ومعاصرٍ لمعظمها أو قريبِ عهدٍ بها. كما أنها روايةٌ تعكسُ وجهةَ نظرِ أحد ملوك الطوائف. وثمة نفرٌ من مؤرخي الفترة لم يُشرْ إليهم ابنُ الخطيب كابن مُزْيَن وابن الإمام وابن الكردبوس التوزري ومحمد بن يوسف الشِّلْبي وابن الأبار. أما محمد بن عيسَى بن مُزْيَن فقد عاش في بلاط بني عباد باشبيلية، وله كتاب في تاريخ الأندلس نَقلَ عنه ابنُ الأبار وابنُ الشبَّاط وغيرهما. وينقل ابنُ سعيد في كتاب (المُغرب في حُلَى المَغْرب) عن أبي عمرو بن الإمام من أهل شِلْب (ت بعد 550 هـ/1156 م) صاحبِ كتاب (سَقْط الجُمان وسقيط المَرْجان). ولابن الكردبوس التوزري (أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) جزءٌ خاصٌّ بالأندلس في كتاب (الاكتفاء في أخبار الخلفاء). أما أبو قاسم محمد الشِّلْبي فله كتابٌ في أخبار المعتمد بن عباد يُثني عليه ابنُ الأبار [2]. وكتابا (الحُلَّة السِّيَراء) و (تكملة الصلة) لابن الأبار البلنسي مصدران قيِّمان لتاريخ فترة ملوك الطوائف.

يتناول ابنُ الخطيب تاريخَ ممالك الطوائف كلٌّ علَى حدة، علَى غرار ابن حيانْ وابن بسام، معتمداً علَى من سبقه من المؤرخين، كل ذلك بإيجاز وتركيزٍ يَنمَّان عن براعةٍ في استيفاء المصادر وسرد الأحداث والوقائع بأسلوب مشوِّق. وله إضافاتٌ وتعقيباتٌ ـ وهو أحياناً يصحِّح اسماً أو تاريخاً ـ وهي التي سوف نقتصرُ علَى التنويه بها في هذه الدراسة.

يقول ابنُ الخطيب معقِّباً علَى مقتل ابن عمار علَى يد المعتمد بن عباد ـ ولعلَّه كان يشيرُ إلَى أحداثٍ مماثلةٍ وقعتْ في مملكة غرناطة في عصره ـ «قُلتُ: وسبحانَ

---

(2) ابن الأبار. محمد: الحُلَّة السِّيَراء. الجزء الثاني. القاهرة 1963. ص 136.

الذي جعل نفوسَ أكثر الملوك تنقاد في أزمَّة حب التشفِّي وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعته. وذلك لأنها نفوسٌ غيرُ مقهورة بالرياضة والملَكات... إلاّ للقليل النادر ممَّن كانت نفسُه متَّصفةً بالرحمة في أصل جبلَّتها... وما كان أجملَ بالمعتمد أن يُبقيَ علَى جانٍ من عبيده قد مكَّنه اللهُ من عنقه... ولا يحذر تعصُّبَ قبيله. ولا يزيده العفوُ إلاّ ترفّعاً وعزاً... فلا شيءَ أمحَى للسيئة من الحسنة، ولا أقتلَ للشر من الخير... وذكروا أن المعتمدَ ندم علَى قتله، ولات حينَ مَنْدَم» [3].

يشير ابنُ الخطيب إلَى رواية ابنِ سعيد عن مقتل منذر بن يحيى في سرقسطة سنة 431 هـ علَى يد رجل من بني عمِّه يُعرف بعبد الله بن الحكم، حيث يقول ابن سعيد إن المقتول هو يحيى بن منذر. ويعقِّب ابنُ الخطيب علَى ذلك بقوله: «فإنْ كان ما ذكره صحيحا، فيظهر أن منذر بن يحيى وليَ بعده ولدٌ له أو أخٌ سُمِّيٌ لأبيه. فجرتْ عليه الحادثةُ الشبيهةُ بالحادثة عليه. وإلا فهو وَهْمٌ من المؤرخ. والمشهور في ثوار الأندلس وملوك الطوائف إنما هو منذرُ بن يحيى» [4]. ورواية ابن حيان ـ كما وردتْ في (الذخيرة) ـ تؤيد ما ذكره ابنُ الخطيب في هذا الشأن [5].

يورد ابنُ الخطيب في نهاية عرضه لتاريخ ممالك الطوائف قائمةً بأسماء اثنيْ عشرَ من أصاغر أمراء الطوائف يعرِّف بهم بإيجاز، مما لا نجده في بقية المصادر المتوفرة لدينا [6].

وعند مرور ابن الخطيب بأغمات (761 هـ)، زار قبرَ المعتمد بن عباد وتَركَ لنا وصفاً فريداً للقبر وما أوحَى به إليه. «وهو بمقبرة أغمات في نشَزٍ من الأرض. قد حفّت به سدرة. وإلَى جانبه قبرُ اعتماد حظيِّتهِ... وعليهما وحشةُ التغرب ومعاناة

---

(3) أعمال. ص 162.

(4) المصدر السابق. ص 200 ـ 201.

(5) ابن بسام الشنتريني. علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس 1975. 1/1 ص185.

(6) أعمال. ص 209 ـ 210.

الحمول من بعد المُلْك ، فلا تملك العينُ دمعَها عند رؤيتها . فأنشدتُ في الحال :

قد زرتُ قَبركَ عن طوعٍ بأغماتِ رأيت ذلك من أولَى المهمَّاتِ
ماريءُ مثلُك في ماضٍ ، ومعتقَدي أن لا يرى الدهرُ في حالٍ ولا آتِ »(7)

احتفظ ابنُ الخطيب ، دون غيره من المؤرخين ، بقصيدة الزاهد أبي إسحاق الإلبيري مخاطباً باديسَ بن حبوس صاحبَ غرناطة ومحرِّضا علَى كاتبه ووزيره اليهودي يوسف بنَ النغريلة . وهي من 43 بيتا ، وكانت عاملاً في قيام صنهاجة علَى اليهود بغرناطة ومصرع ابن النغريلة «وذلك في سنة 469 ، وقيل سنة 465» (8) . وقد أخطأ ابنُ الخطيب في تحديد السنة ، مع أنه يذكر أن الحادث وقع في عهد باديس الذي توفي عام 465 ، وخلَفَه في المُلْك حفيدُه عبدُ الملك في شوال سنة 465 (9) . ويذكر الأميرُ عبدُ الله نفسُه أن ما حلَّ باليهود وابن النغريلة كان «يوم السبت لعشرٍ خَلَون من صفر من سنة 459» (10) . كما أن ابنَ عذاري يقول «وفي سنة 459 [1066 م] كان القيامُ علَى اليهود بغرناطة ومقتلُ ابن نغرالة» (11) .

ومن الطريف أن يلاحظَ الباحثُ مناصرةَ ابن الخطيب للأمير عبد الله بن بلقين واعتبارَه عملَ المرابطين نحوه تجنِّياً عليه دون مبرِّر . «وتجنَّى [يوسف بن تاشفين] عليه [الأمير عبد الله بن بلقين] تجنِّيَ الذئب علَى المِعْزى حسبما يتمثَّل به الناس . إذ قال لها متسبِّباً لأكلها : شمِّري ذنبَك ، فإنك تحركي عليَّ به . فقال : وأيُّ ذنبٍ لي يفعل ذلك؟ فقال لها : أو تكذبيني يا فعَّالة . ووثب عليها فأكلها» (12) .

---

(7) المصدر السابق ، ص 164 ـ 165 .
(8) المصدر السابق ، ص 233 .
(9) ابن الخطيب ، لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة 1975 ، 3/ ص 379 .
(10) ابن بلقين ، عبد الله : التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) . القاهرة 1955 ، ص 54 .
(11) ابن عذاري المراكشي ، أبو العباس أحمد : البيان المغرب ، باريس 1930 ، 3/ ص 275 .
(12) أعمال ، ص 235 .

إن ما أورده ابنُ الخطيب عن محنة بلنسية علَى يد السيد القنبيطور يُعدُّ من أوفَى ما وصلَنا من وصفٍ للأحداث إلَى أن استردها المرابطون. ولا شك في أن ابنَ الخطيب اعتمد في روايته علَى ابن علقمة، مؤرخ بلنسية، الذي كان شاهدَ عِيانٍ لما حلَّ ببلنسية وقاضيها ابن جحَّاف؛ وكتابُه (البيان الواضح في الملمِّ الفادح) ـ الذي لم يصلْنا ـ هو المصدرُ الرئيسيُّ لكل من كتب عن محنة المدينة كابن بسام، وابن الكردبوس، وابن الأبار وابن عذاري [13].

أورد ابن الخطيب 104 من أبيات القصيدة التي رثى فيها أبو بحر بنُ عبد الصمد المعتمدَ بنَ عباد عند زيارته لضريحه ـ بُعَيْدَ وفاته ـ في أغمات. بينما لم يورد ابنُ بسام من القصيدة سوى ثلاثة أبيات، ولم يورد ابن خاقان سوى خمسةَ عشرَ بيتاً منها [14].

عند الحديث عن بني ذي النون أصحابِ طليطُلة يسمِّيهم ابنُ الخطيب «بني دنون»، في حين أن بقية مؤرخي الأندلس، كابن حيان وابن بلقين وابن بسام وابن عذاري، يشيرون إليهم ببني ذي النون. ويفسِّر ابنُ الخطيب التسميةَ بقوله: «اسمُ جدهم الذي يُنسَبون إليه هو زنون. فغيِّر بالدال لطول المدة» [15].

ويتحدث ابنُ الخطيب عن مصرع صاحب بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس أواخر عام 488، وقُتِلَ معه والداه الفضلُ وسعدُ أبو عمر [16]. والصحيح أن اسميْ الولديْن الفضلُ والعباسُ، كما أوردهما الأميرُ عبدُ الله بن بلقين، وكذلك وزيرُ ابن

(13) المصدر السابق، ص 203 ـ 205. الذخيرة 3/1 ص 95 ـ 100.
ابن الكردبوس، عبد الملك: قطعة من كتاب (الاكتفاء في أخبار الخلفاء). مدريد 1971، ص 99 ـ 104.
ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت 1985، 4/ ص 31 ـ 41.
(14) أعمال، ص 165 ـ 170 (الذخيرة 1/2 ص 58.
ابن خاقان، الفتح: قلائد العقيان. القاهرة 1320 هـ، ص 31.
(15) أعمال، ص 177.
(16) المصدر السابق، ص 186.

الأفطس وكاتبُه عبدُ المجيد بنُ عبدون في مرثيته الرائية المعروفة حيث يقول في أحد أبياتها :

سقتْ ثرى الفضل والعباس هاميةٌ تُعزى إليهم سماحاً لا إلَى المطر[17]

وفي حديث ابن الخطيب عن الوزير أبي بكر بن عبد العزيز صاحبِ بلنسية يقول : «وكان طاغيةُ الروم [الفونس السادس]... يقول إذا جرى ذكرُه : رجالُ الأندلس ثلاثة ـ فَيَعُدُّ فيهم ابنَ عبد العزيز» ، وابنَ طاهر صاحبَ مرسية ، وقاضيَ بلنسية ابنَ جحَّاف[18] . أما ابنُ بسام فيقول : «وكان الطاغيةُ... كلما جرى ذكر ابن عبد العزيز... يقول : رجالُ الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز، وابن عمار ، وشِشْنَنْدُ...»[19] . وفي (المُعجِب) أن ملكَ الروم كان «إذا ذُكر عنده ابنُ عمار قال : هو رجلُ الجزيرة»[20] .

وفي كتاب (أعمال الأعلام) فقراتٌ يتجلَّى فيها الحِسُّ التاريخيُّ لابن الخطيب ، كما تتجلَّى براعته في صَوْغ ذلك الحس بعبارات بليغة جزلة ، يطغَى عليها أحياناً الطابع الأدبيُّ فيعمد إلَى تنسيق ألفاظها وسَجْعها . فعند حديثه ـ مستفيضاً ـ عن قيام عمر بن حفصون وبنيه علَى الإمارة في قرطبة ، يورد ثلاثةَ أسبابٍ رئيسيةٍ لكثْرة الثورات في الأندلس فيقول : «والسببُ في كثْرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثةُ وجوه . الأول : مَنْعةُ البلاد وحصانةُ المعاقل وبأسُ أهلها بمقاربتهم عدوَّ الدين . والثاني : علوُّ الهمم وشموخُ الأنوف وقلّةُ الاحتمال لثقل الطاعة . إذ كان من يحصُل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضُهم من الإذعان لبعض . والثالث : الاستنادُ عند الضيقة والاضطرار إلَى الجبل الأشمّ والمعقل الأعظم من ملك النصارى

(17) التبيان ، ص 174 . الذخيرة ، 2/2 ص 723 .
(18) أعمال ، ص 302 ـ 303 .
(19) الذخيرة ، 1/3 ص 43 ـ 44 .
(20) المراكشي ، عبد الواحد : المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة 1949 ، ص 119 .

الحريص علَى ضرب المسلمين بعضهم ببعض »[21] .

وبعد أن يقتبسَ ابنُ الخطيب مما ذكره المؤرخون في وصف قرطبة في أوج عزها ، ومن بينهم أبو محمد الرُّشاطي صاحبُ كتاب (اقتباس الأنوار) يقدِّم لنا وصفَه للمدينة ، ومنه نقتبس العبارات التالية . «ووقع لي ذكرُها في بعض كتب الفتوحات فقلتُ : فقرطبة وما أدراك ماهيه . ذاتُ الأرجاء الحالية الطامية ... والمباني المباهية . والزهراء الزاهية ... حيث جسور القصور المديدة ... حيث آثارُ العامري المجاهد ... حيث المصلَّى العتيق قد رحُبَ مجالاً وطال منارا ... وبحرُ الفلاحة الذي لا يُدرك ساحله ... أقلَّ كرسيُّه خلافةَ الإسلام ، وأغار بالرصافة والجسر دارَ السلام [بغداد] »[22] .

وعن قيام الطوائف وتملُّكهم ـ دون وجه حق ـ وتفريقهم شملَ الجماعة ، ابنُ الخطيب : «وذهب أهلُ الأندلس من الإنشقاق والانشعاب والافتراق الَى حيث لم يذهبْ كثير من أهل الأقطار ... ليس لأحدهم [المتنزون من رؤساء الطوائف] في الخلافة إرثٌ ولا في الإمارة سبب ... ما منهم من يرضَى أن يسمَّى ثائرا . ولا لحزب الحق مغايرا . وقُصارى أحدهم أن يقول : أُقيم علَى ما بيدي حتّى يتعيَّن من يستحق الخروج به إليه . ولو جاءه عمرُ بنُ عبد العزيز لم يُقبلْ عليه . ولا لَقي خيراً لديه ... »[23] . وشبيهٌ بكلام ابن الخطيب ما ذكره ابنُ بسام الشنتريني ـ نقلاً عن ابن حيان ـ عن صاحب طليطلة اسماعيل بن ذي النون القائل «والله لو نازعني سلطاني هذا الصديق [الخليفة الراشد أبو بكر] لقاتلته ولما سلّمت له »[24] .

ويتحدث ابنُ الخطيب عن حرب «الاسترداد» وتكالب ملوك النصارى علَى أراضي المسلمين فيقول : «لم يكُنْ همٌّ عدوِّ الإسلام إلاّ استرجاعَ البلاد

(21) أعمال ، ص 36 .
(22) المصدر السابق ، صص 146 ـ 147 .
(23) المصدر السابق ، ص 144 .
(24) الذخيرة ، 1/4 ص 143 .

والأقطار... تارةً في سبيل المشاركة والاستجارة . وتارةً في سبيل المسالمة والمتاركة. وتارةً بالغلاب والمنازلة. وقد وقع من ملوكهم التكالبُ والتنافس: فصاحبُ قشتالة وليون يضمُّ ما جاوره ويطويه طيَّ السجل، وصاحبُ برجلونة يسري فيما يليه سَرْيَ النار في الهشيم... إلَى أن استولَى علَى طليطُلة وما إليها سنة 478. وحسبك بها فجيعةً. وأعظمْ بها مصيبة! وملوكُ الأندلس في غمرتهم ساهون. وعن عواقب الاسلام لاهون...»[25].

ويروي لنا ابنُ الخطيب الأساليبَ التي اتّبعها ملوكُ النصارى لإيهان المسلمين بدءاً نهب غلاتهم، ثم فرض الضرائب علَى ملوكهم وزيادتها باستمرار. وهي روايةٌ لا نجدها بهذا التفصيل في بقية المصادر التي وصلتْنا. يقول ابنُ الخطيب: «وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحواز الموضع الذي قصده... فإذا كثرت الغلات... فَرضَ علَى رعيّته أمماً من الفلاحين لضمِّ الأقوات... وينقل ذلك علَى ظهور محلاته ورعيّته إلَى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين ليُميرَ بها محلاتِه عند الحاجة لذلك. وضرَبَ الجزيةَ عليهم بما شاءه. فلما هلكَ فرذلند [حكَم 1035 ـ 1065 م] وولي ابنُه شانجُه [حكَم 1065 ـ 1072 م] ذهبَ الناسُ في إجراء عادته من المال، قال: إنما كان ذلك المالُ لفرذلند. وهو ثابتٌ أبدا حسناتُه لا يزول. وإنما نصالحكم علَى ما يختصُّ بي. ثم هلك شانجُه، وولي بعده اذفونش [حكَم 1065 ـ 1109 م] أخوه هذا. فسار بسيرة أخيه وأضعف العددَيْن. فكانت الرعايا تتحمل هذه الأموالَ زيادةً إلَى أموال الجباية المستقضاة بالعنف التي يقيم منها ملوكُهم ما يختص بهم. فضعُفَ الاعمار، وخلت الديار»[26]. وشبيهٌ بذلك ما يذكره الأمير عبد الله بن بلقين عن الأساليب التي سار عليها الفونس السادس ممهِّداً بها لأخذ طليطُلة إذ يقول: «وكنا رأينا كلَبَ النصراني [الفونس السادس] علَى الجزيرة وأخذه لطليطُلة وقلة رفقه بعد ما كان يقنع منا بالجزية.

(25) أعمال. ص 241 ـ 242.

(26) المصدر السابق. ص 243 ـ 244.

وصار يروم أخذَ القواعد. وإن أخذَه لطليطُلة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام. وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد، إذ كان مذهبُه ألاّ ينازلَ معقلاً ولا يُفسدَ أجنادَه علَى مدينةٍ لبُعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملّته، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام... إلَى أن تضعفَ وتُلقيَ بيدها كما فعلتْ [طليطلة]» [27].

وابنُ الخطيب يُنصف المرابطين، ويُشيد بحماسهم الديني، ويذكر تطلُّعَ أهل الأندلس إلَى الخلاص علَى أيديهم من الخطر المُحدق بهم، بخلاف ما نجده في كتب مؤرخي الموحدين ـ كابن القطان وابن صاحب الصلاة ـ من تحاملٍ شديدٍ عليهم، وغمطٍ لجهادهم في الأندلس. يقول ابنُ الخطيب: «وقد كانت الأخبارُ اتصلتْ بخروج الأمير يوسف بن تاشفين من الصحراء في أمةٍ جديدةِ الإسلام، شديدةِ الاعتزام، مظهرةٍ للقيام بالحق، ومجاهدةِ من زاغ عن الشريعة، وأنه قد طوّع المغرب» [28]. ويضيف في موضعٍ آخرَ من الكتاب أنه شاع في الأندلس «خروجُ اللمتونيين [المرابطين] من الصحراء واستيلاؤهم علَى المغرب، وأنها دعوةٌ مبنيّةٌ علَى دين متين، وتأسيسٍ بفقه، وأنه إسلامٌ جديد، فحدّقت إلَى سَمْتهِ العيون. وصُرفت إليه الوجوه، ثم ارتفع إليه الصراخ، ثم أُعملت الإشارات، ثم مُدَّت الأيدي، إلَى أن كان من تنفس المخنَّق بمجاورة ملك لمتونة ما كان... فانتعشتْ برهةً، وأقامتْ مدةً...» [29].

أخبار دولة بني زيري في كتاب (الإحاطة):

لما كان كتابُ (الإحاطة) تاريخاً لمدينة غرناطة منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتّى عهده، يترجم فيه ابنُ الخطيب لأعلام المدينة ورؤسائها إلَى زمنه، فإنه يحتوي علَى معلوماتٍ وافيةٍ عن أمراء دولة بني زيري في فترة ملوك الطوائف، ابتداءً من

(27) التّبيان. ص 101.

(28) أعمال. ص 245.

(29) المصدر السابق. ص 243.

زاوي بن زيري وانتهاءً بآخر أمراء الدولة عبد الله بن بلقين (من سنة 404 إلَى سنة 483 هـ). ومن خلال دراستنا لتراجم هؤلاء الأمراء، لاحظْنا أن ابنَ الخطيب يقتبس من المصادر التالية: ابن حيان، وابن بسام، وابن خاقان، وابن الصيرفي، وابن بشكوال، والغافقي، وابن عذاري. وكما أسلفْنا، فإنه يُؤخذُ عليه إغفالُه لكتاب (التِّبْيان) للأمير عبد الله بن بلقين، وهو أهمُّ المصادر عن أمراء بني زيري ودولتهم في غرناطة.

إن كتابَ (التِّبْيان) وما في كتاب (الإحاطة) من تراجم لأمراء بني زيري في غرناطة هما المصدران الرئيسيان لتاريخ المملكة الزيرية في غرناطة، وهي إحدى الممالك الكبرى في الأندلس في فترة ملوك الطوائف. ولما كان كتابُ (التِّبْيان) روايةَ أميرٍ زيريٍّ عن أسرته ودولته ونهايتها، بينما تراجمُ كتاب (الإحاطة) لأمراء بني زيري مستمدةٌ في معظمها من كتاب (الأنوار الجليَّة في أخبار الدولة المرابطية) ـ الذي لم يصلْنا ـ لابن الصيرفي، ذي الميول المرابطية؛ فإن كتابَ (التِّبْيان) وكتابَ (الإحاطة) يتمِّم الواحدُ منهما الآخر، ويكادان يكونان المصدريْن الوحيديْن لتاريخ الفترة التي أعقبَتْ نهايةَ كتاب (المتين) لابن حيان (ما بين سنتي 462 و 488 هـ). ومع ذلك، فإن لابن الخطيب الفضلَ في احتفاظه بفقراتٍ هامةٍ من كتابَي ابن الصَّيْرفي والغافقي ـ وهما في حُكْم المفقوديْن ـ مما يُعين الباحثَ في تاريخ دولة بني زيري في غرناطة، إذ تمكِّنه من مقارنتها وموازنتها برواية صاحب كتاب (التِّبْيان).

كان قدومُ زاوي بن زيري إلَى الأندلس في عهد المظفَّر عبد الملك بن أبي عامر. يقول ابنُ الخطيب: «فخاطب شيخُ بيته يومئذ زاوي بن زيري ـ ومعه أبناء أخيه ـ المظفرَ ابن أبي عامر ليجوزَ إلَى الأندلس رغبةً في الجهاد»[30]. ومصدرُ ابن الخطيب ـ دون شك ـ المؤرخُ الثقةُ ابنُ حيان الذي يقتبس عنه ابنُ بسام الشنتريني قوله: «وكان المنصور أيامه قد التوى في الإذن له [زاوي] بالدخول إلَى الأندلس حذَراً من دهيه ومكره وبُعْد صيته في المغرب. فأضرب عبدُ الملك عن الفكر في

(30) الإحاطة، 1/432.

شأنه ، وطلَبَ السمعةَ باستخدام مثله . فأدخله بمن معه من إخوته » [31] . أما الأميرُ عبد الله بن بلقين فيذكر أن قدومَ زاوي وقومه كان استجابةً لنداء المنصور محمد بن أبي عامر [32] . ولعلَّ الأميرَ عبدَ الله أراد بذلك تعزيزَ مكانة زاوي وقومه بنسبته استدعاءهم للمنصور لا لابنه.

وفي عبارةٍ وجيزةٍ يذكر ابنُ الخطيب أن زاوي «أولُ من مدَّن غرناطة وبناها وزادها تشييداً ومَنْعة » [33] . وهذا هو الواقع ، إذ حلَّتْ غرناطة محلَّ إلبيرة التي نزح عنها أهلُها. في (التِّبيان) أن زاوي قال لأهل إلبيرة «... فأرى من الصواب أن نرتحل عن هذه المدينة [إلبيرة] ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها معقلاً نأوي إليه بأهالينا وأموالنا... وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينةُ غرناطة... فشرعوا في بُنيانه... وخرجتْ عند ذلك إلبيرة » [34] .

وفي الترجمة التي عقدها ابنُ الخطيب لباديس بن حبوس ، يتحدَّثُ بشيءٍ من الإسهاب عن وزيرِه وكاتبِه اليهوديَّيْن اسماعيل بن نغرالـة وولده يوسف ويبرر لذلك بقوله «وإنما أتينا ببعض أخباره [ابن نغرالة الأب] لكونه ممَّن لا يمنع ذكرَه في أعلام الأدباء والأفراد إلا نحلتُه » [35] . ويستقي ابنُ الخطيب معلوماتِه من ابن حيان ــ وهو ينفرد في ذلك ، إذ لا نجد بعضَ هذه المعلومات في ما نقله ابن بسام وابن عذاري عن ابن حيان ــ ومن (البيان المُغْرب) لابن عذاري. ويُخطىءُ ابن الخطيب في السنة التي ذكرها لوفاة ابن نغرالة الأب «العشر الثاني لمحرم سنة 459» ، والصحيح أن وفاته كانتْ في سنة 448 هـ/1056 م [36] . وقد أصاب ابنَ

(31) الذخيرة ، 4/1 . ص 81.
(32) التبيان . ص 16.
(33) الإحاطة . 1/ ص 514.
(34) التبيان . ص 20 ـ 22.
(35) الإحاطة . 1/ ص 440.
(36) المصدر السابق . 1/ ص 439.
صاعد بن أحمد : طبقات الأمم . القاهرة (بدون تاريخ) ص 118.

الخطيب هذه المرة في تحديد السنة التي قُتل فيها يوسُف بن نغرالة ، وهي سنة 459 ، في حين أنه أخطأ في تحديدها في كتاب (أعمال الأعلام) ، حيث ذكر أن هلاكه كان في سنة 469 أو 465 ، مع أن الكتاب الأخير فرغ من تأليفه قُبيْل وفاته ، وبعد أكثر من عشر سنوات من تأليفه لكتاب (الإحاطة) [37] .

ويحتفظ لنا ابنُ الخطيب في (الإحاطة) بمقطوعاتٍ شعريةٍ للمعتمد بن عباد لا ترد في ديوانه ، ولم يوردها ابنُ بسام الشنتريني وابنُ خاقان . منها الأبياتُ السبعةُ التي أنشدها المعتمدُ عند زيارة ابن اللبانة له في أغمات ، والأبياتُ الثمانيةُ التي قالها المعتمدُ في هَوْل البحر أثناء جوازه إلَى طنجة [38] .

وفي كتاب (أعمال الأعلام) ، يورد ابنُ الخطيب قصيدةً لابن حزم القرطبي في رثاء قرطبة من عشرين بيتا ، في حين أننا لا نجد منها سوى بيت واحد في كتاب (طَوْق الحمامة) [39] .

ويذكر ابن الخطيب أن المعتمدَ بنَ عباد توفي في ربيع الأول سنة 488 [1 مارس ـ 9 أبريل 1095 م] مضيفاً أن ابنَ الصيرفي خالف في وفاة المعتمد فقال إنها كانت في ذي الحجة سنة 488 [2 ديسمبر ـ 30 ديسمبر 1095 م] [40] .

ويزوِّدنا ابنُ الخطيب ببعض المعلومات ـ كشاهدِ عِيانٍ ـ عن مسجد باديس وقصره وقبره وما بقي منها علَى عهده . فبعد أن يقتبسَ عن ابن بشكوال قولَه إن باديس توفي ليلة الأحد الموفّى عشرين من شوال سنة 465 ودُفن بمسجد القصر يضيف ابنُ الخطيب ما يلي «قلت : وقد ذهب أثرُ المسجد وبقي القبرُ يحفُّ به حلْقُ باب ، كل ذلك علَى سبيلٍ من الخمول ، وجدَثُ القبر رخام ، إلَى جانب قبر الأمر

(37) الإحاطة ، 1/ ص 440 . أعمال ، ص 233 .
(38) الإحاطة ، 2/ ص 115 ، ص 117 .
(39) أعمال ، ص 107 ـ 108 .
ابن حزم ، علي : طوق الحمامة في الألفة والألاف . القاهرة 1959 ، ص 94 .
(40) الإحاطة ، 2/ ص 119 ـ 120 .

المجاهد أبي زكريا يحيى بن غانية المدفونِ في دولة الموحدين... وقد ألمعتُ في بعض مشاهده بقولي من قصيدة...

عسَى خَطْرَةٌ بالركب يا حادِيَ العيس على الهشبة الشماء من قصر باديس (41)

إن أهميةَ كتاب (الإحاطة) كمصدرٍ للباحث في تاريخ دولة بني زيري في غرناطة تكمن في الفترة التي أعقبتْ نهايةَ كتابَ (المتين) لابن حيان، أي من عام 462 هـ إلى قدوم المرابطين إلَى الأندلس وخلعِهم لملوك الطوائف. وهو يترجم للأمير عبد الله ابن بلقين (حكَم 465 _ 483 هـ) ورجالِ دولته _ اعتماداً علَى ابن الصيرفي والغافقي اللذيْن لم يصلْنا كتاباهما _ ومعلوماتُه لا تتَّفق في معظمها مع ما أورده الأميرُ عبد الله في كتاب (التِّبيان).

يقتبس ابنُ الخطيب عن ابن الصيرفي _ مؤرخِ دولة المرابطين _ قَوْلَه في الأمير عبد الله بأنه «كان جباناً مُغْمَدَ السيف، قلقاً لا يثبتُ علَى الظهر... هيَّابةً مُفرِطَ الجزَع، يخلُد إلَى الراحات، ويستوزر الأغمار» (42). ولا يكتفي ابنُ الخطيب بذلك، بل إنه يقتبس كذلك قَوْلَ الغافقي بأن الأمير عبد الله «كان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة، شاعراً جيدَ الشعر مطبوعَه، حسن الخط. كانت بغرناطة ربْعة مُصحف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان» (43). ويُضيفُ ابنُ الخطيب نفسُه في (نُفاضة الجراب) بأنه حينما زار أغمات عام 761 هـ/1360 م، أوقفه الخطيبُ فيها «علَى تاريخٍ صدر عنه [الأمير عبد الله] أيامَ اعتقاله يشرح الحادثةَ علَى مُلْكه في أسلوبٍ ختَمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله» (44). ويقول في (أعمال الأعلام) عن الأمير عبد الله بأنه «يكتبُ الشِّعرَ ويتحدَّثُ فيما تتحدث فيه

(41) المصدر السابق. 1/ ص 442 _ 443.
(42) المصدر السابق. 3/ 380.
(43) المصدر السابق. 3/ ص 379 _ 380.
(44) نفاضة الجراب. ص 56.

الطلبة» [45] . ومما يُذكر أن الأميرَ عبدَ الله يَعِدُ في الباب الأخير من (التِّبْيان) بأن يورد بعضاً من أشعاره. إلاّ أن المخطوطَ الذي بين أيدينا لا يشتمل ـ لسوء الحظ ـ علَى أيٍّ من هذه الأشعار التي «تشهدُ بفضله» علَى حدّ قول ابن الخطيب.

ويترجم ابنُ الخطيب في (الإحاطة) ترجمةً وافيةً ـ اعتماداً علَى ابن الصَّيْرفي ـ لمؤمَّل مولَى باديس بن حبوس وحفيدِه من بعده. وهي ترجمةٌ مفعمةٌ بالثناء عليه [46] . وكان مؤمَّل قد أشار علَى الأمير عبد الله بمسالمة أميرِ المسلمين يوسف ابن تاشفين، مما أغضب عبدَ الله فهمَّ بقتله. ويفيدنا ابنُ الخطيب بأنه تُنسَب إلَى مؤمَّل هذا آثارٌ بغرناطة، منها السقايةُ بباب الفخارين، والحَوْزُ المعروفُ بحَوْزِ مؤمَّل «أدركتُها وهي بحالها» [47] . أما الأميرُ عبد الله فإنه يتّهم مؤمَّلاً بمداخلة زعماء زناتة ضده، وباتّهامه للأمير باستدعاء النصارى إلَى غرناطة، إذ أرسل مومَّلٌ إلَى أمير المسلمين «يزوِّر عنده الأمرَ كلَّه... ويقول: لم نُؤْتَ إلاّ من إنكاري أمر النصارى» [48] .

كما يترجم ابنُ الخطيبِ للفارس المِقْدام مقاتل بن عطية البرزالي، الملقَّب بالريُّه El Royo ـ لحُمرةٍ في وجهه ـ وينقل عن أبي القاسم الغافقي قولَه إن مقاتلاً حضر مع الأمير عبد الله بن بلقين وقعة النِّيل Nivar في صَدْر سنة 478 هـ/1085 م، وأبلَى فيها بلاء عظيماً [49] . ومع أن الأميرَ عبد الله يفتخر بمنازلته ـ دون بقية ملوك الطوائف ـ النصارى في وقعة النيبل، إلاّ أنه لا يذكر دَوْر مقاتل فيها، فهو يقول: «وأولُ سيفٍ سُلَّ علَى الروم إنما كان من قِبَلِنا، وهي الوقيعةُ المشهورةُ بالنيبل من طاعتنا، في حينَ تطرَّق النصارى إليها علَى حين غفلة، ووافق

---

(45) أعمال، ص 235.
(46) الإحاطة، 3/ ص 331 ـ 333.
(47) المصدر السابق، 3/ ص 332 ـ 333.
(48) التبيان، ص 135 ـ 136، 138.
(49) الإحاطة، 3/ ص 299 ـ 300.

ذلك أولَ ظهور المرابطين ووصولَهم سَبتة »[50] .

ويتحدث ابنُ الخطيب عن الفقيه الغرناطي أبي جعفر القُلَيْعي الذي يحمل عليه الأميرُ عبد الله بن بلقين متهماً إياه بتشويه سمعته لدى المرابطين. فبعد أن ينقلَ ابنُ الخطيب عن ابن الصيرفي ما ذكره عن مشاركة ابن القُلَيْعي في حصار حصن لِيِّيط Aledo « لرغبته في الأجر » ، وأن كلمته كانت مسموعةً من أمير المسلمين، يضيف ابنُ الخطيب من عنده أنه عند العودة إلَى غرناطة من حملة لِيِّيط ، استحضر الأميرُ عبد الله ابنَ القُلَيْعي ووبَّخه علَى اتهاماته له ، وهمَّت الخَدَمَةُ بضربه « إلاّ أن أمَّ عبد الله تطارحتْ علَى ابنها في استحيائه ، فأمر بتخليصه وسَجْنه في بعض بيوت القصر. فأقبل فيه علَى العبادة والدعاء والتلاوة، وكان جهيرَ الصوت ، حسنَ التلاوة ، فارتجَّ القصرُ وسكنتْ لاستماعه الأصوات... وخافتْ أُمُّ عبد الله علَى ولدها عقاباً من الله بسببه ، فلاطفتْه حتّى حَلَّ عقالَه وأطلقه من سجنه » . وما إن أُطلق سراحُه حتّى فرَّ ابنُ القُلَيْعي إلَى قرطبة ، ومنها خاطب الأميرَ يوسفَ بن تاشفين « بملء فيه ، بما حرَّكه وأطمعه، فكان من حركته إلَى الأندلس وخلع عبد الله بن بلقين من غرناطة واستيلائه عليها »[51] .

ويقابل كلامَ ابن الخطيب عن ابن القُلَيْعي ما أورده الأميرُ عبدُ الله في كتابه مفصِّلاً الكلامَ عن دَوْر ابن القليْعي في خلعه من قِبَل المرابطين، ابتداء من حملة لِيِّيط حيث أخذت الرعيةُ تُوسِّط الفقهاءَ للشكوى من الأمراء لدى أمير المسلمين « منهم الفقيهُ ابن القُلَيْعي ، قد صار خباؤه بتلك الحملة مغنطيساً لكل صادر ووارد ، يجد بهم السبيلَ إلَى الطلب... ولقد كان يخاطبُ إخوانه بحضرتنا [غرناطة] ألاّ يعطونا شيئا »[52] . ويقولُ الأميرُ عبدُ الله إن ابنَ القُلَيْعي هذا كان « مخمولاً في أيام الشيخ جدنا [باديس] ، وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنَى ضيعته ، لِمَا كان

(50) التبيان ، ص 129 .
(51) الإحاطة ، 1/ ص 148 ـ 149 .
(52) التبيان ، ص 119 .

يرى من شره وقدرته على الدواخل. فلما ظهر أمرُ المرابطين، اصطنع إلَى مؤمّل وغيره، ووُسِم لي بسمة الخير والقدرة علَى الكلام، وأنه لا أحدَ يقدر علَى استمالة المرابطين علَى ما هو عليه. فوجَّهتُه رسولاً، وهو في ذلك يعمل لنفسه، ويسعَى في هلاكي في الباطن». ولما وبَّخه الأميرُ عبدُ الله علَى تصرفاته بمحضر الجند، همُّوا بقتله «فقلتُ لهم: أنا أكفيكم أمرَه. وأمرتُ بثقافه علَى أجمل الوجوه في بيتٍ بقربٍ من القصر، وكان تحت بر وإكرام... فلما توطَّدت الأحوال... أمرتُ بإخراجه وأنهيتُ إليه أنْ يكفَّ لسانَه... فقال لي: نعم. أنا ألتزمُ الروابط، وأسلكُ سبيلَ العافية إن شاء الله. فلم يكنْ إلاَّ أن انطلق وطار إلَى أمير المسلمين بالشكوى، وزاد في الطين بِلَّة»[53].

وكان من بين من قام بِدَوْر مرموق في خدمة دولة بني زيري في غرناطة الوزيرُ سِماجةُ الصنهاجي، الذي ظلَّ في منصبه تسعَ سنين بعد وفاة باديس، وإليه يعود الفضلُ في توطيد المملكة، ودرء أطماع المعتمد بن عباد في أراضيها في أول عهد الأمير عبد الله. ولا يُفرد ابنُ الخطيب سماجةَ بترجمةٍ خاصةٍ في (الإحاطة)، إلاَّ أنه يتحدث عن كفاءته وحزمه وجوده وشجاعته في (أعمال الأعلام) إلَى أن رحل سِماجة إلَى ألمريَّة بعد استبداد الأمير عبد الله بالأمر[54]. أما الأميرُ عبدُ الله فإنه لا يُشيد بفضل سِماجة وخدماته، بل يتحامل عليه ـ دون وجه حق ـ بحجة أن سماجةَ كان يتوخَّى الإبقاءَ علَى السلطة في يده. ولما كان الأميرُ مصمِّماً علَى الانفراد بالسلطة، فإنه بادر إلَى عزل سماجة، وأعلن بأنه «لا وزيرَ لدولتي إلاّ نفسي». ومع أنَّ الأميرَ يقول إنه أبقَى علَى سِماجة جميعَ أمواله، وسوَّغه إنزالاً ينعاش فيه، وطلب إليه لزومَ مجلسه، إلاَّ أنه خشي عواقبَ إبقائه في غرناطة «فرأينا من الصواب أن يرتحلَ عنا [أي أنه نفاه]... فخرج إلَى ألمريَّة.. [ثم] بلَغَنا أنه حقَّر الدولةَ لابن صمادح، وطمَّعه فيها»[55].

(53) المصدر السابق، ص 117 ـ 119.
(54) أعمال، ص 234 ـ 235.
(55) التبيان، ص 84 ـ 85، 87 ـ 88.

موقفه من العامة :

لابن الخطيب ـ كابن حيَّان من قبله ـ موقفٌ معادٍ للعامة لتقلب أهوائها ، وما يرتكبه الرعاعُ والدهماءُ أوقاتَ الفتن من أعمال شغبٍ ونهبٍ وسلب ، كما خَبَر ذلك بنفسه ، وما حلَّ بأمواله وممتلكاته قُبَيْل نزوحه الأول من غرناطة إلَى المغرب . وحينما ينتقد ابنُ الخطيب هذه الأعمالَ انتقاداً مراًّ ، فليس ذلك بالأمر المستغرب من رجل دولةٍ مسؤول ـ ومن الخاصة ـ كابن الخطيب يحرص علَى استتباب الأمن والنظام والاستقرار ، ويدرك ـ ممَّا علَّمتْه التجاربُ ـ تقلُّبَ أهواء العامة ، وصعوبةَ إرضائها من قِبَل أرباب الدول .

يتحدث ابنُ الخطيب عن ثاني أمراء بني أمية بقرطبة ـ هشام بن عبد الرحمن ـ وبنائه للقنطرة العظمَى من أمواله الخاصة . فلما بلغَه أن الناسَ يقولون إنه إنما بناها لتصيُّده ونزهته ، حلَف أن لا يجوزَ عليها إلاّ لغزوٍ في سبيل الله أو مصلحة . ويعقِّب ابنُ الخطيب علَى ذلك بقوله : «هكذا شأن الناسِ مع أرباب الدول ... إن بنَى القنطرةَ قيل بناها للهوه وصيده ... ولو لم يَبْنِها لم يَسْلَمْ من حملهم لأجل تركها . فانا للَّه من الناس ! وما أشبهَ حالُ صاحب الدولة بحال الابن والأب والحمار لا فارق ... وفي مثل هذا الحال ، قلتُ في قصيدة طويلة شرحتُ فيها حاليَ فيما بُليتُ به بالأندلس من مكابدة الصُّمّ البُكْم الذين لا يعقلون (56) .ومن أبيات القصيدة المذكورة نقتبسُ الأبياتَ الخمسةَ التالية :

لا يزال الملامُ عنّي بحالٍ حالةِ الشيخِ وابنه والحمار
قُدتُهم للجهاد فاشتكوْا الضعفَ وضجُّوا لكثْرة الأسفار
مِلْتُ للصلح سمَّوْا الصلْح شراً عكسَ قول المُهيمن الجبار

(96) أعمال ـ ص 12 ـ 13 . والإشارة في نهاية الفقرة الَى سورة الأنفال ـ آية 22 : «إن شرَّ الدواب عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون» .

سُسْتُهم لستُ أبتغي غير حق الله، أو قَوْمتي بحق الجار
فَجزوْني جزاءَ من يَخدم السلطان فيا مضَى من الأعصار (57)

ويروي لنا ابنُ الخطيب كيف أن العامةَ ـ لجهلها ـ تنقاد وراءَ الأوهام، وذلك عند حديثه عن قبر باديس بن حبوس في غرناطة، فيقول: «وقد أدال اعتقادَ الخليفة في باديسَ بعد وفاته قِدَمُ العهد بتعرف أخبار جبروته وعُتُوِّه علَى الله سبحانه، لِمَا جَبلهم عليه من الانقياد للأوهام، والانصياع للأضاليل. فعلَى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والمستشفين من الأسقام ـ حتّى أُولو الدواب الوجيعة ـ ما ليس علَى قبر معروف الكَرْخي وأبي يزيد البِسْطامي» (58). بل إن أحدَ أئِمة مسجد القصبة القديمة بغرناطة رفع إلَى السلطان رقعةً ـ وقف عليها ابنُ الخطيب ـ يتوسَّل فيها الإذنَ بدفنه مجاوراً لقبر باديس «وعفوُ الله أوسعُ من أن يضيقَ علَى مثله [باديس] ممَّن أسرف علَى نفسه، وضيَّع حقَّ ربه» (59).

ويحدثنا ابنُ الخطيب عن سرور أهل قرطبة لقيام المهدي بن عبد الجبار علَى عبد الرحمن بن أبي عامر (شَنْجول) وإفراطهم في اتخاذ الأعراس «غافلين عما خبَّأه القَدَرُ لهم في ذلك من المكروه... سُنَّةُ الله في الرعايا إذا بطرتْ وملَّت العافية، ودانت بحب الإدالة والقلق بالملوك، والشره إلَى الثورات» (60).

وها هو ابنُ حيان يصف اقتحامَ المهدي لقصور الزاهرة بمن كان معه «من العنَّازين والجزَّارين والسِّفلة وسائر غوغاء الأسواق» (61)، ويتحدَّث عن ابن

---

(57) أعمال، ص 13. والإشارة في البيت الثالث إلَى سورة الأنفال. آية 61: «وإنْ جنَحوا للسَّلْم فاجنحْ لها».

(58) الإحاطة، 1/ ص 442. ومعروف الكرخي صوفي كبير وناسك زاهد توفي ببغداد سنة 200 هـ/815 م. وتوفي الصوفي الشهير أبو يزيد البسطامي ببسطام بخراسان سنة 261 هـ/875 م.

(59) المصدر السابق، 1/ ص 442 ـ 443.

(60) أعمال، ص 112.

(61) ابن عذاري، 3/ ص 56.

السقَّاء وزيرِ أبي الوليد بن جهور فيقول إنه تخيَّر «أراذَلَ الطبقات . ومُصاصَ شِرار الناس ، وانتقاهم من أصناف الدعَرة والدائرة والأساود والرقَّاصة. نخَّل من كل طبقةٍ مرفوضةٍ ما بعثَ علَى الناس منهم ذئاباً عادية» [62].

ويتحدث ابنُ الخطيب عن غدر جند المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ببني جهور بقرطبة فيقول إن عبدَ الملك بنَ جهور امتنع «في عِلّيَّةِ الدار حيث سكناه، ودافع عن نفسه إلَى أن غشي الدارَ الجرادُ المنتشرُ من الناس، وشمل النهب» [63].

وبعد مقتل الوزير ابن الحديدي بتدبير صاحب طليطلة القادر بن ذي النون «هاجمت العامةُ فشُغلت بنهب دوره وإطلاق أيديها علَى ماله» [64].

ويقول ابنُ الخطيب عن محمد بن اسماعيل بن فرج بن نصر المتوثب علَى عرش غرناطة في زمنه إنه «كان حَرْفوشاً علَى عُرْف المشارقة... فنظر من المساعير شيعته، من كَسَرَةِ الأغلاق، وقَتلة الزُّقاق، ومختلسي البضائع، ومخيفي السابلة» [65]

الفصل في (أعمال الأعلام) الخاص بملوك النصارى بالأندلس :

يورد ابنُ الخطيب في نهاية القسم الثاني من كتاب (أعمال الأعلام) فصلاً فريداً في بابه عن ملوك النصارى في أشتوريش وليون وقشتالة وأرغون وبرجلونة وبرتقال لم يسبقْه إليه مورخٌ أندلسيٌّ آخر. فابن حيَّان في كتاب (المتين) أشار إلَى ممالك النصارى بشمالي شبه جزيرة إيبرية عند حديثه ــ مثلاً ــ عن كائنة بَرْبُشْتَرْ Barbastro علَى أيدي النورمان (456 هـ/1064 م)، وعن المصاهرة التي تمَّتْ بين صاحب برجلونة وبين صاحب قشتالة عن طريق منذر بن يحيى أمير سرقسطة [66]، ولكنه لم

(62) الذخيرة. 4/1. ص 241.
(63) أعمال. ص 150.
(64) المصدر السابق. ص 179.
(65) الإحاطة. 1! ص 523 ــ 524.
(66) الذخيرة. 3/1. ص 179 ــ 190. 1/1. ص 182.

يتناولْ تاريخَ ملوك النصارى وسنواتِ حكمهم في فصل خاص كما فعل ابن الخطيب . الذي رأى بثاقب بصره ـ وللظروف التي استجدَّتْ في الأندلس على عهده ـ أهميةَ ذلك لأبناء عصره. وكان اعتمادُ ابن الخطيب في هذا الفصل على ما زوَّده به من معلوماتٍ دقيقةٍ الحكيمُ اليهوديُّ يوسُفُ بنُ وقار، استنادا إلى المدوَّنة العامة الأولى لتاريخ اسبانيا Primera Cronica General التي أُعدَّتْ في منتصف القرن السابق بطلبٍ من ملك قشتالة الفونس العاشر. يقول ابنُ الخطيب في مستهل الفصل : «ولما كان هذا الجزءُ [من كتاب (أعمال الأعلام)] مخصوصاً بأخبار الأندلس . وكان كثيراً ما يمرُّ ذكرُ ملوك قشتالة ، كان من كماله أن نُلمعَ بنبذة من ملوكهم ، إذ لا يخلو الزمانُ ممَّن يتشوَّف لذلك... وقد كنتُ طلبتُ شيئاً من ذلك من مظنَّته ، وهو الحكيمُ الشهيرُ طبيبُ دار قشتالة وأستاذُ علمائها يوسُفُ بنُ وقار الإسرائيلي الطليطُلي ، لمَّا وصل إلينا في غرض الرياسة عن سلطانه ، فقيَّد لي ذلك تقييداً أنقلُ منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن ، واستدركُ ما أغفل ، إذ ليس بقادحٍ في الغرض» (67) .

ويَعْنينا في هذا المقام ما أورده ابنُ الخطيب من معلوماتٍ عن ملوك النصارى في القرن الحادي عشر الميلادي ، وبخاصة عن فرناندو الأول (حكَم 1035 ـ 1065 م) الذي وحَّد قشتالة وليون ونبارة ، وكرَّس السنواتِ العشرَ الأخيرةَ من حياته لتوسيع رقعة مملكته علَى حساب ممالك الطوائف، وكذلك ما أورده ابنُ الخطيب عن أبنائه ومنازعاتهم ، إلَى أن استقلَّ بالمُلْك ألفونس السادس (حكَم 1065 ـ 1109 م) ، وهو الذي استولَى علَى طليطُلة ، وفرضَ الجزيةَ علَى معظم ملوك الطوائف. ويلاحَظُ أن ابنَ الخطيب في نهاية الكلام عن ألفونس السادس يخلط بينه وبين حفيده ألفونس السابع (68) . ويقول ابنُ الخطيب إنه قُتل شانجُه بن فرناندو بتدبير أخته أُرَّاكة (Urraca) وولي ألفونس السادس المُلكَ قال في

(67) أعمال . ص 322 .

(68) المصدر السابق . ص 331 .

مقتل أخيه : «عَملٌ جيدٌ وعادةٌ سوء» [69] . ويذكّرنا ذلك بقول المأمون بن ذي النون صاحبِ طليطلة عن تابعه ابن عكاشة الذي انتزع له قرطبة من أيدي بني عباد : «من اجترأ علَى الملوك لم يصلُحْ للملوك» [70] . ويضيف ابنُ الخطيب إلَى كلام ابن وقار : «قلتُ : وهذا الفنش المعمِّر [ألفونس السادس] هو الذي طغَى واستحوذ علَى ملوك المسلمين، وضرب بين أمراء الطوائف إلَى أن قمعه الله بلمتونة، وهزمه هزيمةَ الزلاقة علَى يد يوسُفِ بن تاشفين» [71] . ولما تحدث ابنُ الخطيب عن إعطاء ألفونس السادس برتقال إلَى زوج ابنته تيريسا(Teresa) وتسميته له دوقاً، ذكر اسمَه علَى وجهه الصحيح «إنريق»Henrique ، بينما نجد اسمَه في بقية المصادر العربية «الريق» أو «الرنك» واسمَ ابنه «ابن الريق» أو «ابن الرنك» [72] .

ويلاحَظُ استعمالُ ابن الخطيب في هذا الفصل نظامَ تأريخ الصُّفْر وما يقابله بالسنة الهجرية كقوله عن بلايه(Pelayo إنه نُصِّب ملكاً علَى أشطوريش «سنة 757 لتأريخ الصفر، وبموافقة 99 للهجرة» [73] . إن ما يُعرف بنظام التأريخ الإسباني ـ تأريخ الصُّفْر ـ ذاع استعمالُه في إسبانيا المسيحية منذ القرن الخامس الميلادي حتّى القرنِ الخامسَ عشرَ الميلادي، وكانت بدايتُه اليومَ الأولَ من شهر يناير عام 38 ق.م، ويشار إليه في المصادر العربية الأندلسية دون المشرقية. يقول المقَّري : «ذَكر ابنُ حيان والرازي والحِجَاري أن أُكتيبان[Octavian] ثاني قياصرة الروم... ملَك أكثرَ الدنيا وصفَّح نَهرَ رومية بالصُّفْر [النحاس]. فأرَّخت الرومُ من ذلك

(69) المصدر السابق والصفحة.

(70) الذخيرة. 2/1. ص 272.

(71) أعمال. ص 331.

(72) المصدر السابق والصفحة. وعن التسمية «ابن الريق» و«ابن الرنك» يُنظر : المعجب. ص 257.
الحلة السيراء. 2/ص 200 وكذلك ابن صاحب الصلاة.
عبد الملك : تاريخ المن بالامامة. بيروت 1964. ص 152. 526.

(73) أعمال. ص 323.

العهد، وكان قبلَ ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة »[74].

ويعرِّب ابنُ الخطيب ويشرح عدداً من التسميات القشتالية ـ ولعلَّه كان يعرف شيئاً من هذه اللغة ـ مثل: القرتcortes «مجلس الشورى»، مونجmonje «الصالح العابد»، وانبردورemperador «سلطان السلاطين»، والقُمْزcomes، والبابَPapa، والدوقduque. ويقول عن ألفنشٍ سابعِ ملوك ليون إنه تَسمَّى «قاشطُه»justo ومعناها «الملك الصالح»، وولي سميُّه بعد قرنٍ وهو الذي تَسمَّى «ماغنُه»magnus، أي «الملك الكبير»[75].

منهجـــه وأسلوبـــه:

لعلَّ من المناسب ختاماً للبحث أن نذكر كلمةً عن منهج ابن الخطيب وأسلوبه. في كتاب (أعمال الأعلام) يتناول ابنُ الخطيب ـ كابن حيان قبله بثلاثة قرون ـ فترةَ ملوك الطوائف حسب الدول، مبتدئاً بالأمراء الأندلسيين، ثم بالموالي العامريين، ومنتهياً بأمراء جماعاتِ صنهاجة وزناتة التي قدمتْ من بر العُدوة إلى الأندلس للجهاد في أيام الدولة العامرية. إلاّ أن ابنَ الخطيب ـ ولعلَّ ذلك بسبب بُعْده الزمنيِّ عن الأحداث ـ أقلُّ تعصّباً من ابن حيان لأندلسيته. فلا نلمس عنده ما نجده عند ابن حيان من نفورٍ وكراهيةٍ شديدين لهذه الجماعات المغربية الوافدة، والتي عزا إليها ابنُ حيان قيامَ الفتنة التي أطاحتْ بخلافة قرطبة الأموية، وفرَّقتْ شملَ الجماعة.

ولا يدع ابنُ الخطيب مناسبةً تمرُّ دون إجراء مقارنةٍ بين أحداث الماضي والأحداث الجارية في زمنه. فقد ألَّف كتابَ (أعمال الأعلام) في المغرب بُعيْدَ وفاة السلطان عبد العزيز (ربيع الآخرة 774 هـ/أكتوبر 1372 م)، وكان يرمي إلى

---

(74) المقري، أحمد: نفح الطيب، بيروت 1968، 1/ص 481. وعن تأريخ الصفر انظر: G. Levi della Vida, "The 'Bronze Era in èoslem Spain", **Journal of the American Oriental Society,69 (1943), pp. 183-190.**

(75) أعمال، يُنظر في موضعه ص325، 337، 330، 327، 331، 324.

توطيد مركز راعيه الوزير أبي بكر ابن غازي القائم بالدولة والذي أخذ البيْعة للسعيد، ولد عبد العزيز الصغير السن. وعند الكلام عن الأمير عبد الله بن بلقين وولايته الأمرَ صغيراً تحت رعاية الوزير سماجة الصنهاجي وفي كَنفِه، يقول ابنُ الخطيب: «وكان عبدُ الله هذا منذ ولايته الأمر صبياً صغيراً، لم يقارب الحلم، فهو لذاك ممَّن يشتمل عليه شرطُ كتابنا ممَّن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. وغرناطة إذ ذاك حافلةٌ بالأعلام وصدور الإسلام وحَملةِ السيوف والأقلام. وانفرد بتربيةِ عبد الله وتدبيرِ مُلْكه الوزيرُ سماجة الصنهاجي، فاستقلَّ بسياسته»[76]. وشبيهٌ بذلك حالُ السعيد والوزير ابن غازي في فاس.

وعند الحديث عن أحوال ملوك الطوائف، وما كان بينهم من فُرقة واختلاف، في وقتٍ كان فيه خطرُ النصارى مُحدّقاً بهم يعقّب ابنُ الخطيب علَى ذلك بقوله: «جلَّبنا منهم ذِكراً ليغتبطَ مطالعُه بحاله، ويرضَى الواقفُ عليه من زمانه، ويبتهجَ بشأنه، ويرى أنه أوثقُ عهدة وأحكمُ عقدة وأرحبُ عطَناً وآمنُ وطنا...»[77].

وابنُ الخطيب مؤرخٌ متمكّنٌ من تاريخ الأندلس، ينزع إلَى الإسهاب والإفاضة في وصف الأحداث، وهو يصرِّح بذلك إذ يقول: «وهذا الكتابُ [أعمال الأعلام] لُمَعٌ وإشاراتَ، إن أطلقْنا فيه العِنانَ خرجْنا عن الغرض»[78]. ويقول في موضعٍ آخرَ من الكتاب: «وفي غرضي – إذا منَّ اللهُ تعالَى بانفراج الضيقة الوقتية... أن نصنِّفَ في التاريخ كتاباً مبنّياً علَى التطويل، مستوعباً للكثير والقليل يكونُ هذا الكتابُ بالنسبة إليه الحصاةَ من الرمال والقطرةَ من الغيث المنهال»[79].

وخلافا لما نجده من تقعر وسجع وتقفية في مقامات ابن الخطيب ورسائله السلطانية، فإن أسلوبَ كتاب (أعمال الأعلام) أسلوبٌ نثريٌّ مُرسلٌ جزلٌ غير

---

(76) المصدر السابق، ص 234.
(77) أعمال، ص 145.
(78) المصدر السابق، ص 36.
(79) المصدر السابق، ص 325.

مسجع، وعباراته سهلة ميسورة إجمالا. ولا يلجأ ابنُ الخطيب إلى السجع والمحسّنات اللفظية والبديعية إلا في بعض الفقرات التي يُضيفها أحياناً لإيجاز القول في وصف ـ كوصفه لمدينة قرطبة، أو وصفه لأحوال الأندلس على عهد ملوك الطوائف ـ أو عند حديثه عن سياسة ملوك قشتالة تُجاهَ ملوك الطوائف، وعن ظهور المرابطين ونجدتهم لأهل الأندلس. وممّا مكّن ابنَ الخطيب من الإجادة والتبريز في عرض مادته التاريخية كونُه أديباً متمكّناً من اللغة والبيان، ومؤرخاً ملماً بمصادر تاريخ الأندلس ومطّلعا عليها.

العلاقاتُ بين جزيرتي جربة وصقلية
في أواخر القرون الوسطى
(1100 ـ 1500 م)

تمهيـــد :

في مطلع القرن السادسِ الهجري/الثاني عشر الميلادي ، كان حكمُ النورمان في جزيرة صقلية قد توطَّد ، وأما جزيرةُ جربة فكانت تابعةً لدولة بني زيري في المهدية التي اعتراها الوهن إثر الغزوةِ الهلالية ، ونزاعِها مع الفاطميين ، ومع دولة بني حمَّاد ، وتعرّضِها لهجمات الجنويين والبيزيين (1087 م) ، وما نتج عن كل ذلك من تقلُّصٍ في رقعة أراضيها التي انحصرتْ في ساحل افريقية ، ثم فقدانها لجانب كبير من تجارة القوافل المُجْزية مع بلاد السودان ، فضلاً عن التجارة مع صقلية . وعلَى ذلك . فإن ممارسةَ أهل جربة للغزو البحري ، كما يقول البكري والإدريسي وابن الأثير والتجاني وابن خلدون ، إنما كان نتيجةً لهذه العوامل السياسية والاقتصادية ، فضلا عن العامل الديني ، وهو الجهاد ضد الروم الذين انتزعوا صقلية من أيدي المسلمين ، وأخذوا يتصدَّوْن لمراكبهم في وسط البحر المتوسط . إن النورمان ، بعد أن سيطروا علَى صقلية ، كانوا يرْنون إلَى بسط سيطرتهم كذلك علَى افريقيةِ ، منتهزين فرصةَ ضعفِ دولة بني زيري ، وانشغالِ المرابطين في مواجهة قيام الموحدين عليهم ، وضعفِ الدولة الفاطمية في المشرق ، وقيامِ الحروب الصليبية . إن النورمان الطامعين في افريقية كانت تحدوهم إلَى ذلك عواملُ اقتصاديةٌ في المقام الأول . فصقلية

وافريقية ازدهرتا علَى مرِّ العصور حينما كانتا تضمهما دولة واحدة، كما حدث أيامَ القرطاجنيين والرومان والبيزنطيين والعرب. ذلك أن صقلية كانت المصدرَ الرئيسيَ للقمح بالنسبة لإفريقية، لا سيَّما في سنوات الجفاف والقحط، كما أنها كانتَ تستورد من افريقية زيتَ الزيتون وذهبَ السودان الغربي. أضفْ إلَى ذلك العاملَ الأمنيَّ لدرءِ خطر المسلمين عن صقلية، كما فعل الإسبانُ فيما بعد في القرن السادس عشر، بعد استيلائهم علَى غرناطة، مع الممالك الإسلامية في الشمال الإفريقي.

وفي عهد الملك فردريك الثاني صاحبِ صقلية، قامت بين صقلية وافريقية الحفصية صلاتٌ وديةٌ وعلاقاتٌ تجاريةٌ وثيقة، حتّى إذا ما سيطر صاحبُ أراجون علَى صقلية وشهدتْ مملكةُ أراجون ـ قطلونية أوجَ قوتها وازدهارها الاقتصادي، في أواخر القرن الثالثَ عشر، والنصف الأول من القرن الرابعَ عشر الميلادي. وبخاصة في غربي البحر المتوسط وجزُره، طمع صاحبُ صقلية في السيطرة من جديد علَى افريقية، فتعرَّضتْ جزيرةُ جربة أكثر من مرة لهجمات القطلان واحتلالهم لاتخاذ الجزيرة، بحكم موقعها في خليجِ قابس، موطئ قدمٍ للسيطرة علَى ساحل افريقية. إن ضعف الحفصيين آنذاك سهَّل هذه المهمةَ للقطلان، ولكن الجرابة أظهروا دوْماً بسالةً ومقاومةً شديدةً في الدفاع عن جزيرتهم ضد الغزاة النصارى، وإليهم يعود الفضلُ في المقام الأول في تحرير الجزيرة الّتي عانتْ كثيراً في الأرواح والممتلكات من هذه الغزوات ومن الاحتلال الأجنبي الذي دام نحوَ ثمانين عاماً في الفترة الزمنية الّتي تتناولها هذه الدراسة.

وبالرغم من هذه الاعتداءات المتكررة الّتي تعرَّضتْ لها جزيرةُ جربة، فإن الرحالة والمؤرخين، من البكري في أواخر القرن الحادي عشر إلَى القلْصادي في أواخر القرن الخامس عشر، أشادوا بخيرات الجزيرة ووفرة غلاتها الزراعية وبخاصة زيت الزيتون والزبيب والفواكه علَى اختلاف أنواعها، كما امتدحوا جودةَ أصوافها وصناعةَ الأكسية فيها. وقُدِّر لجربة أن تلعبَ في القرن السادسَ عشر دَوْراً بارزاً في المواجهة بين الأتراك العثمانيين وبين الإسبان، إذ صمدتْ الجزيرة في وجه الإسبان،

واتخذها غزاةُ البحر المسلمون قاعدةً لعملياتهم البحرية في وسط البحر المتوسط وغربيّه.

وفي هذا البحث، سوف نستعرض العلاقاتِ بين جزيرتيْ جربة وصقلية علَى مدى أربعة قرون (1100 ـ 1500 م)، أي حينما كانت جربة تابعةً لإفريقية الزيرية ثم الحفصية. وحينما كانت صقلية خاضعةً لحكم النورمان، ثم الألمان من الأسرة السوابية (هوهنشتاوفن)، ثم أسرة أنجو الفرنسية، ومن بعدهم لمملكة أراجون ـ قطلونية ثم لإسبانيا بعد اتحاد مملكتيْ قشتالة وأراجون (1479 م). كما سنورد نبذةً عن سيرة قائدٍ بحري من أبناء جربة أسره النورمان صغيراً عند ساحل جربة. ولمعَ اسمُه في تاريخ صقلية النورمانية، حيث عُرف باسم القائد بطرس (بيدرو). ثم فر من بلرم إلَى تونس، ولمع اسمه قائداً للأسطول في دولة الموحدين باسم أبي العباسي أحمد الصِّقلِّي.

من سنة 1100 إلَى احتلال الأراجون لجزيرة جربة سنة 1284 م:

تَعاقبَ علَى حكم صقلية في هذه الفترة النورمان (إلَى سنة 1194 م) وملوك أسرة هوهنشتاوفن الألمانية (إلَى سنة 1266 م) ثم لفترة قصيرة أسرة شارل أنجو الفرنسية. وأما جزيرة جربة فكانت تتبع ـ اسمياً ـ دولةَ بني زيري إلَى سنة1135 م حينما احتلَّها نورمان صقلية ثم تحرَّرتْ قُبيْل قدوم الموحدين (1159 م)، وبقيت ضمن الدولة الموحدية إلَى سنة 1229 م، حينما أصبحت تابعةً للدولة الحفصية في تونس.

إن وضعَ افريقية الاقتصـادي في الفترة من سنة 1000 إلَى سنة 1160 م قد تدنَّى كثيراً لعدة أسباب، منها انتقال العُبيْديين إلَى مصر، والغزوة الهلالية، واستيلاء النورمان علَى صقلية، وحروب بني زيري ومنازعاتُهم مع جيرانهم، وتحوُّلُ طرق القوافل عبر الصحراء إلَى المغرب الأقصَى بعد قيام دولة المرابطين، وإلَى بجاية وكذلكَ إلَى مصر الفاطمية، وظهورُ جمهوريات المدن الإيطالية البحرية واستئثارها تدريجياً بتجارة حوض البحر المتوسط، ثم التطورُ الذي طرأ علَى صناعة إنشاء

السفن ، فأصبحتْ المراكبُ أكبرَ حجماً وأخذتْ تنتقل مباشرةً من غربي البحر المتوسط إلَى شرقيّه ، فلم تَعُدْ لافريقية وصقلية مكانتُها السابقة كمحطَّتَيْن لاستقبال سلع المشرق ثم تولِّي توزيعها في الحوض الغربي للبحر المتوسط [1] . يقول ابنُ خلدون إنه «لما غلبت العربُ صنهاجة [أي بني زيري] علَى الضواحي وصارت لهم، أخذ أهلُ جربة في إنشاء الأساطيل وغزو السواحل» [2] . وفضلاً عن العوامل الآنفة الذكر، فإنه ينبغي أن لا نُغْفلَ العاملَ الديني ، إذ إن الغزو البحري كان نوعاً من الجهاد ضد مراكب الروم في فترة الحروب الصليبية الدائرة آنذاك ، وكان يمارسه النورمان أنفسُهم بعد استيلائهم علَى صقلية وسعيهم لعزل افريقية وقطع صلاتها التجارية المُجْزية مع مصر، وهي الصلات التي تعززتْ في أواخر أيام دولة بني زيري. ويبدو أن جربة منذ قدوم العرب الهلالية إلَى افريقية في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي كانت تتمتع باستقلال ذاتي ، مما جعل صاحبَ المهدية علي بن يحيى يُقدم علَى غزوها وإخضاعها سنة 1116 م لسلطانه ، متذرعا بما «ترادفَ عليه من قَطْعِ أهلها البحر وإخافتهم المسافرين فيه» [3] .

وهنا لا بد من إبداء ملاحظة حول أقوال بعض المؤرخين المسلمين بشأن جربة . فالبكري يقول إن أهلَ جربة «مفسدون في البر والبحر. وهم خوارج». لقد كتب البكري في حدود سنة 460/1068 م، أي بُعَيْد وصولِ العرب الهلالية واختلالِ أحوال افريقية وتعطّلِ تجارة القوافل. وهو يقول كذلك إن الجزيرة «كثيرةُ الذهب» ويعني بذلك ذهبَ السودان الواردَ عبر الصحراء عن طريق اقليم الجريد [4] . إن تردِّي الأوضاع في افريقية هو الذي حدا بالجرابة إلَى ممارسة الغزو البحري. ثم إن

---

(1) GoiteinS,D., " Medieval Tunisia the Hub of the Mediterranean ", in **Studies in Islamic History and institutions,** Leiden 1966, pp. 308-311.

(2) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت 1959 ، ص 848.

(3) ابن عذاري ، أبو العباس أحمد : البيان المغرب ، الجزء الأول ، بيروت 1950 ، ص 441.

التجاني ، أبو محمد عبد الله : رحلة التجاني ، تونس 1958 ، ص 125 .

(4) البكري ، أبو عُبَيْد عبد الله : المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) ، باريس 1965 ، ص 19 ، 85 .

النزعة الاستقلالية لأهل جربة وتعلُّقهم بالمذهب الإباضي لعلَّهما يفسران العبارات التي أوردها المؤرخون السنيّون كالبكري (5) . وبعد البكري بقرن من الزمن ، يقول الإدريسي عن أهل جربة إن «الشرَّ والنفاقَ [بمعنَى الخروج علَى طاعة السلطان] موجودان في جِبِلّتِهم . وهم أهل فتنةٍ وخروجٍ عن الطاعة» (6) . والإدريسي ، كما هو معروف ، كان يكتب في بلرم تحت رعاية الملك النورماني رجار الثاني ، فمن الطبيعي أن يُلصقَ بأهل جربة هذه النعوتَ مداراةً للملك النورماني بعد مقاومة الجرابة وثوراتهم علَى النورمان المحتلّين لجزيرتهم . ومع ذلك ، فإن الإدريسي يضيف «وهم مع ذلك كله ضيّافون يُطعمون الطعام ويندبون إلَى طعامهم . ويسالمون الناسَ في أموالهم . وفيهم عدالةٌ بيِّنةٌ لمن نزل بهم» (7) .

إن غزوَ النورمان لجزيرة جربة عام 529/1135 م سبقتْه وحفزتْ إليه غاراتٌ متواليةٌ قام بها أسطول المرابطين علَى سواحل صقلية وجنوب إيطاليا . وباءت بالفشل المحاولاتُ التي قام بها النورمانُ ما بين سنتيْ 1118 و 1127 م لإحراز موطىء قدمٍ لهم في شمال افريقيا ، لا سيَّما هزيمتهم عند قصر الديماس سنة 517/1122 . وكما يقول التجاني ، فإن رجار الثاني صاحبَ صقلية كان «كلَّما وصل أسطولٌ من المغرب إلَى بلاده نسبه إلَى الحسن [بن علي صاحب المهدية] فعزم ... علَى غزو المهدية . وأنشأ في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صُلْحاً . وفي نفسه ما فيها لتتمَّ خديعتُه ويتمكَّنَ من مراده» (9) . وفي سنة 1135 م ، استعان الحسنُ بالنورمان أعداءِ الأمس ضد صاحب بجاية الذي كان يهدد المهدية ، فأمدُّوه بالعوْن وأنقذوه ، وقامتْ بينه وبينهم علاقة تتصفُ بكونها أكثرَ من هدنة ، أي علاقة الضعيف بالقوي (10) .

---

(5) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية . بالانجليزية) . ليدن ـ لندن 1965 . المجلد الثاني . ص 459

(6) الإدريسي . أبو عبد الله محمد (الشريف) : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . الجزائر 1957 . ص 95 .

(7) المصدر السابق . ص 95 .

(8) دائرة المعارف الإسلامية . 2/ ص 459 .

(9) رحلة التجاني ص 339 .

(10) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية . تعريب وتعليق أمين الطيبي . الدار العربية للكتاب 1980 . ص 66 .

لقد عَرف النورمان طوال تاريخهم بالانتهازية والجشع ، وكانوا دائما يتحيّنون الفرص للاستحواذ علَى الأرض كما فعلوا في جنوب ايطاليا وصقلية . إن ذلكَ ـ إلَى جانب العامل الاقتصادي ـ هو الذي دفعهم إلَى احتلال جربة ومدن ساحل افريقية ، منتهزين ضعف الزيريين ، وقيامَ الحروب الصليبية في المشرق ، وانشغالَ المرابطين بقيام الموحدين عليهم . فغزا أسطول نورماني بقيادة جورج الأنطاكي [11] بغتةً جزيرةَ جربة في خريف عام 529 هـ/1135 م ، وأعمل رجالُه في الجزيرة وأهلها يد الفتك والنهب ، ولم تسقط الجزيرةُ في أيدي الغزاة إلاّ بعد مقاومة بطولية من جانب أهلها ، دون نصير. يقول ابنُ الأثير : «فخرج إليها جماعةٌ من الفرنج من أهل صقلية في أسطول كثير وجمٍ غفيرٍ فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة ، فنزلوا بساحتها ، وأداروا المراكبَ بجهاتها ، واجتمع أهلُها وقاتلوا قتالا شديداً ، فوقع بين الطرفين وقعاتٌ عظيمة ، فثبت أهلُ جربة ، فقتل منهم بشر كثير ، فانهزموا وملَكَ الفرنجُ الجزيرة ، وغنموا أموالَها وسَبَوْا حريمَها ونساءها وأطفالها ، وهلكَ أكثر رجالها ، ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من صاحب صقلية ، وافتكّوا أسراهم وسَبيَهم وحريمَهم [12] . ويضيف ابنُ أبي دينار القيرواني بأن رجار الثاني ولّى عاملاً من قبَله وكتب لهم أماناً من عنده ، وجعلهم خَوَلاً له» [13] . حدث كلٌّ هذا ولم يحرِّك صاحبُ المهدية ساكنا ، إمّا لعجزه ، وإمّا لتواطئه مع الغزاة النورمان ، بالرغم من كون الجزيرة من ممتلكاته .

إن غزو النورمان لجزيرة جربة لم يكن بقصد وضع حدٌّ لأعمال القرصنة ، بل لأن

---

(11) هو جورج الأنطاكي (يدعوه التجاني جرجير. ويدعوه ابن خلدون جرجي) وكان قد هاجر من بلاد الشام والتحق بخدمة الأمير الزيري تميم بن المعز الذي حكّمه في دخله وخرجه ، وكان يُجيد العربية . فلما مات تميم (501 هـ/1107 م) ، خاف الأنطاكي من يحيى بن تميم وأعمل الحيلة للحاق برجار . فلحق به وحظي عنده . وعمل في بلاطه سفيراً ومقدّما علَى الأسطول نحواً من أربعين عاما . وهو الذي استولَى علَى مدن ساحل افريقية وأفاد ملكه في حروبه ضد المسلمين مما سبق أن اكتسبه من معلوماتٍ وخبرةٍ عن افريقية وسكانها ـ تُنظر رحلة التجاني ، ص 333.

(12) ابن الأثير، علي : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، بيروت 1980 ، ص 350 .

(13) ابن أبي دينار القيرواني ، محمد : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تونس 1987 هـ ، ص 93 .

صاحبَ صقلية كان يطمعِ في افريقية بعد أن انتزع النورمانُ صقلية من أيدي المسلمين، وأراد أن يتَّخذ من جربة قاعدةً له في خليج قابس لتحقيق غرضه. وقد أدّى أخذُ النورمان لجربة إلَى عرقلة التجارة البحرية النامية بين مصر وإفريقية [14].

وفضلاً عن استيراد التوابل والعطور من مصر، كانت افريقية تستورد الكتانَ لصناعة الاقمشة والسوسيَّات الشهيرة، وتصديرها إلَى المشرق [14-1]. ومنذ منتصف القرن الحادي عشرِ الميلادي، كان نقلُ البضائع بين افريقية ومصرِ يتمُّ في معظمه بحراً بعد أن كان يتمُّ براً عن طريق القوافل قبل الغزوة الهلالية [15].

ويبدو أن صاحبَ صقلية بعث إثر استيلائه علَى جربة بخطابٍ إلَى الخليفة الفاطمي في القاهرة يبرِّر فيه لأخذه جربة متّهماً أهلَها بالاعتداء علَى مراكبه، وبانتهاك الاتفاقيات المبرمة بينه وبين صاحب المهدية. وقد أورد القلقشندي، ضمن نماذج المراسلات السلطانية، نصَّ الخطاب الذي ردَّ فيه الحافظُ علَى كتابِ صاحب صقلية، وفيه يتناول، ضمن المسائل المثارة، قضيةَ جربة فيقول: «وأما ما ذكَرته من افتتاحك الجزيرةَ المعروفةَ بجربة لما شرحتَه من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها، واجترائهم في الطغيان علَى أسبابٍ لا يجوز التغافلُ عن مثلها، واستعمالِهم الظلمَ تمرداً، وتماديهم في الغيِّ تباهيا في الباطل وغُلواً، يأسا من الجزاء لمَّا استبطأوه، فإنَّ مَنْ كانت هذه حالتُه حقيق أن تكونَ الرحمةُ عنه نائية، وخليقٌ أن يأخذه اللهُ من مأمنه أخذةً رابية، كما أنه من كان من أهل السلامة، وسالكا سبيل الاستقامة، ومُقبلا علَى إصلاحِ شأنه، وغيرَ متعدٍّ للواجب في سرِّه وإعلانه، تَعيَّن أن نُوفِّرَ من الرعاية سهمَه، ونُجزلَ من العناية نصيبَه وقِسمَه، ويُؤمِّنَ ما يُقلقه

---

(14) Idris, H. R., La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1959, p. 346.

(14-أ) تُنسب إلَى سوسة الثيابُ الرقيقة السوسية. ويقال لها البيضاء - ابن عبد المنعم الحميري. محمد. كتاب الروض المعطار. بيروت 1975. ص 331.

ويذكر أبو شامة أن الفرنج الصليبيين استولوا علَى مركبَيْن للمسلمين في طريقهما من مصر إلى الشام. وكان علَى ظهرهما أمتعة من بينها «عدد من الأثواب السوسية» - يُنظر أبو شامة. عبد الرحمن: كتاب الروضتَيْن... القاهرة 1962. 2/1. ص 517.

(15) Goitein, S.D., "Medieval Tunisia the Hub of the Mediterranean," p. 324.

ويزعجه ، ويقصدَ بما يَسرُّه ويُبهجه ، ويصان عن أن يناله مكروه...» [16] .

إن ردَّ الحافظ غريبٌ حقاً ، وللمرء أن يتساءل عما إذا كان صادقاً فيما ذكره. ويشكُّ كنار (Canard) في أن يكون الحافظُ يعني ما قاله بشأن استيلاء رجار الثاني علَى جربة ، لا سيَّما وأن علاقاتِ الحسن ووالدِه قد تعزَّزتْ مع العُبيْديين ، ولعلَّ ما ذكره راجع إلَى رغبة الحافظ ـ بحكم ضعفه وانشغاله بالحروب الصليبية في المشرق ـ في إقامة علاقاتٍ طيبةٍ مع صاحب صقلية . في عام 1143 م ، أبرم رجار الثاني مع مصر معاهدةً تجاريةً لعلَّها أولُ معاهدة من نوعها تُبرَم بين دولة مسيحية في الغرب وبين مصر. ومع ذلك ، فإن أسطول رجار ما انفكَّ يعترض سبيلَ المراكب المصرية بعد استيلائه علَى جربة [17] . إن صاحبَ صقلية هو الآخر لم يكُن صادقاً في ما ذكره مبرِّراً لأخذه جزيرةَ جربة ، إذ إنه ، كما تقدَّم ، استهدفَ من احتلال الجزيرة بسطَ نفوذه علَى افريقية ، وهو ما حدث بالفعل خلال الثلاثَ عشرةَ سنةً التالية لاحتلال الجزيرة.

إن ما حلَّ بمسلمي جربة حلَّ كذلك بجاليتها اليهودية العريقة ، كما تدلُّ علَى ذلك وثائقُ «جنيزة القاهرة» [18] . في رسالةٍ من الفسطاط يقول كاتبُها : «اليوم

---

(16) القلقشندي ـ أبو العباس أحمد : صبح الأعشَى في صناعة الانشا ـ الجزء السادس ـ القاهرة 1963 . ص 459 .

(17) Canard, M., 11Une lettre du Calife Fatimite Al-Hafiz... a Roger II," in **Miscellanea Orientalia**, London 1973, pp. 126-131.

(18) الوثائق المعروفة باسم (جنيزة القاهرةCairo Geniza) هي رسائل للتجار اليهود عُثر عليها في نهاية القرن التاسع عشر في مخزن ملحق بكنيسٍ في القاهرة ـ حينما هُدم الكنيس وأعيد بناؤه . وقد نُقلتْ إلَى مختلف المكتبات في أوروبا وأمريكا . إن هذه الرسائل تبلغ حوالي عشرة آلاف رسالة ـ ومعظمها باللغة العربية ـ بحروف عبرية . وقد أودع هذه الرسائلَ في الكنيس المذكور تجارٌ يهود . ومعظمها صادرة عن التجار اليهود في المغرب والأندلس . لا سيما افريقية وصقلية وتتناول الفترة الزمنية 950 ـ 1200 م . وتعتبر مصدراً مهماً للباحثين في تاريخ المغرب الاقتصادي في هذه الفترة . لما تتضمَّنه من معلومات عن السلع المتبادلة ـ وأثمانها ، ومدى الإقبال عليها . ومما يُذكر أن كثيراً من هؤلاء التجار نزحوا إلى مصر من افريقية ابتداءً من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ـ بسبب تردِّي أوضاع افريقية الاقتصادية ـ بنظر تحت كلمةGeniza في دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الثانية بالإنجليزية ـ 2 987 ـ 89

[14/10/1136 م] وصَلَ أسرى جربة إلَى مصرَ لافتدائهم » [19] . وفي رسالةٍ من تاجرٍ يهودي بعثَ بها من بلرم إلَى أخيه في الفسطاط ، حوالي سنة 1140 م ، يقول إنه سافر من مصرَ علَى ظهر مركب نصراني قابلٍ في الطريق الأسطولَ الذي كان قد استولَى علَى جربة ، فأصابه وركابَ المركب غيرَ النصارى رعبٌ شديد ، إلاّ أنهم لم يُصابوا بأذى [20] . وفي رسالةٍ قبل غزو النورمان لجربة من تاجر يهودي إلَى شريكه في مصر ، يقول إنه حاول إنقاذَ بالتيْن من الكتان البوصيري في مياه جربة ، فلم يتمكَّن من إنقاذ غير واحدة منْها ، وهي تزن سبعةَ قناطير ، أرسلها إلَى بونة [21] .

ويقول تاجر في رسالة بعث بها من صقلية إلَى أخيه في مصر ، حوالي سنة 1140 م «وصلتُ إلَى صقلية مع أسرتي قادماً من تونس ، بسبب الويلات المفزعة التي حلَّتْ بافريقية ، وأعتزمُ السفرَ الَى مصرَ عن طريق صقلية ، إذ لم يَعُدْ بالإمكان السفر مباشرةً من افريقية إلَى مصر [22] . ويكتب مدرِّسٌ يهوديٌّ أسره النورمان في جربة سنة 1135 م الَى المُحسنِ الذي افتداه في مصر ، بعد عودته إلَى جربة .يقول : «خادمكم تزوَّج من ابنة عمه في منزل والدها » ، وهو شيء غير مألوف ، إذ إن والده كان قد اضطُرَّ إلَى بيع منزله بسبب سوء الأحوال في جربة [23] . وها هو تاجرٌ يهوديٌّ آخر يكتبُ من عدن إلَى أهله في المهدية ، بتاريخ 11/9/1149 م ، عن غارات النورمان وما أحدثته من خسائرَ في الأرواح والأموال ، وانتقالِ أقاربه إلَى صقلية ، فيقول : «سمعتُ عمَّا حلَّ بساحل افريقية وطرابلس وجربة وقرقنة وصفاقس والمهدية وسوسة ، إلاّ أنه لم يصلْني أيُّ خطابٍ يمكِّنني من معرفة من مات ومن بقِي علَى قَيْدِ الحياة. فأناشدكم اللهَ أن تكتبوا لي بالتفاصيل بالضبط ، لكي يهدأَ بالي » [24] .

---

(19) Goitein, S.D. **Letters of Medieval Jewish Traders**, Princeton Univ. Press, 1973, p. 324, n.1.

(20) المرجع السابق ص 3 ـ 324 .

(21) المرجع السابق ص 103 .

(22) المرجع السابق ص 324

(23) Goitein, S.D., **A Mediterranean Society, Vol. III, California Univ. Press, 1978, pp. 30,117**

(24) Goitein, S.D. **Letters of Medieval Jewish Traders**, p. 206.

يتحدث الإدريسي عن الخراب الذي حدث في المنطقة الساحلية (قابس ـ طرابلس)، وينسبه إلَى القبائل العربية، إلاّ أن من المعلوم أنه منذ أن أخذ النورمان جزيرةَ جربة سنة 1135 م، إلَى استيلائهم علَى طرابلس الغرب سنة 1146 م، تعرَّض ساحلُ افريقية باستمرار لغارات النورمان وعيثهم، مما جعل الأهالي يلتزمون مدنَهم أو ينتقلون بالضرورة إلَى الدواخل (25).

وبعد ثماني عشرةَ سنةً من احتلال النورمان لجربة. ثار أهلُها علَى المحتلِّين سنة 1153 م، فغزاها أسطول نورماني «واستفتحها ثانيةً ورفع جميع سبّيها إلَى المدينة [بلرم]» (26). ويضيف التجاني أن الجرابةَ قتلوا جماعةً كثيرةً من النصارى، فغزا النورمان الجزيرةَ ثانيةً وقمعوا الثورةَ بدون رحمة «ونقلوا أكثرَ أهلها سبايا إلَى بلادهم، ولم يُبْقوا إلاّ مَنْ لا بالَ له» (27).

ويرى مؤرخ أنجليزي حديث، متخصِّصٌ في تاريخ صقلية، أن رجار الثاني رأى في احتلال جزيرة جربة ومدن ساحل افريقية أحدَ الحلول لمشاكل صقلية الاقتصادية واستراتيجية، وبالرُّغم من أن هذه السياسةَ التوسعيةَ كانت تنطوي علَى قَدْرٍ كبيرٍ من المخاطرة، إلاّ أنه أخذ في الحُسْبان كونَ كثيرٍ من مدن افريقية تعتمد علَى صقلية لاستيراد القمح في بعض السنوات. وفضلاً عن ذلك، فإن ذهبَ افريقية دعَم النقدَ في صقلية، حيث ظهرتْ لأول مرةٍ في التاريخ العُملةُ المعروفةُ باسم (دوقةDucat)، وازداد عددُ السفن التجارية بدعمٍ من الملك، الذي كان يَجْبي ضريبةَ العُشر (tithe) علَى المراكب المبحرة بين صقلية وافريقية (28).

واجهتْ صقلية بعد موت رجار الثاني سنة 1154 م مشاكلَ في الداخل والخارج: فاحتلَّ البيزنطيون مواقعَ في جنوب ايطاليا، وزحفتْ القواتُ البابويةُ

---

(25) Brett, M. "Ifriqiya As A Market For Saharan Trade..." in **Journal of African History, X, 3 (1969), pp. 363-4.**

(26) الإدريسي ص 95

(27) رحلة التجاني ص 126.

(28) Smith, D.M. **Medieval Sicily**, London 1969, pp. 29-30.

جنوبا ، وثار النبلاء الإقطاعيون المعادون لحزب القصر. وكان للاضطراب الذي حدث في صقلية نظيره في افريقية ، فحدثت ثوراتٌ ضد النورمان في صفاقس ثم في جربة وقرقنة (551/1158 م) تكلَّلتْ بالنجاح قُبَيْلَ وصولِ الموحدين إلَى افريقية وإخراجهم للنورمان آخر الأمر من المهدية (555/1160 م) مُنْهين بذلك مغامرةَ النورمان ووجودَهم في افريقية.

وللمرء أن يتساءلَ عن أسباب إخفاق حكومة صقلية في نجدة حامياتها المتمركزة في افريقية. إن هذه الحامياتِ ـ باستثناء حامية المهدية ـ لم تُبْدِ سوى مقاومةٍ ضئيلةٍ ، ولعلَّ ذلك يرجع إلَى المتاعب الداخلية في صقلية ، وإلَى الأخطار الخارجية التي كانت تهدد صقلية النورمانية في جنوب إيطاليا من ناحية الامبراطورية الألمانية ، والبيزنطيين ، وقوات البابا. فلم يَعُدْ في مقدور صقلية أن توفِّرَ القواتِ الكافيةَ لمواجهة هذه الأخطار ، وأن تحتفظَ في الوقت ذاته في افريقية بقوات تكفي لإخضاع شعبٍ بأسره ، ولمواجهة امبراطوريةٍ فتيَّةٍ كبرى هي إمبراطورية الموحدين. وكما يقول مؤرخ حديث ، فإن المبدأَ القديمَ القائلَ إن الحملاتِ يُمكنها أن تحقِّقَ فتوحاتٍ ، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظَ بها ، ظلَّ صحيحاً [29].

من بين من لمعتْ أسماؤهم في البلاط النورماني ببلرم رجلٌ من أهل جربة كان قد أسرَه النصارى صغيراً من ساحلها ، إما عند احتلالهم للجزيرة عام 1135 م ، وإما قُبَيْلَ ذلك التاريخ ، فتنصَّر وأعتقه الملك ، وشغل منصباً سامياً في البلاط ، وعُرف بالقائد بطرس (بيترو) ، وتولَّى قيادةَ الأسطول. وإثر غارةٍ للأسطول علَى الجزائر الشرقية (البليار) ضد بني غانية ، طُلب إلَى القائد بطرس التوجه فوراً لنجدة حامية المهدية ، التي كان يحاصرها الموحدون (1159 م). ولما أخفق في إنقاذ المهدية وعاد إلَى بلرم ، اتهمه خصومُه من حزب النبلاء بالخيانة ، وها هو أحدهم المؤرخ هوجو فَلْقَنْدو يقول «إن بطرس ـ كبقية الفتيان في القصر ـ نصرانيٌّ اسماً وزياً ، ولكنه مسلمٌ باطناً». أما الملك وليام (غليالم) الأول (حكَم 1154 ـ 1166 م) ، فإنه لم يكترثْ

---

(29) Norwich, J J The Kingdom in the Sun, London 1976, p. 214.

لهذه الاتهامات ، ولم يتّخذْ ضدّ قائده أيّ إجراءٍ تأديبي ، بل إنه زاد من حُظْوته . ثم قامتْ في عام 1161 م ثورةٌ كبرى تزعّمها البارونات في صقلية ضد الملك ورجال بلاطه أودتْ بحياة مايو (Maio) كبيرِ وزراء الملك وبحياة كثيرٍ من فتيان القصر المتنصّرين . إلاّ أن الملك سُرْعانَ ما أخمدها بعنف . وعهد بإدارة المملكة إلَى ثلاثة أشخاص في مقدّمتهم القائد بطرس الذي رُقّي إلَى منصبٍ سامٍ هو حاجب القصر.
وبعد وفاة الملك وليام الأول عام 1166 م ، تولّت أرملتُه الملكةُ مارجريت الوصايةَ علَى ابنهما الصبي وليام الثاني ، وازداد اعتمادُها علَى القائد بطرس وثقتُها به لكفاءته وإخلاصه . إلاّ أن دسائسَ البارونات ومؤامراتهم ضده ازدادت ، وخشي القائدُ بطرس أن يحلّ به ما حلّ عام 1153 م بنظيره فليب المهدوي ، فعزم علَى الفرار من بلرم (كما فعل جورج الأنطاكي في المهدية من قبله) ، فأعدّ مركباً في الميناء واستقلّه في ليلة ظلماء ، مع بعض رفاقه من فتيان القصر . وعاد إلَى تونس (صيف 1166 م) ، واستردّ اسمَه الأول وهو أحمد ، وديانتَه الإسلامية ، وحرفتَه البحريةَ الأولَى [30] .
إنه أحمد الصقلي « من كُتامة . وفيهم إلى الآن [أواخر القرن الثامن/الرابع عشر الميلادي] سدويكش وصدغيان من بطونهم» [31] . وقد ولّي قيادةَ أساطيل الموحدين في الأندلس والمغرب . وأورد عنه ابنُ خلدون هذه النبذة : «وكان قائد أسطولهم [الموحدين] أحمد الصقلّي ، أصلُه من صدغيان الموطّنين بجزيرة جربة من سدويكش ، أسّره النصارى من سواحلها وربّي عندهم ، واستخلصه صاحبُ صقلية واستكفاه ، ثم هلك وولّيَ ابنُه ، فأسخطه ببعض النزاعات ، وخشي علَى نفسه ، فلحق بتونس ونزل علَى السيد بها [عبد الله بن عبد المؤمن] من بني عبد المؤمن ، وأجاز إلَى مراكُش ، فتلقّاه الخليفةُ يوسف بن عبد المؤمن المبّرة والكرامة . وأجزل له الصلةَ وقلّده أمرَ أساطيله ، فجلّى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثارٌ ومقاماتٌ مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهتْ أساطيلُ المسلمين علَى عهده في الكثرة

---

(30) المرجع السابق ص 1 ـ 212 ، 3 ـ 256 ، والحاشية 1 ص 256.
(31) ابن خلدون : كتاب العبر 6/ ص 848.

والاستجادة ما لم تبلُغه من قَبْلِه ولا بعدُ، فيما عَهِدْنا»[32].

وفي الغزاة التي قادها أبو يعقوب يوسف ضد مدينة شنترين بغرب الأند (580/1184 م)، «برز أسطوله علَى الأشبونة، وحاصرها عشرين يوما»[3
ولا شك في أن أحمد كان المقدَّمَ علَى هذا الأسطول. كما يرد اسمُه قائداً للأس الذي أُرسل إلَى بجاية لاستردادها من أيدي بني غانية «وتقدَّم القائدُ أحمد الص بأسطوله إلَى بجاية فملكها»[34]. وكان ذلك في صفر 580/مايو 1185 م

لقد ظلَّتْ جزيرةُ جربة تابعةً للموحدين، ثم آلتْ إلَى الحفْصيين في تو (1229 م). ولما انصرف الموحدون إلَى الجهاد ضد الممالك المسيحية في إسبان وإلَى التصدِّي لثورة بني غانية وحلفائهم في شرقي المغرب. فإن هذه الظروف وكذلك المصالح التجارية، اقتضتْ أن يسالموا النورمانَ في صقلية والجنوِّيين الذ كانوا يسيطرون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين علَى الملاحة في البح المتوسط. فعقدوا معهم معاهداتٍ تجاريةً لفائدة الجانبيْن، بالرغم من الحرو الصليبية الدائرة آنذاك في المشرق.

وفي السنوات الأولَى من حكم فردريك الثاني صاحبِ صقلية (حكم 1198 ـ 1250 م). قام مسلمو صقلية بثورةٍ كبرى استمرَّتْ زهاء ربع قرن بزعا محمد بن عباد العبسي وابنته من بعده، وتمكَّن الثائرون من السيطرة علَى معظم الجز الغربي من صقلية، بما فيها ميناء جرجنت (Girgenti) علَى ساحل الجزيرة الجنوبي لتأمين مواصلاتهم مع شمال افريقيا. ولما نجح فردريك الثاني في قمع حركة الثائرين بمنتهَى العنف. قرَّر ترحيلَ المسلمين من صقلية في عام 1225 م وإسكانَهم في مستوطنة لـوجـارة (Lucera) بجنـوبي إيطاليـا. ولما كان مسلمو صقلية قد تلقَّو

(32) ابن خلدون: المقدمة. طبعة المكتبة التجارية. القاهرة (بدون تاريخ). ص 255.
(33) الروض المعطار. ص 346.
(34) ابن خلدون: كتاب العبر 6/ ص 508.

العونَ من إخوانهم في افريقية . فإن أسطول فردريك عاث بجزيرة جربة . ونقل الكثيرين من سكانها إلَى لوجارة [35] .

وتفيد المصادرُ اليهوديةُ أن يهودَ جربة المرحَّلين عن الجزيرة سنة 1233 م كوَّنوا لأنفسهم في بلرم جماعةً منفصلةً (congregation) ، ووافق فردريك الثاني علَى طلبٍ تقدَّموا به لتنصيب أمينٍ لجماعتهم . كما سمح لهم بغرس غابةٍ من النخيل . وأمرهم بزراعة شجر الحنّاء الذي كانت صقلية تستورد أوراقه من قبل [36] .

إن الروابطَ الاقتصاديةَ بين صقلية وتونس استمرَّتْ في عهد فردريك الثاني وأبنائه ، بالرغم من الخلافات السياسية والدينية . ويرجع ذلك إلَى أن افريقية كانت منفذاً طبيعياً لقمح صقلية . فقد كان قمحُ صقلية وجُبْنُها يُستبدلان بالرقيق . وبالذهب قبل كل شيء . وقد عوَّض هذا الذهبُ أوروبا عن نضوب مواردها منه . وكان زيتُ الزيتون يُستورد من جزيرة جربة لاستعماله في حفظ أسماك التونة التي كانت تُصاد قرب سواحل صقلية . كما أن صُنَّاعَ أطرابنش (Trapani) علَى ساحل صقلية الغربي أثْرَوْا من صيد المرجان في مياه طبرقة [37] .

آلتْ جزيرةُ صقلية عام 1266 م إلَى شارل من أسرة أنجو الفرنسية . وكان شارل أنجو يخطِّط لإقامة إمبراطورية لنفسه في حوض البحر المتوسط . فاستغلَّ الحملةَ الصليبيةَ التي قادها أخوه الملك لويس التاسع لمصلحته الخاصة ، فوجَّهها إلَى تونس (1270/668 م) ، وكان شارل مستاءً من المستنصر الحفصي صاحبِ تونس لإيوائه الثائرين علَى شارل في صقلية . وقد باءتْ هذه الحملةُ بالفشل ، بعد وفاة الملك لويس التاسع ، وانسحب شارل بعد أن وافق السلطانُ الحفصيُّ علَى أن يمنحَه في مملكته نفسَ الحقوق التي كانت من قبل لملوك صقلية . وتمَّ الصلحُ بعد أن

---

(35) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص 96.

(36) **Hirschberg, H.Z., A History of the Jews in North Africa**, Vol I, Leiden 1974,p. 374.

(37) **Smith, Medieval Sicily**, p. 134.

دَفع له السلطانُ ألفَ قنطارٍ من الفضة ، واتُّفق علَى هدنةٍ مدتها خمسةَ عشرَ عاما [38] .

احتلال الأراجون لجزيرة جربة (1284 ـ 1335 م) :

تمَّ الاتحادُ بين مملكة أراجون وبين مقاطعة قطلونية عام 1137 م. وكان الاتحاد يتمثَّل في شخص الملك ، الذي أصبح بعد الاتحاد ملكَ أراجون وكونت برشلونة . ثم بعد التوسع علَى حساب المسلمين في الأندلس ، ضمَّ إلَى مملكته ، قبل منتصف القرن الثالثَ عشر ، شرقَ الأندلس بما في ذلك بلنسية والجزائر الشرقية (البليار) .

وكانت برشلونة مركزاً مهماً لبناء السفن وصناعة المنسوجات القطنية . بينما كانت بلنسية مركزَ صناعة المنسوجات الحريرية . ولذلك فإن مملكة أراجون ـ قطلونية عملتْ علَى التوسع في الحوضِ الغربي للبحر المتوسط ، وبخاصة في الجزر ، لاتخاذها مراكزَ تجارية .

إن أقدمَ وثيقةٍ تسجِّلُ وجودَ قنصليةٍ قطلانية في تونس مؤرخة في عام 1253 م . كما أن أولَ معاهدةٍ تجاريةٍ بين تونس وبين مملكة أراجون أُبرمتْ عام 1271 م . وكانت الأقمشة والتوابل (المستوردَة من الإسكندرية) أهمَّ صادرات المملكة إلَى شمال افريقيا ، في مقابل استيراد الذهب والرقيق والورق والصوف والجلود والشمع .

آلتْ صقلية إلَى حكم شارل أنجو عام 1266 م بعد هزيمة ومقتل ملكها مانفريد من أسرة هوهنشتاون الألمانية . وكان بطرس الثالث ملكُ أراجون (حكَم 1276 ـ 1285 م) متزوّجاً من ابنة مانفريد ، فأصرَّ علَى المطالبة بحق زوجته في

---

(38) ابن القنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تونس 1968 ، ص 132 .

ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص 136 .

Mayer, Hans Eberhard, **The Crusades**, Oxford Univ. Press, 1972, p. 270.

Runciman, S., **A History of the Crusades**, III London 1975, pp. 291-2.

الجزيرة. ولما قام القلّيون بثورتهم المعروفة باسم (Sicilian Vespers) وفتكوا بالحامية الفرنسية في الجزيرة سنة 1282 م، دَعوْا ملكَ أراجون إلَى حكم الجزيرة. وكان بطرس الثالث قد أعدَّ حملةً في ظاهرها ضد تونس، فوجَّهها إلَى صقلية واحتل الجزيرةَ خلال شهر مستعيناً برجال الحملة المعروفين باسم (Almogavers). وهي تسمية مشتقّة من كلمة (المغاور) العربية (39).

أدّى احتلالُ القطلانيين لجزيرة صقلية إلَى قيام نزاعٍ حادٍّ مع البابا وفرنسا. وباءتْ بالفشل الذريع حملةٌ فرنسيةٌ كبرى ضد قطلونية عام 1285 م. وولي صقلية ابنُ بطرس الثالث الذي أصبح فيما بعد ملكاً علَى أراجون ـ قطلانية باسم جيمس الثاني (حكَم 1291 ـ 1327 م). فتوصَّل إلَى تسويةٍ للنزاع مع البابا، تخلَّى بموجبها عن صقلية في مقابل أخذ جزيرتيْ سردانية وكورسيكا من الجنوِّيين. إلاّ أن أخاه فردريك لم يقبَلْ بهذه التسوية، وانتخبه برلمانُ صقلية ملكاً علَى الجزيرة عام 1296 م. واعترف الفرنسيون بذلك، بعد زواجه من أميرةٍ فرنسيةٍ من أسرة أنجو الحاكمة في نابولي عام 1302 م.

وهكذا فإن صقلية أصبحتْ مملكةً مستقلةً، ولو أن صاحبَها ظلَّ يعترف بملك أراجون رئيساً للأسرة المالكة التي ينتمي إليها. دون أن يمنَعه ذلك من انتهاج سياسته الخاصة (40).

وما إن استقر الأراجون في صقلية، حتّى تطلّعوا لبسط سيطرتهم علَى الجزر المجاورة تأميناً لبقائهم في صقلية وتعزيزا لنشاطهم التجاري في غربي البحر المتوسط، فانتهزوا فرصةَ المنازعاتِ بين الحفصيين علَى المُلْك، وجهَّزوا حملةً بحريةً كبرى بقيادة المقدَّم الصقلِّي روجيرو دي لوريا للاستيلاء علَى جزيرة جربة ذات الموقع الاستراتيجي بالنسبة للملاحة بين شرقي البحر المتوسط وبين غربيّه، وكذلك للضغط

---

(39) Hillgarth, J.N. **The Spanish Kingdoms**, vol I, Oxford 1976 p. 253

Rayne, S.G., **Spain and Portugal**, Vol I, University of Wisconsin Press U.S.A. 1973,p.109.

(40). Hillgarth, Col. p. 267.

على السلاطين الحفصيين وحَمْلِهم علَى دفع إتاوات سنوية لصاحب أراجون، كما كان الحال وقت أن كانت صقلية تابعةً لأسرة أنجو. إلاّ أن أخْذَ جربة لم يكُنْ بالأمر الهيِّن نظراً للمقاومة الباسلة التي أبداها أهلُ الجزيرة دون تلقّي أي عَوْنٍ من الدولة الحفصية التي كانوا يتّبعون لها. إن العدوانَ الأراجونيّ كان دامياً هلك فيه الألوفُ من أهل الجزيرة، وسبي ألوفٌ آخرون وبيعوا عبيداً في صقلية، وتعرّضت الجزيرةُ لأعمال النهب والسلب. إن ما حلَّ بجربة وأهلِها علَى أيدي الأراجون شبيهٌ بما حلَّ بأهل جزيرة ميورقة حينما استولَى عليها صاحبُ أراجون عام 1230 م، إذ فتك بسكانها المسلمين، واستُرقَّ الباقون علَى قَيْدِ الحياة مِمَّن لم يختاروا الجلاء عن الجزيرة إلَى الجزر القريبة منها، أو إلَى شمال افريقيا (41).

يقول ابنُ القنفذ القسنطيني إنه في السنة التي بويع فيها أبو حفص عمر الأول، وهي سنة 683/1284 م، «أخذ النصارى جزيرةَ جربة. وأسروا من الشاب القوي والشابة الحسناء ثمانية آلاف. وقتلوا الصغارَ. ونهبوا الأمتعةَ والأموالَ والزيتَ والزبيب. فحُملوا في سفنهم التي هي في نحو السبعين. وفي سفن الجزيرة التي هي نحو الثلاثين» (42). ويورد ابنُ خلدون مزيداً من التفاصيل عن أخذ الأراجون لجزيرة جربة، فهو يقول إن أمرَ الجزيرة استقام أيام الموحدين وفي الخمسين سنة الأولَى من حكم الحفصيين، «ثم افترق أمرُهم [الحفصيين] بعد حين. واستبدَّ المولَى أبو زكريا ابنُ السلطان أبي إسحاق بالناحية الغربية. وشُغل صاحبُ الحضرة [أبو حفص عمر] بشأنه... فاستولتْ أساطيلُهم [الأراجون أصحاب صقلية] علَى جزيرة جربة في رجب 683 [سبتمبر ــ أكتوبر 1284 م] ورياستُها يومئذ من محمد ابن سمومن شيخِ الوهبية ويخلَف بن أمغار شيخِ النكّارة... وزَحفَ إليهم... صاحبُ صقلية... في أساطيلَ بحريةٍ. وكانوا فيما قيل سبعين أسطولا من غربان وشواني. وضايقهم مرارا. ثم تغلّبوا عليها. فانتهبوا أموالَها، واحتملوا أهلَها أسرَى وسبياً. يقال

---

(41) O'Callaghan, J. F., A History of Medieval Spain, London 1975, p. 342.

(42) ابن القنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية. ص 149 ــ 150

إنهم بلغوا ثمانيةَ آلافٍ بعد أن رَمَوْا بالرُّضَّع في الجبوب. فكانت هذه الوقعةُ من أشجَى الوقائع للمسلمين. ثم بَنَوْا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحا. وفُرض عليهم المغرمُ مائةَ ألفِ دينارٍ في كل سنة» [43].

إن الحصنَ المشارَ إليه هو حصن القشتيل، الذي بناه روجيرو دي لوريا عام 1289 م، ويقع شرقيَّ القنطرة عند الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة، ويسمِّيه أبو راس الجربي قَصطيلَ الواد [44]. وهو برجٌ منيعٌ شُيِّد علَى غرار الحصون العديدة الّتي أقامها النصارى في مناطق الثغور باسبانيا، وها هو التجاني يصفه، بعد ثماني عشرة سنةً من تشييده، فيقول: «فرأينا حصناً يهول الناظرَ إتقانا... وهو مربَّعُ الشكل. وفي كل ركنٍ منه برج. فاثنان منها مستديران، واثنان مثمَّنان. وبين كلِّ برجيْن من هذه في وسط الحائط برج صغير مربع. ويدور به فصيلٌ قصير. ويدور بجميع ذلك حَفَرٌ متّسعة» [45].

وقد وضع روجيرو الجزيرةَ تحت سيادة البابا الذي منحه الجزيرةَ إقطاعية له ولخلفه من بعده، في مقابل ضريبة سنوية رمزية مقدارها خمسون ليرة ذهبية. فبقِيَ وضعُ الجزيرة كذلك إلَى سنة 1310 م. ومما يُذكر أن النصارى أسروا في جربة مرغمَ بن صابر زعيمَ عرب الجواري، ونقلوه إلَى صقلية حيث ظل رهنَ الاعتقال في مسّينة إلَى أن أُطلق سراحُه سنة 1290 م [46].

وفرض المحتلُّون علَى أهل جربة قوانينَ تجاوزتْ في قَسْوتها حتّى القوانينَ الّتي فُرضتْ علَى المسلمين في الجزائر الشرقية (البَلْيار). وكان بطرس الثالث صاحب أراجون يستهدفُ، منذ أن تمَّ الاستيلاءُ علَى جربة، تنصيرَ أهلِها، كما فعل في

(43) ابن خلدون: كتاب العبر، 6/ ص 849 ـ 697.
(44) أبو راس الجربي، محمد: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تونس 1960، ص 75.
(45) التجاني: رحلة التجاني ص 128.
(46) روسّي، إتّوري: ليبيا منذ الفتح العربي. تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت 1974، ص 100

ميورقة ، ولذلك فإن روجيرو دي لوريا بادر ببناء الكنائس قرب برج القشتيل [47] .

وبمقتضَى معاهدةٍ عُقدتْ سنة 1285 م ، إثر احتلال جربة ، استطاع ملكُ أراجون ـ قطلونية أن يجبِيَ من السلطان أبي حفص الجزية السنويةَ الّتي كانت تُدفع في السابق للملك شارل أنجو [48] . وكان قد وقع في بادىء الأمر خلافٌ حول من يتسلَّم هذه الجباية : أهو صاحبُ صقلية أم ملكُ أراجون ـ قطلونية ؟ واعترف الملكُ آخرَ الأمر بحقِّ صاحب صقلية في تسلُّم الضريبة ، إذا استطاع ذلك. ويبدو أن احتلالَ جربة ـ ومنها يُمكن تهديدُ الساحلِ التونسي ـ مكَّن صاحبَ صقلية من جباية الضريبة ، إلَى حين استرداد الحفصيين للجزيرة عام 1335 م [49] .

وفي عام 706 /1307 م ، حاول الشيخ أبو يحيى زكريا بن اللحياني استردادَ جزيرة جربة. فحاصر حصنَ القشتيل شهرين كاملين ، ونصب عليه المجانيق دون طائل ، لمناعة الحصن ، وصمود حاميته. إلاّ أن التجاني ـ وكان مرافقاً لابن اللحياني ـ يذكر أن الحصن «إنما يؤخذ بالحصار والمطاولة» إذ «وجدْنا قوماً قد أطالوا للحصار استعدادَهم... وكانت كثرةُ الجيش الذي معنا من أعظم الأسباب في الإقلاع عنه ، لانقطاع الأقوات بتلك الجزيرة ، وتعذُّر الميرة» فتقرَّر أن تُجهَّزَ فيما بعد جريدةُ خيلٍ محدودةُ العدد تتولَّى محاصرةَ الحصن [50] .

ويذكر ابن خلدون أنه مرَّ بمدينة تونس في تلك الآونة قاصداً الحج إبراهيمُ ابنُ عيسَى من بني وسنار ، أحدُ أمراء بني مرين. وكان أميراً علَى الغُزاة بالأندلس. فاستنهضه السلطانُ علَى الإفرنج بجزيرة جربة. فسار إليها بقومه أثناء محاصرة ابن اللحياني لحصن القشتيل. فأقام معهم مدةً إلَى أن انسحبَ ابنُ اللحياني من الجزيرة [51] .

---

(47) Dufourcq, Charles-Emmanuel, L'Espagne Catalane et le Maghrib, Paris 1966, p. 266.

(48) دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الثانية بالإنجليزية ـ 3/ ص 67 ـ تحت مادة Hafsids

(49) Merriman, R. B, The Rise of the Spanish, Vol. I, New York 1918, p. 361.

(50) رحلة التجاني ص 128. الفارسية ص 159.

(51) كتاب العبر 5/905.

ومن الغريب أن ابنَ اللحياني عند اجتماعه بشيخيْ النكّارة والوهبية في جزيرة جربة كان همُّه الأول تحصيلَ المَجْبى من أهل الجزيرة ، فضَمِنَ الشيخان له ذلك . دون مراعاة منه لظروف أهل الجزيرة ، وما حلَّ بهم من خسائرَ كبيرةٍ في الأرواح والأموال ، منذ احتلال النصارى لجزيرتهم (52) .

وعلَى إثر هذه المحاولة الفاشلة لتحرير الجزيرة ، وقيامِ أهلها علَى المحتلّين ، استدعَى صاحبُ صقلية فردريك الثالث (حكَم صقلية 1295 ـ 1327 م) المغامرَ القطلانيَّ رامون مونتامر (Ramon Muntamer) سنة 1311 م ، ومنحه الجزيرة كإقطاعيةٍ لمدة ثلاثِ سنوات (1311 ـ 1314 م) . ولمُنتامر هذا تاريخٌ تناول فيه الأحداثَ من سنة 1205 إلَى سنة 1327 م . وهو غنيٌّ بالمعلومات عن جزر البحر المتوسط ، وتمجيدٌ لانتصارات القطلان وقادتهم . وقد تميَّز حكمُه للجزيرة بالصرامة والعنف . وبنهاية فترة حكمه آلت الجزيرةُ إلَى الحكم المباشر لصاحب صقلية إلَى سنة 1334 م ، حينما تمكَّن الجرابةُ ، بمساعدة السلطان الحفصي ، من طرد الحامية الأراجونية الصقلّية من الجزيرة (53) .

في منتصف القرن الثامن/الرابعَ عشرَ الميلادي اجتاحَ بلدانَ حوض البحر المتوسط وباء الطاعون (الموت الأسود) ، فهلك فيه خلقٌ كثير ، وكانت له آثارٌ اقتصاديةٌ واجتماعيةٌ كبيرة . وقد حلَّ بالبلاد التونسية حينما كان السلطانُ المرينيُّ أبو الحسن يحاول فتحَ البلاد . وعن هذا الوباءِ وأثرِهِ يقول ابنُ خلدون : «ثم جاء الطاعونُ الجارفُ فطوى البساطَ بما فيه» (54) . ولم يقتصر انتشارُ الوباء علَى شماليِّ البلاد التونسية في صيف عام 1248 م . بل حلَّ كذلك بجزيرة جربة ، حيث «هلك

---

(52) رحلة التجاني ص 128 .

(53) Hillgarth, I, p. 234

Merriman, I, P. 359.

دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية بالإنجليزية ، 2/459.

(54) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون . القاهرة 1951 . ص 27 .

أهلُ اللحياني [الوالي الجديد] لحين نزوله بجربة ، بما أصابه من عِلّة الطاعون الجارف [1348/749] »[55].

احتلال النصارى لجزيرة جربة ثانيةً (1388 ـ 1392 م) :

لعلَّ الحملةَ التي مهَّدتْ للحملة الجنوية الفرنسية ضد المهدية سنة 1390 م . كانت الحملةَ التي قام فيها ، سنة 1377 م . أسطولٌ مشتركٌ قوامه ثلاثةُ مراكب صقلية ، وخمسةُ مراكبَ بيزية ، واثنا عشر مركبا جنويا ، بمباغتة واحتلال جزيرة جربة . وكان على رأس هذه الحملة مانفريدو دي تشيارامونتي (Manfredo de Chiaramonte) . ومع أن المراكبَ الجنويةَ قامتْ بالدَّوْر الرئيسي في احتلال الجزيرة ، فإن مانفريدو ألحقَ الجزيرةَ بأراضي ملكة صقلية ماري (Marie) بعد أن دَفَع للجنويين مبلغَ 36و000 فلورين ذهبي لِقاء مساعدتهم .

وفي العام التالي ، قام البابا إربان السادس ـ الذي كانت الملكةُ ماري قد تسلَّمتْ صقلية منه كإقطاعية ـ بتنصيب مانفريدو أميراً لجربة والجزر المجاورة في خليج قابس[56] .

إن قربَ البلاد التونسية من الجمهوريات البحرية الإيطالية وصقلية اجتذب الكثيرين من التجار إلى أسواق العاصمة تونس ، فضلا عن مدن الساحل وجزيرة جربة . وكانت الصادرات التونسية تشمل الحبوبَ والتمورَ والبُسطَ والدروع الجلدية والرقيق . ومن المعروف أن فنادق للنصارى أقيمتْ في المهدية وصفاقس وقابس وجربة . يقول الحسن الوزان إنه توجد في جزيرة جربة «قصبة مشيَّدةٌ على ساحل البحر... وقرب القصبة مَدْشرٌ كبير يقطن فيه التجارُ الغرباء من مسلمين ونصارى .

---

(55) كتاب العبر 951/6.

Dols, M.W., **The Black Death in the Middle East,** Princeton University Press, 1977, pp 63-65

(56) Atiya, Aziz S., **The Crusade in the Later Midle Ages,** New york 1970,p. 398

ويقام فيه سوق كل أسبوع كأنه معرض، إذ يحتشد فيه جميعُ سكان الجزيرة، ويقصده أيضا عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليابسة، سائقين ماشيتهم وحاملين معهم كميةً وافرةً من الصوف» (57).

لم يطُلْ هذه المرة احتلالُ الصقليين لجزيرة جربة، ففي عام 1392 م ثار أهلها وأعلنوا استقلالهم حتّى عن سلطان تونس، إلاّ أن السلطان تمكّن في عام 1399 م من فرض سيادته علَى كلٍّ من جربة وطرابلس (58).

وقد نصَّ اتفاقٌ تمَّ التوصّلُ إليه عام 1403 م بين صاحب أراجون ـ وكانت صقلية تابعةً له ـ وبين السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز علَى حصول السلطان علَى جزيرة قَوْصرة (بنطلارية) في مقابل التنازل لصاحب أراجون عن جزيرة جربة، إلاّ أن الاتفاقَ لم يوضعْ موضعَ التنفيذ (59).

وللمرة الأخيرة حاول صاحبُ أراجون الاستيلاءَ علَى جزيرة جربة عام 835هـ/1432 م، فقام الملكُ الفونسو الرابع شخصياً بالإقلاع بأسطوله من برشلونة ماراً بسردانية وصقلية ومالطة، ثم توجَّه نحو جربة في صيف عام 1432 م ونزل فيها (60). فأسرعَ السلطانُ أبو فارس ـ وكان نازلاً بِعَمْرة قرب قفصة ـ إلَى نجدة الجزيرة. وقد تعذّر عليه بادىء الأمر العبورُ إلَى الجزيرة من القنطرة، وكاد أن يقعَ في أيدي الغزاة، إلاّ أن بعضَ أهل الجزيرة أعلموه أن «للجزيرة طريقاً عبر القنطرة في البحر، فبعث معهم عسكرا أدخلوه الجزيرة، فلما رأى العدوُّ العسكرَ دخل الجزيرة من غير القنطرة أيقن بالخيبة، فأقلع بأساطيله عن الجزيرة خائباً، وكانت إقامتُه عليها سبعةً وعشرين يوماً» (61). يقول الوزان إن أسطولاً مسيحياً

---

(57) المرجع السابق. ص 401.

الوزان. الحسن: وصف افريقيا. الجزء الثاني. الرباط. ص 93 ـ 94.

(58) روسي. إتورى: ليبيا منذ الفتح العربي. ص 128.

(59) دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الثانية.بالإنجليزية. 4/ ص 805. ينظر تحت.

(60) روسي. إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي. ص 123. الهامش رقم 24.

(61) الزركشي. محمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصيّة، تونس 1966. ص 129.

هاجم جربة «فاستولَى عليها ونهبها . لكن سرعان ما استرجعها منهم ملكُ تونس . وأسكن الناسَ فيها من جديد ، وشُيِّدتْ القلعةُ فيها حينئذ إذ لم يكن فيها من قبل سوى المداشر» (62) . ويورد محمد أبو راس الجربي مزيداً من التفاصيل عن هذه الغزوة الأراجونية فيقول : «هجَم الإفرنجُ علَى الجزيرة . وكان أبو فارس بعساكره في أرض الجريد ، واستمدَّه [أهلُ جربة] فقدم إليها سريعاً ، ودخل من طريق تاربلة خوضا في البحر رجالا وركباناً ، ووجد أهلَ الجزيرة في أشد القتال ، ونزل الإفرنج للبر ، فهجم المسلمون عليهم هجمةً واحدةً في وقت نزوح البحر ، ولم يجدوا للفرار سبيلاً ، ووضعوا فيهم السيف ، فلم يَبْقَ منهم إلاّ القليل ، وبَنَوْا برؤوسهم برجاً كالمنارة ، وهو باقٍ إلَى الآن [زمن التأليف في حدود عام 1222 هـ/ 1808 م]» (63) . وعلَى الأثر بنَى العربُ حصناً ثانياً في الجزيرة قرب أطلال جربة القديمة علَى الساحل الشمالي عُرف باسم (البرج الكبير) ونشأتْ حول أسواره بالتدريج بلدةُ حومة السوق (64) .

أما المصادرُ المسيحيةُ المعاصرةُ فتتحدَّث عن انتصارٍ أحرزه صاحبُ أراجون في وقعةٍ يصفها زوريتاZurita بعبارات ملؤها الفخر والازدهاء ، غُنمت فيها غنائمُ وفيرة . ولما كان الفونسو يدرك عُقْمَ محاولة الاستيلاء علَى الجزيرة ، فإنه لم يلبث أن تخلَّى عن فكرة محاربة تونس ، وكانت هذه الحملةُ في الواقع آخرَ حملةٍ قامت بها مملكةُ أراجون ضد جربة إلَى زمن شارل الخامس ، وهي تدلُّ علَى التخلِّي ، لمدة قرن من الزمن ، عن خُطط فرض السيادة السياسية علَى المملكة الحفصية ، وهي الخُطط التي كانت في السابق الشغلَ الشاغلَ لملوك أراجون ، كما تدل علَى بداية فترة

---

(62) الحسن الوزان . 2/ ص 94.

(63) أبو راس الجربي . محمد : مؤنس الأحبَّة . ص 104 ـ 105 .
يذكر محقِّق الكتاب محمد المرزوقي أن مكانَ البرج يقع علَى الساحل الشمالي بمرسَى حومة السوق قرب برج الغازي مصطفَى . وقد بقيت جماجم القتلَى في مكانها حتّى أمر أحمد باي الأول بدفنها سنة 1848 ، وبني في المكان نصب تذكاري به رخامة نقش عليها تاريخ الوقعة وتاريخ دفن الجماجم . ويسمَّى الآن برج الجماجم ـ تنظر الحاشية رقم 1 ، ص 105.

(64) دائرة المعارف الإسلامية . الطبعة الثانية بالإنجليزية . 2/ ص 459 . يُنظر تحت مادةDjarba .

أصبحت فيها الصلاتُ التجاريةُ تحتلُّ مكانَ الصدارة [65] . وقد جرت مفاوضات طويلة (1438 ـ 1456 م) بقصد حماية التجارة بين أراضي صاحب أراجون وبين تونس ، إلاّ أنها تعثّرتْ بسبب أعمال القرصنة التي كانت تَلْقَى تشجيعاً من سلطان تونس [66] .

واهتم العاهلان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا في العِقد الأخير من القرن الخامس عشر بفكرة الاستحواذ علَى جزيرة جربة ، إذ يمكن لاسبانيا منها ـ مع مالطة ـ التحكُّمُ في البحر بين صقلية وتونس . ومع أن جربة لم يتمَّ الاستيلاءُ عليها بالفعل ، إلاّ أن الخُططَ الرامية إلَى الاستيلاء عليها استمرَّتْ سنواتٍ عديدة [67] .

وبعد أن تخلَّص أهلُ جربة من الاحتلال النصراني لجزيرتهم ، لم يخضعوا طويلاً لحكم السلطان الحفصي . فعلَى أثر وفاة السلطان الحفصي أبي عمر عثمان سنة 893 هـ/1488 م ، «ضعفتْ سلطةُ خلفه ، فطالبت الجزيرةُ بحريتها ، وسارع أهلُها إلَى قطع الجسر الرابط بين الجزيرة واليابسة خشيةَ مجيء الجنود إليها عن طريق البر» [68] .

وبالرغم مما تعرَّضت له جربةُ من غزوات وأعمال نهب وسلب وتقتيل منذ احتلال النورمان للجزيرة عام 1135 م ، وبالرغم كذلك من المنازعات الداخلية بين جماعتيْ الوهبية والنكارة ، فإنها احتفظت برخائها . يقول التجاني في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي إن جربة «أكثرُ شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين ، وفيها أصناف كثيرة من سائر الفواكه ... وتفاحُها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها منه صفاءً وجفافاً وطيبَ مذاق وعطارَة استنشاق ، ورائحته توجد في المسافة المديدة والأميال العديدة ... واختُصَّت هذه الجزيرةُ أيضا دون غيرها من البلاد

---

(65) Hillgarth, Vol. 2,p. 253.

(66) المرجع السابق ص 573 .

(67) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولَى بالإنجليزية ، ليدن ـ لندن 1913 ، 1/ ص 1038 .

(68) الحسن الوزان ، 2/ ص 94 ؛

بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بإفريقية لما يُنسج من أثوابها نظير» [69]. ولما دخلَ جربة في صيف عام 851هـ/1447م الفقيهُ والعالمُ الأندلسي أبو الحسن القَلْصادي وصفها بقوله «وهي كثيرة الخصب، وعمّروها بالنخيل والزيتون، والتفاح له رائحة عجيبة، ومما خُصَّت به لينُ الصوف ورطوبته، وتصير الشاة من غير الجزيرة فيها بعد إقامة سنةٍ مثلَ شياهها في رطوبة الصوف» [70]. واشتهرت جربة بتصدير الملح والزرابي فضلاً عن زيت الزيتون والزبيب والتمور [71]. وذكر الرحالة أدورني في القرن الخامس عشر أن صاحبَ جربة كان يقبض من المَجابي سنوياً عشرين ألف دبلون أو دوقة [72]. إلاّ أنه بعد منتصف القرن الخامس عشر كان من نتيجة المجابهة بين الأتراك العثمانيين وبين الإسبان أن نشطت أعمالُ القرصنة في وسط البحر المتوسط، وأصبحت صقلية علَى التخوم بين فريقين في حالة حرب مدمرة. وقد طلب البرلمانُ في صقلية في عام 1458، ثم في عام 1474، بأن يُسمحَ للجزيرة بالاحتفاظ بصلاتها التجارية مع افريقية، إلاّ أن إسبانيا كانت آنذاك تنتهج سياسة حماية التجارة وفرضِ القيود على اقتصادها، كما أنها كانت كاثوليكية متطرفةً في عقيدتها، فلم تستجبْ لطلب الصقلّيين. ومنذ عام 1480م ازدادت غاراتُ المغاربة علَى سواحل صقلية. وقد سَخِر الملكُ فرديناند من وجهة النظر القائلة بأن الحفصيين في تونس قد يستفيدون من أوروبا المسيحية أكثر من استفادتهم من الأتراك، وعادت سياستُه هذه بالضرر علَى صقلية، ومكّنت البندقيةَ ومرسيليا ولندن من الاستئثار بالتجارة مع تونس ومع المشرق [73]

إن صقلية ظلّتْ تنعم بالرخاء ما انتمتْ إلَى عالم شمال افريقيا والمشرق، ولكنها

---

(69) رحلة التجاني، ص 122.

(70) القلصادي، علي: رحلة القلصادي، تونس 1978، ص 123 ـ 124.

(71) ومما يذكر أن Zerbino باللغة الإيطالية تعني بساطا صغيرا كان يُستورد من جربة التي اشتهرت بصناعة الزرابي والبُسُط.

(72) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية بالإنجليزية، 2/ ص 459.

(73) Smith, Medieval Sicily, p. 135

حينما أُجبرت علَى الارتباط بغرب أوروبا ، فإنها فقدتْ كثيراً من المزايا الاقتصادية. فبدلاً من أن يكون موقعُها الجغرافيُّ نعمةً عليها ، فإنه أصبح عقبةً في وجهها ، وبدلا من أن يكون البحرُ المتوسطُ طريقاً رئيسيةً للتجارة ، فإنه أصبح حداً. لقد أصبحت صقلية بعد عام 1194 م رقعةً صغيرةً علَى التخوم ، إذ أصبحت تَتْبع عدداً متتالياً من الإمبراطوريات الكبرى ، فأصبح بالتالي لزاماً عليها أن تساندَ حملات وحروب فردريك الثاني وأراجون ـ قطلونية ثم إسبانيا مع ما ترتَّب علَى ذلك من ضررٍ بمصالحها الخاصة ، وما انطوى عليه من أعباء ماليةٍ جسيمةٍ ، وتعرُّضِ سواحلها للغارات ، وتعطيلٍ لتجارتها الطبيعية والمُجْزية مع إفريقية [74] .

(74) المرجع السابق . ص 64 .

220فـاحتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية
(818 هـ/1415 م)
مقدماته ودوافعه ونتائجه

نبذة عن مملكة البرتغال إلَى مطلع القرن الخامس عشر :

كانت مقاطعة برتقال في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تشغل رقعة صغيرة تقع بين نهري مينهMinho ودويرهDouro ولِّي عليهما ألفونس السادس ملك قشتالة وليون ـ وكانت تتبعه ـ صهره هنري/هنريق الفارس البرجندي الذي كان قد قدم إلَى شبه جزيرة ايبرية لمحاربة المرابطين بعد انتصارهم الكبير في وقعة الزلاقة (479 هـ/1086 م). وقد استطاع أفونسو ابن هنريق ـ الذي تشير إليه المصادر العربية بابن الريق ، أي ابن هنريق ـ أن يستقل عن مملكة قشتالة وليون وأن ينصّب نفسه ملكا علَى برتقال. ويؤرخ البرتغاليون بداية استقلال بلادهم بسنة 1139 م وفيها أحرز ابن الريق ـ كما تقول الروايات المسيحية ـ انتصارا علَى قوة مرابطية في أوريقOurique ـ بالقرب من شنترين ـ وبادر علَى الأثر بالمناداة بنفسه ملكا متخذا من مدينة قلمريةCoimbra عاصمة له. وإلَى الجنوب من قلمرية كانت شنترين ولشبونة ومعظم أراضي البرتغال الحالية تشكل جزءا من غرب الأندلس الإسلامي.

وفي عام 542 هـ/1147 م ، وبمساعدة أسطول صليبي قادم من شمال أوروبا كان في طريقه إلَى فلسطين ، استولَى ابن الريق علَى لشبونة من أيدي المسلمين مغتنما

فرصة انشغال المرابطين بقيام الموحدين عليهم في المغرب. وبعد أخذ لشبونة هاجم أسطول ابن الريق اشبيلية وسبتة. وكان للشبونة الإسلامية ـ كما كان لاشبيلية ـ تجارة نشطة مع مدينة سبتة حيث كانت تقيم جالية من التجار الجنويين في القرن الحادي عشر. وبالاستيلاء علَى مدينة شلب عام 1249 م. بلغت البرتغال حدودها الحالية، وقامت بإجلاء السكان المسلمين عن أراضيها قبل سقوط غرناطة بأكثر من قرنين. ومما يذكر أن النظم الديرية العسكرية ـ كالإسكندرية والداوية ونظم القنطرة وقلعة رباح وشانت ياقب ـ قامت بدور كبير في محاربة المسلمين وإجلائهم عن غرب الأندلس (1).

وبعد خلافات علَى الحدود بين البرتغال وقشتالة اتفق بموجب معاهدة صلح عقدت بينهما في بطليوس في مطلع عام 1267 م علَى أن يتنازل ملك قشتالة للبرتغال عن كافة ما كان يدّعيه من حقوق في إقليم الغربAlgarve. وكان ملك البرتغال قد قدّم العون لقشتالة في قمعها لثورة المسلمين المدجّنين بإشبيلية عام 1264 م (2).

وقد شارك البرتغاليون بألف فارسٍ في وقعة طريف (741 هـ/1340 م) إلَى جانب ملك قشتالة ضد قوات المسلمين من المغرب وغرناطة. وكانت وقعةً حاسمةً. ويقال إن المدفعيةَ استُخدمت فيها لأول مرة في أوروبا (3).

وفي عام 1384 م قامت بين قشتالة والبرتغال حرب بسبب مطالبة ملك قشتالة بعرش البرتغال إثر وفاة ملك البرتغال فرناندو دون عقب. واختير خوان/جون أفيس حامياً لعرش البرتغال، فأصبح بطلَ استقلال بلاده ومؤسساً لأسرةٍ مالكةٍ جديدة ـ أسرة أفيسAvis ـ بعد الانتصار الكبير الذي أحرزه علَى القشتاليين في معركة

---

(1) Boxer, C. R., **The Portuguese Seaborne Empire (1415-1825)**, Penguin Books 1978, p. 4.
Atkinson, W.C., **A. History of Spain And Portugal**, Penguin books 1967, p. 91.

(2) O'Callaghan, J F., **A History of Medieval Spain**, Cornell U. P. 1975, p. 369.

(3) Atkinson, p.89.
Lomax, D.W, **The Reconquest of Spain**,

الجوباروتاAljubarrota في منتصف أغسطس عام 1385 م. وقد وطّدت معركة الجوباروتا استقلالَ البرتغال وأعلتْ من شأن جون أفيس الذي نال شهرةَ ابن الريق مؤسسِ المملكة. وقد مثّل انتصارُ البرتغاليين في الجوباروتا انتصارَ الطبقة البرجوازية الناميةِ في لشبونة وأبورتو التي قاوم أفرادُها تدخلَ قشتالة في شؤون البرتغال. بخلاف طبقة مُلاّك الأراضي من النبلاء التي انحاز الكثيرون من أفرادها إلى جانب قشتالة. وعُقدت هدنةٌ طويلةٌ بين قشتالة والبرتغال مما مكّن جون أفيس من أن يصرفَ اهتمامه إلَى أمور أخرى، كانت حملةُ سبتة في مقدمتها [4]. وفي عهد الملك جون الأول (حكَم 1384 ـ 1433 م) حقّقت البرتغالُ وحدةً وتركيزاً للموارد لم يسبق من قبل. ومع ذلك فإن مملكةَ البرتغال ظلّت مملكةً صغيرةً لا يُحسب لها حسابٌ في الشؤون الأوروبية، إلاّ أن المملكةَ نعمتْ بالاستقرار وبشيءٍ من الرخاء. وكانت تحتلُّ موقعاً استراتيجيا [5].

إن معظمَ أراضي البرتغال في أواخر القرون الوسطَى كانت بوراً غيرَ مفلوحة بعد إجلاء سكانها المسلمين عنها. وكان سكانُ البلاد لا يتجاوزون المليونَ نسمة معظمُهم من الفلاحين الذين يزرعون الحبوبَ ويُنتجون زيتَ الزيتون والنبيذ. بينما كان سكانُ السواحل يزاولون صيدَ الأسماك واستخراجَ الملح. وكان الفقرُ يسود المناطقَ الداخليةَ والجبليةَ حيث المساكنُ في معظمها أكواخ. وإليها كان يشير المؤرخُ البرتغاليُّ المعاصرُ أزورارا عند حديثه عن دهشة الغزاة البرتغاليين وانبهارهم لِمَا عاينوه من منازلِ المسلمين ورفاهيتِها عند استيلائهم علَى سبتة، إذ قال «إن مساكنَنا الوضيعة تبدو كزروبِ الخنازير بالمقارنة بها».

وكان الاقتصادُ البرتغاليُّ في الأرياف يقوم علَى المقايضة. ولم تُضرب عُملةٌ ذهبيةٌ

---

(4) New York 1978,p. 167.

(5) Payne, S.G., **A History of Spain and Portugal**, Vol. I, Univ of Wisconsin Press 1976, O, Callyham p. 53 a 3 p.191.

بالبرتغال ما بين عامي 1385 و 1435 م. وكانت العُملةُ المتداولةُ في معظمها من النحاس [6]

تردِّي العلاقات بين المغرب وغرناطة قُبَيْلَ سقوط سبتة :

بعد وفاة السلطان المريني أبي فارس (774 هـ/1372 م) أخذ سلطانُ غرناطة محمدُ الخامس في تعزيز نفوذه في المغرب الأقصَى. فاستولَى في سنة 1374 م علَى جبل طارق من أيدي المرينيين. ولما رفض سلطانُ المغرب الصغيرُ السن أبو زيان التنازلَ عن مدينة سبتة لسلطان غرناطة، بعث هذا إلَى المغرب بأميرين من بني مرين كانا لاجئين في غرناطة ويطالبان بعرش المغرب، وأمدَّهما بالعون، فاستوليا علَى شمال المغرب، وحاصرا مدينةَ فاس، مما أدَّى إلَى خلع أبي زيان. وأصبح أحدُ الأميرين ـ أبو العباس أحمد المستنصر ـ سلطاناً في فاس سنة 1374 م. وأصبح الأميرُ الآخر ـ عبدُ الرحمن ابن تفلوسين ـ والياً علَى مراكش. وقد أذعن سلطانُ فاس الجديد أبو العباس لطلب سلطان غرناطة، وتنازل له عن مدينة سبتة [7].

وبعد وفاة السلطان أبي العباس (796 هـ/1312 م)، مكَّنت المنازعاتُ علَى العرش في فاس ملكَ غرناطة ـ يعضده في ذلك صاحبُ قشتالة ـ من إبقاء المغرب في حالة من الفوضَى، بمساندته المطالبين بالعرش، وذلك لكي يحقِّقَ طموحاتِه التوسعيةَ علَى حساب المغرب. وردَّ السلطانُ المرينيُّ أبو فارس علَى ذلك بالسماح لغزاة البحر المغاربة بمهاجمة المراكب الإسبانية والأندلسية. وثأراً لذلك. قام صاحبُ قشتالة هنري الثالث ـ مغتنماً فرصةَ انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان ـ بمهاجمة مدينة تطوان عام 1400 م، فدمَّرها وفتكَ بنصف سكانها واسترقَّ الباقين. مما أثار في المغرب موجةً من الحماس الديني والوطني أدّى إلَى دحر القشتاليين. كما أن البرتغاليين أفادوا كذلك من متاعب المغرب. في سنة 814 هـ

---

(6) Boxer, pp 4-5, 13

(7) Abun-Nasr, J.M. A. **History of the Magrib**, Cambridge U.P. 1975, p. 133.

قامت في المغرب حربٌ أهليةٌ وتعرَّضت مدينة فاس للحصار ثلاث مرات في سنة واحدة. ولما تمكّن سلطانُ فاس من السيطرة على أراضيه وانسحب القائمُ عليه في مدينة سبتة إلى غرناطة آخذا معه أسطولَ سبتة العتيد. أصبحت مدينةُ سبتة ـ دون أسطولٍ يحميها ـ عرضةً لهجوم البرتغاليين عليها[8].

مدينة سبتة قُبَيْلَ العدوان البرتغالي عليها :

تتحكَّم مدينةُ سبتة بالملاحة في مضيق جبل طارق. وظلَّت ـ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس ـ أندلسيةَ الطابع. وقد غصَّت مدينةُ سبتة بالنازحين من الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حينما أخذت قواعدُ المسلمين في الأندلس ـ كقرطبة واشبيلية ـ تتهاوى في يد قشتالة وأَرَجون.

واشتهرت مدينةُ سبتة بالتجارة براً وبحراً. وكان يقصدها تجارُ المدن الإيطالية ـ وبخاصة تجار جنوة ـ وكانت لهم فنادقُ فيها. كما كانت سبتة بدايةً لطرق القوافل المؤدية إلى غانة والسودان الغربي.

واشتهر أهلُ سبتة بركوب البحر وإنشاء المراكب. وكانت بالمدينة دارُ صناعةٍ لإنشاء السفن. كما كانت القاعدةَ الرئيسيةَ لأسطول الموحدين. وكان لرماة سبتة شهرةُ رماة الأغزاز من التركمان في المشرق.

كان من بين النازحين عن مدينة سبتة بعد سقوطها في أيدي البرتغاليين عام 1415 م الفقيهُ محمدُ بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السبتيُّ الدار والنشأة والمولد. وقد صنَّف كتاباً ـ بعد سبع سنوات من سقوط المدينة ـ أسماه (اختصارَ الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنيِّ الآثار) وفيه يستعرض معالمَ سبتة قبيل سقوطها. فيذكر مقابرَها ومساجدَها. وخزائنَها العلميةَ ومحارسَها. وأزقَّتَها وحمّاماتِها،

(8) شارل ـ أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة. تونس 1978، ص 249.

وحوانيتَها وفنادقها. وديارَ الإشراف فيها. ومطاميرَها وطواحينَها. وأرباضَها وأبوابَها. ومقاصرَها. ومراسيَها ومصايدَها. كما يتحدث عن أحواز سبتة. فيذكر وفرةَ مياهها وغلاتها وفواكهها علَى مدار فصول السنة. ويتبين من هذا الثبت المفصَّل أن مدينةَ سبتة كانت ـ إلَى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ـ مدينةً تنعم بالرخاء والازدهار والعمران. وأن سقوطَها في أيدي البرتغاليين كان كارثةً حلَّت بالمدينة وأهلها، إذ تعرضت المدينةُ وأهلُها لأعمال النهب والسلب والتقتيل. ونزح عنها معظمُ سكانها.

يذكر الأنصاري أنه كان بسبتة ألفُ مسجد. وان عددَ الخزائن العلمية (المكتبات) بها اثنتان وستون خزانة، وأن عددَ الروابط والزوايا سبعٌ وأربعون ما بين زاوية ورابطة. أما محارسُ المدينة فعددها ثمانيةَ عشرَ محرساً تمتد إلَى اثنيْ عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحرين [9].

وكان بسبتة اثنان وعشرون حمَّاماً ومائةٌ وأربعون سوقا. أما المَنْجرات المُعدَّةُ لعمل القسيِّ فعددها أربعون مَنْجرة. ولما كانت سبتة ميناءً تجارياً يقصده التجارُ الأغراب، فإنها احتوتْ علَى نيِّفٍ وثلاثمائة فندقٍ لخزن الحبوب وإيواء المسافرين [10].

أما ديار الإشراف ـ حيث يقيم المشرفون الماليون ـ فعددها أربعة: دارُ الإشراف علَى عمَالة الديوان أمام فنادق النصارى ـ وفنادقهم سبعة ـ ودارُ الإشراف لشد الأمتعة وحلِّها. ودارُ الإشراف علَى البناء والنجارة، ودار الإشراف علَى سكة المسلمين [11].

Livermore, H.V, A New History of Portugal, Cambrige U.P. 1976, p. 108 (9)

(9) الأنصاري. محمد بن القاسم: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنيِّ الآثار. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. الرباط 1983. ص 27. 29. 30. 32.

(10) المصدر السابق. ص 34. 36. 27. 18.

(11) المصدر السابق. ص 41 ـ 42.

وكان بسبتة من المطامير لخزن الحبوب أربعون ألفاً يمكث فيها الزرعُ «الستينَ سنةً والسبعين سنةً ولا يلحقه تغير، لطيب البقعة واعتدال الهواء. ولكونها جميلةً. فسبتة في ذلك شبيهةٌ بقاعدة طليطُلة من بر الأندلس» [12].

ولما عُني أهلُ سبتة بالرمي لأغراض الدفاع عن ثغرهم. فقد كان بسبتة من المرامي ـ المعبَّرِ عنها بالجلَسات ـ أربعةٌ وأربعون مرمًى للرماة «إذ الرمي طبعٌ لأهل سبتة طُبعوا عليه، فلا تُلْفي منهم شريفاً ولا مشروفاً. ولا كبيراً ولا صغيراً. إلاّ وله بصرٌ بالرمي وتقدمٌ فيه. ومعظم رميهم بالقوس العقَّارة. وهو من جملة الأشياء التي تميَّزوا بها» [13].

وكان الشريف الإدريسي ـ وهو من أبناء سبتة ـ قد نوَّه بمصائد الحوت بسبتة، فذكر أنه يصاد بها من السمك نحوٌ من مائة نوع. ويصاد بها السمكُ المسمَّى التُّن الكثير. كما يصاد ببحرها المرْجان. وبسبتة ـ كما يقول الإدريسي ـ سوق لتفصيل المَرجان وحكِّه وصنعه خزراً وثقبه وتنظيمه. ومنها يُتجهَّز به إلَى سائر البلاد. وأكثر ما يُحمل إلَى غانة وجميع بلاد السودان. لأنه في تلك البلاد يُستعمل كثيرا. وبعد الإدريسي بنحو ثلاثة قرون، يذكر الأنصاري أن بسبتة من المصايد مائتين وتسعةً وتسعين مصيداً مفترقة [14].

واشتهرت أحوازُ سبتة بوفرة مياهها وغلاتها. وبخاصة في قرية بَليونَشْ إلَى الجنوب من سبتة. ويذكر الأنصاري بليونَش ـ ويرسمها بنيونش ـ فيتحدث عن كثرة وتعدد فواكهها الصيفية والشتْوية والخريفية بحيث توسق منها الأجفانُ وتسير إلَى المغرب وبلاد الأندلس [15]. كما تكثر في منطقة سبتة الغاباتُ وبها ضروب

---

(12) المصدر السابق - ص 42.

(13) المصدر السابق - ص 47.

(14) الإدريسي - محمد: وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) - الجزائر 1957، ص 108.

الأنصاري - ص 51.

(15) الأنصاري - ص 52.

الشجر. كالأرزْ والبلوط. مما يعود نفعُه علَى ثغر سبْتة ويُستعان به علَى إنشاء المراكب وما يرجع إلَى الأمور الجهادية [16].

ويختتم الأنصاري كتابَه قائلاً: «فانظرْ ماكان عليه هذا الثغرُ الشامخُ وما أصيب به المسلمون... واللهَ أسألُ أن يَمُنَّ بارتجاعه ويُعيدَه كما كان» [17].

دوافع العدوان البرتغالي علَى مدينة سبتة:

أ ـ دوافع دينية صليبية:

يتفق الباحثون علَى أن العاملَ الدينيَّ الصليبيَّ كان في مقدمة الدوافع للحملة التي جهَّزها البرتغاليون ضد مدينة سبتة. ويتضح ذلك جلياً من الخطاب الذي وجَّهه البابا إلَى رجال الحملة مباركا إياها ومعلنا عن «غفران ذنوب من يسقط في محاربة الكفار [المسلمين] في هذه الحملة الصليبية...» [18]. إن حملةَ سبتة كانت استجابةً للروح الصليبية التي عمَّت شبهَ جزيرة ايبرية مع تقدم حركة «الاسترداد» ونجاحها [19]. ولعلَّ ما أوحَى بمهاجمة سبتة في المقام الأول الحماسُ الصليبيُّ لضرب المسلمين في المغرب ضربةً قاضية [20]. وقد عمل ملكُ البرتغال جون الأول وزوجتُه الأنجليزيةُ فليبا لانكستر وأبناؤهما الخمسةُ جاهدين علَى استمرار الحرب الصليبية التي بدا وكأن جَذوتَها أخذت تخبو بعد أن تمَّ إجلاءُ المسلمين عن أراضي البرتغال ذاتها.

---

(16) المصدر السابق، ص 56 ـ 57.

(17) المصدر السابق. ص 57.

(18) Gomes Eannes de Azurara, **The Chronicles of Azurara** London 1936, p. 85.

(19) جوليان. ص 249.

(20) Boxer, p 18

ومما يُذكر أن المبشِّر الميورقيَّ رامون لَلْ Lull قدّم إلَى مؤتمر فين Vienne بفرنسا في عام 1310 م ـ أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة ـ اقتراحاً بتشكيل منظمةٍ تضم كافةَ الفرسان النصارى، للعمل حثيثا لاحتلال الأراضي المقدسة (فلسطين). ويكون من أولَى مهامها «أخذ سبتة والقسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد المسلمين». يُنظر:

Allison Peers, **Ramon Lull: A. Biography, London 1929, p. 351.**

فشرع في حملة سبتة ـ أولَى حملات البرتغال في الخارج ـ وهي دليل علَى أن حربَ «الاسترداد» والفتوح التوسعية كانا في أساسها حرباً صليبيةً مقدسة [21] .

ويُنسب إلَى الأمير هنري قولُه لوالده وهو يحاول إقناعَه للموافقة علَى حملة سبتة أنه لا وجهَ للمقارنة بين عداء قشتالة المسيحية للبرتغال وبين «الكفار [المسلمين] الذين هم أعداء طبيعيون لنا» [22] . ولما استشار الملكُ جون الأول أحدَ كبار مستشاريه بشأن الحملة المقترحة ضد سبتة ، أجابه قائلا : «يبدو لي أن هذه الخطةَ ليست من بنات أفكارك . وإنما هي بوحيٍ من الله» [23] .

كان الأمير هنري ـ بوصفه رئيساً لنظام المسيح الديري العسكري Order of Christ ـ وارثاً لتقليدٍ صليبيٍ طويل . ولما لم يكن قد بقي ما يمكن تحقيقه في هذا المجال في البرتغال ذاتها بعد أن تم إجلاءُ المسلمين عن أراضيها في منتصف القرن الثالثَ عشرَ الميلادي . فإن هنري أراد مواصلةَ هذا التقليد الصليبي في ديار الإسلام في المغرب ، لمحاربتهم بل والعمل علَى تنصيرهم . وقبيل إقلاع سفن الأسطول صوب سبتة ، ماتت الملكة فليبا ، وكان لها دَوْرٌ كبيرٌ في إذكاء الروح الصليبية في نفوس أبنائها وفي صفوف المحاربين [24] .

كان البرتغاليون يحسبون أن ثمة إلَى الجنوب من المغرب شعوباً وثنيةً يمكنهم تنصيرُها والتحالفُ معها ضد المسلمين في المغرب [25] . لقد استهوت خيالَ الأوروبيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي فكرةُ بريستر جون Prester John الملكِ المسيحيٍ لبلادٍ مجهولةٍ في آسيا . ثم بدا للبرتغاليين أنه ملكُ أثيوبيا النصراني الذي تطلَّعوا إلَى الوصول إليه والتحالف معه لشن هجوم علَى المسلمين من عدة

---

(21) Atkinson, p. 98

(22) Azurara, p. 41.

(23) Bell, N., Portugal and the Quest for the Indies, London 1974, p. 351

(24) O'Callaghan, pp. 556, 547

(25) Lomax, p. 162

جهات [26] .

إن البرتغاليين كانوا صليبيين قبل أن يصبحوا ملاّحين يجوبون البحارَ والمحيطات . واحتفظت البرتغالُ بالروح الصليبية حتّى أواخر القرنِ السادسَ عشرَ الميلادي بعد أن كانت غيرُها من الدول قد تخلّتْ عن الفكرة الصليبية ، واستعاضت عنها بالسعي لتحقيق مآرب مادية صِرْفة . وعلَى ذلك فإن من غير المدهش أن يكون السببُ الرئيسيُّ للهجوم علَى سبتة سبباً صليبيا . واستمر التغلغلُ البرتغاليُّ في المغربَ علَى مدى قرن من الزمن بعد الاستيلاء علَى سبتة للسبب ذاته وبالفكرة ذاتها [27] .

ويريؤرخٌ مغربيٌّ حديث أن الدافعَ الدينيَّ كان فيما يبدو الدافعَ الحاسمَ في سياسة ممالك شبه جزيرة ايبرية تجاه شمال افريقيا ، وأنه ينبغي النظرُ إلَى الهجوم الايبري علَى المغرب علَى أنه في أساسه حملةٌ صليبيةٌ وردٌّ فعلٍ علَى إخفاق الحملات الصليبية في المشرق ، وعلَى الخطر العثماني الجديد الذي كانَ يهدد شرقَ أوروبا [28] . إن هذا الخطرَ العثمانيَّ كان يتمثّلُ علَى الخصوص في الانتصار الكبير الذي أحرزه السلطانُ بايزيد الأول علَى تحالفِ أوروبيٍّ صليبيٍّ في معركة نيقوبوليس علَى نهر الدانوب عام 1396 م قبل عشرين عاماً من العدوان البرتغالي علَى سبتة .

إن من الخطأ ـ كما يرى الباحثُ بينPayne ـ أن يتساءل المرءُ عمّا إذا كان الدافعُ للفتوح البرتغالية والإسبانية الجشعَ والمكسبَ الماديَّ أو الحميةَ الدينية . ففي الايديولوجية التوسعية الصليبية لسكان شبه جزيرة ايبرية كان العاملان متواكبين ومتلازمين . «إن الحربَ الصليبيةَ والربحَ كان يُنظر إليهما علَى أنهما شيئان يكمل الواحد منهما الآخر» [29] .

---

(26) O'Callaghann. p.556. Livermore, p. 111

(27) **Prestage, E.**, "Portuguese Expansion Overseas...", in **Chapters in Anglo-Portuguese Relations**, Watford 1935, pp. 173-4.

(28) **Laroui, A.**, **The History of the Magrib**, Princeton U.P. 1977, p. 235.

(29) Payne, pp. 188-9.

وبتجديد الحملات الصليبية القديمة ضد المسلمين، كان ملكُ البرتغال جون الأول يأمل في أن يحوز علَى رضا البابا وأوروبا وتأييدِهما. إن مَجْمَعَ كونستانس الذي دُعي إلَى الانعقاد في شهر نوفمبر عام 1414 م كان يُنتظر أن يضع حداً للنقسام البابوي وينْهيه. ورأى البرتغاليون أنهم إذا شنُّوا حملةً صليبيةً أمكنَهم أن يتوقعوا رضا البابا الجديد والتوصّلَ إلَى سلمٍ مع مملكة قشتالة. وقد جاء الاقتراحُ بالقيام بحملة ضد سبتة من جانب رئيس أساقفة لشبونة وممثل جون الأول في المفاوضات مع قشتالة في كونستانس [30]. وجدير بالذكر أن البابا أصدر عدةَ مراسيم يأذن فيها للملك البرتغال بمهاجمة المسلمين وإخضاعهم لحكمه. وبأخذ أموالهم وأراضيهم. وباستقرائهم، وبأن تؤولَ أموالُهم وأراضيهم للملك البرتغال وذريتِه من بعده [31].

ب ـ دوافـع اقتصــادية :

لا تقل عن الدوافع الصليبية لغزو البرتغال سبتة الدوافعُ الإقتصاديةُ كالظفر بالأسلاب والغنائم. وتلبيةِ رغبات الطبقة البرجوازية النامية في مدن البرتغال. والحصولِ علَى ذهب السودان الغربي عن طريق سبتة. فضلا عن ثروات المغرب ذاته. وتعزيزِ تجارة البرتغال في منطقةِ البحر الأبيض المتوسط حيث كانت التجارة وقفا علَى تجار المدن الايطالية وحِكْراً لهم.

إن بعضَ المؤرخين المُحْدثين لم يعودوا يكتفون بالتفسير التقليدي لأخذ سبتة بأنه أوحَى به الحماسُ الصليبيُّ والرغبةُ في تحقيق الأمجاد والبطولات الحربية. ويرى هؤلاء المؤرخون أن الدوافعَ الإقتصاديةَ والاستراتيجيةَ لا بد وأنه كان لها دَوْرٌ كبيرٌ في أذهان مخططّي الحملة. فسبتة ـ كما يصفها الأنصاري ـ كانت مدينةً تجاريةً مزدهرة. وهي منفذ رئيسي لصادرات المغرب وأحدُ المراكز التي تنتهي إليها تجارةُ ذهب السودان الغربي عبر الصحراء. إن الدافعَ للحصول علَى الذهب كان دافعاً مهمّاً. إذ كان

Livermore, p. 108. (30)

Boxer, pp. 20-21. (31)

علَى الذهب طلب كبير خلال القرنين الأخيرين من القرون الوسطَى في غرب أوروبا. فخلال هذه الفترة ضُربت العُملةُ الذهبيةُ في بلدٍ تِلْوَ آخر علَى غرار الفلورين الذهبي لفلورنسة الذي ضُرب عام 1252 م، والدوقة الذهبية التي ضُربت في البندقية في حدود عام 1280 م. ولم يكن للبرتغال عُملةٌ ذهبية خاصة بها منذ عام 1383 م. فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في هذا الوضع (32).

إن أسرة أفيس جاءت إلَى الحكم سنة 1385 م بفضل مساندة الطبقة البرجوازية من تجار المدن. وهي طبقة احتلَّتْ مصالحُها التجاريةُ المقامَ الأولَ في سياسة المملكة. وكان تجارُ لشبونة وأبورتو يطمعون في تجارة البحر المتوسط المُجْزية التي كانت تحتكرها جمهوريتا البندقية وجنوة وتجارُ المسلمين، بما فيهم تجار سبتة (33).

وكان البرتغاليون يطمعون كذلك في ثروات سبتة والمغرب الإقتصادية، كمصائد الأسماك في مياه سبتة وقبالة سواحل المغرب. وكانت تُحاك في فاس أقمشة تُصدَّر عن طريق سبتة. وكان عليها إقبال في جنوب أوروبا. وكانت سبتة منفذاً رئيسياً لصادرات المغرب من الحبوب، التي كانت البرتغال كثيرا ما تفتقر إليها (34)

إن الداعيَ الرئيسيَّ لحملة سبتة خوان أفونسو المشرفُ الملكيُّ علَى الخزانة والممثلُ الرئيسيُّ للطبقة البرجوازية في الحكومة. إن الأزمةَ الطويلةَ التي كانت تعاني منها البرتغال قبيل حملة سبتة نتيجةً لحروبها مع قشتالة أدَّتْ إلَى نقصان كبير في موارد الدولة؛ مما حدا بالملك جون الأول إلَى العبث بالعملة وتخفيض قيمتها لتسديد ديونه (35).

لم يكن الهدفُ الرئيسيُّ للتوسع البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي الرغبةَ

---

(32) Boxer, pp 18-19.

(33) Bell, p 34. جولياك، ص 249.

(34) Krueger, H., "Genoese Trade..." in Speculum, 3 (1933), p. 382.

(35) Payne, p,191. Livermore, p. 108.

في السيطرة علَى أراضٍ عبر المحيط ، بل السيطرة على ساحل المغرب. ففي المغرب ذاته كان يتوفر العديدُ من السلع المطلوبة كالقمح والماشية في الشمال. والسكر والمنسوجات. وكذلك الأسماك والجلود والشمع والعسل. فحبوب المغرب من شأنها أن تساعدَ علَى سدّ ما كانت تعاني منه البرتغالُ من نقصٍ في إنتاجها لها. بالإضافة إلَى جاذبية تجارة ذهب السدوان [36].

ويرى نيقيل باربر أن ما دفع إلَى القيام بحملة سبتة الطموحُ من جهة ، والرغبةُ من جهة أخرى في إيجاد منفذٍ للمغامرين الذين أصبحوا عاطلين عن العمل بعد أن تمَّ إبرامُ السلم مع مملكة قشتالة [37].

ج ـ دوافــعُ سياسيــة :

كانت البرتغالُ طوال القرن الخامس عشر مملكةً متحدةً خاليةً تقريبا من الحروب الأهلية ، في الوقت الذي كانت فيه بلدانُ أوروبا الأخرى تهزُّها في معظم ذلك القرن الحروبُ الخارجيةُ أو الأهلية. كحرب المائة سنةٍ بين أنجلترا وفرنسا. وحروب الوردتين بأنجلترا. أو أنها كانت مشغولةً بخطر زحف الأتراك العثمانيين في البلقان وفي الشرق الأدنَى. وفي شبه جزيرة ايبرية ، كانت قشتالة وأرجون تمران بفترةٍ من القلاقل أقرب ما يكون إلَى الفوضَى المدمرة ، قبل تولّي فرديناند وايزابيلا الحكم. وقد حالت هذه الأوضاعُ ـ إلَى حدٍّ كبيرٍ ـ دون منافسة قشتالة البرتغاليين منافسةً فعالة. وهو ما كان سيحدث لولا تلك القلاقل [38].

وقد حرصت البرتغالُ علَى أن لا تقعَ سبتة في أيدي منافسيها. إذ كانت سبتة قبل ذلك قد اجتذبت أنظارَ قشتالة وحتّى جنوة التي حاول تجارُها الاستيلاء ـ عبثاً ـ علَى سبتة عام 633 هـ [39]. إن مبادرةَ ملك البرتغال ومستشاريه الَى

---

(36) Payne.p. 192

(37) Barbour, N., Lorocco, Mondon 1965, p. 98.

(38) Boxer. p. 18.

(39) Bell. p. 34.
ابن عذاري ، أبو العباس أحمد : البيان المغرب ، القسم الثالث ، تطوان 1960 ، ص 6 ـ 347.

اتخاذ القرار الخاص بتجهيز حملةٍ للاستيلاء علَى سبتة كان رداً علَى بوادر اهتمامات قشتالة، كغارتها علَى تطوان سنة 1400 م، وقبولِها تبعيةَ جزر الكناري (الخالدات) إليها [40].

وفي سنة 1411 م، انتهت الهدنةُ المعقودةُ بين البرتغال وقشتالة وأُبرم سلمٌ بين المملكتين. وكان علَى عرش قشتالة آنذاك الطفلُ خوان الثاني تحت وصاية عمه فرديناند، وكان يصبو إلَى الحصول علَى عرش أرجون لنفسه. مما صرفه عن الاهتمام بقضايا غرناطة والبرتغال. فقرر ملك البرتغال جون الأول ـ وقد أمن خطرَ قشتالة ـ الشروعَ في حملة سبتة [41].

د ـ القرصنة :

يصف المؤرخون الإنجليز والفرنسيون ـ دون البرتغاليين ـ الهجومَ البرتغاليَّ علَى مدينة سبتة سنة 1415 م بأنه كان «ثأراً لأعمال القرصنة المغربية». والواقع أنه مع أن الأندلسيين الذين طُردوا من بلادهم كانوا يُغيرون علَى سواحل إسبانيا وسفنها. فإنه يبدو بأن السفنَ والتجارةَ البرتغاليةَ لم تتعرَّضا لأذى يُذكر. وقد عارض ملكُ البرتغال بادىء الأمر فكرةَ الهجوم علَى سبتة بحجة أن الهجومَ سيؤدي حتماً إلَى قيام المغاربة بالثأر من السفن البرتغالية في مضيق جبل طارق، ممّا سيعرِّض للخطر تجارةَ البرتغاليين المُجْزيةَ بزيت الزيتون والنبيذ مع موانىء البحر المتوسط. وكان الملك من جانبه يحبِّذ القيامَ بهجوم مشترك مع القشتاليين ضد مملكة غرناطة أملاً في أن تستحوذَ البرتغالُ علَى أراضٍ جديدةٍ في شبه جزيرة ايبرية [42].

وقد أخذ المخطِّطون لحملة سبتة في حُسبانهم أن تصبحَ سبتة بعد استيلاء البرتغاليين عليها مأوى تلجأ إليه السفنُ المسيحيةُ الفارَّةُ من غزاة البحر المسلمين من

(40) O'Callaghan,p. 547.

(41) Livermore, H. V., **Portugal**, Edinburgh U.P. 1976, p. 70.

(42) Barbour, pp 97-98

شمال افريقيا. كما يمكن اتخاذ سبتة نقطة انطلاق للسفن البرتغالية المهاجمة لسفن المسلمين. وفي الواقع، فإنه بعد أخذ سبتة أنشأ الوالي البرتغالي بسبتة سفناً كانت تكْمن لسفن المسلمين التي تتردد على مينائيْ جبل طارق ومالقة (43).

إن سيطرة الايطاليين والايبريين على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط ألحقت ضرراً كبيراً بتجارة المغرب واقتصاده. ولما عجز المغاربة عن حماية تجارتهم لجأوا إلى «القرصنة». وهي شكل من أشكال الحرب. تماما كما فعل الأنجليز بعد ذلك بقرنين في صراعهم مع الإسبان (44).

وبعد استيلاء البرتغاليين على سبتة ـ التي فتحت أمامهم باب البحر المتوسط على مصراعيْه ـ لم تلبث سفنهم أن أصبحت من حيث العدد والنشاط كسفن البسكيين في مياهه. فأصبحت مراكب البرتغاليين تقدم خدماتها الملاحية. كما أصبح قرصان البرتغال يفرضون شروطهم. ففي شهر أكتوبر سنة 1501 م، أسروا مركباً جنويا قرب سواحل المغرب، وكانوا إذا أسروا ركابا مغاربة فرضوا عليهم مبالغ كبيرة لافتداء أنفسهم (45).

هـ ـ أمجاد الفروسية :

تعزو الرواية البرتغالية التقليدية قيام حملة سبتة إلى رغبة أبناء ملك البرتغال الثلاثة ـ دوارتي وبدرو وهنري ـ في المشاركة في عمل حربي باسل ما، يؤهلهم للحصول على رتبة الفروسية. وقد وجدوا ضالتهم في الاقتراح الخاص بمهاجمة سبتة. كما أن الفكرة كانت استجابة للمعتقدات الدينية التي ورثوها عن والدتهم فليبا الصليبية النزعة. كانت الحرب في خدمة الله والملك ما تزال العمل المشرف لفارس القرون الوسطى. وبخاصة محاربة المسلمين. وكان للفرسان أن يتوقعوا التكريم

---

(43) Bell, p 34 Livermore, p 109

(44) Larour, p 234

(45) Braudel, F. The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, London 1978, p., 608.

والإنعامات من الملك جزاءً بلائهم في الحرب. فضلاً عن المكافآت المالية والإقطاعية (46). إن الفارسَ من النبلاء الذي كان يحرمه القانونُ من المبارزة في بلده كان يتوجَّه إلَى الخارج ـ إلَى غرناطة أو إلَى سبتة (47).

الرّواية البرتغالية عن حملة سبتة :

إن تواريخَ جوميس إيانيش دي أزورارا ـ وبخاصة تاريخه عن الملك خوان الأول ـ تَروي قصة أخذ البرتغاليين مدينةَ سبتة. بعد عَشْر سنواتٍ من سقوط المدينة في أيديهم ، بأسلوب حكايات الفروسية فتقول (48) : حاول ابنا الملك خوان الأول إقناعَ والدهما بالمشاركة في حملة باهرة لكي يتسنَّى لها أن يُرسَّما فارسين. إلاّ أن الملك عارض فكرةَ الحملة بحجة بُعْد سبتة ، وتكاليف الحملة والتجهيز لها. وما تحتاج إليه من رجال وسفن وعتاد. كما تردَّد في تجريد مملكته من الجند طالما بقي السلمُ مع قشتالة غير ثابت. كما أشار الملكُ إلَى أن المغاربةَ سيذكرون دَوْماً بكل مرارة «هزيمتَهم علَى أيدينا. وسيأخذون في مهاجمة سفننا قرب ساحل اقليم الغرب [بجنوب البرتغال] ». كما قال الملك إن البرتغاليين سوف يفقدون كلَّ أملٍ في إرسال مراكبهم وبضائعهم إلَى مدن حوض البحر المتوسط. وذكَّر بالمصير الذي سيؤول إليه أسراهم في أيدي المغاربة.

وأخيرا تمكَّن هنري من إقناع والده بأنه يقلِّل من قيمة القوات البرتغالية ، وبأنه لا وجهَ للمقارنة بين قشتالة المسيحية وبين «الكفار [المسلمين] الذين هم أعداءٌ طبيعيون لنا». وأضاف بأن تسهيلَ استيلاء قشتالة علَى غرناطة من شأنه أن يعودَ بالفائدة علَى البرتغال. إذ سيُشغل القشتاليين بمشاكل غرناطة مما يجعل البرتغال تنعم بالسلام زمناً طويلا.

---

(46) O'Callaghn, p. 547. Bellp. 32.

(47) Hillgarth, J.N., **The Spanish Kingdoms (1410-1516), Vol. II, Oxford U.P. 1978, p. 62.**

(48) Rézette. R., **The Spanish Enclaves in Morocco, Paris 1976, pp. 29-33.**

وكما هو الحال في كافة الحروب «الجيدة»، بدأت حملةُ سبتة بإيفاد رسلٍ للاستطلاع وجمع المعلومات عن المدينة وتحصيناتها. وجالت في خاطر الملك خطة أشار إليها المؤرخون بأنها حيلة بارعة. فقد سلَّح سفينةً لإرسالها إلَى ملكة صقلية ليعرض عليها الزواجَ من ابنه بدرو. ولما كانت الملكةُ قد أعربت عن ميلها للزواج من دوارتي وارثِ العرش، فإن ملك البرتغال كان لا يشكُّ في أنها سترفض عرضَه. وبذلك أتيحت لرسله فرصةُ الجواز بمدينة سبتة ومعاينةِ ما يريدون.

وتبريراً للاستعدادات الحربية الجارية وحشد الأسطول. قرَّر الملكُ خوان «أن يتحدَّى أميرَ هولندا وأن يهددَه بالحرب إن هو لم يضعْ حداً للأضرار والسرقات التي كان رعاياه يوقعونها بالتجار البرتغاليين المارين بمضائق بلاده». وبالطبع فإن الأميرَ ــ وكان علَى علمٍ مسبقٍ بكل ذلك ــ تظاهر بتصديق الوعيد. ثم بعث الملكُ خوان الأول برسله لاستئجار السفن من جليقية وبسكاي، وحتّى من أنجلترا وألمانيا. كما أن الفرسان الإنجليز والفرنسيين عرضوا عليه خدماتِهم.

لم يُكشف للجند عن هدف الحملة إلاّ بعد إبحار الأسطول، حينما أعلن أحدُ الرهبان واسمه جاو دي شيفا Joao de Xiva قصدَهم مدينةَ سبتة، وتلا عليهم «خطابَ البابا وفيه يغفر ذنوبَ كل من يسقط في قتال الكفار في هذه الحملة الصليبية» (49).

توقَّف الأسطولُ ــ وقوامه 200 سفينة وخمسون ألف رجل ــ في مرسَى الجزيرة الخضراء بعد أن قدَّم الملكُ خوان كافةَ الضمانات لملك قشتالة. وفي البداية صادفت الحملةُ بعضَ التعثر، إذ هبَّت ضبابة كثيفة جعلت الأسطول يتحوَّل إلَى ناحية مالقة بسبب التيارات. ووقعت بعض الاشتباكات مع مسلمي غرناطة الذين حسبوا أن الهجومَ يستهدف أراضيَهم.

كما أن الطاعونَ الوافدَ من لشبونة تفشَّى بين الجند في عدة سفن. ومع ذلك، فإن الأسطولِ توجَّه آخر الأمر إلَى سبتة. ونزل الجنودُ إلَى البر ودارت معاركُ عنيفةٌ

---

(49) Azurara, pp. 84-5.

بين الغزاة والمدافعين عن المدينة الذين أبدوا ـ قبيل نزول الغزاة إلَى البر ـ نشاطاً كبيراً في تعزيز دفاعهم ، وكان بالإمكان مشاهدتُهم وهم يجرون فوق أسوار المدينة ، مما يدلُّ ـ علَى حد قول أزورارا ـ علَى أن الخوفَ كان أبعدَ ما يكون عن قلوبهم (50) .

وخاطب «صاحبُ سبتة صالح بن صالح» ـ كما يذكر أزورارا في تاريخه ـ البرتغاليين بالعبارات التالية : «إننا لا نخشَى هجومَ النصارى علينا . فهم ليسوا كثيرين عددا . وبوسعنا قتالهم . ومن يدري ؟ فلعلَّهم يتيحون الفرصةَ لنا للظفر بنصر كبير ... ومن الممكن أن يقع أسطولُهم في أيدينا . وقد نستعمل أوانيَهم الذهبيةَ والفضيةَ في أعراس أبنائنا ... إن الأسطول ـ كما يقولون ـ قسمان . ونعتقد أنهم سينزلون إلَى البر اليوم . وسوف نذبحهم علَى الشواطىء ، إذ إن أكثرهم مثقلون بالدروع ، لا يَقْوَوْن علَى الحركة إلاّ ببطء وصعوبة . بينما نحن خفاف ونستطيع التحركَ بسرعة ومهاجمتهم . وإذا سقطوا علَى الأرض تَعذَّر عليهم النهوض . وأنَّى لهم ذلك وهم كجلاميد الصخر وزناً» (51) .

ولم يكن بالأمر الهيِّن الهجوم علَى أسوار سبتة الثلاثة المتتالية ، والقتالُ في أزقة المدينة وشوارعها الضيقة التي يسهل الدفاعُ عنها . وقد دامت المعركة خمسَ ساعات دون توقف . وقام المغاربة ـ وهم أكثر عددا وأقلُّ سلاحا ـ بالهجوم دون سلاح علَى الغزاة . ويشيد أزورارا ببلاء محاربٍ مسلمٍ خارجَ باب المدينة فيقول : كان رجلا طويلَ القامة . أسودَ اللون كالغراب . وكان عاريَ البدن . يثير منظره الفزعَ والرعب . ولم يَستعمل سلاحاً سوى الحجارة . وكان الحجرُ الذي يقذف به يبدو وكأنه قُذف من منجنيقٍ أو مدفع بفضل قوة ذراعه . وقد أصاب بحجرٍ قذف به خوذةَ ضابطٍ برتغاليٍّ فأطارها عن رأسه . ولكن هذا الضابطَ رماه برمحه فأرداه قتيلا . ويذكر أزورارا أن السبتيِّين قاتلوا دفاعاً عن منازلهم حتّى النهاية ، مؤثرين الموتَ علَى الفرار . وكانوا ـ وهم عزَّل من السلاح ـ يرمون أنفسهم علَى الجند المسلَّحين مستميتين في

---

(50) المصدر السابق . ص 94 .

(51) نفسه . ص 96 .

القتال. ولم يستسلموا حتّى أمام الكثرة من الجند. وكان من يسقط منهم جريحاً يواصل القتالَ ويلوّح بيده على أعدائه [52].

كان سقوطُ المدينة في أيدي البرتغاليين في 1415/8/21. وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس، قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبتة إلى كنيسة كاثوليكية. وأقيم فيها حفل كبير وتُليت صلاةُ شكرٍ وامتنانTe Deum Laudamus. وجرى في الحفل ترسيمُ أبناء الملك الثلاثة ـ حسب رغبتهم ـ فرساناً، ووُلّي على المدينة الكونت بدرو دي منيزيسPedro de Menezes وتُركت معه حامية قوامها 2700 رجل وسفينتان لحراسة المضيق.

يقول أزورارا إنه ما إن سقطت سبتة في أيدي البرتغاليين حتّى أخذ المغاربةُ من المناطق المجاورة يفدون كل يوم قبالة المدينة، ووقعت معاركُ بينهم وبين الجند الذين هلك بعضُهم في القتال [53].

وبعد سقوط المدينة بثلاث سنوات، قام «أهل فاس وأهلُ غرناطة وملك مراكش وملك تونس وملك بجاية ومعهم الأسلحة والمدافع الكثيرة» بمحاصرة سبتة براً وبحراً. وقد قَدَّرت التواريخُ البرتغاليةُ عددَهم بمائة ألف رجل. بمبالغةٍ تتفق مع الأسلوب المَلْحمي الذي دُوِّنت به تلك التواريخ. وهُرِع الأمير هنري إلَى نجدة المدينة بأسطول جديد. وبعد «أن أوقع مذابحَ بالمسلمين حرَّر المدينةَ وعاد ظافراً إلَى البرتغال». وكان غاضباً لأن «الظروف لم تسمحْ له بأخذ مدينة جبل طارق كما كان قد خطَّط» [54].

روايةُ صاحب (نشر المثاني) والمُحْدثين عن حملة سبتة:

لا تتوفر في المصادر العربية تفاصيلُ كافيةٌ عن حملة سبتة، فيما عدا نتف أوردها

---

(52) نفسه، ص 99، 105

(53) نفسه، ص 112.

(54) Rezette, p. 33

صاحبُ (كتاب الاستقصا) الذي ذكر بأن استيلاء البرتغاليين علَى مدينة سَبتة كان بعد حصار طويل للمدينة. وأنه كان علَى اثر خديعةٍ لجأوا إليها. فقد نقلَ عن صاحب (نشر المثاني) قولَه: «إن النصارى جاؤوا بصناديقَ مقفلةٍ يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسَى كعادة المعاهدين. وذلك صبيحةَ يوم الجمعة من بعض شهور سنة 818. وكانت تلك الصناديقُ مملوءةً رجالا عددهم أربعة آلافٍ من الشباب المقاتلة. فخرجوا علَى حين غفلةٍ من المسلمين واستَوْلَوْا علَى البلد... وسمعتُ من بعضهم أن الذي جرَّأ النصارى علَى ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أميرَ سبتة علَى أن يفوِّض إليهم التصرفَ في المرسَى والاستبدادَ بغلتّها، ويبذلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة. فكان حكمُ المرسَى حينئذ لهم دون المسلمين. ولو كان المسلمون هم الذين يلُون حكمَ المرسَى ما تركوهم يُنزلون ذلك العددَ من الصناديق مقفلةً لا يعلمون ما فيها». ويضيف صاحبُ (نشر المثاني) بأن أهلَ سبتة جاؤوا إلَى سلطان فاس مستصرخين «وعليهم المسوحُ والشَّعرُ والوَبرُ والنِّعالُ السودُ رجالاً ونساءً وولدانا [إلاّ أن السلطان] ردَّهم إلَى الفحص قرب بلادهم، لعجزه عن نُصرتهم، حتّى تفرقوا في البلاد». وما إن تمَّ للبرتغاليين الاستيلاءُ علَى سبتة حتّى قاموا بتحصينها [55]. وينقل الناصري عن مؤرخ برتغالي اسمه منويل ما مفاده أن عبدَ الله بنَ أحمد ـ المعروفَ بسيدي عبو ـ اغتصب المُلْكَ من أخيه السلطان المريني أبي سعيد عثمان. ولكنه «تكدَّر عيشُه بذهاب سبتة... وتكدَّر المسلمون غايةً لفوات هذه المدينة العظيمة منهم» [56].

---

(55) الناصري. أبو العباس أحمد. كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصَى. الجزء الرابع. الدار البيضاء 1955. ص 92 ـ 93.

(56) المصدر السابق. ص 94.

بعد مـائة سنـة ذكر الحسن الوزان أن البرتغاليين بعد احتلالهم سبتة مكثوا فيها «نحوَ ثلاثة أسابيع متوحسين خيفةً من ملك فاس أن يأتي لنجدتها. لكن أبا سعيد [المريني]... تخاذل ولم ينهض لاستردادها. بل بالعكس أتاه الخبرُ وهو في وليمة والناس يرقصون. فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يُقتلَ هو بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين... وهلك معه سبعة من أبنائه... وذلك عام 824 هـ» ـ الحسن الوزان: وصف افريقيا. الجزء الأول. ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط 1980. ص 246.

ويُذكر أن أهلَ سبتة توجَّهوا إلَى فاس ملتمسين مساعدةَ السلطان عبد الحق لدحر المغيرين البرتغاليين. وأرفقوا التماسَهم بهذه الأبيات الضعيفة المؤثرة :

هتك النصارى علينا حرمةَ سبتة غدراً بنقض مواثقٍ وعهود
غدرونا فجرَ عَروبةٍ بصنادقٍ حطَّت صناديدَ صرعة كقرود
ألفان في ألفين مــ ـ أبطالهمُ عظماء أجسام طوالُ قدود
فقصدنا بابك ضارعين لَبوسُنا أخمارُ من شَعْرٍ ونعلٍ سود
فعساك تجبــرُ صَدْعَ قوم خانهم دهرٌ كما للكلّ ثوبُ يهود

وقد صرَّح السلطان بعجزه عن نُصرتهم كما يتبيَّن من الجواب الذي أمر كاتبَه المنجِّمَ بتحريره رداً علَى استصراخهم. وفي الجواب أبيات ضعيفة منها البيتُ التالي :

فقلد عجزت عن الدفاع كمن مضى من عــز آبــاء وأسمهــا جــدود

إلا أن البرتغاليين لم يهدأ لهم بال ولا طاب لهم مقام منذ أن وطئت أقدامهم أرض سبتة، إذ تعرضوا لهجات مستمرة من جانب القبائل من المناطق المجاورة لسبتة والمتطوعين المجاهدين من أنحاء المغرب، وبخاصةٍ مدينة فاس [57]. وتقول الروايةُ البرتغاليةُ إن بدرو دي منيزيس أولَ ولاة البرتغال علَى سبتة كان يرتدي درعَه باستمرار علَى مدى ستةَ عشرَ عاما لكي يكونَ علَى أهبة في حالة وقوع هجوم مرتقب من جانب المسلمين. وكانت هجماتُهم لا تنقطع طوال فترة ولايته (1415 ـ 1437 م) [58].

إن حملةَ سبتة احتاجت إلَى المال والسفن والرجال والأسلحة. أما المالُ، فقد تمَّ الحصولُ عليه من أصحاب المصارف وعن طريق العَبَثِ بالعُمْلة. وأما السفن، فقد جُمعت من كافة موانىء كَنْتِبرية ومنطقة خليج بسكاي [59]. وفي خطاب للملك

(57) ابن تاويت ـ محمد : تاريخ سبتة ـ الدار البيضاء 1982 ـ ص 8 ـ 179.

(58) Rézette, p. 34.

(59) O'Callaghan, p. 547.

أنجلترا هنري الخامس بتاريخ 26 سبتمبر 1414 م ، يأذن لممثل البرتغال بشراء 400 رمح. كما يأذن في خطاب آخرَ بتاريخ 26 يناير 1415 م بشراء 300 رمح ، وبتجنيد عدد من الرجال المسلَّحين (60) .

لم تُجْدِ تحصيناتُ سبتة كما لم يُجْدِ الرماةُ والمدافعون عنها في وجه القوات البرتغالية الغازية . فمع أن أعدادهم كانت كبيرةً إلاّ أن أساسَ نجاح الحملة كان يكن في عامل المباغتة الذي هيَّأه تخطيطُ المغيرين الدقيق لها (61) .

لما وافق ملكُ البرتغال علَى قيام الحملة أصرَّ علَى أن يشاركَ فيها بنفسه أملاً ـ علَى حدّ قوله ـ في أن يغفرَ سفكُه دماءَ «الكفار» ما كان قد سفكه من دماء النصارى (62) .

ومما يُذكر أن صائغاً يهودياً من مدينة يابره Evora طالبَ في سنة 1439 بمكافأة ـ وتسلَّمها ـ في مقابل الخدمة التي أسداها للاستيلاء علَى سبتة ، وفي الحملة الفاشلة ضد طنجة عام 1437 م. إذ ادَّعَى بأنه ساهم فيها «بحصانه وسلاحه وبجنديين من المشاة» (63) .

إن الثغرَ fronteira الجديدَ للبرتغال لم يواجه سوى هجوم واحد ذي بال شنَّه المغاربةُ والغرناطيون معاً عام 1419 . ولكنه فشل بسبب الخلافات في صفوف بني مرين. وفي العام التالي اغتيل السلطان المريني أبو سعيد عثمان ـ كما تقدَّم ـ وتفاقمت بمقتله الحربُ الأهليةُ بالمغرب (64) .

النتائج المباشرة لسقوط مدينة سبتة :

وختاما للبحث نوجز فيما يلي النتائجَ المباشرةَ التي ترتبت علَى استيلاء البرتغاليين

---

(60) Livermore, p. 108

(61) Latham, J.D., "The Strategic Position and Defence of Ceuta..." in **Islamic Quarterly,** 15 (15) 1971, p. 204.

(62) Barbour, p. 98

(63) Boxer, p. 12

(64) جوليان . ص 249 .

علَى مدينة سبتة المغربية ، وهي المدينة التي آلتْ إلَى إسبانيا منذ عام 1580 م حينما ضمَّ ملكُ إسبانيا فليب الثاني البرتغالَ إلَى مملكته . وما زالت سبتة في أيدي الإسبان إلَى اليوم .

كانت النتائجُ الماديةُ لأخذ البرتغاليين سبتة مخيِّبةً للآمال . ولم تَبْدُ للعيان فوائدُ مباشرة نتيجةً للاستيلاء عليها . إن أخذ سبتة لم يكن له سوى أهمية رمزية . ولم تُبذل محاولةٌ لاستغلال احتلالها قبل عام 1437 م بحملة طنجة التي باءت بالفشل (65) .

إن المدينةَ ـ وبخاصة مخازن التجار ومتاجرهم ومنازلهم ـ تعرَّضت لأعمال النهب والسلب من قِبَلِ الغزاة . وذهبت طعمةً للنيران محتوياتُ المتاجر والمخازن من التوابل والثياب الرفيعة والسجاجيد الشرقية (66) .

أما سكان المدينة ، فقد قُتل الكثيرون منهم ، واستُرقَّ بعضُهم ، ونزح عن المدينة المنكوبة من استطاع من ساكنيها . وبعد يومين من سقوط المدينة ، بادر ملكُ البرتغال إلَى تحويل مسجدها الجامع إلَى كنيسةٍ هي اليوم كاتدرائية سبتة .

إن معظمَ التجارة التي كانت تمر بسبتة لما كانت في أيدي المسلمين توقَّفتْ وتحوَّلتْ عنها إلَى موانىء شمال افريقيا الأخرى . وفي حين أن بعضَ أفراد الحامية كانوا يقومون بنهب المزارع والبساتين في أحواز سبتة ، أو بممارسة القرصنة في مضيق جبل طارق . فإن الملكَ لم يَجْنِ من انتصاره مكسباً مادياً يُذكر . فهو لم يَزدْ من إيراداته بل أصبح لزاماً عليه الإنفاقُ علَى حامية المدينة وقوامها نحو ثلاثة آلاف رجل (67) . إن سبتة «وقد خلَتْ من سكانها وأصبحت في عزلةٍ عن المنطقة المحيطة بها أصبحت ـ بعد أن كانت ذاتَ يوم ميناءً مزدهراً ـ عبئاً ثقيلاً علَى الخزانة البرتغالية» (68) .

---

(65) Bell, p. 41. Livermore, p. III Atkinson, p, 98.

(66) Bell, p. 41.

(67) نفسه ، ص 41 .

(68) Laroui, p. 234

وقد مكَّن احتلالُ سبتة البرتغاليين من الحصول علَى بعض المعلومات حول بلاد السودان في أعالي حوضيْ نهريْ السنغال والنيجر. وهي مصدرُ الذهب بالنسبة للمغرب. وكان البرتغاليون يَصْبون إلَى الاتصال المباشر بمصادر الذهب في السودان الغربي إذ لم تكن للبرتغال عُملةٌ ذهبيةٌ خاصة بها منذ عام 1383 م. فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في مثل هذا الوضع [69].

إن الاستيلاء علَى سبتة قوبل بالترحيب في أوروبا المسيحية، وأثار حماساً كبيراً لأنه كان بمثابة حملة صليبية ناجحة. وكان من شأنه تعزيزُ هيبة البرتغال وملكها في أوروبا. كان الأتراكُ العثمانيون يتوغلون آنذاك في شرق أوروبا بعد انتصارهم الكبير في موقعة نيقوبوليس عام 1396 م علَى تحالفٍ مسيحيٍّ باركه البابا. ولذلك فإن العالمَ المسيحيَّ نظر إلَى أخذ البرتغاليين سبتة علَى أنه أولُ هجومٍ مسيحيٍّ مضادٍّ ناجحٍ ضد المسلمين [70]. أضف إلَى ذلك أنه تمَّ بسقوط سبتة الاستحواذُ علَى موقعٍ حيويٍّ علَى ساحل البحر المتوسط، إذ لا يُنْكَر - كما يقول أزورارا - بأن سبتة هي مفتاحُ البحر المتوسط بأسره. وقد حَرِصَ ذلك البرتغال علَى التوكيد بأن استيلاءه علَى سبتة لم يكن باسم البرتغال فحسب، بل باسم العالم المسيحي بأسره [71].

وبعد أخذ سبتة بدأ البرتغاليون في ممارسة أعمال القرصنة في مياه غرب البحر المتوسط. فقد أنشأ والي سبتة البرتغالي سفناً كانت تَكْمنُ لمراكب المسلمين التي تتردَّد علَى مينائيْ جبل طارق ومالقة. وأصبح قراصنةُ البحر البرتغاليون يفرضون شروطَهم علَى المراكب في البحر المتوسط، ويأسرون من فيها من المغاربة ويسترقُّونهم ما لم يقوموا بفداء أنفسهم [72].

إن احتلالَ سبتة يمثّل أولَ استيطانٍ أوروبيٍّ ثابتٍ علَى ساحل المغرب الأقصى. كما أن احتلالَ سبتة كان بدايةً لتوسعٍ استعماريٍّ أدّى خلال القرن الخامس عشر

(69) Boxer, p. 19

(70) Bell, pp 41-42

(71) Rezette, p 33

(72) Livermore, p. 109. Braudel p. 806

الميلادي إلى احتلال العديدِ من موانىء المغرب من قِبل الإسبان والبرتغاليين. كما كان فاتحةَ سيطرة أوروبا على قارتيْ افريقيا وآسيا واستعمار أراضيهما(73) . وبأخذ سبتة أصبح للبرتغال أولُ قاعدةٍ في افريقيا، ومنها أصبح بإمكانها التغلغلُ في القارة الإفريقية بل وشنّ هجومٍ على جبل طارق عبر المضيق (74) . ويبدو أن رحلاتِ الكشوف البرتغالية في المحيطِ الأطلسي، والتي يقترن بها اسمُ الأمير هنري الذي اشتهر ـ خطأً ـ باسم هنري الملاح، بدأت في حدود عام 1419 م، أي بعد سنواتٍ من أخذ سبتة من أيدي المغاربة (75) .

وفي مجال العلاقات المرينية النصرية. فإن سقوطَ سبتة كان يعني أن المغربَ وغرناطة كليْهما أخذا يدركان مدى الخطرِ الداهم. مما أدّى إلى تعاونهما عام 1419 م في شن هجومٍ مشتركٍ على سبتة باء بالفشل. وان وجودَ النصارى بين المغرب وغرناطة وضع حداً لما كان لبني مرين وبني نصر من تأثير في المصير السياسي في البلدين (76) .

إن سقوطَ مدينة سبتة في أيدي البرتغاليين أثار موجةً من السخط والذعر في المغرب والعالم الإسلامي، وكان أحدَ العوامل الرئيسية التي عجّلتْ في نهاية حكم بني مرين. كما أدّى إلى نشاط شيوخ الطرق الصوفية في إذكاء روح التضحية والجهاد في نفوس المغاربة، ذياداً عن الإسلام ودفعاً لعادية الغزاة النصارى عن سبتة وغيرها من مدن المغرب الساحلية التي سقطتْ في أيديهم. «ولم تتوقّفْ القبائلُ المجاورةُ لسبتة عن شنّ الهجمات على حامية المدينة، وتعذّر على الحامية البرتغالية إخضاعُ تلك القبائل. كما تعذّر على البرتغاليين مزاولةُ التجارة من المدينة. واقتضى الأمرُ تزويدَ الحامية بالمؤن عن طريق البحر» (77)

(73) Rezette, p 33. Abun-Nasr, p 133

(74) O'Nallaghan,p. 548

(75) Boxer, p 15

(76) Abun-Nasr, p. 134

(77) Livermore, p. 109

حول «تأريخ الصُّفر»
في المصادر العربية الأندلسية

تستوقف الباحثَ في تاريخ الأندلس عبارةُ «تأريخ الصُّفر»، وهي عبارة كثيراً ما ترد في المصنَّفات الأندلسية عند الحديث عن تاريخ الممالك المسيحية بشمال شبه جزيرة إيبرية كقشتالة وليون وأرجون. في الفصل الذي عقده لسانُ الدين ابن الخطيب في نهاية كتاب (أعمال الأعلام) ـ الجزء الثاني الخاص بالأندلس ـ عن الممالك المسيحية بشمال إسبانيا اعتماداً علَى مصدر قشتالي هو (تاريخ إسبانيا العام) **Primera Cronica General** الذي صُنِّف لصاحب قشتالة الفونس العاشر (حكَم 1252 ـ 1284 م)، يقول ابنُ الخطيب إن بلايه Pelayo نُصِّب ملكاً علَى أشطوريش Asturias «سنة 757 لتاريخ الصُّفر وبموافقة 99 للهجرة». ويقول عن ملكٍ آخر ـ فرويله ـ إنه «ولّيَ في سنة 791 للصُّفر، وبموافقة 133 للهجرة»[(1)].
أما ابنُ سعيد فيقول: «من التاريخ الرومي: إنها [طُلَيطُلَة] إحدى المدن الأربع التي بُنيت في مدة قيصر أكتنيان الذي يؤرِّخ من مدته مدة الصُّفر»[(2)].

ويوجز المقَّرى أقوالَ كبار المؤرخين الأندلسيين إذ يقول: «ذكر ابنُ حيَّان والرازي والحِجارى أن أكتبيان ـ ثاني قياصرة الروم الذي مَلَكَ أكثرَ الدنيا وصفَّح

---

(1) ابن الخطيب. لسان الدين: أعمال الأعلام. تحقيق إ. ليفي ـ بروفنسال. بيروت 1956. ص 323

(2) ابن سعيد. علي: المُغرب في حُلَى المغرب. تحقيق شوقي ضيف. القاهرة 1955. 2/ ص 8.

نهر رومية بالصُّفر [النحاس]. فأرَّخت الرومُ من ذلك العهد، وكان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمانٍ وثلاثين سنة ـ أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ...»[3].

ويتحدث الشريفُ الإدريسي عن نهر رومة [التِّبر] فيقول إنه «نهرٌ... قاعهُ كلُّه مفروشٌ ببلاط النُّحاس لا يستقرُّ به شيء يرسي فيه، وبهذا النهر تؤرِّخ الرومُ فتقول: من تاريخ عام الصُّفر»[4].

إن ما يُعرف بنظام التاريخ الإسباني ـ «تأريخ الصُّفر» ـ ذاع استعماله في إسبانيا المسيحية منذ القرن الخامس الميلادي وظلَّ مستعملاً عبر القرون الوسطى إلى القرن الخامسَ عشرَ الميلادي، وكانت بدايته اليوم الأول من شهر يناير عام 38 قبل الميلاد. وقد تسرَّب استعماله إلى كتب التاريخ العربية بعد فتح الأندلس بعد أن تمَّ تعريبُ عددٍ من كتب التاريخ المسيحية. وفي مقدمتها التاريخُ المنسوبُ للقدّيس إيسيدورIsidore، والتاريخُ العام لهروسيس. أما إيسيدور ـ وهو من أصلٍ بيزنطي ـ فقد كان رئيساً لأساقفة اشبيلية في العهد القوطي. وكانت وفاته في سنة 636 م. وقد لُخِّص تاريخُه وتُرجم إلى اللغة العربية بعيْد افتتاح العرب للأندلس. وأما هروسيسOrosius فهو راهب إسباني ألَّف بطلبٍ من القديس أغسطينSt Augustine عام 418 م أولَ تاريخٍ عامٍّ لكافة الشعوب المعروفة آنذاك لدى الغرب منذ الخليقة، وظلَّ تاريخُه هذا التاريخَ المعتمدَ في أوروبا قروناً عديدة. وقد تُرجم تاريخ هروسيسُ إلى اللغة العربية، وعليه يعتمد ابنُ خلدون في تأريخه للرومان.

يقول ابنُ أبي أُصيْبعة إن ملكَ قسطنطينية بعث في سنة 337 هـ/949 م إلى الخليفة قرطبة الأموي الناصر بهدايا لها قدر عظيم، من بينها «كتابُ هروسيس صاحبِ القصص، وهو تاريخٌ للروم عجيب، فيه أخبارُ الدهور وقصصُ الملوك

---

(3) المقّري. أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت 1968. ص 481

(4) G. Levi della Vida, "The 'Bronze Era' in Moslem Spain" Journal of the American Oriental Society, 69 (1943), p. 185.

الأوّل ، وفوائدُ عظيمة» [5] .

وقد جاء في التاريخ المنسوب لإيسيدور أن أكتافيان قيصر (أغسطس) أصدر في السنة الرابعة لحكمه مرسوماً» يقضي بجمع النحاسِ من كافة أرجاء الامبراطورية [الرومانية] وصهره وعمل صفائح منه ، وبها غطِّي قاعُ نهر التيبر وجوانبه لأن السدودَ علَى قاعه كانت قد تدمَّرتْ بفعل مياه النهر ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح بثمانٍ وثلاثين سنة ، ومنذ تلك السنة جرى التأريخُ بها» [6] .

وجاء في الترجمة العربية لتاريخ هروسيسُ في فقرةٍ أضافها المترجمُ إلَى العربية أن أغسطس «في السنة الرابعة من دولته ضرَب علَى أهل الدنيا الخراجَ من الصُّفر في الآفاق بكل ثمن حتّى أربَى علَى ثمن الذهب ، فجمع منه شيئاً كثيراً وضُربت منه ألواحٌ ضخامٌ وأوتاد فُرِّش بها وادي رومة وأجرافه طول أربعين ميلاً ... فبلغ بذلك الناس مبلغاً اتخذوه تاريخا ، وهو تاريخُ العجم إلَى اليوم» [7] .

وفي أواخر العشرينات من هذا القرن ، قامت باحثةٌ إيطاليةٌ بتحقيق مخطوطٍ يمنيٍّ فريدٍ في الجغرافيا من مكتبة أمبروسيانا Ambrosiana بمدينة ميلانو ، وهو يرجع إلَى القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي . وينقل صاحبُ المخطوط عن مصدرٍ قديمٍ هو إسحاق بن الحسين المنجِّم ، وعنه يقتبس كلٌّ من الإدريسي وابنِ خلدون ، ولعلَّه من أصلٍ أندلسي . وفي وصف رومة ، يقول إسحاقُ بن الحسن في جملةٍ مبتورةٍ في المخطوط : «لأن ذلك النهَر مفترَشٌ بالصُّفر... علَى جميع أهل عمله ، فاجتمع من الصُّفر شيءٌ عظيم ، ففرَّش منه حافةَ النهر فيما يقابل المدينة ، فمن حينئذ تؤرخ النصارى من الصُّفر» [8] .

---

(5) المرجع السابق، ص 186.

(6) المرجع السابق . ص 187 .

(7) ابن أبي أصيبعة . أحمد : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا . بيروت 1965 . ص 493 ـ 494 .

(8) Levi della Vida, p. 188

يتبيَّن مما تقدَّم أن عبارةَ «تأريخ الصُّفر» مصدرُها كتب التاريخ الإسبانية المسيحية قبل افتتاح العرب للأندلس، وهي الكتبُ الّتي أوردتْ روايةَ تصفيح نهر التيبر بالصُّفر [النحاس] الذي تمَّ الحصولُ عليه من الجباية الّتي أمر أغسطس بتحصيلها عام 38 ق.م. ولما كان بعضُ هذه الكتب ـ وفي مقدمتها تاريخا هروسيسُ وإيسيدور ـ قد نُقل إلَى اللغة العربية أو تمَّ تلخيصُه بعد فتح الأندلس، فإنها كانت المصدرَ الذي أخذ عنه المؤرخون الأندلسيون عبارةَ «تأريخ الصُّفر» عند حديثهم عن الممالك المسيحية بشمال شبه جزيرة إيبرية، وقد شاع استعمالُ هذه العبارة في الأندلس دون المشرق.

وينبغي أن لا يُخلطَ بين عبارة «تأريخ الصُّفر» وبين تسمية العرب للروم ببني الأصفر، وهي التسميةُ الّتي بدأت في المشرق منذ ما قبل الإسلام، وانتقلتْ في جملة ما انتقل من المشرق إلَى الأندلس [9]. وحسبُنا الإشارةُ إلَى قول ابن الأبار البلنسي مفتخراً بانتصارات العرب علَى الروم في صدر الإسلام «ويا عَجَباً لبني الأصفر، أنسيتْ مرجَ الصُّفَّر ورميَها يوم اليرموك بكل أغلبَ غضنْفر» [10]. وكقول حسان بن المصيصي يمدح المعتمدَ بن عباد صاحبَ اشبيلية ويهوِّن عليه الإتاوة الّتي كان يؤديها المعتمدُ إلَى صاحب قشتالة الفونس السادس اتّقاءً لشرِّه ودفعاً لعاديته:

فترسله للصُّفر أصفر عسجدا وأنِ خالفوا أرسلت أبيض مِخْذَما [11]

---

(9) ينظر (لسان العرب) تحت كلمة «صفر» و(دائرة المعارف الإسلامية). الطبعة الثانية باللغة الإنجليزية، ليدن ـ لندن. المجلد الأول (1960). تحت مادةasfar بقلم أ. جولد تسيهر. ص 688.

(10) ابن عبد المنعم الحميري. محمد: الروض المعطار. تحقيق إحسان عباس. بيروت 1975. تحت مادة «بلنسية». ص 100.

مرج الصُّفَّر موضع بغوطة دمشق كان به وقعة للمسلمين على الروم بعد عشرين يوما من وقعة أجنادين والأغلب الذي يَغلبُ سريعا. والغضنفر: الأسد.

(11) ابن بسام الشنتريني. علي. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس. الدار العربية للكتاب 1978. 1/2. ص 248.

العسجد هو الذهب. والأبيض المِخْذَم: السيف القاطع.

دوْر صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية إلَى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي

تمهيـــــد :

بدأ افتتاحُ العرب لجزيرة صقلية من أيدي الروم البيزنطيين في عهد الأغالبة أمراء افريقية في صيف عام 212 هـ/827 م، وسُرعان ما استولَوْا علَى معظم الجزيرة واتخذوا بلرمُ عاصمةً لهم. وقد بقيت جزيرةُ صقلية تحت السيادة العربية نيِّفاً وقرنين ونصف القرن من الزمن (212 ـ 484/827 ـ 1091 م). كما سيطر العربُ علَى جنوب إيطاليا (قِلَّوريَّة وبولية) لعدة سنوات، وأقاموا إمارة عربية بمدينة باره (باري) عاشتْ نحو ثلاثين عاما.

وقد بلغت جزيرةُ صقلية أوجَها الحضاريَّ في عهد ولاتها الفاطميين بني أبي الحسين الكلبيين (336 ـ 431 هـ/947 ـ 1040 م). إن فترةَ السيادة العربية علَى جزيرة صقلية تميَّزتْ إجمالاً بالتسامح الديني والارتقاء الحضاري، كما تميَّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري.

أحدث العربُ تغييراً مهماً في نظام مِلْكية الأرض وتوزيعها. والمفرداتُ العربيةُ الكثيرةُ في اللهجة الصقلية شاهدٌ علَى مبلغ اهتمام العرب بالزراعة. فقد أدخلُوا إلَى الجزيرة ـ كما فعلوا في الأندلس ـ عدداً من النباتات الجديدة، كما وسَّعوا من رقعة الأراضي المفلوحة باستخدام وسائل الري.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي شهدت صقلية فترة من الفتن والمنازعات الداخلية ، مما أطمع فيها النورمانَ بجنوب إيطاليا ، فغزَوْا الجزيرة في عام 1061 م. علَى أن استيلاءهم علَى صقلية لم يكن بالأمر الهيِّن . فقد صمد العديدُ من المدن والمعاقل في وجههم نحو ثلاثين عاماً قبل أن يتمَّ لهم فرضُ سيادتهم علَى كامل الجزيرة عام 1091 م.

حكَم النورمانُ صقلية قرناً من الزمن (1091 ـ 1194 م) ، ولما كانوا قلَّةً وحديثي عهد بالحضارة ، فإنهم اعتمدوا علَى العرب في الإدارة وفي الدواوين والجيش والبلاط الملكي ، وفي كافة أعمال البناء والتشييد. وكان لثاني ملوك النورمان رجار الثاني عباءةٌ ملكيةٌ صُنعتْ بدار الطراز ببلرم طُرِّزتْ علَى حاشيتها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي والتاريخُ بالسنة الهجرية 528 (= 1133 م) . ولرجار الثاني ـ وتحت رعايته ـ صنَّف الشريفُ الإدريسي كتابَ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعروفَ كذلك بكتاب رجار. وظلَّتْ العُملةُ العربيةُ ـ وهي المعروفة بالرُّباعي ، أي ربع الدينار ـ العملة المتداولةَ في صقلية وجنوب إيطاليا.

وبعد النورمان ، وفي عهد الإمبراطور فردريك الثاني من الأسرة الألمانية السوابية أو أسرة هوهنشتاوفن (1198 ـ 1250 م) ـ وكان شديدَ التعلق والتأثر بكافة أوجه الثقافة العربية الإسلامية ـ بقيت ـ بل وازدهرت ـ الثقافةُ العربيةُ في الجزيرة بفضل اهتماماته بالعلوم العربية الإسلامية وصلاته الواسعة مع سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب. إلاَّ أن الحالَ تبدَّل في عهد شارل دانجو الذي انتزع الجزيرةَ من ابن فردريك عام 1266 م ، وكان شارل هذا من غلاة الكاثوليك ، كأخيه الملك الفرنسي لويس التاسع ، فأكرهَ مسلمي الجزيرة علَى التنصُّر أو الرحيل.

إن دَوْرَ صقلية في انتقال التراث الفكري العربي الَى بقية بلدان أوروبا دون دَوْر الأندلس ، ومع ذلك ، فإن عظمة مملكة صقلية النورمانية في القرن الثاني عشر الميلادي أدَّتْ ـ بفضل مسلمي الجزيرة ـ إلَى قيام حركة النهضة الإيطالية

يقـول أحدُ كبار المؤرخين المعاصرين من المتخصصين في تاريخ صقلية الوسيط

والحديث إن معلوماتنا عن تاريخ فترة السيادة العربية علَى جزيرة صقلية يكتنفها شيءٌ من الغموض لقلة المصادر التي وصلتنا من تلك الفترة. والمؤرخون النصارى الذين كتبوا في عهد النورمان عن تلك الفترة كانوا جهلةً ومتحيّزين، فنزعوا إلَى التقليل من شأن منجزات العرب أو إلَى إغفالها بالمرة. إن إسهامَ العرب في تاريخ صقلية وحضارتها نستدلُّه من اثرهم الحضاري الكبير في الفترة النورمانية. فالنورمان اعتمدوا اعتمادا كبيرا علَى مهارة العرب الصناعية والحِرْفية وعلَى تقاليدهم الإدارية، وهذا الاعتراف بالماضي دليلٌ قاطعٌ علَى جودة ووفرة ما قدَّمه العرب في الفترة التي سبقتْ مجيءَ النورمان. وإلَى اليوم نجد في لهجة صقلية مئاتِ المفردات والتعابير العربية. ولولا قدومُ النورمان إلَى الجزيرة ـ ولغتُهم لاتينية ـ لكانت صقلية تتكلم اليوم لغةً قريبةً من اللغة المالطية، وهي لهجة عربية (1).

في عهد رجار الثاني وعهد حفيده فردريك الثاني فقط بدأ التأثير العربيُّ يتسرب إلَى الحياة اللاتينية في القرون الوسطَى من جزيرة صقلية، التي وُصف تاريخها بأنه «صة مصغَّرة للحضارةِ الأوروبية، ففيها التقتْ عدةُ حضارات في القرون الوسطَى، أهمُّها اليونانية والعربية واللاتينية (2). ومع أن صقلية لم تكن المعبرَ الوحيدَ الذي انسابت منه علومُ العربِ واليونان غربا «إلاّ أنه لم يحدث في مكان آخر [غير صقلية] أن قامت الحضاراتُ العربية واليونانية واللاتينية جنبا إلَى جنب في سلمٍ وتسامح» (3).

استمر في بلرم التقليدُ العلميُّ العربي. وكان البلاطُ النورمانيُّ الوارثَ المباشرَ لحضارة صقلية العربية. كان بلاطُ رجار الثاني مركزاً للعلوم، وكان للملك اهتمام خاص بعلميّ الفلك والتنجيم. وقد صنع له مهندسٌ عربيٌّ آلةً لرصد الساعات لم يَبْقَ مما يدل عليها سوى لوحة رخامية عليها كتابةٌ باللغات الرسمية الثلاث اللاتينية واليونانية

(1) Smith, D.M., **Medieval Sicilu, London 1968,pp. 11-12.**

(2) Metlizki, D.,**The Matter of Araby in Medieval England** Yale U. P. 1977., p. 7.

(3) **Haskins, C.H., The Normans in European History, U.S.A. 1966, p. 235**

والعربية. وقد جاء في النص العربي: «خرج أمرُ الحضرة الملكية... لعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية [بلرم] المحمية سنة ست وثلاثين وخمسمائة [1142 م]».

كان لعلماء صقلية مكانةٌ مرموقةٌ في تاريخ العلوم الأوروبية، فقد عرفوا التحليلَ الهندسي والرياضياتِ التطبيقية. وكان بين أيديهم كتابُ (المجسطي) لبطلميوس، وهو العمدة عند القدامى في علم الفلك. كما أن مدرسةَ سالرنه الطبية كانت في طليعة مدارس الطب بأوروبا، وكانت تتوفر في صقلية المكتباتُ والمخطوطات[4].

ومما يُؤثر عن أحد رجال البلاط في بلرم في منتصف القرن الثاني عشر قولُه لطالبٍ انجليزيٍّ اسمُه روبرتوس كان يزور صقلية ثم أخذ يستعدُّ للعودة إلى بلاده: ولِمَ العجلة؟ ولماذا لا تبقَى في صقلية التي هي جنةُ أهل العلم؟[5].

كانت اللغةُ العربيةُ لغةَ العلم دون سواها في العصر الوسيط. وبسبب تفشّي الجهل في أوروبا آنذاك كان الناس ـ منذ مطلع القرن الثاني عشر ـ يتوجهون إلَى صقلية والأندلس للتعرف علَى أسرار الكون وعلومه. وبالرغم من الإقبال علَى طليطُلة، فإن البعض رأى أن صقلية كانت تحظَى بمزيةٍ كبرى لأنها كانت ثقافياً ما تزال جزءاً من العالم العربي، كما كانت علَى اتصال بالشرق اليوناني. ففي صقلية دون سواها كان يمكن دراسةُ الحضارتين العربية واليونانية مباشرةً والمقارنة والجمعُ بينهما[6].

كان للحضارة العربية في صقلية كلُّ الأثر علَى اهتمام فردريك الثاني منذ صباه بالعلوم، وعلَى نزعته المتفتحة وحبِّه للاستطلاع والتقصّي. وكان فردريك علَى اتصال شخصي أو بالمكاتبة بالعلماء العرب المبرزين في الرياضيات، والفلك، والمناظر، والفلسفة. وكانت الرياضةُ المحبّبةُ إليه الصيدَ بالبيزان، وقد وضع له

---

(4) Haskins, C.H., **Studies in the History of Medieval Science**, New York 1967, pp. 189-190.

(5) Metlizki, p. 9.

(6) Norwich, J.J. **The Kingdom in the Sun**, London, 1976, pp. 103-104 Smith, p. 61

صَقَّارُه العربيُّ مؤمن رسالةً في هذا الموضوع تُرجمتْ إلى اللاتينية وكانت مصدراً اعتمد عليه فردريك في رسالته عن الصيد بالبيزان.

إن الكتبَ النادرةَ والأجهزةَ العلميةَ هي الهدايا التي كان يرحّب بها فردريك كلَّ الترحيب. وكانت الهديةَ الأثيرةَ لديه تلك التي بعث بها إليه سلطانُ دمشق الأشرف، وهي عبارة عن جهازٍ في خيمة يمثل النظام الشمسي وحركات الكواكب(planetarium، وكانت تتحرك فيه الأجرامُ المصنوعةُ من الفضة في مداراتها بفعل آلةٍ خفية [7].

وقد صنع مهندسون عربٌ للنورمان مجانيقَ وأبراجا متحركة للحصار، كما أفاد رجار الثاني من مهارات المهندسين العرب وخبراتهم عند تشييده تحصينات مدينة باره (باري). وجنّد حفيدُه فردريك الثاني رمـاةً من العرب في جيشه، وزوّده الصُّنّاعُ العربُ بأسلحةٍ وسهامٍ مسمومةٍ من صنعهم ليستعملها جندُه في حروبهم في شبه الجزيرة الايطالية [8].

ومن الطريف أن إحدى شارات المُلْك، وهي المظلة، قد أخذها ملوكُ النورمان في صقلية عن الخلفاء الفاطميين في مصر. يقول ابنُ حماد إن المظلةَ التي اختُصَّ بها العُبيْديون من دون سائر الملوك «شبهُ دَرقةٍ في رأس رمح مُحكمَةِ الصُّنع، رائقةِ المنظر، ظُرفٌ من الصناعة في الصياغة ونظمِ الأحجار الغالية... يُمسكها فارس من الفرسان يُعرف بها، فيقال صاحب المظلة... فيحاذي بها الملكَ من حيث كانت الشمسُ يقيه حرَّها بظلِّها... ولا يُعلم أحدٌ من الملوك اتخذ هذه المظلةَ إلاّ بنو عُبيْد [الفاطميون] خاصةً، ثم ملكُ الروم بصقلية، وحُسب أنهم أهدَوْها إليه في بعض هداياهم، وكأني سمعتُ بهذا» [9].

---

(7) أحمد. عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية. تعريب وتعليق أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا ــ تونس 1980. ص 98.

(8) أحمد. عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية. ص 77. 121.

(9) ابن حماد. محمد: أخبار ملوك بني عُبيْد وسيرتهم. تحقيق م. فوندرهايدن. الجزائر. 1927. ص 14 ــ 15.

إن رائـد الدراسات العربية في أنجلترا أديلارد الباثي(Adelard of Bath) تلقّى بدايةَ علومه العربية في صقلية ، فقد زار الجزيرةَ في شبابه بحثاً عن المعرفة ، ومنها توجّه الَى بلاد الشام لكي ينقطعَ لدراسة العلوم العربية . ولما عاد إلَى أنجلترا ـ بعد غَيْبةٍ دامت نحوَ عشرين عاما ـ استاء لما وجده في بلاده من نفورٍ من العلوم العصرية ، وكانت في زمنه مرادفةً للدراسات العربية ، فألّف كتابَ (المسائل الطبيعيةQuestions Baturales)وفيه يُبدي انبهارَه بنظرة العرب العلمية وتقدمها علَى المدارس اللاتينية ، وبخاصة الوسائل التجريبية في العلوم العربية . وقد صيغ الكتابُ علَى نَهْج علماء المسلمين ـ علَى طريق المسألة والجواب ـ وهو يصرّح بأن غرضه هو شرحُ ما «تعلّمه من أساتذته العرب بإرشاد العقل» . وهو يقول إنه تعلّم من أساتذته العرب (Arabici magistri) أن الطبيعةَ لا تقوم عَشوائياً ودون حكمة[10] .

وفي مجال الشعر ، يرى ميشيل أماري ـ كبيرُ مؤرخي صقلية الإسلامية ـ أن ثمة صلةً بين الشعر العربي الذي نُظم في صقلية وبين الشعر الايطالي المبكّر الذي نظم في الجزيرة . وكان الشعرُ باللغة الدارجة يُنشد في بلاط فردريك الثاني علَى طُريقة التروبادور من جنوب فرنسا الذين تأثروا بدوْرهم بالموشحات والازجال الأندلسية . ويرى بعضُ الباحثين أن بحورَ الشعر الشعبي المبكر الذي نُظم في إيطاليا ـ كأغاني الكرنيفالات والقصائد الروائية ـ تشبه كثيراً بحورَ الأزجال الأندلسية وأوزانَها . ومن ناحية أخرى ، فقد يكون الشعرُ باللغة الدارجة الصقلية تأثّر بالشعر الشعبي العربي المنظوم في الجزيرة ذاتها[11] .

ويرى الباحث الايطالي تشيرولي (Cerulli) أن كتابةَ القصة الايطالية يمكن تتبعُ أصولها إلَى مصادرَ عربية ، واستمر هذا التأثير العربي علَى كتابة الحكايات الايطالية إلَى القرنِ السادس عشر[12] .

---

(10) Metlizki pp. 28, 47, 54.

وانظر الآية الكريمة (أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سدى) . سورة القيامة . آية 26 .

(11) أحمد . عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية . ص 107 .

(12) المصدر السابق . ص 110 ـ 111 .

وفيما يلي نعرض بإيجاز إلَى الدَّوْر الذي قامت به صقلية في انتقال العلوم والمعارف العربية إلَى أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد في عددٍ من المجالات هي ـ علَى التوالي ـ مجالات الزراعة والصناعة والعملات والجغرافيا والطب والرياضيات والفلك والتنجيم والمناظر (البصريات) والفلسفة والمنطق والتاريخ الطبيعي والصيد بالبيزان.

الـزراعـــة :

يشاطر المستشرقُ الإيطاليُّ جابرييلِّي المؤرخَ الكبيرَ للمسلمين في صقلية ميشيل أماري الرأي بأن حكم العرب لجزيرة صقلية كـان إيجابياً ونافعاً بفضل التغييرات التِي أدخلها العرب علَى أحوال الجزيرة الاقتصادية والاجتماعية ، فقضت علَى نظام المِلكيات الواسعة للأراضي latifundia ، وبعثت الملكيات الصغيرة . كما أنعشتْ وأثرتْ الزراعةَ الصقليةَ بأساليبَ ومحاصيلَ جديدة . إن الأهمية الحاسمةَ للفترة العربية في هذا المجال تدل عليها المفرداتُ في الحياة الاقتصادية ، وهي المفردات التِي بقيت في اللغةَ الصقلية ـ وانتقلتْ منها إلَى اللغة الإيطالية ـ ومعظمُها في مجال الزراعة والريّ والأدوات الزراعية والمنزلية وغلات التربة [13] .

وفي الفترة النورمانية التِي أعقبت الفترةَ العربية انعكس الحال ، إذ عادت المِلكياتُ الزراعية الواسعة باستحداث أوقاف الأديرة وظهور الإقطاع علَى النمط الفرنسي مما ترك أثراً سيّئاً علَى الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الفترات اللاحقة . «وتبقَى الفترةُ العربيةُ في الواقع الذروةَ التِي بلغتْها صقلية فيما يتعلق باستغلال موارد الجزيرة والحياة المادية المتصلة بها» [14] .

أصبحت صقلية في العهد العربي بلاداً زراعية غنية . فقد أدخل العرب نظاماً جديدا للزراعة يقوم علَى إنشاء المصاطب terracing والصهاريج لضخ الماء

---

(13) Legacy of Islam (2and edn), Oxford U.p. 1974, P. 75.

(14) المصدر السابق ، ص 76 .

للري(15). وفي صقلية غرس العرب اشجار النارنج والليمون (من أهم صادرات صقلية اليوم)، كما ادخلوا زراعة قصب السكر وطريقة عصره بالأرحاء لأستخراج السكر. وكانوا أول من أدخل الي صقلية بذورَ القطن وأشجار التوت وتربية دودة القز وزراعة النخيل وشجر السماق - لأغراض الدباغة والصباغة- ونبات البردي (ويُسميِّه ابن حوقل البربير) والفتسق الحلبي والبطيخ، مما أحدث تغييرًا جوهريًا في اقتصاد الجزيرة. ولعل الفضل يعود الى العرب لإدخالهم زراعة الأرز الى صقلية. كما جلب العربُ من شمال افريقيا نوعًا صلبًا جدًا من القمح يصلح له مناخُ صقيلية وتربتُها، وهو يعطي غلّةً ضَئيلةً ويعسُر طحنُه، إلا انه يحتوي على نسبة عالية جدا من البروتين، وينمو نموًا حسنا في المناخ الحار، ولا يحتاج إلا الى القليل من الأمطار. وكان قبل كل شيء صالحًا للخزن دون ان يفسد، وعلى ذلك فإنه كان مثاليًا للحفظ والخزن لمواجهة حالات المجاعة ولتزويد المراكب به لملاحيها وركابها(16).

ويلاحظ ان زراعة القطن اختفتْ من صقلية في القرن الرابع عشر حينما خلت الجزيرة من سكانها المسلمين.

وما زال النارنج يعرف في صقلية naranza، كما يقال لزهره zagara. وتشهد بالدور الكبير الذي قام به العربُ في إنماء فلاحة صقلية المفرداتُ العربيةُ العديدةُ المتصلةُ بالزراعة والباقية في اللهجة الصقلية مثل الناعورة noria والجابية geb-bia، والسانية senia والساقية zachia والمعصرة mazzara(17).

الصناعة

من أهم المساهمات النافعة التي قدّمها العربُ لأوروبا صناعة الورق، ولولا

---

(15) Norwich, p 53.

(16) Smith , p 22.

(17) مورينو، مارتينو ماريو : المسلمون في صقلية، بيروت 1968، ص 34.

الـورق مـا قمت المطـابعُ ولا انتشرت الكُتب والمعارف بين النـاس. وقبل صنـاعـة الورق، كـانت الكتابةُ إمـا على ورق البردي وإما على الرق، ثم أخذ العربُ صنـاعة الورق عن الصنيين في أواخر القرن الثامن الميلادي، وسرعان ما وصلت صناعتُه من المشرق الى الأندلس وصقلية.

وكان ببلـرم واحدٌ من أول مصـانع الورق في اوروبـا. وتوجـد وثيقة تحمل تـوقيع صاحب صقلية مـؤرخةٌ بسنة 1102م، وهي أقدم وثيقة ورقية مؤرخـة تم اكتشافُها حتى الآن (18).إن اساليب صناعة الـورق لم تصل الى الغرب قبل القرن الثالث عشر حينما بدىء بإقامة مصانع للورق في ايطاليا وجنوب فرنسا(19).

ومن صقلية ـ وبلاد الشام وصلت اساليبُ تربية دودة القز وصناعة المنسوجات الحريريـة إلى ايطاليا، وبحلـول القرن الثالـث عشر أصبحت المنسوجاتُ الحريـرية الصناعةَ الرئيسيـةَ في العديد من المدن الإيطالية. وقد شجَّع فـردريك الثاني صناعة المنسوجات الحريرية في صقلية وقلَّوريَّـة، وهما أول مكانين في ايطاليا ينتجان الحريرَ منذ العهد العربي. ومما يـذكر ان ريتشارد الأول (الملقّب بقلب الأسد) ملك انجلترا استحوذ اثنـاء وجوده في مسينـة بصقلية سنـة 1191م على سرادقٍ من الحريـر كان يتسع لعدة مئات من الأشخاص في مأدبة عشاء(20)

أدخل الأمير الأمويُّ عبد الرحمن الثاني (الأوسط) الى الأندلس فكرة دار الطراز، وهو مصنع بجوار القصر ينتج ثيابا «طرازية» فاخرة للبلاط يطرَّز على حاشيتها اسم الأمير، ويُشرف على الـدار صـاحبُ الطـراز. وكـذلك كـان الحال في صقليـة «ابنـة الأندلس» ـ كما ينعتُها الـرحالة ابن جبير ـ حيث ازدهرت صناعـةُ الحرير في عهدها العربي. وفي بلرم اشتهرت على عهد النورمـان ـ وكان مما آل اليهم من العرب ـ دارُ الطـراز وعـمالُهـا كلُّـهـم مـن المسـلمين، وفـيها صُنعـت عـبـاءة رجـار الثـانـي

---

(18) Norwich, J. J., Thez normans in the south, London 1981 p. 177

(19) Lombard , M, The Golden age of Islam, The Netherlands 1975, p. 192.

(20) Smith , p 58

الشهيرة ـ الموجودة حاليا في أحد متاحف فيينا ـ وهي مصنوعة من الحرير الأحمر وموشاةٌ بالذهب ، وعليها رسوم رائعة لنمورٍ تفترس إبلاً . وتنص الكتابةُ العربيةُ المطرَّزة في حاشيتها علَى أنها من صنع دار الطراز ببلرم سنة 528 (=1133 م) [21] .

ومما يُذكر أن صاحب أرجون جيمس الثاني أرسل بعد امتلاكه صقلية صُنَّاعاً مسلمين للحرير من إسبانيا إلَى صقلية وجلب صناعاً مسلمين للقطن من صقلية إلَى إسبانيا ، وذلك للاستفادة من خبراتهم كما يجري اليوم في تبادل الخبرات الفنية بين الدول [22] .

كانت زراعةُ قصب السكر من أهم المحاصيل التي أدخلها العرب إلَى كل من صقلية والأندلس . وكان قصب السكر يُزرع علَى نطاق واسع في الحقول المروية حول بلرم . وقد جلب فردريك الثاني خبراء لتدريب المبتدئين في صناعة السكر ، وهو فن يبدو أنه تدنَّى بعد نزوح الصُّنَّاع العرب عن الجزيرة [23] . إن تكرير السكر ـ وهو ابتكار صيني ـ انتقل عن طريق العرب في صقلية والأندلس إلَى الأوروبيين الذين كانوا يستعملون العسلَ للتحلية ، ولم يعرفوا صناعةَ السكر إلَى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد [23] . وفي تسميات السكر بمختلف اللغات الأوروبية ـ وهي مقتبسة من كلمة (سكَّر) العربية ـ دليل علَى انتقال صناعته إلَى أوروبا عن طريق العرب في كلٍّ من صقلية والأندلس .

يتحدث الشريفُ الإدريسي عن بلدة الترابعة إلَى الشرق قليلا من بلرم ـ وتُعرف اليوم باسم Trabia ـ فيقول إنها «محل ... به مياه جارية ، وعليه كثيرٌ من الأرحاء . ويُصنع بها من الأطرية ما يُتجهَّز به إلَى كل الآفاق من جميع بلاد قلّوريَّة [جنوب إيطاليا] وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد النصارى ، ويُحمل منها الأوساقُ

---

(21) Norwich, p. 132.

(22) Glick, Th. F., **Islamic and Christian Sapin...**, Princeton U P. 1979.p. 222

(23) Smith, p. 58.

(24) Glick, p. 245

الكثيرة»[25]. والأطرية ـ علَى حد قول الباحث الإيطالي مارتينو مورينو ـ هي المكرونة الرقيقة غيرُ المثقوبة (الشعيرية)vermicel، ولا تزال تُعرف عند الصقليين باسمetria وعند أهل مُرسية بشرق إسبانيا باسمeletria[26]. ويذكر الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم، ص 166) أن الأطرية من طعام أهل الشام.

العُمْـــلات :

طوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية (القرن الثاني عشر للميلاد) كانت عُملاتُهم تُضرب وعليها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي، وبعضها يحمل التاريخَ الهجريَّ وعبارةَ (محمد رسول الله)[27].

إن عُملةَ رجار الثاني (حكَم 1111 ـ 1154 م) كانت تحمل لقَبه العربيَّ (المعتز بالله)، تقليدا للفاطميين الذين كانت تتبعهم جزيرة صقلية قبل قدوم النورمان، فضلا عن لقبٍ مسيحيٍّ باللغة العربية (ناصر النصرانية)[28].

وفي الفترة النورمانية ظلَّ الرُّباعي ـ أي ربع الدينار الفاطمي ـ العُملةَ الرئيسيةَ المتداولةَ في صقلية. وعلَى منواله ضُربتْ عُملةٌ نورمانيةٌ عُرفت باسم (طريtari)، وكانت كالرُّباعي شكلاً وقيمة.

وقد دلَّل استاذنا سامويل استيرن من جامعة أكسفورد على أن العملة المعروفة عند النصارى باسم tari مشتقة الاسم من الكلمة العربية (طرِي) بمعنَى حديث الضرب، وهي صفةٌ استعملت في جزيزرة صقلية الإسلامية لنعت الرُّباعي[29].

---

(25) المكتبة العربية الصقلية. نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم جمعها ميشيل أماري. ليبسك 1858. ص 30.

(26) مورينو. ص 35.

(27) Smith, p 17

(28) أحمد. عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية. ص 73.

(29) Stern, S.M., "Tari", **Studi Medievali**, Spoleto 1970,pp. 180,205.

وبعد انتهاء الفترة النورمانية من تاريخ صقلية (1194 م) ظل الطري يضرب في عهد فردريك الثاني وعقبه من أسرة هوهنشتاوفن الألمانية، كما بقي الطري عُملةً متداولةً في صقلية وجنوب إيطاليا بعد ذلك بزهاء خمسة قرون.

واستعمله فرسانُ القديس يوحنا (الإسبتارية) في جزيرة مالطة فأطلقوا على عُملتهم الفضية اسمَ (طري) ابتداءً من حكمهم الجزيرة سنة 1530 م. ويبدو أن الطري بقي متداولاً في جزيرة مالطة في القرن التاسع عشر، إذ تنص وثيقةٌ مالطيةٌ على أنه «في 11 مارس 1814 م تركتْ سيدةٌ مالطية... وصيةً خصّصتْ بموجبها لعبديْها عقداً ذهبياً وعلاوةً يوميةً مقدارها 4 طري لكلٍّ منهما مدى حياتيهما»[30].

وانتقلت العُملةُ والتسميةُ (طري) إلى جنوب فرنسا وقطالونيا بشمال شرق إسبانيا، فهي في البروفنسالية في القرن الثالث عشر tarin وفي القطلانية tari منذ عام 1305 م[31].

ولما كانت الصلةُ وثيقةً بين أنجلترا النورمانية وبين صقلية النورمانية منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي فيبدو أن أشهرَ نظامٍ أنجلو ـ نورماني مالي هو the exchequer وسجلاتِه كانت بداياته في الديوان العربي الصقلي، وكان يتولّى إدارتَه للنورمان موظفون مسلمون، ويحتفظون بدفاترَ أو سجلاتٍ كبيرة. وهكذا، فلعلَّ نظام الخزانة في أنجلترا مقتبسٌ عن أصول إسلامية صقلية[32].

الجغـرافيـا :

أفاد الأوروبيون كثيراً من كتب الجغرافيا والرحلات العربية. فلم تعرف أوروبا داخلَ القارة الإفريقية إلاّ عن طريق الكتابات والخرائط العربية التي ظلّت مرجعَ الأوروبيين الوحيد عن تلك المناطق حتّى القرنِ التاسعَ عشر. وكرويةُ الأرضِ لم تكنْ

(30) Wettinger, G., "The Abolition of Slavery in Malta,", in Archivum, N. 1 (1981), p.11.

(31) Stern, pp 189-191

(32) Metlitzki, p. 8.

أمراً مسلَّماً به عند الأوروبيين ، في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يُجمعون علَى هذه الحقيقة . فلو لم يُشع العربُ نظريةَ كروية الأرض لما خطَر ببال كريستوفر كولمبس أن الاتجاه غرباً يمكن أن يؤدي به إلَى الهند . ولما اكتشف بالتالي العالمَ الجديد [33] . وللشريف الإدريسي فضلٌ كبيرٌ في هذا المجال ، إذ تحصَّل الأوروبيون من كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) علَى معلوماتٍ دقيقةٍ نسبيا عن الهند والصين والنصف الشمالي من القارة الإفريقية مما استمدَّه الإدريسي من كتب الجغرافيين والرحالة العرب ، ومما دوَّنه إثْر رحلاتٍ واسعةٍ قام بها هو شخصيا [34] . كما أعدَّ الإدريسي للملك رجار الثاني في بلرم صورةً للأرض في دائرةٍ من الفضة مبيِّناً فيها الأقاليمَ السبعة . يقول باحثٌ في كتابٍ صدر له مؤخراً عن صقلية النورمانية « إن كتابَ الإدريسي هو أعظمُ عملٍ جغرافي في القرون الوسطَى . في الصفحة الأولَى من الكتاب يذكر الإدريسي أن الأرض كرويةُ الشكل » [35] .

الطـــــب :

بعد تدنِّي دراسة الطب في مدرسة سالرنه العريقة ، تبدَّل الوضعُ في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بظهور قسطنطين الإفريقي الذي لاحظ لدى زيارته لسالرنه مدى تخلف المدرسة الطبية فيها . فعاد إلَى تونس ، حيث درس الطب ، ثم استقر في إيطاليا ، وتنصَّر ، وأصبح راهبا في دير مونت كاسينو البنديكتي ، حيث أمضَى بقيةَ حياته يترجم إلَى اللاتينية الكتبَ الطبيةَ العربيةَ التي أحضرها معه من تونس ، وتوفي في الدير سنة 1087 م . ومن الكتب الطبية التي ترجمها قسطنطين الافريقي – ونسب

---

(33) أثر العرب والإسلام في النهضة الاوروبية (دراسات لعدد من الباحثين) . القاهرة 1970 . ص 317 . 2 _ 323 .

(34) Watt, W. M. The Influence of Islam on Medieval Europe., Edinburgh U.P. 1972, p. 21.

(35) Norwich, p.102

طبعت في رومة عام 1592م قطعة مستخرجة من كتاب الإدريسي بالعربية . ثم ظهرت ترجمة لاتينية لها عام 1619 م مما ساعد علَى تنمية المعلومات الجغرافية في الغرب في وقت لم تكن قد بدأت فيه بعد الدراسات الجغرافية عن الشرق – ينظر كتاب

Legacy of Islam, 2nd edn. p. 455

معظمها لنفسه ـ مقالةٌ في المالنخوليا لاسحاق بن عمران و (كتاب الحميَّات) لإسحاق بن سليمان ، ورسالةٌ في النسيان وعلاجه وكتابُ (زاد المسافر) لابن الجزار القيرواني . إلاّ أنّ أهمَّ الكتب الطبية التي ترجمها وأكبرها أثراً في أوروبا كتابُ (كامل الصناعة الطبية) المعروف كذلك باسم الكُنّاش أو الكتاب الملكي لعلي ابن عباس المجوسي ، المعروف عند الأوروبيين باسم Haly Abbas . ويُعتبر المجوسي من كبار الأطباء العرب في القرن العاشر الميلادي ، وقد أوجز في كتابه بوضوح ما وصل إليه الطبُّ العربيُّ في عصره . ومع أن قسطنطين الإفريقي لم يكن متمكناً تماماً من العربية واللاتينية ، فإن ترجماته انتشرتْ في الغرب وبفضلها انتعشت مدرسةُ الطب في سالرنه (36) .

وكان من بين من درس في سالرنه إسطفان البيزي ، ثم أقام فترةً في جزيرة صقلية ـ ولعله تعلَّم العربيةَ أثناءها ـ وبعدها ذهب إلَى أنطاكية حيث كان للبيزيين حيٌّ خاصٌ بهم منذ عام 1108 م ، (ولذلك يعرف باسطفان الأنطاكي) . وفي أنطاكية أنجز في عام 1127 م ترجمةً جديدةً لكتاب المجوسي ، وهي ترجمة أفضلُ وأشهرُ من ترجمة قسطنطين الإفريقي ، وتحمل اسم Liber regius ، وهي ترجمة دقيقة لاسم الكتاب (الكتاب الملكي) . يذكر الأنطاكي في مقدمة ترجمته لكتاب المجوسي بأنه درس اللغةَ العربيةَ لكي يصلَ إلَى منبع العلم . كما يذكر كذلك بأن علماء الطب يوجدون في المقام الأول في صقلية وسالرنه ، وهم من الناطقين بالعربية أو اليونانية (37) .

لم تُنجزْ ترجمات هامة في الطب في صقلية في القرن الثاني عشر . وبذل رجار الثاني جهداً كبيراً لتنظيم دراسة الطب ومزاولته ، فأجبر الأطباء علَى اجتياز امتحانٍ يُعدُّه الخبراء ، وبحضور أحد موظفي الملك . ولعلَّ رجار الثاني ـ وكان أطباؤه من

(36) Ullmann, M. Islamic Medicine, Edinburgh U P. 1978, p. 53

(37) أحمد ، عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 102 .

Haskins, Studies...p. 134

العرب ـ عمل علَى تنظيم دراسة الطب ومزاولته بتأثيرهم وتأثير كتب الحسبة الإسلامية في هذا المجال. فها هو الفقيه ابنُ عبدون الأندلسي (أوائل القرن الثاني عشر) يقول: «يجب أن لا يُترَكَ أحدٌ يتسوَّرُ في شيءٍ لا يُحسنه، لا سيَّما صناعة الطب الذي فيه إتلاف المُهَج». أما ابنُ الأخوَّة فيقول إن الكحالين «يمتحنهم المحتسبُ بكتاب حنين بن اسحاق، أعني العشرَ مقالات في العين، قبل أن يأذن لهم بالتصدي لمداواة أعين الناس». وأما الجرائحيون «فيجب عليهم معرفةُ كتاب جالينوس في الجراحات والمراهم، وأن يعرفوا التشريحَ وأعضاءَ الإنسان[38]».

وفي رسمٍ للملك النورماني وليام الثاني وهو علَى فراش الموت عام 1189 م يُرى الملكُ وقد حفَّ به طبيبٌ ومنجمٌ يضعان عمامتَيْن علَى رأسيْهما ويرتديان ملابسَ عربية[39].

إن حرصَ فردريك الثاني صاحبِ صقلية علَى صحته جعله يولي عنايةً خاصةً للجراحة والطب. وهو الذي عملٍ علَى إحياء مدرسة الطب بسالرنه وأنشأ فيها أولَ قسمٍ للتشريح في أوروبا. كما أسَّس جامعةَ نابلي سنة 1224 م وأودع فيها مجموعةً من المخطوطات العربية.

إن آخر كبار المترجمين من اللغة العربية في القرون الوسطَى كان من أصلٍ صقلي، وهو فرج بن سالم (Faragut) من مدينة جرْجنت علَى الساحل الجنوبي لصقلية وكان قد تلقَّى العلمَ في سالرنه. إن إنجازَه العظيمَ هو ترجمته عام 1279 م لشارل دانجو ملك الصقلِّيتيْن كتابَ الرازي الضخم (الحاوي) ـ ويضم 23 سفرا ـ باسم Liver contiens الذي أصبح مرجعا في كافة كليات الطب بأوروبا في القرون الوسطَى[40]

---

(38) ابن عبدون. محمد. رسالة في القضاء والحسبة. القاهرة 1955. ص 46.

ابن الأخوَّة. محمد: معالم القربة في أحكام الحسبة. كمبردج 1937. 168 ـ 169.

(39) Smith. p 44

(40) Singer, C. A Short History of Scientific Ideas,...,Oxford U.P. 1982,p. 163.

الريــاضيـــات :

من رائدي الترجمة من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي الانجليزي اديلارد الباني (ت في حدود 1150م) الّذي زار صقلية والمشرق. وكانت الخدمات التي أسداها في مجال الرياضيات خدمات بارزة. فقد ترجم إلى اللاتينية كاتب الحساب أو العدد للخوارزمي ، وعن طريقه ترك الخوارزمي اسمه في Algorism، وهي الكلمة القديمة للحساب . كما نقل اديلارد كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس من العربية، وبذلك عرّف اللاتين لأول مرة بهذا الرياضي الاسكندري[41] .

إن إدخالَ الأرقام العربية إلَى أوروبا تمَّ علَى يد ليناردو فيبوناتشي من مدينة بيزا الإيطالية بعد ظهور كتابه عن المعداد Liber abaci عام 1202 ، وهو كتاب يقوم علَى علم الجبر العربي ، وقد أصبح مَعْلَمًا من معالم العلوم الرياضية بأوروبا ، وفيه يبيِّن المؤلفُ كيف أن «العلامات العشر» مكّنت من تبسيط العلمليات الحسابية وتوسيعها[42] . ويبدأ الكتابُ أولا بقراءة وكتابة الأرقام العربية الهندية الجديدة. تلي ذلك عملياتٌ حسابيةٌ وعملياتٌ خاصة بأثمان السلع والمقايضة والشراكة. ثم يتناول ما يسميه regulis elchatayn عن العربية «حساب الخطأين»[43] .

ومن ليناردو فيبوناتشي أو البيزي تسلّم مايكل سكوت سنة 1228 م النسخةَ المراجَعةَ من كتاب المعداد abacus ، فقرأها فردريك الثاني واستمع إلَى مناقشتها لعدد من المسائل الحسابية والهندسية[44] .

ويُروى أن والدَ ليناردو كان رئيساً للجالية التجارية البيزية في مدينة بجاية بالجزائر ، ولعلّه أدرك من صلاته بالتجار المسلمين في المدينة تفوّقَ الأرقام العربية على

---

(41) المصدر السابق ، ص 162 .

(42) Watt, p. 63. Cambridge History of Islam, Vol 2N, Cambridge U.P. 1977, p. 865.

(43) Mason, S.F., A History of the Sciences, U.S.A. 1962, p. 113

(44) Haskins, p. 249.

الأرقام الرومانية في العمليات الحسابية ، فبعث بابنه ليناردو ـ وكان موهوبا ـ إلَى مدرسٍ عربيٍّ للرياضيات في بجاية ، فتعلَّم علَى يديه . وقد نحا منحَى العربِ في الصيغة التي أورد فيها اسمَه في كتابه حيث يرد Leonardus filius Bonacci ، أي ليوناردوس بن بوناتشي (بوناجي؟ بونتشه؟) [45] .

وفي أثناء مقامه في فلسطين (8 ـ 1229 م) ، حرص فردريك الثاني علَى الاجتماع ـ أو الاتصال ـ بعلماء الرياضيات من العرب . ويقول أبو الفداء أن فردريك أرسل مسائل في الفلك والهندسة [منها رسمُ مربعٍ علَى قطعة segment من الدائرة] حلَّها في المَوْصل الشيخُ العلامةُ كمالُ الدين موسَى بن يونس الذي «كان إماماً مبرزاً في العلم الرياضي» [46] .

وقد لاحظ المؤرخون العرب في المشرق بأن صاحب صقلية كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات . وبعث [من عكا] إلَى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها علَى الشيخ علم الدين الحنفي ، المعروف بتعاسيف ، وغيره ، فكتب جوابَها» [47] .

الفلـك والتنجيـم :

من أكثر الكتب العلمية أثراً في القرون الوسطَى ، ومن أهم ما وصلَنا من العالم القديم في الفلك والرياضيات ، كتابُ (المَجِسْطي) الذي عُرف في أوروبا باسمه العربيAlmagest . وقد أنجزت أولُ ترجمة لاتينية للكتاب من اليونانية في جزيرة صقلية عام 1163 م ، أي قبل اثنتيْ عشرةَ سنةً من ظهور الترجمة اللاتينية للكتاب من العربية في طُليطُلة علَى يد جيرارد الكريموني . إلاّ أنّ الترجمةَ من اليونانية لم تنلْ

(45) Watt, p. 64

(46) المكتبة العربية الصقلية ، ص 522

(47) أبو الفداء ، اسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، بيروت (بدون تاريخ) ، 3/ ص 170 .

ذيوعاً، والترجمةُ عن العربية هي التي كانت سائدةً حتى القرن الخامس عشر الميلادي [48].

وعند قدومه إلى فلسطين، طلب فردريك الثاني من السلطان الأيوبي الكامل أن يبعثَ اليه مَنْ يعرف علمَ الهيئة أي الفلك (astronomy). «فسيَّر إليه العلَمَ قيصرَ المعروفَ بالحنفي، المشتهر بتعاسيفَ، وهو أفضلُ المتأخرين في هذا العلم» [49].

ويقول ابنُ أبي أصيبعة إن صاحبَ الموْصل كان قد ورد إليه من فردريك «وكان متفنّناً في العلوم، رسولٌ وبيده مسائلُ في علم النجوم وغير ذلك. وقصدَ أن كمالَ الدين ابنَ يونس [بالمَوْصل] يردُّ أجوبتَها... ودخل الرسولُ. وتلقاه الشيخ، وكتب له الأجوبةَ عن تلك المسائل بأسرِها» [50].

إن شهرةَ مايكلِ سكوت في العصور الوسطَى ترجع إلَى كتاباته في التنجيم، وكان يشغلُ منصبَ منجِّمٍ في بلاط فردريك الثاني صاحبِ صقلية. يقول سكوت: «إن الأجرامَ السماويةَ ليست السببَ في الأحداث التي تدلُّ عليها، بل هي علاماتٌ عليها، والمنجِّم لا يُخطىءُ بعون الله». إن سكوت في قوله هذا يبدو متأثراً بما أخذه عن من زاول التنجيمَ من المسلمين، إذ نجد مثلاً في كتابٍ أندلسي من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي منجماً يقول: «إن كنتَ نقمتَ بأننا نزعم أن الكواكبَ فاعلة أو يعلمُ أحدٌ الغيبَ فمحال ذلك؛ لا يدّعيه أحد. غير أننا نقو بأنها مصرِّفة... لسنا نقطعُ عن الأمر أنه يكون، ولا نقول إلاّ أنه يدل [كالسحابة تدل علَى المطر]» [52].

إن علميْ الفلك والتنجيم كانا علميْن متداخليْن. إذ التنجيم لا يعدو أن يكونَ

---

(48) Singer, p 163

(49) ابن نظيف الحموي، محمد: التاريخ المنصوري. دمشق 1981. ص 177

(50) ابن أبي أُصيْبعة، أحمد: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت 1965. ص 410 ـ 411

(51) Haskins, p. 285

(52) ابن بلقين، عبد الله: كتاب التبيان. القاهرة 1955. ص 188، 190.

تطبيقاً لعلم الفلك. ويتبيّن من أعمال مايكل سكوت أنه كان علَى علم ببطلميوس، وبأهم ما ألّفه العربُ في التنجيم. وعند وفاته في عام 1235 م، خلَفه في منصبه منجّماً للبلاط ثيودور الأنطاكي.

وترجم اسطفان المسّيني لمنفريد بن فردريك عن اللغة العربية إلَى اللاتينية رسالةً في التنجيم، كما تُرجمتْ لمنفريد من العربية مجموعةُ ازياجٍ فلكية وتنجيمية [53].

علـم المَناظــر:

في عهد وليام الأولَ، وفي عام 1160 م، ترجم كتابَ المناظرOptics لبطلميوس أميرُ الأسطول الصقلي يوجينيوس البلرمي، وقد ترجمه عن الأصل العربي إلَى اللاتينية، مع أنه كان يُتقن اللغة اليونانية [54].

وفي عهد سلطان مصر الأيوبي الكامل (حكَم 1218 ـ 1238 م) وضع فردريك الثاني صاحبُ صقلية سبعَ مسائل صعبةٍ لاختبار علماء المسلمين، كانت ثلاثٌ منها تتصل بالبصريات أو المناظرoptics. وفي كتابٍ ألّفه الفقيهُ شهابُ الدين القرافي (ت في حدود 1285 م) أورد خمسين مسألةً في المناظر، من بينها المسائلُ الثلاثُ التي سبق أن طرحها فردريك الثاني علَى علماء المسلمين وهي:

1 ـ لماذا تبدو منحنيةً المجاذيفُ والرماحُ عند تغطيتها جزئياً بالماء؟

2 ـ لماذا يبدو النجمُ سُهيْل أكبرَ حجماً حينما يكون قريبا من الأفق في حين أن انعدام الرطوبة في الصحاري الجنوبية تُسقط الرطوبةَ كسبب لذلك؟

3 ـ ما سببُ تخيُّلِ بقعٍ طافيةٍ أمام أعين أولئك الذين يعانون من بداية إعتامٍ في عدسة العين ومن غيره من أمراض العيون؟ [55].

ويذكر الصفدي أن القاضي جمالَ الدين بن واصل لما وصل إلَى صاحب صقلية

---

(53) Haskins, p 270

(54) Singer, p 163

(55) Legacy of Islam (1 st edn), edit. Arnold g. Guillaume, Oxford U P. 1931, p 343

منفريد موفداً من قِبَل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس . سأله منفريد ثلاثين سؤلا في المناظر . فبات ابنُ واصل تلك الليلة وصبَّحه بالجواب . فصلَّب منفريد علَى وجهه وقال : هكذا يكون قسيسُ المسلمين ! ولم يكن لدى القاضي كتبٌ في تلك السفرة ، وإنما أجاب عن ظهر قلب .

الفلسفـة والمنطـق :

في بلاط فردريك الثاني قام مايكل سكوتْ بترجمة العديد من شروح ابن رشد وتعليقاته علَى كتابات أرسطوطاليس ، كما ترجم أجزاء من مؤلفات ابن سينا . وإلَى مايكل سكوت يرجع الفضلُ في المقام الأول في تعريف الغرب بمؤلفات ابن رشد [56] .

ولم يصلنا النصُّ العربيُّ لشرح ابن رشد ، ووصلتْنا الترجمةُ اللاتينيةُ التي قام بها سكوت من اللغة العربية [57] .

يقول روجر بيكون إن مايكل سكوت كان مسؤولا إلى حد كبير عن أهم حدث في تاريخ الفكر في العصر الوسيط ، ألا وهو التعريفُ بأرسطو عن طريق العرب [58] .

إن للمسائل الصقلية التي وجَّهها فردريك الثاني إلَى علماء المسلمين أهميةً خاصةً ، وكانت هذه المسائلُ قد وُجِّهتْ أولا إلَى مصر والشام والعراق واليمن ، « فرجعت أجوبةُ حكماء المسلمين بما لم يرْجُه [فردريك] » . ثم وُجِّهت المسائل إلَى سلطان المغرب الرشيد الموحدي ، فأحالها علَى الفيلسوف والصوفي الأندلسي عبد الحق بن سَبْعين ـ وكان في سَبْتة ـ فأجاب عليها ، ولم يقبلْ المالَ الذي بعث به فردريك وقال : « إنما نجاوب عنها احتساباً لله وانتصاراً للملَّة الإسلامية . ثم تلا قولَه

(56) أحمد . عزيز . تاريخ صقلية الإسلامية . ص 104

(57) Metlitzki, p. 42

(58) المرجع السابق . ص 47 .

تعالَى (قلْ لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودةَ في القربَى). فلما بلغ الجوابُ للملك أرضاه، ووجَّه بصلةٍ عظيمةٍ فرُدَّت عليه كالاولَى.

ويتعلَّق السؤال الأولُ منها بقول أرسطو بِقِدَم العالم وبالأدلة التي استند إليها. أما السؤال الثاني فيدور حول العِلْم الإلهي: ما المقصودُ منه؟ وما مقدماتُه الضرورريةُ إن كان له مقدمات؟ وكان السؤال الثالث يدور حول المقولات العشر. ويدور السؤالُ الرابعُ حولَ النفس: هل تبقَى؟ وما الدليلُ علَى بقائها؟ وكان السؤالُ الخامسُ يتعلق علَى وجه التحديد بالفقه الإسلامي، وفيه استفسر فردريك عن الحديثُ النبوي الشريف القائل إن قلبَ المؤمن بين إصبعيْن من أصابعِ الرحمن. واختتم ابنُ سبعين أجابتَه علَى المسائل الصقلية بهذه العبارة التي تدلُّ علَى علمه وثقته بنفسه، وهي: «وعند الاجتماع بك يقع الكلامُ علَى تلك المواضيع مشافهةً، وهو الأصح» (59).

كان فردريك يفضِّل مناقشةَ المسائل الفكرية مع فلاسفة المسلمين، إذ كان يعتبرهم أهلُ درايةٍ وعلم. وقدفَزِعَ المتدينون التقليديون من النضارى حينما بعث فردريك بأسئلته لمعرفة وجهات نظر غير النصارى في موضوع الخلود والروح (60).

يقول العَيْني عن فردريك الثاني إنه كان «ملكاً متميِّزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق... والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً، وإنما كان يتلاعبُ بالنصرانية» (61).

وقام فيلسوفٌ عربيٌّ صقليٌّ هو ابنُ الجوزي بمرافقة فردريك الثاني في حملته إلَى فلسطين (8 ـ 1229 م)، وألقَى عليه دروساً في علم الكلام والمنطق. كما أهدىَ فردريك إلَى جامعة بولونية بشمال إيطاليا كتباً في المنطق والطبيعة أمر بترجمتها من اللغة العربية.

---

(59) المكتبة العربية الصقلية، ص 4 ـ 576.

(60) Smith, p. 61

(61) المكتبة العربية الصقلية، ص 511 . 515.

وألّف القاضي جمال الدين بن واصل أثناء إقامته في جنوب إيطاليا رسالةً في المنطق أسماها (الرسالة الإنبرورية) وأهداها إلَى منفريد بن فردريك .

لتاريخ الطبيعي والصيد بالبيزان :

كان فردريك الثاني شديدَ الاهتمام بتربية جميع أنواع الحيوانات . وقد اجتمع عنده منها جملةٌ كانت ترافقُه في رحلاته وحملاته في إيطاليا وألمانيا ، ولم يكن بعضُها معروفاً في البلدين ، كالفِيَلة والإبل ، والنمور والأسود والفهود . والصقور البيضاء ذوات اللحي . وزرافةٍ أهداها له سلطان مصر ، وكانت أولَ زرافةٍ تُرى في أوروبا . كما جلب أنواعاً من الخيول العربية لتهجينها مع الخيول المحلية . وفي جزيرة مالطة كان يربي الإبلَ والصقور ، وكان يربِّي الفهودَ في مستوطنة لوشيرة بجنوب إيطاليا . وقيل أنه كان يضع علاماتٍ علَى الأسماك لتمكينه من دراسة حركاتها . وكانت الطيور تفتنه ، لا سيَّما تلك الطيور التي كان يستعملها في رياضة الصيد والقنص الأثيرة لديه . وقد أمضي ثلاثين سنةً وهو يدرس الصقور ، وكان يستضيف خبراءها من المشرق العربي بأموال طائلة [62]

وقد ترجم مايكل سكوت لفردريك الثاني من العربية إلَى اللاتينية كافةَ مؤلفات أرسطو في علم الحيوان وبخاصة كتاب De Animalibus ، مع تعليق ابن سينا عليه ، وأهداه إلَى الملك عام 1232 م .

وتظهرُ الأصولُ العربيةُ في كتاب (المسائل الطبيعية) للإنجليزي أديلارد الباثي في أقسام الكتاب الخاصة بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) . ولعلَّ أديلارد أراد أن يقولَ إن ما تعلَّمه من العرب في مجال التاريخ الطبيعي لم يكن الحقائقَ والنظرياتِ المجردةَ بقدر ما كان التفكيرَ العقلانيَّ والفلسفة العلمانية ، والاعتمادَ قبل كل شيء علَى المشاهدة والتجربة [63] .

إن التفكيرَ العلميَّ القائمَ علَى التجارب والملاحظة ـ وهو ما اكتسبه فردريك

---

(62) Smith, p. 62

(63) Haskins, p. 39

الثاني عن العرب بحكم نشأته في صقلية واتصاله المستمر بعلماء المسلمين ـ يتضح في كتاباته. فكتابه عن البيزان مليءٌ بالملاحظات الشخصية التي توصَّل إليها عن طريق مراقبته للطيور، وبخاصة الصقور. وهو يقول: «لما عَبَرْنا البحرَ [إلَى فلسطين] رأينا العرب يستعملون كماماتٍ للصقور. وأرسل إلينا ملوكهم أمهر الصقارين ومعهم أنواع كثيرة من الصقور».

إن كتاب فردريك الثاني عن الصيد بالبيزانDe Arte Venandi cam Avibus أمضَى في جمع مادته وإعداده ثلاثين عاماً وأهدا، لابنه وخلَفه في المُلْك منفريد. وفي سنة 1241 م، تُرجمت لفردريك بطلبٍ منه وتحت إشرافه رسالةٌ عربيةٌ للصقّار مؤمن، وقد تولّى ترجمتَها إلَى اللاتينية منجِّم البلاط ثيودور الأنطاكي. وعنوانُ الرسالة العربية باللاتينيةDe Scientia venandi par aves وكانت مصدراً اعتمد عليه فردريك في كتابه.

ويذكر فردريك في موضعين من كتابه عن الصيد بالبيزان التجاربَ التي اكتسبها في المشرق، مرةً بالنسبة لطيران الحمام الشامي، ومرةً بالنسبة للطرق العربية الخاصة بوضع غطاء رأسٍ علَى الصقور. وقد قام فردريك بإدخال هذه الطريقة إلَى الغرب بإرشاد عدد من الصقّارين العرب.

وفي مقدمة الكتاب، يصرح فردريك باستقلاله عن أرسطو لأن الفيلسوفَ لم تكن لديه خبرةٌ في مجال الصيد بالصقور. ويقول إنه اعتمد علَى التجربة والمعاينة وعلَى نتائج استفسارات طويلة من الخبراء المَهرة العرب الذين جلبهم من أقطار بعيدة. ولما كان فردريك يؤمن بالملاحظة والمشاهدة المباشرة، فإنه استطاع أن يصحِّح أرسطو وبليني مستشهداً بما كان يقع عليه بصره. والكتاب في مُجمله لا يقوم علَى المصادر الكتابية بقدر ما يقوم علَى الملاحظة والتجربة من جانب الملك ومستشاريه. وكما يقول هاسكينزHaskins فإن كتابَ فردريك «نتائجُ الخلاء المكشوف لا نتاجُ دراسةٍ في مَخْبر»[65].

(64) المرجع سبق. ص 263. 1 ـ 312. 320.

ولما أراد فردريك الثاني أن يختبر تفقيسَ بيض النعام بفعل حرارة الشمس ، أحضر لهذا الغرض خبراء من مصر إلَى مقاطعة بولية(Apulia) بجنوب إيطاليا .

العرب في الأندلس وصقلية
وأثرهم في الحضارة والنهضة الأوروبية

نستهلّ هذا البحثَ بنبذة موجزة عن تاريخ المسلمين في كل من الأندلس وجزيرة صقلية، ثم سنتناول في عرض عام أثر المسلمين في هذين البلدين ـ أو عن طريقها ـ وإسهامَهم الماديَّ والفكريَّ في مختلف جوانب الحضارة والنهضة الأوروبية في أواخر القرون الوسطَى، وذلك في ميادين النشاط الاقتصادي، والطب وعلم النبات، والفلسفة والآداب، والجغرافيا والملاحة البحرية، والرياضيات والفلك، والموسيقَى والمفردات المستعارة من العربية.

العرب في الأندلس ـ لمحة تاريخية :

بدأ افتتاحُ المسلمين لشبه جزيرة ايبرية في سنة 92 هـ/711 م، وفي أقلَّ من خمس سنوات حلُّوا محل القوط، وسيطروا علَى كافة شبه الجزيرة تقريبا، بل وعبروا جبال البيرانيز (البُرت) إلَى بلاد غالية (فرنسا) واتخذوا من أربونة في إقليم سبتّمانيا بجنوب فرنسا قاعدةً لهم فترة غير قصيرة.

وبُعَيْدَ سقوط الدولة الأموية في المشرق علَى أيدي العباسيين (132 هـ/750 م)، تمكَّن الأمير الأموي الشاب عبد الرحمن الداخل من إنشاء

إمارة أموية في قرطبة، مستقلة عن الخلافة العباسية، ظلّتْ نحواً من ثلاثة قرون. ثمّ قامت إثر سقوطها دولُ الطوائف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ومع أن الأندلس شهدتْ فترةَ ازدهار في العلوم والآداب علَى عهد أمراء الطوائف، إلاّ أن تفكّكَ البلاد أطمع فيها صاحبَ ليون وقشتالة المتربِّصَ بها، فاستولَى علَى طليطلة عام 478 هـ/1085 م، فكانت طليطُلة أولَى قواعد المسلمين التي سقطتْ في أيدي النصارى. واستجاب سلطانُ المرابطين في المغرب ـ يوسف بن تاشفين ـ لاستصراخ ملوك الطوائف، فأوقع بصاحب ليون وقشتالة هزيمةً ساحقةً في وقعة الزلاقة عام 479 هـ/1086 م، وبذلك مدَّ المرابطون من عمر الإسلام في الأندلس قرونا. ثم جاء دور الموحدين بعد المرابطين، وقاموا هم أيضا بدوْرهم في الجهاد في الأندلس في بداية دولتهم، ثم حلَّتْ هزيمةُ العِقاب (609 هـ/1212 م) بالسلطان الموحدي الناصر. وعلَى الأثر تهاوتْ قواعدُ المسلمين في أيدي النصارى تِباعاً (قرطبة، بلنسية، جيان، اشبيلية). ولم يَبْقَ في أيديهم في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي سوى مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية الشرقية من البلاد، حيث حكم بنو الأحمر حتّى سقوطِ غرناطة في يد فرديناند وإيزابيلا عام 897 هـ/1492 م. وهكذا فإن الإسلام عمَّر في بلاد الأندلس نحواً من ثمانية قرون، بل وبقي قرنا آخر بعد سقوط غرناطة ممثلا في الموريسكين الذين أكرهوا على التنصر ـ فتنصَّروا ظاهريا ـ ومع ذلك طُردوا نهائيا من البلاد عام 1610 م، واستقر معظمُهم بين إخوانهم في شمال إفريقيا.

لقد عامل المسلمون أهلَ الذمة في الأندلس ـ من نصارى ويهود ـ معاملةً كريمة ويُعرف النصارى المتعربون باسم المستعربين Mozarabs، وكان لهم رئيسٌ يُعرف بالقومس، وقاض يُعرف بقاضي النصارى أو العَجم. وقد قام هؤلاء المستعربون بدوْرٍ مهمٍّ في نقل الحضارة العربية الإسلامية الَى الممالك المسيحية بشمال اسبانيا وجنوب فرنسا. وكانوا أداةَ وَصْلٍ بين شطريْ إسبانيا، ولم ينقطعوا عن التنقّل بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى في الشمال، فعملوا بذلك علَى نشر الثقافة الإسلامية بين أهل الشمال، وبخاصة عن طريق ترجمة كتب المسلمين.

كذلك فإن اليهودَ رحَّبوا بمَقْدم العرب الفاتحين بعد كل ما عانَوْه من اضطهاد في عهد القوط. ويَعتبر اليهودُ أن الفترَةَ الذهبيةَ من تاريخهم كانت في ظل الإسلام في الأندلس، حيث حظُوا بحرية لم يعهدوها من قبل، كما أثْرَوْا عن طريق التجارة في الداخل والخارج. وكان اليهود ـ كالمستعربين ـ واسطةً لنقل مظاهر الحياة الإسلامية الَى الشمال المسيحي، واضطلعوا بدْور بدوْرٍ كبير في ترجمة المصنَّفات العربية إلَى اللاتينية والقشتالية، مما جعل الفقيهَ الإشبيليَّ ابنَ عبدون ـ في مستهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ـ يدعو إلَى أن «لا يُباعَ من اليهود، ولا من النصارى، كتابُ علمٍ إلاّ ما كان من شريعتهم. فإنهم يترجمون كتبَ العلوم وينسبونها إلَى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين»[1].

لقد أثرى العربُ الحياةَ في شبه جزيرة إيبرية في مجالات الزراعة والصناعة والأدب والفن المعماري. إن المفرداتِ الكثيرةَ الباقيةَ في الإسبانية والبرتغاليةَ والمتصلةَ بالحياة المادية تبيِّن مدى ما تدين به إسبانيا والبرتغال للعرب في الأمور الاقتصادية والاجتماعية. والسياسيةِ إلَى حدّ ما. وفي مجال الثقافة، ينبغي اعتبارُ التراث العربي ذا أهمية بالغة لا لاسبانيا فحسب، بل ولكافة أوروبا الغربية أيضا. فقد توافد علَى الأندلس الطلبةُ المتعطِّشون إلَى المعرفة من كثير من البلدان الأوروبية لتعلم اللغة العربية، وتلقِّي العلوم العربية، وقاموا بترجمة الكثير من الكتب من العربية إلَى اللاتينية. وكانت مدينةُ طليطلة أولَ مركزٍ علميٍّ عظيم لنقل الثقافة من الإسلام إلَى المسيحية في الغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. كما نلمس أثَرَ العرب في ميدانيْ العلوم والفلسفة في أوروبا في العصر الوسيط، إذ إنهم أثْرَوْا هذه العلومَ باحتفاظهم بتراث القدامى وما أضافوه إليه[2].

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أكثرَ مدن أوروبا تمدناً. وكان القادمون من شمال أوروبا يسمعون ـ بشيء من الرهبة ـ عن المدينة الّتي

---

(1) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة. ص 57

(2) لويس Lewis. ص 128 ـ 130.

احتوتْ علَى عشرات المكتبات، وعلَى مئات الحمامات العامة[3].

يحدِّثنا عن قرطبة في القرن التالي كبيرُ مؤرخي الأدب الأندلسي أبو الحسن عليُّ ابنُ بسام الشنتريني (ت 542 هـ/1147 م) فيقول: «وحضرةُ قرطبة، منذ استُفتحت الجزيرة، هي كانت منتهَى الغاية، ومركزَ الراية، وأمَّ القرى، وقرارةَ أهل الفضل والتُّقَى، ووطنَ أولي العلم والنُّهَى، وقلبَ الإقليم، وينبوعَ متفجرِ العلوم، وقبةَ الإسلام، وحضرةَ الإمام... والسببُ في ذلك... أن أُفُقَهم القرطبيَّ لم يشتمل قطُّ إلاّ علَى أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب...».

فلا عجب أن يكون بعضُ علماء الأندلس قد قال فيها:

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قرطبةٌ منهنَّ قنطرةُ الوادي وجامعُها
هاتانِ ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء ،وهو رابعها[4]

العرب في صقلية ـ لمحة تاريخية:

بدأ افتتاحُ العرب لجزيرة صقلية من أيدي الروم البيزنطيين في عهد الأغالبة أمراءِ افريقية (القيروان) في صيف عام 212 هـ/827 م، وسرعان ما استولَوْا علَى معظم الجزيرة، واتخذوا بلرم عاصمة لهم. وقد بقيت جزيرةُ صقلية تحت السيادة العربية أكثرَ من قرنين ونصف القرن (212 ـ 484 هـ/827 ـ 1091 م). كما سيطر العرب علَى جنوب إيطاليا (قِلَّوْريَّة وبولية) لعدة سنوات، وأقاموا إمارةً عربيةً بمدينة باره (باري) عاشتْ نحو ثلاثين عاما.

ومما يُذكر، أن سكانَ صقلية تحسَّنتْ أحوالُهم في فترة السيادة العربية علَى الجزيرة، وأصبحت خيراً من أحوال إخوانهم في إيطاليا. ولم يُفرضْ عليهم

(3) تراث الإسلام Legacy of Islam. ط. أولى. ص 9

(4) ابن بسام الشنتريني. 1/1. ص 33. المقري. 1/ ص 616.

ـ بوصفهم ذميّين ـ سوى دفع الجزية. وقد ازداد عددُ المسلمين في الجزيرة بعد الفتح لتدفق المستوطنين من شمال افريقيا، وكذلك نتيجةً لاعتناق معظم سكّان الجزيرة الدين الإسلامي. ولما زار الرحالةُ المشرقيُّ ابنُ حوقل صقلية في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ـ أي بعد قرنٍ ونصف القرن من بداية الفتح الإسلامي ـ لاحظ أن «بمدينة بلرم نيِّفاً وثلاثمائة مسجد»، مما يدلُّ علَى مدى وسرعة التغلغل الدين الإسلامي في الجزيرة (5). وقد بلغت الجزيرةُ في عهد ولاتها للفاطميين بني أبي الحسين الكلبيين (336 ـ 431 هـ/947 ـ 1040 م) أوجَها الحضاريَّ. وإجمالاً فإنّ فترة سيادة المسلمين علَى جزيرة صقلية تميَّزتْ بالتسامح الديني، والارتقاء الحضاري، كما تميَّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري.

أحدث العربُ تغييراً مهماً في نظام مِلْكية الأرض وتوزيعها. والمفرداتُ العربيةُ الكثيرةُ في اللهجة الصقلية شاهدٌ علَى مبلغ اهتمام العرب بالزراعة. فقد أدخلوا إلَى الجزيرة ـ كما فعلوا في الأندلس ـ عدداً من النباتات الجديدة، كما وسَّعوا من رقعة الأراضي المزروعة باستخدام وسائل الري (5).

مرَّتْ صقليةُ الإسلاميةُ في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بفترة من الفتن والمنازعات الداخلية أشبهَ ما يكون بفترة ملوك الطوائف المزامنةِ لها في الأندلس. بيْد أنه في حين قيَّض اللهُ للأندلسيين قيامَ دولة المرابطين الفتيةِ المجاهدةِ في المغرب، فهبَّتْ لإنقاذهم من السقوط في أيدي النصارى. فإن صقلية لم تَجِدْ لنفسها نصيرا، إذ كانت الدولةُ الفاطميةُ الّتي تتبعها الجزيرةُ تُعاني من ضعف شديد. فسقطت الجزيرةُ في أيدي النورمان بجنوب إيطاليا. علَى أن استيلاء النورمان علَى صقلية لم يكُنْ مع ذلك بالأمر الهيِّن، فقد صمد العديدُ من المعاقل والمدن الإسلامية في وجههم نحوَ ثلاثين عاما، إلَى أن تمَّ للنورمان آخرَ الأمر فرضُ سيادتهم علَى الجزيرة عام 484 هـ/1091 م.

حكَمَ النورمان صقلية قرناً من الزمن (1091 ـ 1194 م)، ولمَّا كانوا حديثي

---

(5) لويس Lewis، ص 118. / ابن حوقل، ص 115

عهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا علَى المسلمين في الإدارة وفي الدواوين والبلاط الملكي، وفي أعمال البناء والتشييد. وكان لثاني ملوك النورمان رجار الثاني عباءةٌ ملكيةٌ صُنعتْ بدار الطراز في بلرم طُرِّزت علَى حاشيتها كتابةٌ عربيةٌ بالخط الكوفي والتاريخ الهجري 528 (3 ـ 1134 م). ولرجار الثاني ـ وتحت رعايته ـ صنَّف الشريفُ الإدريسيُّ كتابَ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعروفَ بكتاب رجار. وظلَّتْ العُمْلةُ العربيةُ ـ وهي المعروفةُ بالرُّباعي ـ العُملةَ المتداولةَ في صقلية وجنوب إيطاليا، تماما كما كانت المثاقيلُ المرابطيةُ والموحديةُ العُملةَ المتداولةَ في ممالك إسبانيا المسيحية حتّى بعد تقلُّص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس.

وفي سنة 580 هـ/4 ـ 1185 م، مرَّ الرحالةُ الأندلسيُّ ابن جبير بجزيرة صقلية علَى عهد ملكها النورماني وليام الثاني ـ أي بعد نحو قرن من خروج السيادة علَى الجزيرة من أيدي المسلمين ـ فذكر «أن الملكَ يقرأُ ويكتبُ بالعربية، وعلامتُه... الحمدُ لله حقَّ حمدِه، وكانت علامةُ أبيه: الحمدُ لله شُكراً لأنعُمه»[6].

وبعد النورمان، وفي عهد الإمبراطور فردريك الثاني (حكَمَ 1215 ـ 1250 م) ـ وكان شديدَ التعلق والتأثر بكافة أوجه الثقافة العربية الإسلامية. بقيت ـ بل وازدهرت ـ الثقافةُ الإسلاميةُ في الجزيرة بفضل اهتماماته بالعلوم الإسلامية، وصلاته الواسعة مع سلاطين المسلمين. إلاّ أن الحال تبدَّلَ في عهد شارل أنجو، الذي انتزع الجزيرةَ من ابن فردريك عام 1266 م ـ وكان شارل هذا من غلاة الكاثوليك، كأخيه الملك الفرنسي لويس التاسع ـ فأُكره المسلمون علَى التنصر أو الرحيل.

إن دَوْرَ صقلية وإيطاليا في انتقال التراث الفكري العربي إلَى بقية بلدان أوروبا دون دَوْر الأندلس، ومع ذلك فإن عظمةَ مملكة صقلية النورمانية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أدَّتْ ـ بفضل مسلمي الجزيرة ـ إلَى قيام حركة النهضة الإيطالية. في إيطاليا اتصل علماءُ اللاتينية اتصالاً وثيقاً بروح التفاني في دراسة

---

(6) ابن جبير، ص 7 ـ 268.

العلوم والانكباب عليها، وهي الروح التي تميَّز بها العلماء العرب «ومع الاهتمام جاءت الوسيلة: إخضاعُ الأمور لحكم العقل والطبع التجريبي»[7].

يقول أحدُ كبار المؤرخين المعاصرين من المتخصصين في تاريخ صقلية الوسيط والحديث إن معلوماتنا عن تاريخ فترة السيادة العربية علَى جزيرة صقلية غامضةٌ بعضَ الشيء، لقلة المصادر التي وصلتْنا من تلك الفترة. والمؤرخون النصارى الذين كتبوا عن تلك الفترة كانوا جَهلةً ومتحيِّزين، فنزعوا إلَى التقليل من شأن مُنْجزات العرب أو إلَى إغفالها بالمرة. لذلك فإن إسهامَ العرب في تاريخ صقلية وحضارتها نستدلُّه من أثرهم الحضاري الكبير في الفترة النورمانية(القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي). فالنورمان اعتمدوا كثيرا علَى الصُّنَّاع العرب، وعلَى النظام الإداري العربي، وهذا دليل كافٍ علَى وفرة ما قدَّمه العربُ في الفترة السابقة لحكم النورمان. وإلَى اليوم نجد في لهجة صقلية مئاتِ الكلمات والتعابير العربية، ولولا قدومُ النورمان ـ ولغتُهم لاتينية ـ لكانت صقلية تتكلم اليوم لغةً قريبةً من اللغة المالطية (وهي لهجة عربية)[8].

وننتقل الآن إلَى عرضٍ عامٍّ لأثر العرب في الأندلس وصقلية، في جوانبَ من الحضارة الأوروبية في أواخر القرون الوسطَى.

في مجال الفلاحة وتَقْنياتها:

في مقالٍ بعنوان «الثورة الزراعية العربية وانتشارها»، يذكر الأستاذُ الكِنَدِيُّ أندرو واتسون أن العربَ أدخلوا إلَى شبه جزيرة ايبرية غلاتٍ جديدةً من بينها الأرز والذرة والقمحُ الصُّلب وقصب السكر والقطن والنارنج (البرتقال) والليمون، ومع المحاصيل الجديدة أُدخلت وسائل جديدة في الزراعة. فبعد أن كانت الأرض تظل بوراً في فصل الصيف فقد بديء ـ باستخدام الري ـ باستغلالها علَى مدار العام. كما

---

(7) أحمد، عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية. ص 101.
(8) سميث Smith. ص 11 ـ 12.

أدخل العربُ نظامَ الدورات الزراعية (rotation of crops) كزراعة الذرة صيفاً بعد زراعة القمح شتاءً. وتطلّب ذلك استخدامَ الأسمدة التي صنّف العربُ فيها كتباً أشاروا فيها إلَى مختلف أنواعها وخصائصها. كما قام العربُ في الأندلس بإصلاح قنوات الري وتوسيع شبكاتها، مما أدّى إلَى توفير مزيد من الماء لمساحاتٍ أوسعَ من الأراضي، فازدادت بالتالي رقعةُ الأراضي المروية وغلاتها. وفي كتب الفلاحة الأندلسية التي برع الأندلسيون في تأليفها تصنيفٌ لأنواع التربة وما يصلح للزراعة فيها. فابنُ العوّام الإشبيلي يذكر أن القطنَ أُخذ في زراعة في أفقر الأراضي في الأندلس وصقلية، مما زاد من مداخيل الفلاحين، وعمل علَى ثبات هذه المداخيل (9).

وكان للشريعة الإسلامية دَوْرُها في التشجيع علَى الاستثمار في الزراعة المَرْوية، فالأراضي المَرْوية كانت تؤدي نصفَ الضريبة المجتباة عن الأراضي البعلية.

وفي اللغة الإسبانية كثيرٌ من الكلمات العربية المتصلة بوسائل الري: كالساقية aceqiia والبركة alberca، والجُب aljube، والناعورة noria، والقادوس arcaduz، والسدّ azud.

ويلاحظُ أن اسمَ شجرة الزيتون بالبرتغالية لاتيني الأصل oliviera، بينما اسما الثمر والزيت فهما من العربية azeitona azeite.

وقد احتفظ الإسبان ـ بعد استحواذهم علَى أراضي المسلمين ـ بنظُم الريّ العربية كما هي: فتوزيعُ الماء بالدّور ـ في الأراجونية ador ـ والمُشرف علَى توزيع الماء في القنوات يعرف بـ Çavacequis (صاحب الساقية)، والأمناء علَى

(9) واتسون Watson، ص 9 ـ 14، 28.
صدرت هذه الدراسة للمؤلف موسعة عام 1983 في كتاب عنوانه:
Agricultural Innovation in the Early Islamic World The Diffusion of Crops and Farming techniques 700- 1100.
استحداثات زراعية في العالم الإسلامي ـ نشر المحاصيل والتقنيات الفلاحية 700 ـ 1100 م.

القنوات alamis (الأمين).

ويبدو أن نظامَ اليمن الزراعيَّ انتشر في واحات الصحراء بشمال افريقيا، ومنها نُقل إلَى الأندلس. ويظهر ذلك في أسماء وحدات قياس الماء (القادوس)، وأساليب القياس (الساعة المغطسة)، وأسماء الموكَّلين بتوزيع الماء ـ فكلُّها تدل علَى أصلٍ صحراوي. ومما يُذكر أن بعض هذه التسمياتِ مازال مستعملاً في غدامس بليبيا. ولعلَّ القناة المعروفة باسم Favara canal ـ وهي ثاني أكبر القنوات في غوطة بلنسية ـ مشتقةُ الاسم من قبيلة هوارة المغربية.

وأدخل العرب إلَى أوروبا القمحَ الصُّلْبَ triticum durum، ودقيقه المتميز بالبياض هو المعروف باسم دَرْمَكْ الذي انتقل إلَى القشتالية باسم adargama، ومن مزاياه احتمالُه للحرارة والجفاف [10].

إن أولَى الحدائق النباتية botaniil gardens في أوروبا ظهرتْ في الأندلس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي في طليطُلة، ثم في اشبيلية، وكانت جناناً للنزهة، فضلا عن كونها مزارعَ تجريبيةً لتأقلم النباتات التي كانت تُجلب من المشرق. أما في أوروبا المسيحية، فلم تُعرف مثلُ هذه الحدائق حتّى منتصف القرن السادس عشر، حينما بدأت تظهرُ ـ بتأثير النمط الإسلامي ـ في المدن الإيطالية [11].

وبالنسبة لجزيرة صقلية، فإن الحكمَ العربيَّ للجزيرة كان، في رأي المستشرق الإيطالي جابربيلي اعتماداً علَى أماري، إيجابياً ومفيداً، بفضل التغييرات التي أدخلها علَى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة، حيث ألغَى نظامَ الإقطاعات الكبرى، وشجَّع علَى تمليك مساحات زراعية صغيرة، وأحيى الزراعةَ الصقليةَ وأغناها بأساليبَ ومحاصيلَ جديدة. وتظهر الأهميةُ الحاسمةُ للفترة العربية في هذا المجال في وجود ألفاظٍ عربيةٍ كثيرةٍ متعلقةٍ بالحياة الاقتصادية حُفظتْ في اللهجة

---

(10) جليك Glick. ص 100. 74 ـ 75. 81. 72.

(11) دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الثانية. بالإنجليزية. مجلد 2. ص 902.

الصقلية، ونُقلتْ إلَى الايطالية، وهي في معظمها تتعلق بالري، والأدوات الزراعية، ومنتجات التربة، والأدوات المنزلية [12].

إن السياسة الاقتصاديةَ المتفتحةَ التي انتهجها العربُ في صقلية ساعدتْ علَى اكتساب رضا أهل الجزيرة. وقد أصبحت الجزيرةُ في العهد العربي بلاداً زراعية غنية. ففيها غَرس العربُ أشجارَ الليمون والنارنج (أهمُّ صادرات صقلية اليوم)، كما أدخلوا زراعةَ قصب السكر وطريقةَ عصره بالأرحاء، وزراعةَ الأرز والقطن، وأشجار التوت وتربيةَ دودة القز، وزراعةَ أشجار النخيل وشجر السُّمَّاق ـ لأغراض الدباغة والصباغة ـ ونباتَ البَرْدي والفستق الحلبي والبطيخ، مما أحدث تغييراً جوهرياً في اقتصاديات الجزيرة. كما يبدو أن العرب جلبوا معهم من شمال افريقيا نوعاً جديداً من القمح الصُّلْب الذي يُعطي غلّةً ضئيلةً، إلاّ أنه يحتوي علَى نسبة عالية من البروتين، ولا يحتاج إلاّ إلَى القليل من الأمطار. وكان ـ قبل كل شيء ـ صالحا للخزين دون أن يفسد، فكان لذلك مثالياً لمواجهة المجاعات، ولتزويد المراكب به لملاحيها وركابها.

وانتشرتْ في صقلية المواجلُ والصهاريجُ لخزن الماء، وقد ظلَّتْ قروناً عديدةً، ويمكن تمييزها الَى اليوم. وقد اكتسبت معظمُ مصادر المياه أسماء عربيةً مازالت مستعملة.

ويرى ميشيل أماري ـ المؤرخُ الكبيرُ للمسلمين في صقلية ـ أن العرب قاموا بتوزيع الأراضي بعد تجزئتها إلَى قطع صغيرة، ومازال باقيا في الجزيرة عددٌ من الأسماء العربية للضياع والمزارع الصغيرة.

ويلاَحظُ أن زراعةَ القطن اختفتْ من صقلية في القرن الرابعَ عشر، أي حينما خلتْ من سكانها المسلمين [13].

ومازال النارنجُ يُعرف في صقلية بـ naranzu، كما يقال لزهرته zagara. وتشهد

---

(12) جبرييل Gabrieli : تراث الإسلام. القسم الأول. الكويت 1978، ص 118.

(13) سميث. ص 8 ـ 22.

بالدَّوْر الكبير الذي قام به العربُ في إنماء فلاحة صقلية الألفاظُ العربيةُ العديدةُ المتعلقةُ بالزراعة والباقية في اللهجة الصقلية مثلnoria الناعورة ، gebbia الجابية ، senia السانية ، zachiaالساقية ، mazzara مِعْصرة [14] .

في مجال الرعي وتربية الأغنام والخيول :

إن شهرةَ أغنام المرينو وأصوافِها غنيةٌ عن التعريف ، فهذه الأغنام تُعتبر اليوم في مقدمة أغنام العالم من حيث جودةُ أصوافها . وبفضل احتكار إسبانيا لهذا النوع من الأغنام ، فإنها سيطرتْ علَى السوق العالمي من منتصف القرن الخامس عشر حتّى القرن الثامن عشر.

إن أغنامَ المرينو هذه أُدخلتْ إِلَى إسبانيا من بلاد المغرب ، وسُمِّيتْ باسم قبيلة بني مرين ، إحدى قبائل زناتة في المغرب الأوسط الّتي قامت بدور بارز في الجهاد في الأندلس في أواخر أيام دولة الموحدين . ويرى المؤرخ الاقتصاديُّ الفرنسيُّ لومبار أن التسمية قد تكون كذلك مشتقة من الكلمة العربية (مَرِن) للدلالة علَى نعومة الأصواف ودقّها ومرونتها [15] .

إن نظامَ الرعي في إسبانيا من أصل مغربي : في إسبانيا تنظيمٌ يعرفُ باسم mesta ظلَّ قائما إِلَى القرن العشرين . وهو يشتمل علَى امتيازاتٍ ومسالكَ وأراضي للرعي ونظامِه التشريعي ، وهذه الكلمةُ mesta مأخوذة من كلمة (مَشْتَى) العربية .

إن معظمَ المفردات الخاصة بالرعي في القشتالية والبرتغالية من أصل عربي . ففضلا عنmesta ثمّةَmostrenco (حيث صاحبُ القطيع مجهولُ الاسم ، فالقطيع مشترَك) وهي من العربية (مُشترَك) ، و alganame من (الغَنَّام) وهو كبير الرعاة [16] .

إن الحصانَ المغربيَّ صغيرُ الحجم ، ولكنه يمتاز بالقوة والحيوية . ومنذ أقدم

---

(14) مورينو . ص 34 .

(15) الطيبي . أمين : «أغنام المرينو ذات أصل مغربي» . ص 79 ـ 80 .

العصور هُجِّنتْ خيولُ بلدان حوض البحر المتوسط ـ وبخاصة في إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا ـ بالحصان المغربي. وبفضل الحملات في الأندلس وصقلية، أُدخل هذا الحصانُ إلَى البلدين، ومنه جاء الحصانُ الإسباني المعروفُ باسم jinete ـ وفي الإنجليزية hennet، وكذلك في معظم اللغات الأوروبية ـ والاسم مشتق من (زَناتة) القبيلةِ المغربيةِ الّتي اشتهرتْ بفرسانها وخيولها، بل إن الكلمة الإسبانية jinete تعني فارساً [17].

في مجال الصناعات :

من أهم المساهمات النافعة الّتي قدَّمها العرب لأوروبا صناعةُ الورق. إذ لولا الورقُ ما كانت لتقومَ المطابعُ، ولا أن تنتشرَ الكتبُ والمعارفُ بين الناس.

وقبل صناعة الورق، كانت الكتابةُ إما علَى ورق البَرْدي وإما علَى الرَّقِّ (الجلد الرقيق). ثم أخذ العربُ صناعةَ الورق عن الصينيين، وأنشىء في بغداد أولُ مصنع للورق علَى عهد هارون الرشيد في أواخر القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وسُرْعان ما انتشرت صناعتُه في المغرب والأندلس وصقلية. وكانت مدينةُ شاطبة ـ قرب بلنسية ـ بشرق الأندلس أهمَّ مراكز صناعة الورق في الأندلس. ومازال الورق السميك يُعرف في شمال المغرب الأقصَى بالشاطبي. يذكر الإدريسي صناعة الكاغد (الورق) بمدينة شاطبة، فيقول إنه يعمل بها من الكاغد «مالا يوجد له نظيرٌ بمعمور الأرض ويعمّ المشارق والمغارب»[18]. ويقول ياقتُ الحموي إن شاطبة «يعمل الكاغد الجيد فيها، ويُحتمل إلى سائر بلاد الأندلس»[19].

ولم تصلْ أساليبُ صناعة الورق إلَى الغرب قبل القرن الثالثَ عشر، حينما

(16) لومبار Lombard. ص 171.
(17) المرجع السابق. ص 170.
(18) الإدريسي. ص 192.
(19) ياقوت الحموي 3/309.

أقيمت مصانعُ للورق في إيطاليا وجنوب فرنسا. وأقدمُ وثائق الورق في الغرب وصلتْنا يعود تاريخها إلَى بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وهو ورقٌ مستَوردٌ من مصانع الأندلس وصقلية [20].

ومما يُذكر، ان الكلمة العربية (رِزْمة) ـ أي حِزْمة من الورق ـ انتقلت إلَى الإسبانيةresma، ومنها إلَى الفرنسية القديم n'raime، ومن هذه إلَى الإنجليزيةream [21].

بعد الفتوح الإسلامية انتشرتْ زراعةُ أشجار التوت وتربيةُ دودة القز في كافة أرجاء حوض البحر المتوسط، وكان إنتاجُ الحرير من المبتكرات الكبرى التي أُدخلتْ من الأندلس إلَى أوروبا.

ومن صقلية ـ وبلاد الشام أيضا ـ وصلتْ أساليبُ تربية دودة القز وصناعة الحرير إلَى شمال إيطاليا (لوقةLucca والبندقية). وما إن حلَّ القرنُ الثالثَ عشرَ الميلادي حتّى أصبحتْ المنسوجاتُ الحريريةُ الصناعةَ الرئيسيةَ في عدة مدنٍ إيطالية. ثم أُنشئت مصانعُ المنسوجات الحريرية في فرنسا وألمانيا، ولا بد أن عمالاً مسلمين جُلبوا للعمل فيها [22].

أدخل الأميرُ عبدُ الرحمن الثاني (الأوسط) إلَى الأندلس فكرةَ (دار الطراز)، وهو مصنع ملحق بالقصر يُنتج ثياباً فاخرةً للبلاط يُطرَّز علَى حاشيتها اسمُ الأمير، ويُشرف علَى الدار صاحبُ الطراز.

كانت مدينةُ ألمريَّة المركزَ الرئيسيَّ لصناعة المنسوجات في الأندلس، وكان علَى منسوجاتها طلبٌ كبيرٌ في الكنائس، ومن جانب الملوك والنبلاء في أوروبا. يقول الإدريسي إنه كان بمدينة ألمريَّة من طُرزِ الحرير ثمانمائة طراز، يُعمل بها الحُلل، والديباجُ، والسقْلاطون، والإصبهانيّ والجرجانيّ والستور المكلّلة، والثياب المعيَّنة،

---

(20) لومبار. ص 192.

(21) حتّيHitti. ص 564.

(22) حتّي. ص 593 ـ 613. لومبار. ص 87.

والخُمُر والعتَّابي والمعاجرُ وصنوف أنواع الحرير»[23]. واشتهرت في بلرم علَى عهد النورمان ـ وكان مما آل إليهم من العرب ـ دارُ الطراز الملكية ـ وعُمَّالُها كلُّهم من المسلمين ـ وفيها صُنعتْ عباءةُ رجار الثاني الشهيرة ـ الموجودةُ في أحد متاحف فيينا ـ وعليها كتابةٌ عربيةٌ مطرَّزة في حاشيتها، تفيد أنها من صنع دار الطراز الملكية ببلرم، وعليها تاريخُ صُنْعها بالسنة الهجرية فقط 528 (=3 ـ 1134 م)[24].

ومما يُذكر أن صاحبَ أراجون جيمس الثاني أرسل صُنَّاعاً مسلمين للحرير من إسبانيا إلَى صقلية وكانت تابعة له. وجلَب صُنَّاعاً مسلمين للقطن من صقلية الَى إسبانيا، وذلك للاستفادة من مهاراتهم، كما يجري اليوم في تبادل الخبرات الفنية بين الدول[25].

كانت زراعةُ قصب السكر من أهم المحاصيل التي أدخلها العربُ إلَى كلٍّ من صقلية والأندلس. وكان السكر يُصدَّر من مصرَ الفاطمية إلَى بزنطية والغرب. «وأقدمُ إشارةٍ إلَى شُحْنة من السكرZucchero وصلتْ البندقية سنة 996 م»[26].

كان الأوروبيون يستعملون قبل ذلك العسلَ للتحلية. وعَرف الصليبيون قصبَ السكر في بلاد الشام. إن تكريرَ السكر ـ وهو ابتكارٌ صيني ـ انتقل غربا، ولم يعرفْه الاوروبيون إلَى أوائل القرن الرابعَ عشرَ الميلادي[27]. وفي تسميات السكر بمختلف اللغات الأوروبية ـ وهي مأخوذة ببعض التحريف من كلمة (سكر) العربية ـ دليلٌ علَى انتقاله إلَى أوروبا عن طريق العرب.

عُرفتْ طريقتان لدبغ الجلود، أُولاهما تُعرف باسم «غدامسي»guadamaci ـ نسبةً إلَى بلدة غدامس في ليبيا ـ وبها تتمُّ دباغةُ جلود الغنم

---

(23) الإدريسي. ص 197.

(24) لومبار. ص 82.

(25) حليك. ص 222.

(26) لومبار. ص 167.

(27) جليك. ص 245

بنقْعها في الشبِّ والملح ، وتُعرف الثانيةُ باسم «قرطبي» ، وبها تُدبغ جلودُ الماعز بموادَّ نباتية. وقد تطوَّرتْ هذه الأساليبُ في الأندلس ، ومنها انتقلتْ إلَى غرب أوروبا [28] .

يذكر ياقوتُ الحموي أن في غدامس تُدْبغ «الجلودُ الغدامسية ، وهي من أجود الدباغ. لا شيء فوقها في الجودة ، كأنها ثيابُ الخز في النعومة والإشراق» [29] .

ويتحدث الشريفُ الإدريسيُّ عن بلدة التَّرْبيعة إلَى الشرق من لرم ـ وتُعرف اليوم باسمTrabia ـ فيقول إنها «محلٌ... به مياهٌ جارية ، وعليه كثيرٌ من الأرحاء. ويُصنع بها من الأطرية ما يُتجهَّز به إلَى كل الآفاق من جميعِ بلاد قِلَّوْريَّة (جنوب إيطاليا) وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد النصارى ، ويُحمل منها الأوساق الكثيرة» [30] . والأطريةُ ـ علَى حدِّ قول الباحث الإيطالي مورينو ـ هي المكرونة الرقيقة غيرُ المثقوبة (الشعيرية)vermicel. ولا تزال تُعرف عند الصقليين باسمetria ، وعند أهل مرسية بشرق إسبانيا باسمeletria. أما الخوارزمي فيذكر أن الأطرية من طعام أهل الشام [31] .

انتشارُ العُمْلة الإسلامية وأثرها :

إن قيامَ الدولة العربية المترامية الأطراف كان حافزاً قوياً علَى النشاط التجاري ، وأصبح من المؤكد الآن ما كان للدراهم العربية من أهميةٍ بالغةٍ في تبادل السلع بين التجار المسلمين ، وبين أهل الشمال المعروفين باسم قايكنجر أو نورسمين ، في روسيا ومنطقة بحر البلطيق ، بعد العثور علَى كميات كبيرة من دفائن الدراهم العربية في هذه المناطق. وتُعرف هذه الدراهم عند علماء النُّمِّيات numismatists بالنقود

(28) المرجع السابق. ص 245.

(29) ياقوت الحموي. 4/187.

(30) المكتبة العربية الصقلية. ص 30.

(31) مورينو. ص 35. الخوارزمي. محمد : مفاتيح العلوم. ليدن 1895. ص 166

الكوفية cufic ، لأن الكتابةَ عليها بالخط الكوفي. ومما يزيد من أهمية هذه الدراهم العربية لدى الباحثين أنها تحملُ سنواتِ الضرب ، بخلاف العُمْلات الأوروبية التي كانت خِلْواً منها.

في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، كانت مملكةُ ميرسية Mercia ـ بوسط أنجلترا ـ أكبرَ ممالكِ الجزيرة ، وكان علَى رأسها الملكُ أُوفا Offa وكانت عُملته من الفضة ، إلاّ أنه ضرب أيضا عُملةً ذهبيةً خاصةً محاكاةً للدينار العربي. وقد عُثر علَى أحد دنانيره في روما ، وهو يحمل سنةَ الضرب بالتاريخ الهجري 157 (=774 م). ويبدو أن المكلَّفَ بضرب دينار الملك أُوفا لم يُدركْ أن الدينار الذي يحاول تقليده كان عليه كتابةٌ باللغة العربية ، ونتيجةً لذلك فإن اسمَ ملك ميرسية ـ الملك أُوفا ـ يظهر علَى الدينار مقلوباً يتوسَّط عبارتيْ (لا إلهَ إلاّ الله. محمدٌ رسول الله) ، كما أن التاريخ الهجريَّ نُقل كما هو علَى الدينار العربي المُقلَّد ـ أي 157 (32).

وفي فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) ، ظلَّتْ عُملاتهم تُضرب وعليها كتابةٌ عربية بالخط الكوفي ، وبعضها يحمل التاريخَ الهجريَّ وعبارةَ (محمد رسول الله). كما ظلَّ الرُّباعي الفاطميُّ ـ أي ربع الدينار ـ متداولا. وعلَى منواله ضُربتْ عُملة نورمانية عُرفتْ باسم طري tari ، وكانت كالرُّباعي شكلاً وقيمة. وقد تَبيَّنَ الآن أن العُملةَ المعروفةَ عند النصارى باسم tari مشتقةٌ من الكلمة الغربية (طري) ، بمعنًى حديث الضرب ، وهي صفة استُعملت لنعت الرُّباعي في صقلية العربية. ومن صقلية انتقلت التسميةُ إلَى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ومالطة (33) ،

لقد كان للدينار العربي أثرٌ كبيرٌ علَى اقتصاد أوروبا ، ولعب دَوْراً رئيسياً في المبادلات التجارية الدولية ، وقلَّده الأوروبيون في عُمْلاتهم كالفلورين والدوقة

---

(32) Magnusson p. 124

(33) ستيرن Stern ، ص 15.

الإيطاليتين، كما قلّد الصليبيون في المشرق الدنانيرَ الفاطمية.

وفي شمال شبه جزيرة إيبرية، ظهرت عُملة تُعرف باسم mancusos (من العربية منقوش)، وهي تسميةٌ شاعتْ في بعض الممالك المسيحية بشمال إسبانيا للدينار العربي الذي أخذتْ تلك الممالك في محاكاته في فترة ملوك الطوائف بالأندلس (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي).

أما الدينارُ أو المثقالُ المرابطيُّ فكان ـ لجودته ـ واسعَ الانتشار، وعليه إقبالٌ كبيرٌ في ممالك إسبانيا المسيحية، وقد عُرِف في القشتالية القديمة باسم mitical'metical من مثقال العربية. فالمرابطون ـ وقد امتدّتْ رُقعةُ امبراطوريتهم من نهر إبرُه شمالاً إلَى نهر السنغال جنوبا، وسيطروا علَى مواطن الذهب في غانة وعلَى تجارة القوافل عبر الصحراء ـ ضربوا دنانيرَ من الذهب الخالص، كان عليها إقبالٌ كبيرٌ في داخل إمبراطوريتهم وخارجها، حتّى إن باحثا حديثا أطلق عليها اسم « دولار القرن الثاني عشر» . وقد قلّدها الفونس الثامن ملك قشتالة وليون ، فضرب دنانير على غرارها سنة 1173 م عرفت باسم Le morabeti alfonsi .

وكان لقيام دولة الموحدين في أعقاب دولة المرابطين أثرٌ كذلك علَى نظام العُمْلة في الممالك النصرانية في شمال شبه جزيرة إيبرية، حيث ظهرت العُملةُ المعروفةُ باسم dobla (ضعف الدينار) وحلَّتْ محلَّ المثقال المرابطي. وكان نصفُ الدوبلة يُعرف باسم mazmudina، نسبة إلَى قبائل المصامدة التي قامت علَى أكتافها دولةُ الموحدين. وقد ظلَّتْ الدوبلة متداولةً كوحدةٍ للذهب في قشتالة حتّى زمن العاهلَيْن الكاثوليكيَّيْن فرديناند وإيزابيلا، أي إلَى أواخر القرنَ الخامسَ عشرَ الميلادي [34].

إن وجودَ عددٍ من المفردات العربية الاقتصادية في مختلف اللغات الأوروبية دليلٌ علَى أنه كان للتجارة والتقاليد العربية الإسلامية تأثيرٌ عميقٌ علَى الحياة الاقتصادية

(34) الطيبي. أمين: «النقود العربية ـ انتشارها وأثرها في أوروبا في القرون الوسطَى»، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. ص 7، 8، 21.

وتطورها في البلدان الأوروبية. فالكلمةُ الإيطاليةZecca مشتقةٌ من (دار السكة)، وكلمةُcheque مشتقة من العربية (صك)، والكلمةُ الهولنديةُWechsel والكلمة الألمانيةWissel من (وَصْل)، والمصطلحُ الجمركيُّtariff من العربية (تعريف)، ولعلَّ كلمةَtraffic ـ بمعنَى المتاجرة ـ هي أيضا من العربية (تَفْريق).

وفي اللغة الإسبانية العديدُ من التسميات لمناصبَ ومصطلحاتٍ ذات صِبغة مالية وتجارية مازال بعضُها متداولا، وهي من أصول عربية منهاalmojarife من (المُشْرِف) ـ وكان في الأندلس مراقباً للخِزانة والشؤون المالية ـ و gabelle من العربية (قبالة)، وكانت ضريبةً تُفرض علَى المبيعات في الأسوق، و alfarda من العربية (الفرْصة)، وهي ضريبة خاصة افترضها المرابطون للمساعدة في تجهيز الحملات لأغراض الجهاد.

في مجال الطب وعلم النبات:

يُعدُّ أبو بكر الرازيRhazes أولَ وأعظمَ أطباء المدرسة الطبيّة العربية، وله أكثرُ من مائتي مصنَّفٍ في الطب، أشهرها مقالتُه عن الجُدَري والحَصْبة التي تُرجمتْ إلَى اللاتينية في فترة مُبكرة، وطُبعت في أوروبا أكثرَ من أربعين مرة ما بين عاميْ 1498 و 1866 م. وأعظمُ مؤلفاته (الحاوي)، وهو موسوعةٌ عن كافة العلوم الطبية، وقد تُرجم في صقلية عام 1279 م إلَى اللغة اللاتينية، وطُبع مرارا حتّى منتصف القرن السادس عشر، ولذلك فإن تأثيرَه في الطب الأوروبي كان كبيراً جدا [35].

ومن أقدم ما تُرجم من كتب الطب العربية إلَى اللاتينية كتابُ (كامل الصناعة الطبية) المعروفُ باسم (الكُنّاش المَلَكي) لعلي بن العباس المجوسيHaly Abbas، وكان ذلك سنة 1127 م علَى يد الإيطالي أسطفان الملقَّبِ بالأنطاكي.

أما كتابُ (القانون في الطب) لابن سيناAvicenna فقد ترجمه إلَى اللاتينية في

(35) تراث الإسلام (بالإنجليزية)، ط. أولَى، ص 323.

القرن الثاني عشر جيرارد الكريموني. ولكثرة الطلب علَى الكتاب فقد ظهرت منه خمسَ عشرةَ طبعةً في الرُّبع الأخير من القرن الخامسَ عشر، كما أُعيد طبعه أكثرَ من عشرين مرةً في القرن السادسَ عشر. وظلَّ كتابُ (القانون في الطب) يُطبع ويُقرأ حتّى أواخر القرن السابع عشر، ولعلَّه لم يُقرأْ كتابٌ طبيٌّ بقدر ما قرىء كتابُ ابن سينا (36).

وفي الأندلس اشتهر من بين أطبائها الزهراوي، وابنُ زُهْر، وابنُ رشد، وابنُ الخطيب. ويُعدُّ أبو القاسم خلف الزهراوي (ت 404 هـ/1012 م) رائدَ علم الجراحة في القرون الوسطَى، وكان لمصنفاته في الجراحة أثرٌ كبيرٌ في أوروبا حتّى القرن الثامنَ عشر، حيث عُرِف باسم Abulcasis/Albucasis، المحرَّفتَيْن عن كُنّيته (أبو القاسم). ويُعتبر كتابه (التصريف لمن عجز عن التآليف) موسوعةً طبية، وقد تُرجم إلَى اللاتينية، وكثر اعتمادُ الناس عليه في العصور الوسطَى، وظلَّ قروناً الكتابَ المعتمدَ في الجراحة في سالرنُه ومونبيلييه وغيرهما من مدارس الطب في أوروبا. والكتاب يشتمل علَى ثلاثين مقالةً، أشهرُها المقالةُ الثلاثون عن الجراحة، التي ترجمها إلَى اللاتينية جيرارد الكريموني في طُليطُلة في أواخر القرن الثالث عشر. وكان لها تأثيرٌ كبيرٌ علَى الجرَّاحين الإيطاليين والفرنسيين. إن كتابَ الجراحة كان أهمَّ وأذيعَ كتابٍ في الطب في العصر الوسيط، وصاحبُه أولُ مؤلفٍ جعل الجراحةَ علماً قائماً بذاته، مستقلا عن الطب، قائما علَى أساس التشريح. وهو أولُ كتابٍ يتناول موضوعَ الجراحة بشكلٍ معقول مع توضيح بالرسوم للآلات الجراحية، وهو يصف عملياتٍ جراحيةً وأدواتٍ لا تظهر في ما وصَلنا من الكتب الطبيةِ القديمة، وعلَى ذلك فإنه يُمكن اعتبارُها من ابتكار الزهراوي أو أنها من أصل عربي.

ومن طريف ما يُذكر أن ملكة البَشْكُنس ـ طوطة ـ اصطرَّتْ إلَى زيارة قرطبة علَى عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر) عام 347 هـ/958 م مصحوبةً بحفيدها غرسية ابن شانجه، الذي كان يشكو من بدانة مُفْرِطةٍ مما نفَّر منه رعيتَه،

---

(36) المصدر السابق. ص 330.

فعالجه طبيبُ الناصر مما كان يشكو منه ، ـ ولم يكنْ له ليعالَجَ في غير قرطبة ـ وهكذا استعاد غرسية ـ علَى حدٍّ قول المستشرق الهولندي دوزي ـ وسامتَه وعرشَه [37] .

وعلَى إثر انتشار وباء الطاعون في أوروبا ومنطقة البحر المتوسط في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، عزا الأوروبيون انتشارَ الوباء إلَى اليهود ، أو إلَى الأجرام السماوية ، أو إلَى غضب الله تعالَى من آثام البشر ، إلاَّ أن ابنَ الخطيب ـ العالِمَ والوزيرَ الغرناطيَّ الشهيرَ المتوفَّى سنة 776 هـ/1374 م ـ كتب رسالةً أكَّد فيها أن الوباء ينتقل عن طريق العَدْوى . وفي عام 1382 م نشر أستاذٌ بجامعة مونبيلييه ـ المتأثرة بمعارف الأندلس ـ كتابا عن الطاعون ، قال فيه بانتشار الوباء عن طريق العدوى ، ونفَى التأثيرَ المزعومَ للنجوم وغيرها . ولتقدير ما أكَّده ابنُ الخطيب من أن الوباء ينتقل من شخص إلَى آخر عن طريق العدوى ، ينبغي أن نذكر أن فكرةَ انتقال المرض بالعدوى لم يؤكِّدْها أطباءُ اليونان ، ومرَّ بها أطباءُ القرون الوسطَى مرَّ الكرام [38] .

وقد ساهم أطباءُ بلرمُ في نموٍّ أقدم مدرسة للطب في أوروبا ، وهي مدرسة سالرنه بجنوب إيطاليا ، وبدأت ترجمةُ المؤلفات الطبية العربية في إيطاليا منذ مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . ويذكر اسطفان الأنطاكي سنة 1127 م أن علماءَ الطب يوجدون في المقام الأول في صقلية وسالرنه . إن حرصَ فردريك الثاني ـ صاحبِ صقلية ـ علَى صحته جعله يولي عنايةً خاصة للجراحة والطب . وهو الذي أحيى مدرسةَ الطب العربيةَ في سالرنه ، وأنشأ فيها أَوَّلَ قسمٍ للتشريح في أوروبا . كما أسس جامعةَ نابلي سنة 1224 م وأودع فيها مجموعةً من المخطوطات العربية . وفي صقلية ، قام فرجُ بن سالم من مدينة جَرْجَنْت بترجمة كتاب (الحاوي) للرازي سنة 1279م .

---

(37) المقري 1/5 ـ 266 . دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا (بالإنجليزية) . ص I ـ 444 .
(38) تراث الإسلام (بالإنجليزية) . ط . أولَى . ص 341 .

إن أشهرَ علماء النبات والصيدلة في الأندلس ـ بل في العالم الإسلامي ـ ابنُ البَيْطار الذي ترك لنا كتابيْن عن الحشائش الطبية أودع فيهما حصيلةَ بحوثه وتجاربه وملاحظاته، تناول فيهما حوالي 1400 مادةً نباتية، من بينها 300 مادةٍ جديدة (39).

في مجال الفلسفة والآداب:

إن في قمةِ المنجزات العظيمة لعرب الأندلس الفكرَ الفلسفيَّ. فالفلاسفةُ الأندلسيون ـ مع إخوانهم في المشرق ـ نقلوا الفلسفةَ الإغريقيةَ إلَى الغرب اللاتيني، مضيفين مساهماتهم، لا سيما في محاولة التوفيق بين الإيمان والعقل، والدين والعلم. وكان القرنُ السادسُ الهجري/الثاني عشر الميلادي أعظمَ قرنٍ في تاريخِ الفكر الفلسفي في الأندلس. ففي بداية القرن عاش ابنُ باجة، وواصل عملَه ابنُ طُفَيْل (ت 1185 م)، الذي اشتَهر بكتابه (حيٌّ بنُ يَقْظان)، وهو حكايةٌ رمزية تحاول التوفيقَ بين الفلسفة والدّين، وقد تُرجم إلَى اللاتينية ومعظمَ اللغات الأوروبية، ومنه استوحَى القصصيُّ الأنجليزيُّ دانيل ديفو ـ في مطلع القرن الثامن عشر ـ قصتَه الشهيرةَ (روبنسون كروزو).

إن أعظمَ فلاسفة القرن الثاني عشر هو ابنُ رشدAverroes (ت 1198 م) الذي عُرف في العالمِ المسيحي في المقام الأول بشروحه وتعليقاته علَى أرسطوطاليس. وإلَى نهاية القرن السادسَ عشر، بقيت الرشديةُAverroesm المدرسةَ الفكريةَ المهيْمنةَ في الدراسات الفلسفية. وأصبحت كتاْباتُه دراساتٍ مقررةً في جامعة باريس منذ منتصف القرن الثالث عشر، وكذلك في جامعة بادوا الإيطالية (40).

وفي بلاط فردريك الثاني صاحب صقلية، كان أبرزَ أعلام الفكر مايكل سكوت الذي ترجم العديدَ من شروح ابن رشد علَى كتابات أرسطو، وإلَى مايكل

---

(39) حتّي. ص 5 ـ 576.

(40) المرجع السابق. ص 580 ـ 584. تراث الإسلام (بالإنجليزية). ط. ثانية. ص 6 ـ 387.

سكوت يرجع الفضلُ في تعريف الغرب بابن رُشد.

وكان فردريك الثاني شديدَ التأثر والإعجاب بمختلف فروع العلوم الإسلامية. مما جلب عليه سخطَ الكنيسة. وقد وجَّه فردريك عدداً من الأسئلة الفلسفية تُعرف بالمسائل الصقلية إلَى السلطان الموحدي بمراكش، الذي أحالها علَى الفيلسوف والصوفي الشهير عبد الحق بن سبعين ـ وكان مقيماً بمدينة سَبْتة ـ فكتب ابنُ سبعين رسالتَه الشهيرةَ (الأجوبة عن المسائل الصقلية) رداً علَى أسئلة الإمبراطور. وكانت الأسئلةُ تدور حول مواضيعَ فلسفيةٍ وفقهيةٍ منها الاستفسارُ عن قول أرسطو بأزلية العالم. وعن خلود الروح بعد الموت. كما استفسر فردريك في أحد الأسئلة عن معنى الحديث النبوي الشريف القائلِ بأن قَلْبَ المؤمن بين إصبعيْن من أصابع الرحمن [41].

في مطلع القرن العشرين، ذكر المستشرقُ الإسباني خوليان ريبيرا أن للموشحات والأزجال الأندلسية أثراً حاسماً في مولد الشعر الغنائي الأوروبي. ومن بين أوائل شعراء التروبادور جيوم التاسع دوق أكتين المجاورةِ للأندلس، ثم ماركابرو وسيركامون من منطقة غسقونية، المتاخمة لشمال إسبانيا (مطلع القرن الثاني عشر). وعلَى ذلك فإن اتصالَ الجيل الأول من شعراء التروبادور بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس كان اتصالاً مباشراً. ولعلَّ لكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم القرطبي (ت 456 هـ/1063 م) أثراً قوياً في نشأة شعر التروبادور، إذ فيه كثيرٌ من الموضوعات والاصطلاحات التي تتكرر في شعر التروبادور (كالرقيب والواشي والعذول) [42].

ويرى الأستاذ هاملتون جيب Gibb أنه «نظراً لعدد المطابقات وطبيعتها بين شعر البلاط في الأندلس والشعر في بروفانس (جنوب فرنسا)، فإن نظرية النقل لا يمكن

(41) الطيبي، أمين: «السياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية». ص 64.
(42) أثر الإسلام... ص 43، 63.

إغفالُها . وأن الشعر العربي ساهم ـ بشكلٍ ما ـ في نشأة الشعر الجديد في اوروبا » (43) .

وقد لقيت نظريةُ ريبيرا تأييداً كذلك من العالم اللغوي والمؤرخ الإسباني الشهير مينندذ بيدال ، الذي وسَّع نطاقَ المقارنة بين الموشحات والأزجال الأندلسية وبين شعراء التروبادور بجنوب فرنسا ، فدلَّل علَى وجود بحور الازجال في الشعر الغنائي الغاليسي ـ البرتغالي ، وفي القشتالية ، والايطالية القديمة (44) .

ويرى ميشيل أماري أن ثمةَ صلةً بين الشعر العربي الذي نُظِم في صقلية وبين ظهور الشعر الإيطالي المبكر الذي نُظم في الجزيرة. وكان الشعر باللغة الدارجة يُنشد في بلاط فردريك الثاني على طريقة البروفنسال (التروبادور)، وكان ذلك بوحي من التقليد العربي الأندلسي المتمثّل في الموشحات والأزجال . ويرى بعض الباحثين أن بحور الشعر الشعبي المبكر الذي نظم في إيطاليا ـ كأغاني الكرنيفالات والقصائد لروائية ballata ـ تشبه كثيراً بحورَ وأوزان الأزجال الأندلسية . وقد يكون لنمو الشعر باللغة الدارجة الصقلية تأثرٌ بالشعر الشعبي العربي الذي نُظم في الجزيرة ذاتها (45) .

إن أول ملحمةٍ أسّبانية ـ ملْحمة السيد Poema del Cid ـ كثُرَ الجدلُ حول منشئها ، أهو فرنسي أو جرماني ، وكان الباحثون يستبعدون دائماً احتمالَ وجودِ أصولٍ عربيةٍ للشعر الملحمي . وفي سنة 1915 م ، طلع المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا برأي جديد في هذا الميدان ، وهو أن الشعرَ الملحميَّ الإسبانيَّ ذو أصول أندلسية إسلامية (46) .

ومهما قيل عن دَوْر الشعر العربي وتأثيره في نَظْم الشعر عند الشعوب اللاتينية ، فإن دَيْن أوروبا في العصر الوسيط للكتابات النثرية العربية لا مجال للشك فيه ،

---

(43) تراث الإسلام (بالإنجليزية) ، ط . أولى ص 189 ، 190 .
(44) تراث الإسلام . ط . ثانية . 1/ ص 148 .
(45) أحمد . عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية . ص 107
(46) أثر الإسلام ... ص 122 .

وبخاصة في مجال القصص والحكايات. فعن طريق الحجاج النصارى إلَى بيت المقدس والتجار، استمدَّ بوكاشيو حكاياتِه المشرقيةَ الورادةَ في كتابه (دي كاميرون)، كما أن تشوسرChaucer ـ الشاعرَ الأنجليزيَّ في القرن الرابع عشرـ أخذ حكايتهSquieres Tale من كتاب (ألف ليلة). ويقول الأستاذ جيب «ولعلَّه ليس من باب المبالغة القولُ بأن هذه القصصَ لبَّتْ حاجةً ماسةً لدى الكُتَّاب الشعبيِّين في الغرب، فلولاها لما ظهر كتاب (روبنسون كروزو)، ولا (رحلات جليفر)» (47).

ويرى الباحثُ الإيطاليُّ تشيرولِّيCerulli أن كتابةَ القصةِ الإيطاليةِ يمكن تتبعُ أُصولها إلَى مصادرَ عربية، واستمر هذا التأثيرُ العربيُّ علَى كتابة الحكايات الإيطالية من القرن الثالثَ عشر إلَى القرن السادسَ عشر(48).

وكان ميجيل آسين بلاثيوس قد طَرحَ في أوائل هذا القرن نظريةً مثيرةً مفادُها أن (الكوميديا الالهية) لدانتي متأثرةٌ إلَى حدٍّ بعيد ـ فيما يتعلق بالآخرة ـ بالدِّين الإسلامي، وأنه يظهر فيها تأثيرُ (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعرّي، وكذلك كتاب (الفتوحات المكية) لابن العربي. وقد تعزَّزتْ هذه النظرية أخيراً بعد أنْ تبيَّن أن قصةَ الإسراء والمعراج كانت قد تُرجمتْ في إسبانيا في القرن الثالثَ عشرَ إلَى اللغات القشتالية والفرنسية واللاتينية، وأن الترجمةَ كانت واسعةَ الانتشار ومعروفةً في إيطاليا في القرن الرابع عشر في عهد دانتي(49).

نشطتْ في قشتالة في النصف الثاني من القرن الثالثَ عشر في عهد الفونس العاشر المعروف بألفونس الحكيم ـ وتحت رعايته ـ كتابةُ التاريخ علَى الطريقة الحَوْلية، اقتداءً بالطريقة الإسلامية في تدوين التاريخ، فدُوِّنتْ عدةُ حوليات من أشهرها الحوليةُ التاريخيةُ الكبرى لإسبانيا. وقد اعتمد واضعوها علَى مصادرَ تاريخيةٍ عربيةٍ ككُتب الرازي، وتاريخ ابن علقمة، وتاريخ الكردبوس التوزي، وبخاصة فيما

(47) تراث الإسلام (بالإنجليزية). ط. أولَى. ص 192 ـ 193.
(48) أحمد. عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية. ص 110 ـ 111.
(49) المرجع السابق. ص 108 ـ 109.

يتعلق بأخبار السيد القنبيطور المنتزي في بلنسية (1094 ـ 1102 م) منقولاً عن رواية ابن علقمة الذي كان في بلنسية وشهد أحداثها ومحنتها ودوّن كلّ ذلك في كتابه (البيانُ الواضحُ في المُلِمّ الفادح) الذي لم تصلْنا منه سوى نُتفٍ في المصنّفات العربية.

في مجال الجغرافيا والملاحة البحرية:

أفاد الأوروبيون كثيرا من كتب الجغرافيا والرحلات العربية. فلم تَعرفْ أوروبا الأجزاء الداخلية من إفريقيا إلاّ عن طريق الكتابات والخرائط العربية، التي ظلّت مرجعَهم الوحيدَ عن هذه المناطق حتّى القرنِ التاسعَ عشر. وكرويةُ الأرضِ لم تكنْ أمراً مسلّماً به عند الأوروبيين، في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يُجمعون علَى هذه الحقيقة. فلو لم يُشع العربُ نظريةَ كروية الأرض، لما خطر ببال كريستوفر كولمبس أن الاتجاهَ غربا يمكن أن يؤدي به إلَى الهند، ولمَا اكتشف بالتالي العالمَ الجديد [50]. وللإدريسي فضلٌ كبير، إذ حصل الأوروبيون من كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) علَى معلوماتٍ دقيقةٍ نسبياً عن الهند والصين والنصف الشمالي من إفريقيا، مما استمده الإدريسي من كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومما دوّنه نتيجةً لرحلاتٍ قام بها هو شخصياً [51]. يقول جوليوس نوريتش في كتابٍ صدر له مؤخرا عن صقلية النورمانية «إن كتابَ الإدريسي هو أعظمُ عملٍ جغرافيٍّ في القرون الوسطَى. في الصفحة الأولَى من الكتابِ يذكر الإدريسي أن الأرضَ كرويةُ الشكل» [52].

ومما أخذه الأوروبيون عن العرب في علوم الملاحة هبوبُ الرياح المَوْسمية في المحيط الهندي في اتجاهين مختلفين في موسميْ الصيف والشتاء، فسمّوها Monsoon (من

(50) أثر الإسلام... ص 317. 2 ـ 323.

(51) واط Watt. ص 21.

(52) نورتش Norwich. ص 102.

موْسم) ، فانتفعوا بذلك في حركة الكشوف البحرية والوصول إلَى الهند من ساحل افريقيا الشرقي.

والبُوصلة تم تطويرُها علَى أيدي العرب والأوروبيين، وكان يُعتقد إلَى عهد قريب أنها من اختراع الصينيين، ولكنه تبيَّن الآن أن الملاَّحين الصينيين استعملوها حوالي سنة 1100 م بعد أن أخذوها عن العرب، إذ كان الصينيون يتاجرون ـ منذ القرن التاسع الميلادي ـ مع منطقة الخليج والبحر الأحمر[53].

وبالنسبة لأشرعة المراكب، نقل العربُ إلَى البحر المتوسط حصيلةَ تجاربهم في المحيط الهندي. ففي ملاحة المحيط الهندي عُرف الشراعُ المثلَّثُ الشكل المُسمَّى Lateen فأدخلَ العربُ إلَى البحر المتوسط المراكبَ التي تستعمل هذا النوعَ من الشراع lateen caravel، ومن مزاياها قدرتُها علَى السير مواجهةً للريح، بينما المراكبُ التي تستخدم الأشرعةَ المربعةَ لا تصلح للسير إلاّ في اتجاه الريح. فأخذ بناةُ السفن في أوروبا ذلك عن العرب وطوَّروه بحيث تسنَّى بناءُ سفنٍ كبيرةٍ تجتاز المحيط الأطلسي، ولا سيَّما من قِبَل الإسبان والبرتغاليين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ومزجوا بين النوعين من الأشرعة.

كما أن الخرائطَ الملاحيةَ المعروفةَ باسم portolans ـ وهي بالغةُ الأهمية للملاَّحين لأنها تبيِّن الطريق بين ميناء وآخر ـ طوَّرها الجنويون وغيرُهم من خرائط المسلمين[54]. ومما يُذكر في هذا الصدد أن «دارَ الصناعة» ـ وهي دارُ بناء المراكب عند العرب ـ انتقلتْ إلَى معظم اللغات الأوروبية بهذا المعنَى، فهي في الإيطالية arsenale، وفي الإسبانية darsena، وفي الإنجليزية arsenal.

لقد تسنَّى للبرتغاليين إحرازُ كشوفاتهم البحريةِ بفضل اقتباسهم طريقةَ بناءِ المراكب العربية التقليدية في غرب الأندلس، فعلَى أساسها استطاع الأميرُ البرتغاليُّ

---

(53) واط. ص 20.

(54) المرجع السابق. ص 20 ـ 21.

هنري «الملاّح» بناء المراكب السريعة المسمّاةِ caravels، وهي مراكبُ شراعيةٌ فائقةُ السرعة. ومن المعروف كذلك أن الأمير هنري «الملاح» استعان بأحد رسامي الخرائط اليهود ـ واسمه إبراهام كريسك ـ من جزيرة ميورقة استدعاه إلَى لشبونة لهذا الغرض. ولا شك أن هذا الرسّامَ اليهوديَّ كان علَى اطلاعٍ علَى الخرائط العربية في الأندلس والمغرب [55].

ولا بد من الإشارة إلَى كتاب (وصف افريقيا) للحسن الوزان ـ المعروف بليون الإفريقي ـ الذي ألّفه بالايطالية معتمداً علَى مسودّةٍ للكتاب بالعربية كانت في حوْزته حينما أسره القرصانُ الصقليون قرب جزيرة جربة سنة 923/1518 م. ومنذ ظهور الكتاب أدرك الأوروبيون أهميته وأفادوا مما فيه من معلومات أوردها شاهدُ عِيانٍ عن أراضٍ ـ وبخاصة السودان الغربي والاوسط ـ كانوا يجهلونها. والكتاب «مَنْجمٌ من المعلومات الجديدة التي طالما كان يُبحث عنها، وظلّ علَى مدى قرنين ونصف القرن لا غنًى عنه لكل من له اهتمامٌ بإفريقيا» [56].

الرياضيـــات والفلـــك :

إن الخوارزمي (ت حوالي 847 م) كان أولَ من برَّز في علميْ الرياضيات والفلك، وقد عُرف عند الأوروبيين باسم Algorismus. وكلمةُ (الجبر algebra) مشتقةٌ من أحد مؤلفاته (كتاب الجبر والمقابلة)، وكان أولَ من استعمل في الحساب الأرقامَ العربية.

عَرف العربُ الصفرَ ـ ومنه اشْتقّتْ كلمتا zero و cipher ـ قبل أن يعرفه الغربُ بثلاثة قرون. يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيحُ العلوم) بضرورة استعمال دائرةٍ هي المسماةُ بالصفر. إن هذه المفرداتِ ـ الجَبْر، الصفر، لوغارتم ـ بقيتْ شاهداً علَى

(55) الطيبي، أمين: «مدينة لشبونة الإسلامية...». ص 23 ـ 24.
(56) بوفيل Bovill. ص 154.

الدّوْر الذي قام به العربُ في تأسيس علم الحساب ونشره[57].

يذكر صاعدُ بن أحمد الطليطلي في كتابه (طبقاتُ الأمم) الرياضيَّ الأندلسيَّ الكبيرَ أبا القاسم مَسْلمة المجريطي (ت 1007 م) ـ نسبةً إلَى مجريط أي مدريد ـ فيقول : «كان إمامَ الرياضيين في الأندلس في وقته ، وأعلمَ ممَّن كان قبله بعلم الأفلاك»[58] ، وكان يُلقَّب بالحاسب.

واشتهر جابرُ بن أفلح بما قدَّمه في ميدان علم المثلثات ، وهو علمٌ حقَّق فيه العربُ تقدماً كبيرا. وكان الإنجليزيُّ روبرت أوف تشستر أولَ من استعملَ في القرن الثاني عشر المصطلحَ العربيَّ (جَيْب) في علم المثلثات ، مترجَماً إلَىsine.

وتركَّزتْ أعمالُ علماء الفلك حول الأزياج ـ الجداول الفلكية ـ وأعدَّ البتّانيAlbateginus في حدود سنة 900 م جداولَ دقيقةً فيه. وقد استُعملت ملاحظاتُه عن الخسوف والكسوف لأغراض المقارنة حتَّى عام 1749 م[59].

والأندلسيُّ الزَّرْقالي Arzachel (ت 1087 م) هو الذي اخترع الاسطرلابَ المعروفَ بالصفيحة. وله رسالةٌ في الموضوع تُرجمتْ إلَى اللاتينية في مونبلييه. ويقتبس كوبرنيك عن كلٍّ من البتاني والزرقالي في كتابه عن دورة الأفلاك.

وقد ترك العربُ آثارَهم الخالدَة في أسماء الكواكب ، ومعظمها باللغات الأوروبية تحمل أسماءً عربيةً كالعقرب ، والجَدْي ، والطائر ، والذَّنَب ، والفَرْقد[60].

إن الأرقامَ ـ الهنديةَ و «حروفَ الغبار» ـ وصلتْ إلَى أوروبا عن طريق العرب ، وعُرفتْ باسمهم (الأرقامُ العربيةُ Arabic numerals). والمعروف أن جربرتGerbert

---

(57) تراث الإسلام (بالإنجليزية) . ط . أولَى . ص 386.

(58) الطليطلي . صاعد بن أحمد : طبقات الأمم . ص 92.

(59) واط . ص 35.

(60) حتّي . ص 573.

الذي أمضى عدةَ سنواتٍ في إسبانيا قبل أن يصبح البابا سلقستر الثاني (999 ـ 1003 م) كان أولَ أوروبيٍّ وصفَ علمياً «أرقام الغبار» التي طوّرها الأندلسيون عن الأرقام الهندية، وكان ذلك بعد قرنٍ من ظهور أقدم المخطوطات العربية التي تشتمل علَى هذه الأرقام[60].

وكان فردريك الثاني صاحبُ صقلية علَى اتصال شخصي أو بالمراسلة بالعلماء العرب المبرّزين، وقد وجّه إليهم مسائلَ مختلفةً، ومن بينهم علَمُ الدّين الحنفي، وهو رياضيٌّ مرموقٌ أوفده السلطانُ الأيوبيُّ الكامل مبعوثاً إلَى بلاط فردريك. وكان من بين الرياضيين البارزين في بلاط فردريك الإيطالي ليناردو فيبوناتشي البيزي الذي كان قد درَس في بجاية والأندلس والمشرق، وإليه يرجع الفضلُ في إدخال الأرقام العربية إلَى أوروبا[61].

الموسيقـــى :

أدخل العرب الَى شبه جزيرة إيبرية ـ أو استحدثوا فيها ـ عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية التي مازالت تُعرف في الإسبانية بأسمائها العربية، ومنها الدف adufe، والشبّابة agababe، والبوق albogon، والطبل atabal، والعود laud، والصنجات sonajas، والقيثارة guitar، والربابة rebec. والربابة هي مقدّمةٌ للفيولين، وبها يُعرف الفيولين في اللغة البرتغالية.

كما عمل عازفون مسلمون في بلاطات أمراء النصارى في شمال إسبانيا، بل إن رجالَ الكنيسة كانوا يطربون لسماع الأغاني الشعبية العربية، مما حدا بالمَجْمع الكنسي في مدينة بلد الوليد في سنة 1322 م إلَى حظر استخدام العازفين العرب

(60ـأ) يقول صاعد بن أحمد : «ومما وصل إلينا من علومهم [الهنود] في العدد حساب الغبار الذي بسّط أبو جعفر محمد بن موسَى الخوارزمي. وهو أوجز حساب وأحصره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذاً وأبدعه تركيباً. يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختراع». (طبقات الأمم. ص 18).

(61) مؤنس. حسين : رحلة الأندلس. ص 401.

لبعث روح البَهْجَة في صلوات التهجُّد في الكنائس ليلاً. كما جلب العربُ رسائلَ في الموسيقَى العربية تُرجمتْ الَى اللاتينية وذاعت في شمال إسبانيا. وقام العديدُ من واضعي النظريات الموسيقية بالاقتباس عن الفارابي.

إن الزائرَ إلَى مدينة لشبونة في أيامنا هذه يحرص علَى الاستماع إلَي وصلاَتٍ من الغناء الشعبي البرتغالي، يرافقه عازفُ القيثارة guitar، وهو غناءٌ شجيٌّ يشوبه الحنين ويُعرف باسم fado، والكلمةُ من العربية الحَدْو أي الحداء. إن هذا اللَّونَ من الغناء الشعبي البرتغالي ـ كما يقول حسين مؤنس ـ «حداءُ بدَوْنا عبر البحار والعصور وصل لنا في غلاف برتغالي» (61).

الربـــاطـــات:

يرى بعضُ كبار المؤرخين الإسبان المحدثين أن النظُمَ الديريةَ العسكريةَ/نظمَ الفرسان Military Orders التي برزتْ إلَى حيِّز الوجود في شبه جزيرة إيبرية ابتداء من منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ـ كنظُم Santiago Calatrava Alcantara، ـ إنْ هي إلاّ تقليد للرباطات الإسلامية في مناطق الثغور الأندلسية حيث كان المرابطون فيها يَجْمعون بين العبادة والجهاد في سبيل الله والدفاع عن أرض الإسلام. يقول أحدُ هؤلاء المؤرخين Castro إنه «قبل ظهور النظُم الديرية العسكرية لدى النصارى بقرون، عرف المسلمون الرباطاتِ التي كان يعتكف فيها الزهادُ وينقطعون للعبادة والدفاع عن الحدود. وهكذا فإننا نجد اليوم في كل من إسبانيا والبرتغال أماكنَ كثيرةً تحمل اسم rabida، rapita، rabate. وما احتفاظُ الإسبان والبرتغاليين بأسماء هذه الأماكن سوى دليلٍ علَى وجود رباطات إسلامية هناك كانت تحمل هذا الاسمَ من قبل» (62)

(61) مؤنس، حسين: رحلة الأندلس، ص 401

(62) كاسترو Castro، ص 204.

المفردات العربية في اللغتين الإسبانية والإيطالية :

يقول الأستاذ ريندTrend من جامعة كمبردج إنه «لا شيء أوضحُ دلالةً علَى ما تدين به إسبانيا للمسلمين من وفرة المفردات العربية في لغتها» [63]. وقد جمع دوزي وإنجلمان ما يزيد علَى 1450 مفردةً إسبانيةً وبرتغاليةً مشتقةً من العربية في قاموسها [64]. وفيما يلي مختارات من هذه المفردات في الإسبانية والإيطالية.

أ ـ الإسبانيــة :

الإدارة: alcalde من (القاضي) وتَعْني عمبدَ البلدية، almotacen من (المُحْتسِب).

عسكرية: alferez من (الفارس) وتعني حاملَ الراية وملازم ثاني، من (العَرْض). alcazaba من (القَصَبة) بمعنَى القلعَة أو الحصن.

تجارية: aduana من (الديوان) وتعني الجمارك، almacen (المخزن)، fonda من (فندق).

موازين ومقاييس: arroba من (الرُّبْع)، almud من (المُدّ).

ملابس شرقية: alguba من (الجُبَّة)، albornoz من (البُرْنس)، alfayote من (الخيَّاط).

الفلاحة: acequia من (الساقية)، noria من (الناعورة)، almazara من (المعصرة).

نباتات: arroz من (الأرز)، azucar من (السكّر)، aceita من (الزيت).

أدوات منزلية: jarra من (جرَّة)، alcolla من (القُلَّة)، almohada من (المِخدَّة).

---

(63) تراث الإسلام (بالإنجليزية)، ط. أولَى، ص 19.

(64) **Glossaire De Mots Espagnols et Portugais Dérivés de L'Arabe,** (R.P. Dozy and W .H. Engelmann), Amsterdam 1982.

المعمار: albanil من (البنّاء)، alcoba من (القُبّة).
ألعاب: aljedrez من (الشطْرنج).
ادوات موسيقية: laud من (العود)، atabal من (الطّبْل)، adufe من (الدف).
أسماء أماكن: Guadalquivir نهر (الوادي الكبير)، alcazar من (القَصْر)، rabita من (رابطة)، Calatayud وهي (قلعة أيوب).

ب ـ الإيطاليـة والصقلّيّـة:

يقول المستشرقُ الإيطاليُّ جابرييلي إن خلاصةَ التأثيرات العربية علَى الحضارة الإيطالية في العصور الوسطَى إنما نجده في العناصر اللغوية العربية الّتي تسرَّبتْ إلَى الإيطالية والصقلية، لا سيًّا في المجالات الاقتصادية [65]. ويقول الباحثُ الصقلّيُّ مورينو إن ألفاظاً عربيةً كثيرةً مازالت متداولةً علَى ألسن الصقليين [66]. وفيما يلي نماذجُ من هذه المفردات.

اقتصادية: dogana من (الديوان) وتعني أصلا الجمارك، maggazino من (مخزن) Zecca من (سكة) بمعنى دار ضرب العُمْلة.
فلاحية: noria من (ناعورة)، senia من (سانية)، acequia من (الساقية) mazzara من (معصرة)، naranzu من (نارنج) أي البرتقال، zagara زهرة البرتقال أو الليمون.
أوعية: garrafu/carafu من (غرافة)، giara من (جرّة)، ziro من (زير)، catuso من (قادوس).
موازين ومقاييس: caffisu من (قفيز)، centaro من (قنطار)، rotolo من

(65) تراث الإسلام. ط. ثانية. 1/ ص 125. 126.
(66) مورينو. ص 38.

(رطل)، rubbio من (رُبْع).

ملبوسات وأدوات منزلية: giubba من (جُبَّة)، caffetteno من (قَفْطان)، gasena من (خِزانة).

مأكولات: etria من (أطرية) بمعنَى المكرونة الرفيعة غير المثقوبة، cuscusu (الكُسْكُس)، sfinza (إسفنج).

متفرقات: carara (حرارة)، cassara (خسارة)، filano (فلان)، fucurunna فقرونة) أي السلحفاة.

أسماء أماكن: Marsala مرسَى علي، Caltabellotta قلعةُ البلوط، Favara فوَّارة، Marzamemi مرسَى الحَمام، Alcamo عَلْقمة.

ثَبتٌ بالمصادر والمراجع

أ ـ مصادر ومراجع بالعربية :

ابن بسام الشنتريني ، علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب 1975 .

ابن جبير ، محمد : رحلة ابن جبير، بيروت 1968 .

ابن حوقل ، محمد : صورة الأرض ، بيروت (بدون تاريخ) .

ابن عبدون ، محمد : رسالة في القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة) ، تحقيق إ. ليفي ـ بروفنسال ، القاهرة ، 1955 .

أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (دراسات لعدد من الباحثين) ، القاهرة 1970 .

أحمد ، عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، تعريب وتعليق أمين الطيبي ، الدار العربية للكتاب 1980 .

الإدريسي ، محمد : صفة جزيرة الأندلس (قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق) ، تحقيق دوزي ودي خوية ، ليدن 1866 .

تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث ، القسم الأول ، ترجمة محمد زهير السمهوري ، الكويت 1978 .

تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث ، القسم الثالث ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، الكويت ، 1978 .

الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، المجلدان الثالث والرابع ، بيروت 1979 .

صاعد بن أحمد الطليطلي : طبقات الأمم ، ط . القاهرة (بدون تاريخ) .

الطيبي ، أمين : «أغنام المرينو ذات أصل مغربي» ، مجلة كلية التربية ، جامعة الفاتح ، العدد 13 (1970 ـ 1981) .

ـ : «السياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية» ، مجلة كلية التربية ، جامعة الفاتح ، العدد 15 (1981 ـ 1982) .

ـ : «مدينة لشبونة الإسلامية» ، مجلة التربية ، جامعة الفاتح ، العدد 11 (1966 ـ 1968) .

ـ : «النقود العربية ـ إنتشارها وأثرها في أوروبا في القرون الوسطَى» ، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، الجامعة التونسية ، السنة الثامنة عشرة ، العدد 67 (1981) .

المقَّرى ، أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الأول ، بيروت 1968 .

المكتبة العربية الصقلية ، نصوص تاريخية وجغرافية وأدبية جمعها وحققها ميشيل أماري ، ليبسك ، 1957 .

مورينو ، مارتينو ماريو : المسلمون في صقلية ، بيروت 1968 .

مؤنس ، حسين : رحلة الأندلس القاهرة 1963 .

ب ـ مراجع باللغة الأجنبية :

The Poet and the Spae-Wife

W. E. D. Allen

Bovill, E.W., *The Golden Trade of the Moors*, Oxford U P. 1970.
Castro, A., *The Structure of Spain*, tr E. L. King, Princeton U.P 1954

The Encyclopaedia of Islam (2nd edition), Vol II, Leiden-London 1965, s.v. *filaha* (G S. Colin)
Glick, Th. F., *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages* Princeton U P. 1979.
Hitti, P.K., *History of the Arabs* London 1943
Legacy of Islam (1st edition), edit Arnold and Guillaume, Oxford U.P. 1931.
Legacy of Islam (2nd edition), edit Schacht and Bosworth, Oxford U.P. 1974.
Lewis, B., *The Arabs in History* London 1950
Lombard, M *The Golden Age of Islam* The Netherlands 1975
Magnusson, M *Vikings*, London 1980
Norwich, J J., *The Kingdom in the Sun* London 1976
Smith, D M., *Medieval Sicily* London 1968
Watson, Andrew M "The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion (700-1100)," in *Journal of Economic History*, *No 1 (1974)*
Watt, W M The Influence of Islam on Medieval Europe Edinburgh U.P. 1972

Dozy, R., A A. *History of the Moslems of Spain*, tr. F. G. Stokes, London 1913.
Dozy and Engelmann, *Glossaire de mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, Amsterdam 1982.

مخطوط رحلة الفقيه المغربي
يوسف بن عباد الإدريسي
التعريف بالمخطوط وصاحبه

تمهيـــــــد :

وُلد الفقيه والصوفي يوسف بن عابد الحسني الإدريسي ونشأ في المغرب الأقصَى ، ثم غادر موطنه عام 990 هـ/1582 م ، وهو في الرابعة والعشرين من العمر ، متوجها بطريق البر إلَى المشرق للاجتماع بأقطاب الصوفية ، وانتهى به المطاف في حضرموت بجنوبي الجزيرة العربية ، حيث اشتغل بالتدريس وتزوج واستقر . وفي أواخر عام 1036 هـ/منتصف عام 1627 م ـ ناهز السبعين من عمره ـ أملَى في بلدة مريمة بحضرموت سيرته وأخبار رحلته من المغرب إلَى حضرموت ، حيث كان قد أمضَى نيفاً وأربعين عاما . ولعل من المناسب قبل الحديث عن الفقيه إعطاء نبذة تاريخية عن الأوضاع في المغرب الأقصَى في أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر للميلاد ، إذ إن ما يقرب من ثلاثة أرباع المخطوط يتناول الأحوال الاجتماعية والثقافية وانتشار الطرق الصوفية في المغرب الأقصَى آنذاك ، ثم لنرى ما إذا كان لرحيله عن المغرب واستقراره نهائيا في حضرموت علاقة بالأوضاع السائدة في المغرب الأقصَى في أواخر القرن السادس عشر للميلاد .

عُثر علَى المخطوط في مكتبة الجامع الكبير ببلدة تريم بوادي حضرموت ، وهو يضم 157 صفحة من الحجم المتوسط ، وفي كل صفحة ما متوسطه 16 سطرا ، وفي

السطر الواحد ما متوسطه سبع كلمات. والمخطوط مكتوب بخط مشرقي مقروء ويذكر الناسخ في مستهلّ المخطوط أنه «ملتقَطٌ من الكتاب المسمّى بالرحلة» للسيد يوسف بن عابد الإدريسي نسباً الفاسيّ موطنا. وكانت الرحلة أصلاً قد دوّنها «أحمد بن المعلم عبد الله بن المعلم أحمد بن محمد بن امبارك القيني... من إملاء السيد الشريف الفاضل العالم الورع الزاهد يوسف بن عابد... وذلك في بيته المعروف في مريمة»...

وفي المخطوط يستعرض يوسفُ بن عابد سيرته منذ حداثة سنّه ذاكراً أسباب توجّهه إلَى المشرق واستقراره آخر الأمر في حضرموت. وكان خروجه من المغرب علَى عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الملقّب بالذهبي. ولا يتطرق صاحبُ المخطوط إلَى الأحداث السياسية أو إلَى الدول والسلاطين، بل يقتصر في أثناء سرده لسيرته وتنقلاته علَى الحديث عن الأحوال الاجتماعية، كما يتحدث بشيء من الإسهاب عن مدارس مدينة فاس، وعن الطرق الصوفية المنتشرة آنذاك في أنحاء المغرب الأقصَى. وفي المخطوط معلومات عن وسائل الدفاع التي اتخذت علَى سواحل المغرب لمواجهة غارات البرتغاليين من البحر. ولا يترك الفقيه الصوفي يوسف بن عابد الإدريسي مناسبةً تمرُّ دون التأكيد علَى نسبه الحسني الإدريسي الشريف، وعلَى انتمائه إلَى طريقة الشيخ أحمد زروق المنبثقة عن الطريقة الشاذلية. إن الأحداث التي يتطرق إليها المؤلف تغطّي نصفَ قرن (1576 ـ 1627 م).

وتتخلّل المخطوطَ كثيرٌ من العبارات الركيكة الدارجة، وكثير من الأخطاء اللغوية والنحوية والصَّرْفية لعلَّ بعضها يرجع إلَى مدوّن المخطوط وناسخه، ومنها علَى سبيل المثال دون الحصر: زوجت خبه. طلبت لعلم، فدخلوا أهل انقاذ، كنت محتاج لذلك. قالوا لهم البوابين. يخصُّوني به. ومن العبارات العامية قوله: ما يفهُموا كلامه. نحو مرحلة ونص، عاده يرجع إلينا، ما جابني رِجَّال.

ومن بين المفردات الغريبة: غدر وغدرا (الظُّلْمة)، الهاره (الكارثة). وتردُ في المخطوط أعلامٌ رُسمت علَى غير ما نعهده: درا (درعة) الجربة (جربة)، ترابلس (طرابلس). مسراه (مصراتة).

الأوضاع في المغرب الأقصى في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر للميلاد :

منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، ولأسباب دينية واقتصادية في المقام الأول ، امتدت أطماع إسبانيا والبرتغال ، لا سيما بعد سقوط مملكة غرناطة عام 1492 م ، إلَى السيطرة علَى المغرب . وتفادياً لوقوع تصادم بين مصالح الدولتين ، تقرَّر بموافقة البابا عام 1494 م أن يكون المغرب الأقصَى من نصيب البرتغال ، وأن تُطلقَ يدُ إسبانيا في بقية الشمال الإفريقي . وكان البرتغاليون قد احتلوا مدينة سبتة سنة 1415 م ، ثم طنجة وأصيلا سنة 1471 م ، وأقاموا عام 1505 م حصناً في أكادير ، واستولّوا في العام التالي علَى آسفي (صافي) ومازيغن (الجديدة) ، ثم علَى أزمور سنة 1516 م . وقد بلغ توسع البرتغاليين علَى ساحل المغرب المواجهِ للمحيط الأطلنطي أوجَهَ في الربع الأول من القرن السادس عشر . ونظراً لعجز سلاطين بني وطّاس عن التصدي لهذا العدوان ، فإن شيوخ الطرق ، وبخاصة الطريقة الشاذلية ، أخذوا علَى عاتقهم منذ أوائل القرن السادس عشر الجهادَ ضد الغزاة ، فأثارو الحمية الدينية في المدن والأرياف ، وعملوا علَى فضّ المنازعات بين القبائل ، وبايعوا الشرفاء السعديين لتزعم حركة الجهاد . فتمَّ استردادُ أجادير سنة 1541 م من أيدي البرتغاليين ، وكان ذلك نقطةَ تحوّلٍ في الصراع لتحرير البلاد من احتلال البرتغاليين الذين بادروا بإخلاء موجادور وآسفَى وأزمور ، ولم يَبْقَ في أيديهم علَى ساحل المحيط سوى مازيغن (الجديدة) ، وفي الشمال سبتة وطنجة . وقد عزَّزتْ هذه الانتصاراتُ من مكانة السعديين في أعين المغاربة ، واستقرّ محمد الشيخ السعدي في مراكُش متخذا لنفسه لقب أمير المؤمنين [1] .

---

(1) جوليان ، شارل ـ أندري : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج 2 ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، تونس 1978 ، ص 266.

بِلْ ، الفرد : الفِرَق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، بنغازي 1969 ، ص 2 ـ 423. Barbour, N., Morocco, London 1965, p. 102.

وفي منتصف القرن السادس عشر، كان الأتراك العثمانيون قد بسطوا سيطرتهم علَى المغرب الأوسط وتصدّوْا للإسبان في وهران وغربي البحر المتوسط. ولمّا خشي السلطانُ محمدُ الشيخ علَى مُلْكه من ناحية العثمانيين، سعَى إلَى التحالف مع الإسبان، ممّا أدّى إلَى اغتياله عام 1557 م، وخلفه ابنُه عبدُ الله الغالب بالله (57 ـ 1574 م) الذي سار علَى سياسة أبيه في التقرّب من الإسبان، وتنازل لهم عن ميناء بادس (Velez) سنة 1564 م، مما أثار نقمةَ المرابطين ومشايخ الطرق عليه. ولجأ أخواه عبدُ المالك وأحمد عند الأتراك.

وبعد وفاة الغالب بالله عام 1574 م، خلفه ابنُه محمد المتوكل الذي هُزم علَى يد عمّيه بمساعدة الأتراك وانحياز العناصر الأندلسية الّتي ساءها خذلانُ المتوكل وأبيه للموريسكين في ثورتهم العارمة علَى الإسبان في إقليم غرناطة (1568 ـ 1570 م). ولجأ المتوكل إلَى إسبانيا أولا، ثم إلَى البرتغال. وتولّى المُلْكَ في المغرب عبد المالك وسط حماس شعبي كبير لفكرة قيام جهاد إسلامي مغربي تركي ضد الإسبان (2).

وفي وقعة وادي المخازن (القصر الكبير) عام 1578 م، أوقع المغاربةُ هزيمةً ساحقةً بالبرتغاليين، وهي الوقعة المعروفة أيضا بوقعة الملوك الثلاثة، إذ هلك فيها ملكُ البرتغال سباستيان وحليفُه سلطان المغرب المخلوع محمد المتوكل. كما توفي في أثناء المعركة السلطان عبد المالك. وكانت وفاتُه وفاةً طبيعية.

لقد عزّز انتصارُ المغاربة في وقعة وادي المخازن من هيبة المغرب في الأوساط الدولية، كما أن النصر ووفرة الغنائم وفدية الأسرى كل ذلك عزز من هيبة السعديين وثروتهم، وأخذت الدول تحسب للمغرب الحساب، كدولة ذات إمكانات ويُطمع في التحالف معها. كذلك فإن الانتصار علَى دولة مسيحية عزّز التحالفَ بين السعديين ورجال الدين في المغرب (3). وتولّي المُلكَ بعد وفاة عبد المالك أخوه

(2) Yahya., D. Morocco in the Sixteenth Century, Ibadan History Series 1981, p. 96.

(3) Laroui, A., The History of the Maghrib, Princeton, U.P. 1970p. 157.

Barbour, p. 106

أحمد المنصور (حكَم 1578 ـ 1603 م) الذي شهدتْ فترةُ حكمه هدوءاً ورخاءً قلّما شهدهما المغرب. وبالرغم من مداخلاته مع الإسبان، فإنه لم يواجه مشاكلَ مع مشائخ الطرق، إذ إن انتصار وادي المخازن جعله فوق الشبهات، كما أنه استغلَّ، بمهارة، كونَه شريفاً[4].

علَى إثر وقعة وادي المخازن ومصرع ملك البرتغال سباستيان دون عقب، ضُمَّت البرتغالُ الَى إسبانيا علَى عهد الملك فليب الثاني (1580 م)، وآلت إلَى إسبانيا ممتلكاتُ البرتغال علَى سواحل المغرب كسبتة وطنجة. وتوصَّل السلطان أحمد إلَى تفاهم وديّ مع السلطان العثماني مراد الثالث (1581 م)[5]، وحال دون اعتداء إسبانيا علَى المغرب، بالطرق الدبلوماسية وبربط العلاقات مع أنجلترا المعادية لإسبانيا آنذاك.

وفي السنوات الأولَى من حكمه، واجه السلطانُ أحمد المنصور بعضَ الصعوبات في الداخل، إلاّ أنه تمكَّن من التغلب عليها. فقد اتصل عدد من قادة الجيش والعناصر الأندلسية بالوالي التركي في الجزائر لحثه علَى غزو المغرب بحجة أن السلطان أحمد غيرُ مَرْضي عنه في البلاد، وأنه ليس ثمّة من يصلح للحكم في المغرب بعد وفاة السلطان عبد المالك. إلاّ أن السلطان أحمد المنصور عمل علَى التخلص من زعماء الأندلسيين المعارضين لحكمه[6].

كما واجه السلطان أحمد المنصور معارضةً من بعض أفراد أسرته (1580 م) لمناداته بابنه ولياً للعهد، فثار ابنُ أخيه داود بن عبد المؤمن، ووُعد بالعون والتأييد من جانب والي الجزائر ومن إقليم السوس، وزحف نحو منطقة وادي درعة وأعلن نفسه سلطاناً. كما اتصل برمضان باشا والي الجزائر طالباً المساعدةَ لمهاجمة مدينة مراكُش. إلاّ أن ثورةَ داود باءت بالفشل وفرَّ إلَى الصحراء، وتمكَّن السلطان أحمد

---

(4) Terrasse, H., History of Morocco, Casablanca 1952. p. 123

(5) Yahya, p. 123

(6) المرجع السابق. ص 97 وما بعدها.

من إخضاع إقليم السوس بالقوة في صيف عام 1583 [7] . ونجح السلطان كذلك في القضاء علَى ثورة زعيم « ديني » يدعَى ابن قرقوش سنة 1588 م . وشدد السلطان من قبضته علَى القبائل العربية ، وألزمها أداء الضرائب للحكومة المركزية ، والخدمةَ العسكرية [8] .

إن التنافسَ بين الأتراك العثمانيين وبين الإسبان في غربي البحر المتوسط أتاح للمغرب متنفَّساً وفرصةً للمناورة في بداية عهد السلطان أحمد المنصور ، الذي حاول من جانبه تجنّبَ المجابهة مع إسبانيا ، فلم يهاجم مواقعَ البرتغاليين علَى ساحل المغرب بعد وقعة وادي المخازن ، مدلّلا بذلك للإسبان علَى أن سياسته ليست سياسةً عدوانية [9] . وفي الوقت ذاته ، استغلّ السلطانُ أحمد تدهورَ العلاقات بين أنجلترا البروتستانية وبين إسبانيا الكاثوليكية ـ وبخاصة بعد هزيمة أسطول الأرمادا الإسباني سنة 1588 م ـ فأخذ في مكاتبة إليزابيت الأولَى ملكة أنجلترا لتوطيد علاقته التجارية والسياسية معها ، مما حدا بإسبانيا إلَى التنازل للسلطان عن أصيلا عام 1589 م [10] .

إن الفترةَ من سنة 1576 إلَى سنة 1582 م التي أمضاها الفقيهُ يوسفُ بن عابد طالباً للعلم في فاس قبل انتقاله إلَى المشرق كانت فترةَ هدوء واستقرار نسبيَّين ، وفيها توطَّد حكمُ السلطان أحمد المنصور علَى إثر وقعة وادي المخازن وقمعه لعصيان بعض مناوئيه ، وبفضل نجاحه في التوصل الَى تفاهم مع الأتراك والإسبان ، وتعزيز صلاته بأنجلترا ، وعلَى ذلك ، فلا يمكن تفسيرُ انتقال الفقيه يوسف بن عابد بأنه يعود إلَى سوء الأحوال في المغرب الأقصَى آنذاك. وفي المواضع القليلة التي يذكر فيها الفقيهُ يوسفُ بن عابد السلطانَ أحمدَ في مخطوط رحلته يصفه بالسلطان « الشريف صاحب شوكة المغرب ذلك الزمان » .

---

(7) المرجع السابق . ص 99 وما بعدها .
(8) المرجع السابق . ص 137 ـ 139 .
(9) المرجع السابق . ص 102 .
(10) المرجع السابق . ص 130 وما بعدها .

وبعد وفاة السلطان أحمد المنصور عام 1603م، دبّ النزاعُ علىَ المُلك بين أبنـائه الثلاثـةَ، وفَقَدَ المغـربُ وحدتـهُ وانقسم إلىَ شطرين كما كـانت الحال في منتصف القرن الخامس عشر: فاس ومراكش. واستمـرت الفوضَى الدا خليةُ والفتنُ بين القبـائل إلىَ نهايـة حكم السعـديين في منتصف القـرن السـابع عشر للميلاد(11)، وكـانـت هـذه الفترة من أحلك الفترات التي شهــدهـا تـاريخُ المغرب، وفيهـا أخذت إسبانيا تتحفّـز للاستيلاء علىَ موانىء المغـرب، بحجة درء خطر غزاة البحر مــن الموريسكـو النازحين عن الأندلس، فاستولت على العرائش سنة 1610 م، وأقامت سنة 1614 م حصنًا عند مصب وادي سبو - هو حصن المعمورة الذي يُعـرف الآن باسم المهدية - لمراقبة قـواعد غزاة البحر عند مصب وادي بـورقراق(12). ونشطت من جـديد الحركـاتُ الصوفيـةُ في شمالي المغرب وجنوبيه، لصد خطر النصارى الإسبان.

وعلىَ ذلك، فلعلّ اختــلالَ الأمن في المغـرب بعــد وفـاة السلطــان أحمد المنصور لم يكن مشجّـعًا للفقيه يوسف بن عابد للتفكير في العودة إلى موطنه من حضرموت. إلاّ أن الأرجح هـو ما يذكره في مخطـوط الرحلة من أنـه استقرّ في حضرموت بعد أن تزوّج فيها وأنجب، وحسُنتْ سمعتُه وأفاد واستفاد.

نبذة عن سيرة صاحب المخطوط وثقافته:

لم تردْ سيرةُ الفقيه يوسف بن عابد في كتـب التاريخ والسِّيَـر. والنبذةُ التاليةُ مستقاةٌ من سيرته الذاتية الواردة في تضاعيف مخطوط رحلته.

ينتمي الفقيهُ ين عابـد إلىَ أسرة شريفة تنتسب إلىَ الأدارسة الحسنيين، وهي أسرة أبي الوكيل من قرية مأرب فاس حول نهر أم الربيع. وقد نزح والده عنها

---

(11) جوليان، ص 279. Yahya, p.189

(12) جوليان، ص 280.

بسبب نزاع حول ميراث. واستقرَّ في الفيضبة بجهة إنقاد ما بين فاس وتلمسان، وتزوج فيها. وكان والده فقيهاً وكذلك جدّه.

وُلد يوسف بن عابد في حدود سنة 5 ـ 566 هـ/8 ـ 1559 م، وتوفي والده وهو في العاشرة من عمره. وتوجّه الَى فاس طلباً للعلم والتماس مجالس العلماء والأولياء في نحو سنة 4 ـ 985 هـ/6 ـ 1577 م، وأمضَى فيها ستَّ سنواتٍ متردداً بين مدارسها ومدينة مكناس، وزائراً لشيوخ الطرق الصوفية في أنحاء المغرب الأقصَى. وقد غلب عليه اسمُ الفاسي لإقامته في فاس «ولأنها دارُ آبائنا الأدارسة». وفي فاس التحق بمدرسة مصباح قرب جامع القرويين، كما دخل مدرسة الوادي حول جامع مدرسة الأندلس، وسمع أن في فاس اثنتي عشرة مدرسة [13].

وحدث في أثناء قراءته علَى الشيخ أحمد القناوي في مكناس أن عُقد لسانه،

---

(13) أنشأ المدرسة المصباحية ومدرسة الوادي في منتصف القرن الثامن للهجرة/14 م السلطان المريني أبو الحسن. وقد عُرفت مدرسة مصباح بهذا الاسم نسبة إِلَى أول شيخ درَّس فيها وهو مصباح بن عبد الله الباصولي، وكثيرا ما تسمَّى مدرسة الرخام لأنها كانت مزدانة بنافورة جميلة من الرخام جلبها السلطان أبو الحسن من مدينة ألمرية في الأندلس. وكانت مدرسة مصباح تشتمل علَى 117 حجرة لسكنَى الطلبة علَى نفقة السلطان. ويذكر يوسف بن عابد أن مدرسة مصباح كانت تضمُّ ثلاثمائة طالب، مما يدل علَى أن مدارس فاس كانت تضمُّ آنذاك قرابة أربعة آلاف طالب:

Le Tourneau, R., Fez in the Age of the Marinides, Oklahoma U.P. 1961 p. 23.

ويتحدث الحسن الوزان ـ وهو من أبناء فاس ـ عن مدارس المدينة وأساتذتها وطلبتها ومواردها المالية كما كانت في أوائل القرن 10 هـ/16 م ـ أي قبل نصف قرن من التحاق يوسف بن عابد للدراسة فيها فيقول: «تبتدىء الدروس [في جامع القرويين] بعد الفجر بقليل. وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس. ولا تُلقَى الدروس صيفاً إلاّ من منتصف الليل إِلَى الساعة الواحدة والنصف صباحاً... وفي فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخارف بالزليج والخشب المنقوش. بعضها بلّط بالرخام. وبعضها بالخزف المايورقي. وتحتوي كل مدرسة علَى عدة حجر. في هذه مائة حجرة أو أكثر. وفي تلك أقل من هذا العدد. وكلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين... وفي كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم. فهذا يلقي درسه في الصباح. وذاك في المساء... وكان كل طالب من طلبة هذه المدارس في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات. أما الآن. فلم يبقَ له غير السكن. إذ خرب عدد كثير من الأملاك والبساتين التي كانت محصولاتها مخصصة لهذا الغرض» ـ الحسن الوزان الفاسي: وصف افريقيا الجزء الأول، الرباط 1980، ص 177 ـ 179.

ومحي القرآن من صدره، وهو في سورة المائدة دون مرض. فاستشار عدداً من العلماء، وأخذ يبحث عن العلم اللدني والتصوّف، ثم لم يلبث أن تحسنت حاله وختم القرآن الكريم.

وكان من عاداته أيام الربيع، حينما تتوقف الدروس، الخروج من فاس لزيارة قبور الأولياء كأبي يعزى والشيخ عبد السلام بن مشيش، والمشائخ علَى ساحل البحر، ثم يبادر بالعودة إلَى فاس وقت نشر العلم في أول الشتاء، ليضمن لنفسه مفتاح خَلْوة في المدرسة المصباحية. وكان مواظبا علَى خضور الدروس في جامع القرويين في أوقاتها. وقد ختم القرآن الكريم في فاس، ودرس رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ودرس في النحو الأجرومية، كما درس الألفية وشَرْحَ البردة وكتباً في تفسير القرآن الكريم، وكتاب ابن الحاجب في الفقه، وكتب التوحيد والسير. وكان يقرأ في جامع القرويين كذلك علمَ الحساب، وعلمَ المواقيت والنجوم، لاحتياجه لذلك «لأجل خروجي إلَى أماكن خالية من العماير، لأجل الخلوات للذكر، وصاحب هذه الحالة يحتاج لأدلَّة القِبْلة في خلوته وأدلة المواقيت للصلاة».

وفي سنة 988 هـ/1580 م أصابت زرعَ بلاد انقاد ريحٌ أهلكت الزرع، فنزح أهل الجهة إلَى منطقة فاس. ونزل أهله في وادي اللبن علَى مقربة من فاس. إلاّ أن وباءً تفشّى بينهم بعد شهور هلك بسببه معظم أقاربه، ومن بينهم والدته وأخواه وأخته وأكثر من عشرين من أقاربه، فوقع عليه النبأ وقوعَ الصاعقة، وذُهل حتّى إن شيوخه خشُوا عليه «من الخفة أو اللحاق بهم الَى دون سنة».

ولما انقضت مواعيدُ الدراسة في فصل الربيع، خرج للزيارة بأمر أستاذه، فزار في سلا علَى ساحل المحيط أولياءها الأحياء منهم والأموات، وقبر الشيخ أبي محمد صالح الدكالي، واقترح عليه أحد الفقراء (الصوفية) ملاقاة الشيخ أحمد بن عمر العروسي بوادي درعة في السوس الأقصَى. فتوجَّه إلَى مراكُش، ولاحظ في تجواله في الجنوب كثرةَ الصوفية والفقهاء والمقرئين وأن «أكثر الفقهاء في زماننا هذا في المغرب تغلب عليهم طريقة الشاذلية». وقد اقام عند الشيخ أحمد بن عمر العروسي أسبوعين وأخذ منه اليد كما أخذها من مشائخه.

وبعد زيارة الشيخ أحمد السياح قرب ساحل المحيط ، توجّه يوسف ابن عابد إلَى وادي ترودانت ، وعند مصبه في البحر قلعة للمسلمين علَى شاطىء البحر المالح ، وفيها مدافع منصوبة إلَى جهة البحر. وما إن عاد إلَى فاس حتّى سار جنوبا قاصداً وادي تفلالت. وفي تفلالت زار الشيخ عبد الرحمن الملقب بمن لا يخاف إلاّ الله تعالَى ، الذي كان قد حج ، وأخذ اليد من الشيخ محمد البكري في مصر ، فاستشاره في أمر زيارة البكري ، فوافقه علَى ذلك وأوصاه أن لا يسأل الناسَ وأن لا يجيء حول أبواب الملوك والأمراء.

وبالقرب من واحة فقيق زار يوسفُ بن عابد الشيخَ عبدَ القادر الحمياني الذي اختار له خمسةً من أسماء الله الحسنَى وأمره بالملازمة لها . ولما علم الشيخ الحمياني أن يوسف يعتزم زيارة المشرق أخذ «ثيابي وألبسني ثيابا دون ثيابي في الرثاثة ، وناولني عُكَّازاً وبرنسا ومسبحة وكوفية وقال لي : هذا لباسك منّي ، خرقةُ التصوُّف وخرقة الإشارة كما ألبسني شيخي»...

ثم عبر الفقيه يوسف بن عابد الصحراءَ واجتاز علَى قابس وطرابلس الغرب ، وتوقف أياما في مصراتة لزيارة قبر الشيخ أحمد زروق وهو ، كما يذكر أكثر من مرة في المخطوط ، «شيخُنا الذي ننتمي إليه بواسطة المشايخ الذين أخذْنا عنهم طريقتنا» .

وفي القاهرة ، اجتمع يوسف بن عابد بالشيخ محمد بن الحسن البكري ، وحضر درسَ التوحيد في الجامع الأزهر عند الشيخ مخلوف المغربي الذي أخبره أن رجلا من قرية المحلّة بالقرب من القاهرة قد عاد لتوّه من الهند ، وكان في طريق عودته قد مرّ بحضرموت حيث اجتمع بشريفٍ اسمُه أبو بكر بن سالم ذكر له أنه موعود بولد صغير شريف يقرأ العلمَ في مدينة فاس. وقال الشيخ المغربي ليوسف ابن عابد : «فإن كنتَ شريفاً سرْ إليه فإنه صاحبُك» .

توجَّه يوسف بن عابد إلَى الحجاز حيث زار المدينة المنورة وأدى فريضةَ الحج ذلك العام (991 هـ/1583 م) ، ثم خرج من جُدَّة في مركب إلى ميناء جُيزان باليمن ، وزار الشيخ أبا بكر بن سلم في قرية عينات . فرحَّب الشيخُ بمَقْدمه وقال لمن حوله : «أما يوسف فقد جعلناه شيخا مربيا» . ولما توفى الشيخ أبو بكر بن سالم بعد

ذلك بشهور، بقي يوسف بن عابد عند أسرته بعض الوقت . وهو يذكر أن من آباء الأسرة الشيخ أحمد بن عبد القادر الملقب بابن عقتبة الحضرمي الذي استوطن مصر، وفيها اجتمع بأحمد زروق(14)

وكان يوسف بن عابد ينوي العودةَ إلَى المغرب ، إلاّ أنه نظرا لما شيَّعه عنه الشيخُ أبو بكر بن سالم في جهة حضرموت أراد أكثرُ الناس التعرّفَ به ، إذ كان الشيخ يقول لبعض خواصه : اقرأوا علمَ التوحيد علَى يوسف لأن أرضَ حضرموت خالية من علم التوحيد . ثم دخل بلدةَ تريم (15) بوادي حضرموت ، حيث السادات من آل أبي علوي. فألبسه الشيخ عبد الله بن شيخ خرقتَه التي فوق رأسه «وهو القُبْع المعروف ، وأجازني مع القُبْع إجازةً ونصَّبني شيخا ، وأذِنَ في لبسها لمن رأيته متأهلاً لذلك» (16) .

وفي جامع سيوون أقرأ يوسفُ بن عابد عقيدةَ السنوسي الصغرى وشرحَها ، كما

---

(14) كان الذي أرشد أحمد زروق في عالم التصوّفْ الشيخ الصوفي أحمد بن عقبة الحضرمي (المتوفّى في القاهرة سنة 895 هـ/1489 م) . وكان زروق عند عودته من الحجاز قد التقى بالشيخ الحضرمي في القاهرة سنة 876 هـ/1471 م ـ يُنظر علي فهمي خشيم : أحمد الزروق والزروقية . ليبيا 1980 . ص 41 ـ 42.

(15) يقول ياقوت الحموي إن تريم اسم إحدى مدينتيْ حضرموت . وهما شبام وتريم . وهما قبيلتان سُمِّيتْ المدينتان باسمها ـ ينظر ياقوت الحموي : معجم البلدان . بيروت 1979 ، 2/ص28
ويقول ابن سعيد إن تريم هي قاعدة حضرموت ـ ابن سعيد . علي : كتاب الجعرافيا . بيروت 1970 ، ص 101 .

(16) كانت زعامة الطريقة العلوية في حضرموت وراثية في أسرة باعلَوي (آل علوي) ، وهي اسرة كبيرة ذات نفوذ قوامها السادة والصوفية في تريم وبالقرب منها.
أما عبد الله بن شيخ الذي يذكره يوسف بن عابد فهو الشيخ السادس من شيوخ الطريقة العَيْدروسيَّة التي أنشأها فرع السقاف من آل بني علَوي في تريم (توفي في الشيحر سنة 1073 هـ/1662 م) ، وقبره ومسجده في الشّحْر موضعا تبجيل وزيارة من قِبَل الحجاج . كما يشيد يوسف بن عابد في المخطوط بابنه علي المعروف بزين العابدين وتاج العارفين. والغريب أنه لا ذكر ليوسف بن عابد من بين من أجازهم الشيخ . (تنظر مادتا «با علَوي» و«عيدروسي» للمستشرق لوفجرين O. Lofgren في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية بالإنجليزية ، ليدن ـ لندن 1960 ، المجلد الأول ، ص 780 ـ 782 ، 828 ـ 830).

قرأها بشرحها في فاس، واشتهر بهذا العلم. واستضافه أهل مريمة للتبرك وقراءة العقيدة، وتزوّج في مريمة (993 هـ/1585 م)، وكان ذلك أولَ زواجٍ له من مجموع سبعة. ومضى يوسف بن عابد ينتقل في أنحاء حضرموت، لاسيما بين مريمة وبين الحزمة (حزمة مأرب) حيث تزوَّج كذلك. ويعلِّل بقاءه في حضرموت من سنة 993 هـ/1584 م الى سنة 1036 هـ/1627 م (وقت إملاء الرحلة) بما يلي: «الرزق والخطوات المكتوبة، ونكاح أزواج وذرية، حتّى صارت [حضرموت] لنا وطنا... ثم حسُنتْ سيرتُنا عندهم [أهل حضرموت]، والتعفف عما في أيديهم، وانتفعوا بنا وانتفعنا بهم». وفي الشهور الأولى من فترة زيارته لحضرموت. كانت تراوده فكرةُ الرجوع إلى بلاده «ليُنتفَعَ بي للمطلب الذي جئتُ بسببه إلى المشرق. وهي التصرُّف في الأكوان وقلب الإيمان الذي يُطلَبُ على يد المشايخ».

وفي سنة 1014 هـ/1606 م، توجَّه إلى مكة المكرمة، فحج للمرة الثانية، وكتب عن أحواله إلى أهله في المغرب، ثم عاد إلى الحزمة (1019 هـ/1610 م). ومنها إلى مريمة. وكان أكبر أبنائه عابد قد شبَّ وزاول التجارة مع الهند والحبشة وبلاد السودان. واستقرَّ الفقيهُ يوسف بن عابد آخر الأمر في بيته ببلدة مريمة وفيها ـ وقد ناهز السبعين من العمر ـ أملى سيرته وأخبار رحلته في 4 من ذي القعدة 1036 هـ/من يوليو 1627 م.

ويذكر يوسفُ بن عابد في المخطوط أن له غير (الرحلة) تأليفين، أولها (رسالة الدرَّة الفاخرة في ذكر من لقيته من رجال الآخرة) وفيها منازلات ومراجعات له مع الشيخ أبي بكر بن سالم، وثانيهما (لبس الخرقة فيمن أخذنا عنه ذلك من الأولياء).

إن الصورةَ التي تبرز للفقيه يوسف بن عابد من خلال مخطوط رحلته هي صورةُ صوفي شريفي المحتد شغوفٍ بالعلوم الدينية وتوَّاق في المقام الأول للقاء أقطاب رجال الطرق الصوفية في زمنه في المغرب والمشرق، على أن الانطباع الذي يخرج به الباحث هو أن صاحبَ المخطوط لم يكن مع ذلك فقيها أو صوفيا من الطبقة الأولى. وأما أسلوبه وعباراته فهي لا تنمُّ عن اطِّلاع واسع على علوم العربية وآدابها أو تمكُّنٍ راسخٍ فيها.

كانم ـ برنو بالسودان الأوسط
صلات تاريخية وتجارية عريقة
بالشمال الإفريقي

تمهيـــد :

عُرفت منطقةُ بحيرة تشاد عند المؤرخين والجغرافيين العرب في القرون الوسطَى اسم السودان الأوسط. وقد تعرَّضت المنطقةُ من جبال تبستّي شمالا إلَى بحيرة فِطري جنوبا خلال العشرين ألف سنة الماضية لتغييرات مناخية مذهلة كان لها آثار كبرى علَى حياة الإنسان فيها. فالطرف الشمالي من المنطقة كانت تغطية بحيرة تشاد الكبرى ـ بحجم بحر قزوين ـ وكانت تمتد إلَى مرتفعات تبستّي. ثم حدثت تغييراتُ كبرى في المناخ في حدود سنة 3000 قبل الميلاد تقلَّصت بسببها مساحةُ البحيرة، وتأثرت المنطقةُ بالتالي من حيث النباتاتُ والحيوانات. ونتيجةً لهذه التغييرات ساد المنطقةَ مناخٌ حارٌّ جافٌّ بعد أن كان مناخها أكثرَ مطراً واعتدالا. وكان من نتائج الجفاف تناقصُ السكان في الجزء الشمالي من المنطقة وتمركزُهم في الجنوب. إن هذه الهجرةَ القديمةَ من الشمال إلَى الجنوب نجد صداها في الروايات الشفوية الكثيرة المتواترة عند سكان بلاد الهوسا وكانم في الوقت الحاضر. وثمة دلائلُ كثيرةٌ علَى أن التصحرَّ أدّى إلَى ظهور جماعتين : الجماعة الناطقة باللغات التشادية في بلاد الهوسا ويرنو غربي بحيرة

تشاد . والجماعة الناطقة بلغات تيدا ـ دزا في كانم إلَى الشمال الشرقي من البحيرة وفي الجنوب تنتشر لغات مختلفة تُعرف بلغات نيجر ـ كونغو[1] .

تفيد رواياتُ أهل كانم (الكنوري) بأن بطلاً عربياً عظيماً اسمه سيف بن ذي يزَنْ سيطر علَى جماعةٍ من الرحَّل تُعرف باسم ماجومي كانت تعيش إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ، ثم بسط وذريتُه نفوذَهم علَى عدد آخرَ من القبائل أصبحت تُعرف معاً باسم الشعب الكنوري ـ شعب كانم ـ وقد تمَّ ذلك بمساعدة قبيلة ماجومي وبفضل الفرسان ، وسياسة التزاوج مع القبائل ، مما تّم من مركز الأسرة الحاكمة[2] .

إن ممّا يسترعي الانتباهَ أن لرواياتٍ تعزو قيامَ الاسر الحاكمة الأولَى في بلدان السودان الأوسط والغربي إلَى مهاجرين قدموا من اليمن قبل ظهور الإسلام. إن منطقةَ جنوب غربي آسيا ـ والجزيرة العربية علَى وجه الخصوص ـ كانت قبل عدة قرون من بدء الفتوحات العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي تفرغ الفائضَ من سكانها عبر البحر الأحمر وبرزخ السويس . وتفيد الرواياتُ الإسلاميةُ الأولَى بأن فتح الأحباش لليمن في القرن السادس الميلادي كان في فترة مجاعةٍ وصعوباتٍ ألمَّتْ باليمن تتمثَّل في خراب سد مأرب في الربع الثالث من القرن السادس الميلادي ، مما تسبَّب في نزوح أفواجٍ كبيرةٍ من المزارعينَ اليمنيين عبر البحر الأحمر إلَى السودان[3] .

ومع أن القرطاجنيين والرومان لم يتجاوز حكمُهم إلَى جنوب الصحراء الكبرى ، فإن عالمَيْ حوض البحر المتوسط والسودان جنوبي الصحراء كانا علَى اتصالٍ غير مباشر في العصور القديمة . ويرجع حجمُ لبدة ورخاؤها إلَى كونها بداية لطريق عبر الصحراء إلَى بلاد السودان عن طريق فزان. وإلَى سنة 500 ق. م. كان تجارُ

---

(1) Smith, A., "The Early States of the Central Sudan," in History of West Africa, Vol. I, edit. Ajayi and Crowder, LOndon 1979, pp. 152, 154, 156, 158.

(2) نفسه ، ص 159 - 160.

(3) Oliver R. and Fage, J.D , A Short History of Africa, Penguin Books 1973, pp. 51-52.

قرطاجنة يفدون للتجارة مع سكان تبستي الذين كانوا يعيشون في بلادٍ ممطرةٍ كثيرةِ التماسيح والزراف. إن ما يتوفر من الأدلة يشير إلَى أن تجارةً قديمةً كانت قائمةً بين سكان الصحراء كافةً وبين سكان شمال افريقيا. وازدادت تلك التجارةُ بقدوم الجمل في القرنين الأول والثاني الميلاديين. وفي الفترة من 1000 ق.م. إلَى 1000 م أخذ المزارعون بجنوب الصحراء ينتقلون جنوبا إثر تناقص المطر والماء ناقلين معهم تجارةَ عبر الصحراء. ولما كانت بلادُ برنو غربي بحيرة تشاد أكثرَ مطراً واخضراراً من كانم إلَى الشمال الشرقي من البحيرة، فإنها اجتذبت سلاطينَ كانم وأتباعهم، فكان النزوحُ والاستقرارُ في برنو منذ وقت مبكر[4].

إن تأثيرَ الشمال لم ينحصرْ في التجارة. فمؤرخو السودان الغربي ـ كعبد الرحمن السعدي في القرن السابع عشر ـ يذكرون أن ملوكَ غانة الأُوَل كانوا من البيضان من الشمال. وكذلك الحالُ بالنسبة للهوسا في شمال نيجيريا، وبالنسبة لكانم ـ برنو، وبالنسبة لصنغاي. فالأساطيرُ تذكر أن هذه الممالكَ قامت نتيجةً لهجرات من الشمال عبر الصحراء، ومن الشرق من ناحية وادي النيل. إن هذه الأساطيرَ تعني بالشمال أجدادَ الطوارق والزغاوة حيث ينتشر استعمالُ اللثام، وحيث الوراثة عن طريق الأم[5].

وخلال القرن الثاني عشر الميلادي ضُمَّت إلَى شعب كانم جماعتان أخريان من الجماعات الناطقة بلغة تيدا ـ دزا (التبو)، وأهمها سكان واحات كوار. ولعلَّ هذا التوسعَ شمالاً يدل علَى ما كان لطريق القوافل عبر الصحراء المار بواحات كوار من أهمية متزايدة للأسرة السيفية الحاكمة في كانم.

وفي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي نسمع لأول مرة عن قدوم عربٍ رُحَّلٍ إلَى منطقة بحيرة تشاد. وهم من ذرية العرب الهلاليين الذين كانوا قد رحلوا عن مصر في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي في عهد الخليفة الفاطمي

---

(4) Cohen, R., **The Kanuri of Bornu,** New York 1967, pp. 13-15.

(5) **A Short History of Africa,** pp. 63- 64

المستنصر بالله. وكان وصولُ هذه القبائل العربية في الوقت الذي أجبرت فيهِ هجمات قبائل البُلالة الأسرةَ السيفيةَ الحاكمةَ في كانم علَى الخروج من كانم والاستقرار نهائيا في برنو غربي بحيرة تشاد. فهل كان لغزوات البُلالة صلة بقدوم هذه القبائل العربية الهلالية في أعقاب انهيار مملكة النوبة المسيحية في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي؟ ويذكر الإمام أحمد بن فرتوه أن العربَ والتبو كانوا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي من جملة حلفاء البُلالة (٥).

كانم ـ برنو: نبذة تاريخية إلَى القرن السادس عشر:

إن أولَ ذكرٍ لبلاد كانم ـ إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ـ ورد علَى لسان اليعقوبي في أواخر القرن التاسع الميلادي، إذ ذكر بأن «الزغاوة وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم، ومنازلهم أخصاص من القصب، وليسوا بأصحاب مدن». كما يذكر اليعقوبي بأن أهل كوار وزويلة مسلمون يصدّرون الرقيقَ الذي يبيعه لهم ملوكُ السودان (٧).

وفي أواخر القرن العاشر الميلادي، يذكر المهلّبي بأن للزغاوة بلماء ومانان وترازاكي ويقول: «ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان، في حد المشرق منها مملكةُ النوبة الذين بأعلَى صعيد مصر، وهي أمم كثيرة... وبيوتهم جصوص كلها وكذلك قصرُ ملكهم... ويده مطلقةٌ في رعاياه، ويسترقّ من شاء منهم. أمواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل. وزروع بلدهم أكثرُها الذرة واللوبياء ثم القمح... وديانتهم عبادة ملوكهم» (٨).

ويذكر الجغرافي الأندلسي أبو عُبيْد البكري في منتصف القرن الحادي عشر

---

(6) Lange, D., "The Kingdoms and Peoples of Chad", in General History of Africa, IV, edit. D.T. Niane, UNESVO 1984, p. 258.

(7) اليعقوبي، أحمد: تاريخ اليعقوبي. بيروت 1980، 1/ ص 193 Hodgkin, The, The Nigerian Perspectives, Oxfords U.P. 1975, p.88.

(8) ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان. بيروت 1979، 3/ ص 142

الميلادي بأن أهل كانم «سودان مشركون» ويزعمون أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين، وهم علَى زي العرب وأحوالها»[9].

وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي يذكر الشريفُ الإدريسي من مدن كانم كوغة ومانان وأنجيمي ومدينة زغاوة التي يصفها بأنها «مدينة مجتمعة الكور» كثيرة البشر، وحولها خلق من الزغاويين يشيلون بإبلهم»[10].

تفيد رواياتُ الكنوري ـ أي أهل كانم ـ بأن أحدَ أبطال العرب من اليمن ـ سيف بن ذي يزن ـ تمكَّن من السيطرة علَى جماعة من الرحَّل كانت تعيش إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، ثم بسط وعقبُه نفوذَهم وسلطانَهم علَى عددٍ آخرَ من القبائل أصبحت تُعرف باسم الشعب الكنوري. وقد وطَّد السيفيون حكمَهم بفضل قوة قبيلة مجومي، وبفضل فرسانهم، وانتهجوا سياسةَ المصاهرة مع القبائل الأخرى، مما زاد من عدد القبائل الموالية لهم. وتَعزَّز مركزُهم كذلك بفعل عامل ديني، ألا وهو قُدسيةُ الملوك، وقد أخذ الملوكُ السيفية ذلك عن الشعوب المستقرة التي احتكوا بها في بلاد كانم. وقد بدأ حكمُ الأسرة السيفية أو اليزنية في مطلع القرن التاسع الميلادي ـ وعُرف ملوكهم بالمايات (جمع «ماي» بمعنَى الحاكم أو السلطان) ـ واستمرت الأسرةُ السيفيةُ تحكم كانم ـ برنو إلَى عام 1846 م، وعلَى ذلك فهي من أعرق الأسرِ المالكة في إفريقيا وأطولها حُكْماً.

إن امبراطوريةَ كانم الأولَى بلغتْ أوجَها قوةً واتساعاً علَى عهد السلطان دونما ديبالامي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي (حكَم في حدود 1210 ـ 1248 م)، وقد اشتهر غازيا وفاتحاً وناشراً للإسلام الذي كان ملوك كانم قد اعتنقوه ديناً منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد. ويتحدث ابنُ سعيد المغربي

(9) البكري. أبو عُبيْد: المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك). باريس 1965. ص 11.

(10) الإدريسي. محمد: وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). الجزائر 1957. ص 13.

(ت سنة 1286م) عن الغزوات التي كان يجهزها السلطان دونما ديبالامي ضد القبائل الوثنية القاطنة حول بحيرة تشاد ـ نقلا عن الرحالة والجغرافي الشهير من السودان الغربي ابن فاطمة ـ فيقول : «ويُحدق بهَا [بحيرة كورى ، أي بحيرة تشاد] من جميع جهاتها أممٌ طاغيةٌ من السودان الكَفرة الذين يأكلون الناس... وعلى ركن البحيرة المغزاةُ حيث دار صناعة الكانم [لإنشاء المراكب] ، وكثيراً ما يغزو من هنالك في أسطوله بلادَ الكفار التي علَى جوانب هذه البحيرة ، ويقطع على مراكبهم ، فيقتل ويسبي» [11] . ويصف ابنُ سعيد دونما ديبالامي بأنه «سلطان كانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير... وعنده الفقهاء» [12] .

إلاّ أن أهمَّ توسع لكانم آنذاك كان في الشمال لتأمين طريق القوافل عبر الصحراء إلَى طرابلس وإفريقية ، فتمَّت للسلطان دونما ديبالامي السيطرةُ علَى فزان . وقد كانت منطقةُ فزان تحكُمها منذ سنة 306 هـ/8 ـ 919 م أسرةُ بني خطاب الهواريين أصحاب زَويلة إلَى أن قضَى علَى حكم الأسرة قراقوش الغُزّي سنة 568 هـ/2 ـ 1173 م . وعلَى الأثر ، استصرخ الأهالي سلطانَ كانم الذي بادر إلَى تجهيز حملةٍ قادها بنفسه إلَى فزان ، ونصَّب والياً وممثلاً له في تراغن علَى بعد عشرين ميلا شرقي مرزق . يقول ابنُ سعيد إنه تتبع سلطانَ كانم دونما ديبالامي «سلطنةُ تجوه [عاصمة الزغاوة] ومملكةُ كوارو ومملكةَ فزان» [13] . ويذكر التجاني أن رسلَ ملك كانم تمكَّنوا في عام 656 هـ/8 ـ 1359 م من قتل أحد أبناء قراقوش الذي كان قد أغار علَى وذان بشمال فزان بعد فراره من بلاط الحفصيين بمدينة تونس «فأنفذ إليه ملكُ كانم مَن قتَله وأراح تلكَ البلاد من فتنته ، وحُمل رأسُه إلَى بلاده فطيف بها ، وذلك في سنة 656» [14] .

وفي عهد السلطان دونما ديبالامي تعزَّزت العلاقاتُ مع الممالك الإسلامية بشمال

---

(11) ابن سعيد ، علي : كتاب الجغرافيا ، بيروت 1970 ، ص 94.

(12) المصدر السابق ، ص 95.

(13) المصدر السابق والصفحة.

(14) التجاني ، عبد الله : رحلة التجاني ، تونس 1958 ، ص 111.

افريقيا. فهو الذي أسس في العقد الخامس من القرن السابع الهجري (1242 ـ 1252 م) مدرسةَ ابن رشيق في االقاهرة لتكون نُزلاً لإقامة طلبة كانم الدارسين في مصر[15]. وكان يتبادل السفاراتِ والهدايا مع الملوك الحفصيين بتونس. يذكر ابنُ خلدون أنه في سنة 655 هـ/1257 م م «وصلت [إلَى السلطان المستنصر الحفصي بتونس] هديةُ ملك كانم... وهو صاحب برنو، مواطنه قِبلةُ طرابلس... وكان فيها الزرافة... فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجَفَلَى من أهل البلد حتّى غصَّ بهم الفضاء»[16].

تتحدث الرواياتُ الكنوريةُ عن متاعب كانم بعد عهد السلطان دونما ديبالامي بسبب تنازع الأبناء واستقلالهم في الولايات، مما أدّى إلَى تدخل قبائل البلالة [أبو ليلَى؟] من الأراضي الواقعة جنوبي كانم. إن الجماعةَ المعروفةَ باسم البُلالة تدَّعي الانتسابَ إلَى ابنة أحد سلاطين كانم الأوائل، وعلَى هذا الأساس قام صراعُها علَى الحكم مع الأسرة السيفية الحاكمة في كانم.

كما واجه سلاطينُ كانم في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي مقاومةً سديدةً من جانب القبائل غير الكنورية في جنوبي بحيرة تشاد، وإلَى الغرب من البحيرة، وهي القبائل المعروفة باسم (سو) أو (ساو)، وقد هلك أربعةٌ من سلاطين كانم في قتال هذه القبائل.

وفي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي نسمع لأول مرةٍ عن وصول قبائل عربية إلَى منطقة بحيرة تشاد، وإليها تنتسب قبائلُ الشاوية الموجودةُ اليوم في كانم برنو. ويبدو أن هذه القبائلَ العربيةَ من ذرية القبائل الهلالية التي كانت قد رحِّلت من مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادى.

إن كلَّ هذه المتاعب والحروب كانت وبالاً على مملكة كانم، مما اضطر السلطانَ

(15) القلقشندي، أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة (بدون تاريخ)، 5/ ص 281.
(16) ابن خلدون، عبد الرحمن كتاب العبر، بيروت 1959، 6/ ص 652. والجفلى هم عامة الناس.

عمر بن إدريس (حكم في حدود 2 ـ 1387 م) إلَى مبارحة العاصمة نجيمي والنزوح إلَى بلاد برنو غربي بحيرة تشاد. وقد جاء في (ديوان سلاطين برنو) أن السلطان عمر بن إدريس ثقُلتْ عليه حروبُ البُلالة، فاجتمع بالعلماء واستشارهم في الأمر. فقالوا له: اتركْ هذا المكان [كانم] فقد انتهَى مقامنا هنا. فجمع جيوشَه وأموالَه وشعبَه وانتقل الَى الجنوب، ولم يعُدْ بعده سلطانٌ للإقامة في كانم [17].

ومما يُذكر أنه منذ القِدَم ـ وبخاصة منذ القرن الثاني عشر الميلادي ـ كانت جماعاتٌ من أهل كانم تنزح وتستقر في إقليم برنو غربي بحيرة تشاد، حيث المناخُ أقلُّ جفافا، واستمرت هذه الهجرةُ حتّى بداية الفترة الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر. ولعلَّ برنو قبل القرن الثالث عشر كانت مملكةً مستقلةً عن كانم، ثم خضعت لملوك كانم [18].

وعلَى إثر جلاء سلطان كانم وانتقاله إلَى برنو، أقام البلالةُ مملكةً قويةً في كانم، وكان العربُ وقبائلُ التبو حلفاءهم. ويذكر الحسنُ الوزان في مطلع القرن السادس عشر ـ وكان قد زار كلاًّ من برنو وكانم ـ أن كانم كانت أوسعَ رقعةً وأقوى من برنو، وكان لصاحبها علاقاتٌ ممتازةٌ مع سلطان مصر فيقول: «ونال ملكُ كانم صداقةَ سلطان القاهرة ورعايتَه بفضل هداياه ومجاملاته. وحصل منه علَى الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعفَ ثمنها تظاهراً بالسخاء، حتّى جعل تجارُ مصر لا يقصدون غيرَ بلاطه» [19].

لم تستقرَّ أوضاعُ ملوك الأسرة السيفية النازحين إلَى برنو إلاّ في عهد علي جاجي (غازي) في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، فقد أنهَى الصراعَ الأسَريَّ، واختطَّ في حدود عام 1484 م عاصمةً مسوَّرةً قارَّةً في جازارجامو أقام بها سلاطينُ برنو في القرون الثلاثة التالية، ومنها أقاموا إمبراطوريةَ كانم ـ برنو الثانية. ويُعتبر

---

(17) Palmer, H. R., The Kiwan of the Sultans of Bornu, 1926, p. 88.

(18) Lange, p. 255.

(19) الوزان، الحسن: وصف افريقيا، الجزء الثاني، الرباط 1982، ص 179.

السلطان علي جاجي المؤسسَ الحقيقيَّ لسلطنة برنو، وواحداً من أعظم سلاطين كانم ـ برنو الثلاثة، إلَى جانب دونما ديبالامي وادريس علومة، وهو الذي اتخذ لنفسه لقبَ (خليفة)، وحذا حذوَه في ذلك من جاء بعده من السلاطين. وفي القرن السادس عشر، أخذ سلاطينُ الدولة الجديدة بزمام المبادرة ضد البُلالة في كانم. فأجبر علي جاجي (حكَم 1472 ـ 1504 م) وابنُه إدريس كاتاجارمابي (حكَم 1504 ـ 1526 م) قبائلَ البُلالة علَى الطاعة. واستُردَّت العاصمةُ القديمةُ نجيمي في كانم، إلاّ أن السلاطين بقُوا في برنو، ومثَّلهم في نجيمي خليفةalifa، وأصبحت كانم آخرَ الأمر ولايةً تابعةً لبرنو[20].

إن القرنَ السادس عشر شهد انبعاثَ برنو وتأسيسَ إمبراطورية كانم ـ برنو الثانية، كما بدأ فيه اتصالُ برنو بالدولتين الإسلاميتين القويتين في شمال افريقيا، وهما الإمبراطورية العثمانية والمغرب الأقصَى علَى عهد السعديين. وفي الربع الأخير من القرن السادس عشر، ولي في برنو أعظمُ سلاطينها إدريس علومة الذي جهَّز في بداية حكمه عدةَ حملات متوالية وناجحة ضد البُلالة. ومع أن سلاطين برنو كانوا قد استَردوا عاصمتَهم القديمة نجيمي، إلاّ أن البُلالة لم تتمَّ هزيمتُهم هزيمةً ساحقةً إلاّ علَى يد السلطان إدريس علومة في الربع الأخير من القرن السادس عشر[21].

أما فزان فإنها ـ في رأي أحد الباحثين ـ بقيت تحت سيطرة كانم قرناً من الزمن إلَى أن تمكَّن في عام 1310 م شريفٌ مغربيٌّ ـ المنتصر بن محمد ـ من طرد الكانميين، وهو الذي أسس مرزق[22].

وفي عام 1879 م ذكر الرحالةُ الألمانيُّ الحسنُ الاطلاع جستاف ناختيجال Nachtigal في كتابه (الصحراء والسودان، برلين 1879) أنه في بداية القرن الثالث عشر كان سلطانُ ملوك كانم يشمل فزان إلَى ودان، وظل الحالُ علَى ذلك طوال

(20) Hiskett, M., **The Development of Islam in West Africa,** London 1984, p.66.

(21) Hodgkin, p. 33.

(22) Trimingham, J.S., **A History of Islam in West Africa,** Oxford U.P. 1970, p. 116.

القرن الـرابع عشر. كانت تـراغن آنذاك قاعدة فـزّان ومقر نائب ملك كـانم. ونظراً لبعد تراغن عن عاصمة كانم، فإن منصـب الوالي في تراغن كان منصباً مستقلاً، ولعله كان منصبـاً وراثياً يحمل صاحبه لقب (مـاي) أي ملك وضريح الماي علي معروف في تراغن. كما ان في تراغن بقايـا قلعة، وعين ماء قديمة وعدة بساتين، وأراضي براحاً، وآباراً مازالت تحمل إلى اليـوم أسماء بِلُغة الكنوري، أي لغة كانم - برنو. (يُنظر كتاب ناختيجال المذكور آنفاً 1 / 165)..

ويرى المؤرخُ الإيطاليُّ إتوري روسّي ان سيطـرةَ كانم على فزان قد تكون بقيت حتى بداية القرن السادس عشر.

ويذكر ناختيجـال ظهورَ أسرة حاكمة محلية ضعيفة هي أسرة قُـرْمان أو خُرْمان في فزان كـان مقرُّها في زويلـة. ويبدو ان هذه الجماعـةَ سُرعان مـا حلّت محلّها جمـاعـة أخـرى فيمـا بين عـامي 1510 و1551م تُعـرف بأولاد محمـد، وكـان مؤسّسها شريفٌ من فاس - محمد الفاسي - كان مقرّها في سبها أو مرزق.

كـان أولاد محمد يسيطـرون على فـزان في الـوقت الـذي استولـى فيه الأتـراك العثمانيـون على مدينة طرابلس من أيـدي فرسان مـالطة. وكما يقول ابنُ غـالبة، فإن الأتراك استـولوا على فزان ونصّبوا عليهـا والياً اسمه مامي عـام 990هـ / 2 - 1583م. وما إن خـرجت الحاميـةُ التركيـةُ حتى ثار الأهـالي وقتلوا الوالـيَ التركيّ ومَنْ معه، وخلفه ابنُه المنصور.

ويرى أحدُ الباحثيـن ان أولاد محمد تمكّنوا من السلطة بمساعدة بـرنو، وكانوا تابعين لسلطـانها. فإذا صحّ ذلك، فإنـه قد تكون ثمـة مصلحةٌ مشتركـةٌ بينهمـا، وهي التجارة[23]

---

(23) يُنظر:

روسّي، إتوري: ليبيا منـذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب خليفـة محمد التليسي، بيروت 1974، ص 228 وما بعدها.

Martin, G. G., «Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576 - 78», *in Journal of Middle Eastern Studies*, 3 (472), pp 484-486.

العلاقات التجارية بين كانم ـ برنو وشمال إفريقيا :

إن كانم ـ بحكم موقعها وحاجتها إلَى منفذٍ لمنتجاتها ـ كانت علَى اتصال بالشمال الإفريقي منذ عهد بعيد. فمنذ أقدم العصور كانت تربط منطقةَ بحيرة تشاد بمدينة طرابلس طريقٌ تجاريةٌ عبر زَويلة بفزان وواحة كوار. وكما هو الحال بالنسبة لتجارة غانة في السودان الغربي مع بلاد المغرب، فقد كانت ثمة صلةٌ عبر الصحراء بين بلاد كانم ـ إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ـ وبين مدينة طرابلس الغرب عن طريق بلما ـ إحدى واحات كوار ـ وزويلة بفزان. ولا يمكن للمرء تفسيرُ نمو دولة كانم دون الإشارة إلَى هذه التجارة عبر الصحراء. فما كانت أعظمُ دولة في السودان الأوسط لتقوم لولا وقوعُها عند الطرف الجنوبي لطريق القوافل الكبرى المار بواحة كوار وفزان. ولعلَّ هذا الطريقَ كان مستعملاً منذ أيام الرومان والقرطاجنيين، وهو أهم الطرق للاتصال المباشر بين إقليم بحيرة تشاد وبين ساحل البحر المتوسط [24].

إن واحاتِ فزان ـ وقد سمَّاها ابنُ حوقل والمقدسي جزراً ـ كانت ذات أهمية حيوية للتجارة البعيدة المدى عبر الصحراء الكبرى من الشمال إلَى الجنوب (إفريقية ـ كانم)، ومن الشرق إلَى الغرب (مصر ـ غانة ـ مالي ـ صنغاي). وكان لا بد لصادرات كانم من عبور فزان، مما يفسِّر ما كان يوليه سلاطينُ كانم ـ برنو من اهتمام وحرص لتأمين الطريق التجاري من بلادهم عبر فزان. ولم يقتصر اهتمامُ ملوك كانم علَى الطريق الشمالي، بل عملوا كذلك علَى بسط سيطرتهم علَى الأراضي الواقعة إلَى الغرب من بحيرة تشاد، أي إقليم برنو للتحكُّم بالطرق التجارية من كوار إلَى الجنوب.

كانت صادراتُ كانم تشمل الرقيقَ والعاجَ وريشَ النعام وحتّى الحيوانات الحيَّةَ فضلا عن الجلود والشبِّ الكواري والثياب المطرزة. وكانت وارداتُ كانم تشمل الخيولَ فى المقام الأول والملابسَ والأسلحة الحديدية.

---

(24) Lange p. 247

ويلاحظ أحدُ الباحثين بأنه في حين أن الاتجارَ بالرقيق كان علَى نطاق محدود في السودان الغربي، حيث كان الذهبُ السلعةَ الرئيسيةَ للتصدير، فإن السودان الأوسط ـ وهو خِلْوٌ من الذهب ـ كان يتعاطَى تجارةَ الرقيق. وكانت زويلة أشهرَ أسواق الرقيق في الصحراء (25).

إلاّ أن باحثاً آخرَ يخالفه هذا الرأي إذ يرى بأنه «مهما بلغت قيمةُ تجارة الرقيق، فإن كانم ـ برنو كانت تدين برخائها إلَى غلاّتها الزراعية، وإلَى تربية الحيوانات، وتصدير الملح والشب، أكثر مما كانت تدين برخائها إلَى اتجارها بالرقيق». وكان بها صناعاتٌ تصدر منتجاتها إلَى البلدان المجاورة. فابن بطّوطة يذكر أن برنو كانت تصدِّر ـ فضلا عن الرقيق ـ الثيابَ المزركشة. وعند الحديث عن شب كوار أشاد الإدريسي بجودته، وذكر بأنه كان عليه طلبٌ وإقبالٌ كبيران في بلدان شمال إفريقيا (26).

تورد المصادرُ العربيةُ ـ من اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي إلَى الحسن الوزان في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ـ معلوماتٍ مفيدةً عن النشاط الإقتصادي في كانم ـ برنو في العصر الوسيط، وعن علاقاتها التجارية بجيرانها في شمال إفريقيا. فاليعقوبي يقول إن أهلَ زَويلة يصدِّرون الرقيقَ الذي يبيعه لهم ملوكُ السودان، مضيفاً بأن أهلَ كوار يأتون بالرقيق.

ويذكر المهلَّبي ـ أواخر القرن العاشر الميلادي ـ أن زيَّ ملك الزغاوة «لبسُ السراويلات من صوف رقيق، والانتشاحُ عليها بالثياب الرفيعة من الصوف بالأسماط والخز السوسي [المصنوع بمدينة سوسة التونسية] والديباج الرفيع ... وأمواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل... وأكثرُ رعاياه عراةٌ مؤتزرون بالجلود» (27).

ويقول البكري ـ بعد المهلَّبي بنصف قرن ـ إنه «يُجلب من زَويلة الرقيق إلَى

---

(25) Levtzion, N., Ancient Ghana and Mali. London- New York 1980, p. 174.

(26) Lange, p. 250.

(27) ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، 3، ص 142.

... ما هنالك... ومبايعاتهم بثياب قصار حمر... وبين زَويلة وبلد كانم نحو مرحلة »[28].

ويورد الإدريسي ـ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ـ تفاصيلَ أوفَى عن مدن كانم وأعمال سكانها، فيذكر أن مانان «مدينة صغيرة، وليس بها شيء من الصناعات المستعملة. وتجاراتهم قليلة، ولهم جمال وماعز»[29]. أمّا الزغاوة فإنهم «يشيلون بإبلهم، ولهم تجارات يسيرة، وصنائع يتعاملون بها بين أيديهم. ولباسهم الجلود المدبوغة يستترون بها»[30]. ويشيد الإدريسي في أكثر من موضع بالشب الكواري من حيث الجودةُ والوفرةُ فيقول إن من كوار «يخرج الشبُّ المعروفُ بالشب الكواري، ولا يعدله شيءٌ في الطيب... وهذا الشبُّ الذي يكون في بلاد كوار بالغ في نهاية الجودة، وهو كثير الوجود، ويتجهز به في كل سنة إلَى سائر البلاد بما لا يُحصَى كثرة»[31]. وكان الشبُّ الكواري يصدَّر إلَى مصر، وإلَى ورقلة بالمغرب الأوسط، ويُستعمل في أغراض الصباغة والدباغة، وفي الأغراض الطبية أيضا.

ويشير الإدريسي إلَى الواحات الليبية مؤكداً أهميتَها كمحطات علَى طرق التجارة إلَى كانم عبر الصحراء. فمن أوجلة «يُدخل إلَى كثير من أرض السودان، نحو بلاد كوار وبلاد كوكو [Gao علَى نهر النيجر]، وهي [أُوجلة] في رصيف طريقٍ الوارد عليها والصادر كثير». كما يُدخل من زلّة وودان وزويلة ابن الخطاب إلَى جُمَلٍ من بلاد السودان[32].

إن تربية المواشي كانت عملاً رئيسيا للكثيرين من أهل كانم، إذ كانوا مجتمعا رعويا بحكم المناخ الجاف السائد في المنطقة الواقعة إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد. ولذلك فإن الجلودَ الخام كانت من جملة صادرات كانم إلَى عدد من

---

(28) البكري، ص 11.
(29) الإدريسي، ص 12.
(30) نفسه، ص 13.
(31) نفسه، ص 24، 26.
(32) نفسه، ص 99.

الواحات الليبية ، حيث كان يتمُّ دبغُها وتصنيعها . ويذكر البكري نوعاً من الجلد يُعرف بالزَّويلي ، ولعلَّه كان يُستورد خاماً من كانم . كما اشتهرت غدامس بدبغ الجلود حتّى إن طريقةً خاصةً لدبغ الجلود عُرفت باسمها ـ الغدامسية ـ ووصلت هذه التسميةُ إلَى الأندلس ، ومنها انتقلت إلَى أوروبا في القرون الوسطَى باسم guadamaci . ويبدو أن جلودَ الأغنام كانت تُدبغ في غدامس بنقعها في الشب والملح ، ولعلَّ هذه الجلودَ كذلك كانت تُجلب من بلاد كانم . وقد ذكر ياقوت الحموي أن في غدامس تُدبغ «الجلودُ الغدامسيةُ ، وهي من أجود الدباغ ، لا شيء فوقها في الجودة ، وكأنها ثيابُ الخزِّ في النعومة والإشراق» (33) .

وقد ذكر ابنُ سعيد (المتوفَى في حدود عام 1286 م) ـ بصورة عابرة ـ أنه في عهد السلطان دونما ديبالامي كانت الملابسُ السوسيةُ تُستورد من العاصمة التونسية ـ «والثياب تُحمل إليه من الحضرة التونسية» (34) . وقبل ذلك ذكر المهلّبي أن ملكَ الزغاوة في القرن العاشر الميلادي كان يرتدي ثياباً صوفيةً وحريريةً من صنع مدينة سوسة التونسية . ويذكر ابنُ خلدون أن سلاطينَ كانم كانوا علَى صلات ودية بالأسرة الحفصية في تونس منذ قيامها في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وأورد وصفاً للهدية التي بعث بها سنة 655 هـ/1257 م ملكُ كانم وصاحبُ برنو إلَى الملك الحفصي المستنصر ، وكان فيها الزرافة (35) . ويقول صاحبُ (كتاب الاستقصاء) إن «أهلَ كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لإفريقية من جهة قِبْلتها . . . وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة [القرن الثالث عشر الميلادي] وما بعدها مهاداةٌ ومواصلةٌ ، كما كان لأهالي مالي مع بني مرين» (36)

إن الطرقَ التجاريةَ عبر الصحراء تحوَّلتْ بعد المرابطين والموحدين شرقاً بعد قيام

(33) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، 4/ ص 187 .
(34) ابن سعيد المغربي ، ص 96 .
(35) ابن خلدون ، 6/ ص 652 .
(36) الناصري ، أحمد : كتاب الاستقصا . . . الدار البيضاء 1955 ، 5/ ص 103 .

دولة الحفصيين في تونس وقيام شيء من الاستقرار فيها. ولعلَّ مما يَلفتُ النظرَ أن كانم بلغتْ أوجَها قوةً واتساعاً في القرن الثالث عشر الميلادي، فامتدت أراضيها شمالاً وشملت فزان، وقد تزامن ذلك مع قيام الدولة الحفصية في تونس (37).

وذكر ابنُ بطوطة ــ وقد زار السودانَ الغربيَّ في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ــ أن من برنو «يؤتَى بالجواري الحسان والفتيان، وبالثياب المجسَّدة» (38). لقد عُرفت زراعةُ القطن ــ عن طريق العرب ــ في كلٍّ من السودان الأوسط والسودان الغربي، فانتشرت زراعته، وقامت في كافة أنحاء بلاد السودان في أواخر القرون الوسطَى صناعاتُ حياكة ونسج الملابس القطنية لسد حاجة السكان، بل وللتصدير إلَى البلدان المجاورة. وقد اجتذبتْ هذه الأقمشةُ القطنيةُ المزركشةُ ــ لجودتها ورخص ثمنها ــ أنظارَ المستعمرين البرتغاليين في بداية حركة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، فأقبلوا علَى شرائها ــ بالمقايضة ــ وبيْعِها في بلادهم وفي أسواق أخرى.

ويذكر القلقشندي (ت 1418 م) أن معاملةَ أهل كانم «بقماشٍ يُنسج عندهم اسمه دندي، طولُ كلِّ ثوبٍ عشرةُ أذرع فأكثر. ويتعاملون أيضا بالودع [وكان يأتي به التجارُ العربُ من منطقة المحيط الهندي]، والخرز، والنحاس المكسور، والورق، لكن جميعَه يُسعَّر بذلك القماش» (39).

وفي الترجمة التي عقدها الشَّمَّاخي لأبي عبد الله محمد بن عبد الحميد، والي جبل نفوسة من قِبَل الأئمة الرستميين بتاهرت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، يقول الشَّمَّاخي إن أبا عبد الله كان يَعرفُ لسانَ أهل بلاد كانم، مما يدل علَى أنه كان يتردد علَى بلاد كانم تاجراً فتعلَّم لغتها. إن ذلك يدل كذلك علَى أن العلاقاتِ التجاريةَ بين كانم وبين منطقة طرابلس كانت قائمةً منذ وقت مبكرٍ (40).

---

(37) Oliver and Fage, p. 92

(38) ابن بطوطة، محمد: رحلة ابن بطوطة، بيروت 1968، ص 679.

(39) القلقشندي، 5/ ص 280.

(40) Lewicki, T., **Arabic External Sources for the History of Africa**, London - Lagos 1974, p. 97.

وفي أوائل القرن السادس عشر زار الحسنُ الوزان ـ المعروفُ بليو الإفريقي ـ كلاًّ من كانم وبرنو، وهو يذكر في كتابه (وصف إفريقيا) أن برنو إقليمٌ كبير، وأن الملكَ ـ بفضل الخيول التي كان يشتريها من التجار المغاربة ـ استطاع أن يغزو جيرانَه، ولكن التجارَ كانوا مستائين من الملك لمماطلته في دفع ثمن الخيل التي يشتريها، بالرغم من ثرائه. وقد وصف الوزان ثراء ملك برنو فقال: «وقد رأيتُ كلَّ ما يجهّز به خيله من ركابات ومهامز وأعنَّة كلها من الذهب، وكذلك القصاع والأواني... معظمها من الذهب، والسلاسل ـ حتّى سلاسل كلاب الملك ـ كلها من الذهب الخالص، ومع ذلك، فإن هذا الرجل... شديدُ البخل يفضّل دفعَ الثمن رقيقاً علَى دفعه ذهباً» (41). ولما زار الحسنُ الوزان كانم ـ ويسميها مملكةَ كاوكا ـ لاحظ اتساعَ رقعتها، إذ تحدُّها غربا برنو، وشرقا تمتد أراضيها إلَى حدود مملكة النوبة علَى النيل، وتمتد شمالا إلَى صحراء سرت وتخوم مصر. وكان ملكُها حريصاً علَى شراء الأسلحة الحديثة والخيل من مصر، وبفضلها كان ينتصر علَى أعدائه دائما «لأن رجاله كانوا مسلَّحين بأسلحة حديثة، بينما لم يكن لأعدائه غير قسيٍّ رديئةٍ من الخشب». ونال ملكُ كانم «صداقةَ سلطانِ القاهرة بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه علَى الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعفَ ثمنها متظاهراً بالسخاء، حتّى جعل تجارُ مصر لا يقصدون غير بلاطه... ويعامل المثقّفين ـ لا سيما آل البيت ـ بكثير من الاعتبار والإعزاز» (42).

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي، كان لكانم ـ برنو تجارةٌ مزدهرةٌ مع مصر، وقامت علاقات سياسية بينها وبين ولاية طرابلس الغرب العثمانية، وتعزّزت هذه العلاقاتُ بعد إيفاد بعثة إلَى طرابلس الغرب سنة 1552 م لإبرام معاهدة صداقة وتجارة. وكانت أهميةُ طرابلس الغرب بالنسبة لسلاطين كانم ـ برنو تكمُن في كونها مصدراً للحصول علَى البضائع الأوروبية والأسلحة. وقد تاجروا مع كافة

(41) الوزان، 2/ ص 177.
(42) نفسه، 2/ ص 8 ـ 179.

محتلّي المدينة في القرن السادس عشر : الإسبان ، ثم فرسان مالطة ، ثم الأتراك العثمانيين. وحصل السلطانُ إدريس علومة على جنودٍ من العرب من راكبي الإبل (43) .

وكما تقدَّم ، فإن أولادَ محمد تمكنوا من انتزاع السلطة من أيدي الأتراك العثمانيين في فزان بمساعدة سلطان برنو . ولعلَّ ذلك كان لوجود مصلحة مشتركة جمعتْ بينهما ، وهي التجارة (44) .

---

(43) Fage. J. D., **A History of Africa**, London 1979, p. 82. Hiskett, p. 63.

(44) Martin, p. 486

وصول الإسلام وانتشاره
في كانم - برنو
بالسودان الأوسط

تمهيـــد :

تفيد رواياتُ كانم - التي تقع إلَى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد - بأن بطلاً عربياً من اليمن هو سيف بن ذي يزن سيطر علَى جماعة من الرُّحَّل في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، ثم بسط وذريتُه نفوذَهم علَى عدد آخر من القبائل أصبحت تُعرف باسم الكنوري أو شعب كانم. وقد ظلَّتْ هذه الأسرةُ السيفيةُ أو اليزنيةُ التي قامتْ في أوائل القرن التاسع الميلادي تحكم كانم نحواً من ألف عام (إلَى سنة 1846 م).

وقد حرصَ ملوكُ كانم علَى التحكم بطريق القوافل الرئيسي الذي كان يصل كانم عبر الصحراء بالشمال - بطرابلس الغرب وإفريقية - ماراً بواحات كُوار وزَويلة بفزان، وهو طريق قديم كان مستعملا لأغراض التجارة منذ أيام القرطاجنيين والرومان.

وكانت جماعاتٌ من أهل كانم تنزح إلَى الغرب من بحيرة تشاد طلباً للمرعَى ولمزاولة الزراعة، وامتزجتْ وتزاوجتْ مع قبائل الساو في إقليم بُرنو، الذي أصبح تابعاً لمملكة كانم.

وقد بلغتْ امبراطوريةُ كانم أوجَها اتساعاً وازدهاراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي علَى عهد السلطان (ماي) دونما ديبالامي.

الذي بسط نفوذه علَى فزان شمالاً، وبذلك تمَّ لكانم تأمينُ طريق القوافل إلَى الشمال. ويذكر ابنُ خلدون أن سلاطينَ كانم كانوا علَى صلاتٍ وديةٍ بالحفصيين في تونس منذ قيام دولتهم في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد.

وفي أواخر القرن الرابع عشرَ للميلاد، ونتيجةً للمنازعات علَى السلطة بين أبناء البيت المالك، والحروبِ المتواصلةِ مع قبائل البُلالة جنوبي بحيرة تشاد، اضطرَّ سلطانُ كانم عمرُ بن إدريس إلَى النزوح عن عاصمته نجيمي/جيمي ـ علَى الضفة الشمالية لبحيرة تشاد ـ إلَى إقليم برنو غربي البحيرة. وفي برنو اختطَّ السلطانُ علي جاجي في أواخر القرن الخامسَ عشرَ عاصمةً مسوَّرةً ثابتةً في جازار جامو ظلَّتْ عاصمةً لسلْطنة كانم ـ برنو ثلاثةَ قرون ونيِّفاً. ولما تغلَّب السلطانُ إدريس عَلومة علَى قبائل البُلالة، واستردَّ السيطرةَ علَى أرض كانم في أواخر القرن السادسَ عشرَ أصبحت كانم ولايةً تابعةً لبُرنو بعد أن كانت برنو إلَى أواخر القرن الرابعَ عشرَ ولايةً تابعةً لمملكة كانم.

يبدو مما أورده المؤرخون والجغرافيون العرب أن الوثنيةَ كانت تسود بلادَ كانم حتَّى مطلعِ القرن السادسِ الهجري/الثاني عشر للميلاد. فالمهلَّبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن ديانةَ أهلَ كانم عبادةُ ملوكهم. وفي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي يقول البكري إن أهلَ كانم مُشركون. أما صاحبُ (كتاب الاستبصار) ـ وقد صنَّف كتابَه في مراكُش في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ـ فيذكر أن أولَ إسلام أهل كانم كان بعد سنة خمسمائة للهجرة (= 6 ـ 1107 م).

إن الدينَ الإسلاميَّ وصل إلَى كانم بالطرق السلمية علَى أيدي التجار والفقهاء من شمال افريقيا، كما حدث بالنسبة إلَى وصول الإسلام إلَى غانة ومالي. وتفيد المصادرُ الكنورية بأن أولَ سلطانٍ اعتنق الإسلامَ في كانم هو حمِّي (محمد) ـ الثاني عشر من ملوك الأسرة السيفية ـ في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

إن الفترةَ الأولَى في الحِقْبة الإسلامية في كانم بلغتْ ذروتَها في القرن الثالثَ عشرَ

الميلادي علَى عهد السلطان دونما ديبالامي الذي يصفه ابنُ سعيد المغربي بأنه المشهورُ بالجهاد وأفعال الخير. وهو الذي أنشأ في الفسطاط مدرسةَ ابن رشيق لتكون نزلاً لإيواء طلبة كانم في القاهرة. ويقول العمري إن سلطانَ كانم يحتجب عن رعيته ولا يراه أحدٌ إلاّ في العيدين، ويضيف بأن أهلَ كانم متدينون يتمذهبون بمذهب الإمام مالك، وبأن العدلَ قائمٌ في بلادهم.

وقد تعزَّز الإسلامُ في كانم ـ برنو علَى عهد السلطان علي جاجي في أواخر القرن الخامسَ عشرَ الميلادي، وأصبح للفقهاء والعلماء مكانةٌ مرموقة في البلاد، كما اتخذ السلطانُ لقبَ «خليفة»، وحذا حذوَه في ذلك من جاء بعده من السلاطين. وبحلول القرن الخامسَ عشر الميلادي، انتشرت في برنو المدارسُ، وكان لها صلةٌ بالجامع الأزهر، واحتفظتْ مدارسُ برنو إلَى عهدٍ قريبٍ بجودة مستوى دراساتها الفقهية والقرآنية.

وصول الإسلام وانتشارُه في كانم ـ برنو:

إن أولَ ذكرٍ لبلاد كانم ورد علَى لسان اليعقوبي (ت 284 هـ/897 م) الذي ذكر بأن كانم بلادٌ يسكنها شعبٌ يُعرف باسم الزغاوة. وكانت الوثنيةُ سائدةً في كانم إلَى مطلع القرن السادسِ الهجري/الثاني عشر الميلادي. فالمهلّبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن الزغاوة يعظِّمون ملكَهم «ويعبدونه من دون الله تعالَى. ويتوهَّمون أنه لا يأكل الطعام... وديانتُهم عبادةُ ملوكهم، ويعتقدون أنهم الذين يُحيون ويُميتون ويُمْرضون ويصحُّون»[1]. ويقول أبو عُبَيْد البكري في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إن أهلَ كانم «سودان مشركون. ويزعمون أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين. وهم علَى زي العرب وأحوالها»[2].

---

(1) يُنظر الحموي. ياقوت: معجم البلدان. بيروت 1979. 3/ ص 142.

(2) البكري. أبو عُبَيْد عبد الله: المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك). باريس 1965. ص 11.

وكما هو معروف ، فإن العربَ المسلمين ـ وعلَى رأسهم عقبة بن نافع ـ فتحوا فزان ونواحي واحة كوار في سنة 46 هـ/6 ـ 667 م عبر الطريق القديم الذي كان يصل كانم بساحل طرابلس [3] . ويبدو أنّ أولَى التأثيرات الإسلامية في كانم تسرَّبتْ إليها عن هذا الطريق لا من الغرب أو الشرق حيث كانت تقومُ مملكة مسيحية ببلاد النوبة بأعلَى صعيد مصر [4] .

إن أهلَ كانم ـ بحكْم موقع بلادهم ـ كان لا بدَّ لهم من الاتصال بالمسلمين في الشمال . وقد بدأ دخولُ الإسلام إلَى كانم سلمياً علَى أيدي التجار والفقهاء . وكما كان الحال في غانة ، فلا بد أنه استقرَّتْ في مدن كانم جالياتٌ إسلاميةٌ منذ وقت مبكر واكتسبتْ أهميةً بحكم صلاتها بالتجارة الخارجية . وفي مثل هذه الظروف ، اعتنقتْ الأسرةُ الحاكمةُ في كانم الدّينَ الإسلامي [5] . ويرى باحثان متخصصان بتاريخ القارة الإفريقية أن إسلام ملوكِ كانم يُحتمل أن يكون سبق إسلامَ ملوك غانة ، وأن إسلامهم كان يرجع إلَى اتصالاتهم بالتجار من إفريقية [6] . وكان من نتائج إسلام ملوك كانم أن أصبحت لديهم لغة كتابيةٌ هي اللغة العربية ، مما جعل المراحلَ الرئيسيةَ لتاريخهم معروفة [7] .

وتدلُّ بعض المصادر علَى أن إسلام كانم يرجع إلَى ما قبل منتصف القرن التاسع الميلادي ، إذ إن حمّي أولَ من أسلم من ملوكهم قد يكون أصلُه من واحة كوار التي اعتنق سكانُها الإسلامَ في وقت مبكر. فاليعقوبي في أواخر القرن العاشر الميلادي يقول إن سكانَ كوار مسلمون من عدة قبائل [8] . وثمة باحثٌ حديثٌ يرى أن

(3) ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب ، القاهرة 1962 ، ص 3 ـ 264

(4) Smith, A. "The Early States of the Central Sudan", in **History of Africa**, Vol. 1, edit. Ajayi and Crowder, London 1979, p. 165.

(5) المرجع السابق ، ص 166 .

(6) Oliver, R., and Fage, J.D., **A Short History of Africa**, Penguin Books 1973, p. 82.

(7) Trimingham J.S., **A History of Islam in West Africa**, Oxford U.P. 1970 p. 107.

(8) Lange, D., "The Kingloms and Peoples of Chad", in **General History of Africa**, IV edit. D.T. Niane, UNESCO 1984, p. 239.

الإسلام دخل إلَى كانم في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي عن طريق قبائل التبو (9).

وخلاصة القول إن الإسلامَ بدأ وصولُه إلَى بلاد كانم منذ أن فتح العرب المسلمون فزان وكوار، ومنهما أخذ الإسلامُ في الانتشار رويداً رويداً في السودان الأوسط عن طريق الجاليات من تجار المسلمين في البلاد. ثم وصل إلَى كانم في منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد نَفَرٌ من بني أمية فراراً من بطش العباسيين واستقروا في البلاد. وفي الترجمة التي عقدها الشمّاخي لأبي عبد الله محمد ابن عبد الحميد ـ والي جبل نفوسة للرستميين في تاهرت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ـ يقول إن أبا عبد الله كان يتكلم لغةَ بلاد كانم ـ أي الكنوري. فمن المرجح أن أبا عبد الله كان يتردَّدُ علَى بلاد كانم تاجراً وتعلم لغة البلاد. وهذا دليل آخر علَى أن الإسلامَ بدأ في الوصول إلَى كانم من الشمال وفي وقت مبكر (10).

إن (ديوانَ سلاطين برنو) هو التاريخ الرسمي للأسرة السَّيْفية المالكة في كانم منذ تأسيسها في حدود عام 800 م إلَى نهاية الأسرة سنة 1846 م. وقد جاء في هذا الديوان أن أولَ من أسلمَ من ملوك الأسرة هو حمِّي بنْ سَلْعمة (حكَم حوالي 1085 ـ 1097 م). يؤيد ذلك مَحْرَمٌ أصدره حمِّي لشريفٍ اسمه محمد بن ماني الذي كان إسلام الملك علَى يديْه وأصبحت ذريتُه أئمةَ نجيمي في جازارجامو، ومن بينهم كان مستشارو السلاطين حتّى أواخرِ القرن السادس عشر. والمَحْرَمُ خطابٌ كان يُصدره السلطانُ، وهو يتعلق بمنح صاحبه امتيازاتٍ موروثة كالإعفاء من الضرائب والخدمة العسكرية والاستضافة. وينص مَحْرَمُ حمِّي المذكور علَى أن أموال محمد بن ماني «حرام» علَى أبناء حمِّي إلَى يوم القيامة (11). ولا شك في أن

---

(9) دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الثانية. باللغة الإنجليزية. المجلد الرابع. ليدن 1973. ص 540.

(10) Lewicki, T., **Arabic External Sources for the History of Africa..** London- Lagos 1974, p. 97.

(11) Trimingham, p. 115. Hodgkin, Th., **Nigerian Perspectives**, Oxford U.P. 1975.

حمّي وسلاطين كانم من بعده أخذوا اعتناقَهم الدّين الجديد مأخذاً جدياً وعملوا علَى نشر الإسلام بين رعاياهم.

أما العمري فيقول إن أولَ من نَشرَ الإسلامَ في كانم الهادي العثماني الذي ادَّعى أنه من ولد عثمان بن عفان. ويضيف العمري بأنه جاء من ملوك كانم من ادَّعى النسبَ العلويَّ في بني الحسن. ولعلَّ لذكر الهادي العثماني صلةً برواية البكري عن وصول أمويين وهم من شيعة عثمان وأنصاره واستقرارهم في كانم فراراً من العباسيين [12].

ويقول صاحبُ (كتاب الاستبصار) إن أهلَ كانم «أسلموا بعد الخمسمائة [= 1106 ـ 1107 م]» [13]. وتفيد إحدى روايات الهوسا أن أبا زيد الفزاري (نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) هو الذي نَشَر الإسلامَ في كانم وبُرْكو [14].

ويظهر من الوثائق التي عُثِر عليها في واحة توات أن تأثيرَ شمال إفريقيا كان قوياًّ في برنو منذ أيام المرابطين والموحدين [15].

ويلاَحظُ أنه ابتداءً من منتصف القرن الثاني عشر للميلاد كانت الزوجاتُ الرئيسياتُ للملوك كانم مسلماتٍ كما يُستدلُّ من أسمائهنَّ وأسماء آبائهن حسبما وردتْ في (ديوان سلاطين برنو). ومهما يكُنْ من أمر، فإن الإسلامَ الصحيحَ لم يؤثِّرْ في عامة الناس قبل عهد السلطان دونَما ديبالامي (حكَم حوالي 1210 ـ 1248 م) [16].

يتضح مما تقدَّم أن الإسلامَ انتشر وترسَّخ باضطراد في كانم ما بين سنتي

---

(12) يُنظر القلقشندي. أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة (بدون تاريخ). 5/ ص 281.

(13) مؤلف مجهول الاسم: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. الاسكندرية 1958. ص 146.

(14) دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الثانية. باللغة الإنجليزية. المجلد الرابع. ليدن 1973. ص 540.

(15) Palmer, H.R., History of the First Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma... with the Diwan of the Sultans of Bornu, Lagos 1926, p 2

(16) Lange, p 254

1085 م و 1240 م . حينما ذكر ابنُ سعيد أن الإسلام كان منتشرا بين أفراد الطبقة الحاكمة .

وفي أواخر أيام السلطان دونما ديبالامي ازدادت المصادماتُ والحروبُ مع قبائل البْلالة . ويبدو أن الإسلام كان أحدَ عوامل الخلاف مع البلالة . ويتّهم المؤرخون ـ ومن بينهم أحمد بن فرتوة مؤرخُ السلطان إدريس عَلومة في أواخر القرن السادس عشر ـ السلطانَ دونما ديبالامي بتدمير شيءٍ مقدَّسٍ يُدْعَى موني mune . ولعلّه كان يُشكِّل عنصراً أساسياً لعبادةٍ ملكيةٍ وصلتْ من أيام ما قبل الإسلام . ويرى الإمام أحمد بن فرتوة في هذا العمل المنتهك لحرمة الدّين والأعراف السبب في الاضطرابات والمتاعب العديدة التي حدثتْ بعد عهد دونما ديبالامي (١٧)

يقول ابن فرتوة إنه كان لبني سيف شيء معظَّمٌ ومخبَّأ كان يتوقف عليه انتصارهم في الحروب . وهو يُعرف باسم موني ولا يجوز فتحه . ولما فتحه السلطان دونما ديبالامي أغضب ذلك فرعاً من الأسرة الحاكمة عُرفت فيما بعد باسم البلالة . إذ إن فتحه أو تدميره كان يعني التخلِّي عن قدسية الملوك . ولعلَّ المقريزي علَى حق عند قوله إن دونما ديبالامي هو أولُ مسلمٍ صحيح من ملوك كانم . ويُفهم من ذلك أن السلطان أراد إزالةَ أثرٍ من آثار الوثنية في كانم أسوةً بما فعل المسلمون بالأصنام في مكة المكرمة عند فتحهم لها . والغريب في الأمر استنكارُ إمامٍ كابن فرتوة لما فعله السلطان . إلاّ أن يكون هذا الاستنكار بتأثير التقاليد السائدة في كانم منذ القدم أو لأن الموني ـ كما ذكر أحدُ الباحثين ـ لم يكن ـ علَى ما يحتمل ـ سوى مصحفٍ في علبة من الجلد (18) .

إن امبراطوريةَ كانم الأولَى بلغت أوجَها وأقصَى اتساعها في عهد السلطان دونما ديبالامي الذي اشتهر غازياً وفاتحاً وناشراً للإسلام . ويتحدث ابنُ سعيد عن الغزوات التي كان يقوم بها السلطان دونما ضد القبائل القاطنة حول بحيرة تشاد

---

(17) Idem. p 254

(18) Trimingham, p 117. Hiskett, M. **The Development of Islam in West Africa**, London 1984, p. 65.

ـ نقلاً عن الرحالة الشهير ابن فاطمة ـ فيقول : «ويحدق بها [بحيرة كوري أي تشاد] من جميع جهاتها أممٌ طاغيةٌ من السودان الكَفرة... وعلَى ركن البحيرة المغزاة حيث دار صناعة الكانم [لإنشاء المراكب]. وكثيراً ما يغزو من هنالك في أسطوله بلادَ الكفار التي على جوانب هذه البحيرة ويقطع علَى مراكبهم فيقتل ويسبي» [19].

إلاّ أن أهمَّ توسعٍ لكانم آنذاك كان في الشمال. في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي سيطر ملوكُ كانم علَى فزان. وقد كانت منطقة فزان تحكمها منذ سنة 306 هـ/8 ـ 919 م أسرةُ بني الخطاب الهواريِّين أصحاب زَويلة [19] [أ] إلَى أن قضَى علَى حكم الأسرة قراقوش الغُزِّي في سنة 568 هـ/1173 م. وعلَى الأثر استغاث الأهالي بسلطان كانم. فقام دونما شخصياً بقيادة حملة إلَى فزان. ونصَّب حاكماً وممثِّلاً له في تراغن علَى بعد نحو عشرين ميلاً شرقي مُرْزُق. يقول ابنُ سعيد أنه تَتَبع هذا السلطان «سَلْطنةُ تجوه [عاصمة الزغاوة] ومملكة كوارو، ومملكة فزان» [20]. ويذكر التجاني أن رسلَ ملك كانم تمكَّنوا في عام 656 هـ/8 ـ 1259 م من قتل أحد أبناء قراقوش الذي كان قد أغار علَى ودان بشمال فزان «فأنفذ إليه ملكُ كانم مَنْ قتله وأراح تلك البلاد من فتنته، وحمل رأسه إلَى بلاده فطيف بها، وذلك في سنة 656» [21].

وفي عهد السلطان دونما ديبالامي تعزَّزتْ العلاقاتُ مع الدول الإسلامية بشمال افريقيا. فهو الذي أسَّس في العقد الخامس من القرن السابع الهجري/42 ـ 1252 م مدرسةَ ابن رشيق في القاهرة لإقامة طلبة كانم الدارسين

---

(19) ابن سعيد. علي : كتاب الجغرافيا. بيروت 1970. ص 94.

(19ـأ) في شهر ربيع أول 381 هـ/991 م ختن المنصور بن بلكين ولده باديس «وأتته هدية من عند أبي الخطاب ـ عامله علَى زويلة ـ فيها زرافة وطرف من أثاثهم السودان وشيء مستكثر» ـ ابن أبي دينار القيرواني. محمد : المؤنس في أخبار افريقية وتونس. تونس 1967. ص 78 ـ 79.

(20) ابن سعيد. ص 59.

(21) التجاني. عبد الله : رحلة التجاني. تونس 1958. ص 111.

فيها. ويذكر ابن خلدون أنه في سنة 655 هـ/1257 م «وصلتْ [إلَى السلطان الحفصي المستنصر] هديةُ ملك كانم... وهو صاحبُ برنو مواطنُه قِبْلة طرابلس... وكان فيها الزرافة... فكان لها بتونس مشهدٌ عظيمٌ برز إليها الجَفَلى من أهل البلد حتّى غَصّ بهم الفضاء»[22].

الانتقال من كانم إلَى برنو:

تتحدثُ الرواياتُ الكنوريةُ عن متاعب كانم بعد عهد دونما ديبالامي بسبب تنازع الأبناء واستقلالهم في الولايات، مما أدّى إلَى تدخل قبائل البُلالة من الأراضي الواقعة جنوبي كانم. وتعزو هذه الرواياتُ ما حلَّ بكانم من تفسخٍ سياسيٍّ وما تعرَّضتْ له من فتن وقلاقل إلَى قيام دونما ديبالامي بالعبث بالموني المقدَّس. إن الجماعةَ المعروفةَ باسم البُلالة [أبو ليلَى؟] تدَّعي الانتسابَ لابنة أحد سلاطين كانم الأوائل. وعلَى هذا الأساس قام صراعها مع الأسرة السيفية. واليوم تعيش جماعة البُلالة في إقليم بحيرة فِطري[23].

كما واجهَ سلاطينُ كانم في أوائل القرن الرابعَ عشرَ مقاومةً شديدةً من جانب الشعوب غير الكنورية جنوبي بحيرة تشاد وغربيها، وهي الشعوب المعروفة باسم ساو. وقد هلك أربعةٌ من سلاطين كانم في قتال قبائل ساو هذه[24].

وتلتْ حروبَ كانم مع البُلالة متاعبُ أخرى. في أواخر القرن الرابعَ عشرَ نسمع لأول مرة عن وصول عربٍ رحَّلٍ إلَى إقليم بحيرة تشاد، وإليهم تنتسب قبائل الشاوية الموجودةُ اليومِ في كانم وبرنو. ويبدو أن هؤلاء العربَ من ذرية القبائل الهلالية الّتي كانت قد رُحِّلت عن مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. فهل كان لهؤلاء العرب صلةٌ بتغريب بعض

---

(22) ابن خلدون. عبد الرحمن: كتاب العبر. بيروت 1959. 6/ ص 652

(23) Smith, p 170

(24) المرجع السابق. ص 173.

القبائل العربية في أعقاب انهيار مملكة النوبة المسيحية في مطلع القرن الرابع عشر؟ ويذكر الإمام أحمدُ بن فرتوة أن العربَ كانوا حلفاءَ للبُلالة في أواخر القرن السادسَ عشر [25].

إن حروبَ سلاطين كانم مع البُلالة استمرت دون انقطاع طوال معظم النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكانت وبالاً علَى مملكة كانم مما اضطر السلطان عمر بن إدريس (حكَم حوالي 82 ـ 1387 م) إلَى مبارحة عاصمته نجيمي والنزوح مع أتباعه إلَى بلاد برنو غربي بحيرة تشاد.

وعلَى أثر جلاء السلطان، أقام البُلالة مملكةً قويةً في كانم، وكان العرب والتتبو حلفاءهم. ويذكر الحسنُ الوزان في مطلع القرن السادسَ عشرَ أن كانم كانت أوسعَ رقعةً وأقوى من برنو، وكان لصاحبها علاقات ممتازةٌ مع سلطان مصر، فيقول: «ونال صداقةَ سلطان القاهرة ورعايتَه بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه علَى الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعفَ ثمنها تظاهراً بالسخاء، حتّى جعل تجار مصر لا يقصدون غيرَ بلاطه» [26].

ومنذ القرن الثاني عشر للميلاد، كانت جماعاتٌ من أهل كانم تنزح وتستقر في إقليم برنو إلَى الغرب من بحيرة تشاد. وقد استمرت هذه الهجرةُ حتّى بداية الفترة الاستعمارية في أواخر القرن التاسعَ عشر. ولعلَّ برنو قبل القرن الثالث عشر كانت مملكةً مستقلةً ثم خضعت لملوك كانم [27].

ولما نزح سلاطينُ كانم إلَى برنو في أواخر القرن الرابع عشر استمرَّ الصراعُ علَى السلطة بين أفراد الأسرة المالكة في برنو مِمَّا أتاحَ مزيداً من الفرص للبُلالة وغيرهم للإنقضاض علَى الدولة ولم تستقرَّ الأوضاعُ إلاّ في عهد علي جاجي (الصغير) ـ حكَم حوالي 1476 ـ 1503 م ـ وهو الذي أنهَى الصراعَ الأسريَّ واختطَّ في

---

(25) Smith, p 174. Lange, p 258

(26) الوزان، الحسن: وصف افريقيا، الجزء الثاني، الرباط 1982، ص 179.

(27) Lange, p 255

حدود عام 1484 م عاصمةً مسوَّرةً ثابتةً جديدةً في جازارجامو Gazargamu أقام بها سلاطينُ برنو في القرون الثلاثة التالية ، ومنها أقاموا امبراطوريةَ كانم ـ برنو الثانية . ويُعتبر السلطان علي جاجي المؤسِّسَ الحقيقيَّ لسلطنة برنو، وواحداً من أعظم سلاطين كانم ـ برنو الثلاثة مع دونما ديبالامي وإدريس عَلومة [28] . وفي عهده ازدادت التأثيراتُ الإسلاميةَ وأصبح للعلماء والفقهاء مكانتهم المرموقة في المناصب ، وأخذ علي جاجي في اتخاذ لقب «خليفة» ، وحذا حذوَه في ذلك من جاء بعده من السلاطين [29] .

وفي عهد خلفه إدريس كاتاجارمابي (1503 ـ 1526 م) استُردَّت كانم وأصبح زعماءُ البُلالة خاضعين له .

إن القرنَ السادسَ عشر شَهِدَ انبعاثَ برنو وتأسيسَ امبراطورية كانم ـ برنو الثانية كما بدأ فيه اتصالُ برنو بالدولتين الإسلاميتين القويتين في شمال إفريقيا ، وهما الإمبراطوريةُ العثمانيةُ والمغربُ الأقصى علَى عهد السعديين. وفي الربع الأخير من هذا القرن ، ولّي في برنو أعظمُ سلاطينها إدريس عَلومة الذي جهَّز في بداية حكمه عدةَ حملات متوالية ناجحة ضد البُلالة . ومع أن سلاطينَ برنو كانوا قد استردوا نجيمي عاصمتَهم القديمة في كانم في حدود عام 1500 م ، إلاّ أن البُلالة لم يُهزَموا هزيمةً ساحقةً الاّ علَى يد السلطان إدريس علومة في الربع الأخير من القرن السادس عشر.

إن أحمد بن فرتوة ـ كبيرَ أئمةِ السلطان إدريس عَلومة ومؤرخَه ، وكان يرافق السلطان في حملاته ضد البُلالة ـ مصدرٌ قيِّمٌ بوصفه مؤرخاً للأحداث التي يصفها . ومع أنه يركِّز في تاريخه علَى المعارك والانتصارات ، إلاّ أنه يذكر بعضَ الإصلاحات التي أُدخلت في عهد السلطان إدريس علومة ، كالتأكيد من جديد علَى تطبيق أحكام الشريعة ، ونقل السلطة القضائية من أيدي رؤساء القبائل إلَى القضاة ،

---

(28) Hiskett, p. 63. Smith,pp. 175-6.

(29) Hiskett, p. 66,.

وتشييد المساجد من اللَّبِن (30) .

بحلول القرن الخامسَ عشر، ساد في برنو نظامُ التعليم الإسلامي ، وازداد عددُ الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي ، فأُقيمت المدارس ، وهي مراكزُ للتعليم العالي ، اشتهرت من بينها مدرسةُ الشيخ أحمد فاطمي في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، كما ظهرت في أواخر القرن السادسَ عشرَ مدرسة كالومباردو التي تقع علَى مسافة 50 ميلاً إلَى الشمال الشرقي من العاصمة جازاراجامو ، ومن أشهر علمائها في بداية تأسيسها العالمُ الطارقي الشيخُ الوالي بن الجَرْمي الطارقي ، والشيخ وال ديدي الفَلاَّتي الذي تلقَّى العلمَ في تنبكتو وأجاديس ، وكان من أتباع الطريقة القادرية ، وكانت مدرسةُ كالومباردو مركزاً لنشر الطريقة القادرية في برنو. وقد أحيى مدرسةَ كالومباردو الشيخُ عبدُ الله البرناوي في حدود عام 1075 هـ/4 ـ 1665 م ، وكان قد تلقَّى العلمَ علَى يد العالم الطارقي أحمد الصادق ابن أبي محمد أُوَيْس ، ونشط في نشر الإسلام بين الوثنيِّين في برنو (31) . ويذكر المؤرخ المغربيُّ أحمد الناصري السلاوي الشيخ عبد الله البرنوي علَى أنه شيخ الولي أبي فارس عبد العزيز الدباغ ، الموضوعِ في مناقبه كتابُ (الذهب الإبريز) (32) .

وفي القرن الثاني عشر الهجري/الثامنَ عشرَ الميلادي ، ظهرت مدارسُ أخرى في ماشينا وفي العاصمة جازارجامو. وكان العلماء والطلبة في هذه المدارس يتلقَّوْن المساعدة والدعمَ من جانب السلطان. وغدتْ برنو مركزاً علمياً اجتذب إليه الكثيرَ من المسلمين من بقية السودان. وكان لمدارس برنو صلةٌ بالجامع الأزهر الشريف ، وقصدها علماءُ أتراكٌ وأندلسيون ، وقد اشتهر العلماءُ الأندلسيون في ميدان الدراسات القرآنية وتدريس الفقه. واحتفظتْ برنو بصيتها في جودة مستوى

---

(30) Hodgkin, pp. 32-3.

(31) Hiskett, p. 66.

(32) الناصري ـ أحمد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصَى ـ الدار البيضاء 1955 ، ص 103 .

دراساتها القرآنية إلى عهد قريب. إن عامة الناس في برنو تقبّلوا الإسلامَ والتزموا بتعاليمه أكثرَ من غيرهم في مناطق بلاد السودان جنوبي الصحراء الكبرى، وقد أقرّ بذلك حتّى محمد بِلّو - ولم يكن صديقاً لبرنو- في كتابه (إنفاق الميسور)[33].

(33) Hiskett, p. 67.

سفارتان مغربيتان إلَى إسبانيا لتبادل الأسرى في القرن الثامن عشر

شهد المغربُ الأقصَى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد فترة هدوء واستقرار علَى عهد السلطان العلوي مولاي محمد بن عبد الله الذي تمكَّن في فترة حكمه الطويلة من توطيد الأمن والسلام في البلاد ، ومن استرداد مزغان (الجديدة) من أيدي البرتغاليين ، كما أبرم معاهداتِ ود وتجارة مع عدد من الدول الأوروبية في مقدمتها إسبانيا ، فهو لذلك جدير بأن يُعدَّ من بين سلاطين المغرب الأقصَى الذين عاد عهدُهم بالخير علَى البلاد [1] . وأبدى السلطانُ طوال فترة حكمه (1171 ـ 1204 هـ/1757 ـ 1789 م) اهتماما خاصا بأحوال أسارى المسلمين في أيدي الإسبان ، وعمل جاهداً علَى افتكاكهم من الأسر ، وبخاصة حفَظة القرآن والعجَزة منهم . وقد أوفد لهذا الغرض إلَى بلاط كارلوس الثالث ملك إسبانيا سفارةً في شهر ذي الحجة عام 1179 /مايو 1766 م علَى رأسها كاتبه الفقيه والأديب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي المالقي ـ الفاسي الدار الأندلسي النسبة ـ وكلَّفه بتدوين ملاحظاته وانطباعاته عن كل ما يشاهده ويسمعه في رحلته إلَى مدريد . فدوَّن السفير الغزال أخبار رحلته وانطباعاته في كتاب عنوانه (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) .

---

(1) Terrasse, H. History of Marocco. Casablanca 1952, pp 133-4

استغرقت السفارةُ ثمانيةَ شهور ، ونجحت في الإفراج عن بضع مئات من أسارى المسلمين من المغرب الأقصَى والأقطار المجاورة ، وفي إبرام معاهدة سلمٍ بين البلدين ، كما جلب السفيرُ لدى عودته إلَى المغرب مجموعةً من الكتب العربية والإسلامية من مدريد وغرناطة. وللسفير أحمد بن المهدي الغزال في كتابه ملاحظات طريفة عن وضع المرأة في إسبانيا ، وعن وجهة نظره من مصارعة الثيران. ويحدِّثنا عن آثار المسلمين الكثيرة الباقية في المدن الإسبانية التي مرَّ بها ، وهو كثيرا ما يقارن بين هذه المدن الأندلسية وبين مدن المغرب من حيث التخطيطُ والعمارة. وترد في كتابه عبارات إسبانية معرَّبة كالفريلية بمعنَى الرهبان (من fraileالإسبانية) ، والشليَّات بمعنَى الكراسي (من sillaالإسبانية) ، والشمرير بمعنَى القُبَّعة (من sombreroالإسبانية) ، والقراريط بمعنَى العربات (من carreta الإسبانية) ، والباشدور أي السفير (من embajadorالإسبانية) ، والبلاصة بمعنَى الميدان (من plazaالإسبانية) . كما ترد كلمة مواكن ـ التي مازالت مستعملة في المغرب الأقصَى ـ بمعنَى الساعات. إلاَّ أن القارىء يستغرب استعمالَ الغزال للأسماء الإسبانية للمدن دون أسمائها العربية الأندلسية المعروفة كالجزيرات بدلا من الجزيرة الخضراء ، ولوخة بدلا من لوشة ، وأزناليوص بدلا من حصن اللوز ، وخريز بدلا من شريش ، وقالص بدلا من قادس. وهو يستعمل التسمية (البوغاز) عند الحديث عن مضيق جبل طارق (المعروف في تاريخ الأندلس باسم بحر الزُّقاق) ، وترد كلمة «القاضي» بمعنَى عميد البلدية ، وهو استعمال دقيق من جانب المؤلف ، إذ إن عميد البلدية بالإسبانية (alcalde) مشتق من اسم كلمة (القاضي) ، حيث إن القاضي كان يحتلُّ الصدارة مكانةً ونفوذاً في مدن الأندلس عند سقوطها في أيدي الإسبان.

يذكر الغزال في الفصل الأول من كتابه أن السلطان تلقَّى عدة كتب من أسارى المسلمين في إسبانيا متضرِّعين إليه ، فكتب السلطان في الحال إلَى ملك إسبانيا طالباً حسن معاملة الأسارى ، وبخاصة رجال الدين والعلم منهم «مثلما نفعل نحن بأسراكم من الفرايلية [الرهبان]... لا نكلِّفهم بخدمة.... فعلَى ما لا تحترمون الرؤساء من الأسرى ولا تعبئون بحامل كتاب الله؟... ونطلق أسراكم لا نحملهم ما لا

يطيقون... نترك مريضهم لمرضه، ونسمع ضراعتهم وننصت لما يقولون. فتأمَّلْ في ذلك بنفسك واعمل بمقتضاه وأْمُرْ به أبناء جنسك [2]. فلما وصله الكتابُ بعث للسلطان من حضر لديه من أسارى المسلمين، وأمر السلطان من جانبه بسراح الأسارى الإسبان بما فيهم «اثنان من الفريالية [الرهبان] كانا في قيد الأسر منذ سنين، وبعث له بعدة من الأسود مواصلة» [3]. واستدعَى الملك سفيرا من السلطان، فأجابه لما طلب، وعيَّن لمواصلته عدةً من الإبل والعتاق من الخيل [4].

بدأ الغزال رحلته من مكناسة ماراً بمدينة سبتة، ثم جاز مضيق جبل طارق إلَى الجزيرة الخضراء، فطريف، فشريش، فإشبيلية، فقرطبة، وانتهَى إلَى مدريد حيث أمضَى شهرين، وفي طريق العودة عرَّج علَى طليطُلة وغرناطة، وعاد بحراً إلَى تطوان عن طريق قادس.

وكثيرا ما يلاحظ الغزال أن معظم المدن الكبيرة والصغيرة التي مرَّ بها كان بها أسوار وقصاب وجوامع ودور من أيام المسلمين في الأندلس، كما يلاحظ أن لسكان بعضها ـ كقرمونة ولوشة ـ ميْلاً خاصا للمسلمينْ وتحنُّناً إليهم.

وقد كان لظهور النساء ورقصهن مع الرجال أثر قوي لدى الغزال، فيعلِّق علَى ذلك بقوله: «ونساؤهم ملاصقات للشراجيب يسلِّمن علَى الذاهب والآيب، ورجالهن في غاية الأدب معهن» [5]، ويضيف بأن «الرقص عندهم من كمال المروءة، وأداء الواجب عليهم من إكرام الضيوف من ذوي الأقدار» [6].

ودُعي مرة لمشاهدة مصارعة الثيران، وهو يعلِّق علَى هذه المصارعة بقوله: «وقد استحسنَّا لعبَهم جبراً للخواطر، حيث سُئِلْنا عن ذلك، والاعتقاد خلافه،

---

(2) الغزال، أحمد بن المهدي: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد. تحقيق اسماعيل العربي. بيروت 1980، ص 40

(3) المصدر السابق ص 41.

(4) المصدر السابق ص 43.

(5) المصدر السابق ص 52.

(6) المصدر السابق ص 63.

«إنه تعذيب للحيوان لا يجوز للإنسان» (7).

وفي قرطبة زار الغزالُ المسجدَ الجامعَ ولاحظ بأنه من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلوِّ الفادح، وترك لنا وصفاً ضافياً عن المسجد ومحرابه ومنبره ذاكرا عدد سواريه وارتفاع صومعته وعدد أبوابه. وحدث أن شاهد عند عتبة البهو بالمسجد لوحتيْن من الرخام علَى الأرض كُتب علَى كل واحدة منها (بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله علَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم)، ومن بعده تاريخ الجامع، ومن زاد فيه علَى الأول من الملوك واحدا واحدا. وهو يقول: «فلما أشرفت علَى اللوحتين المذكورتين بادرتني العَبْرة، وسقطت عليهما أمرِّغ عليهما شيْبتي، وأُزيل عنهما الغبارَ بلحيتي»، وأصرَّ علَى وجوب رفعهما من مكانيْهما، فكان ذلك (8). وعند الوصول إلَى مدريد، زار الغزال نحو مائتين من أسارى المسلمين ـ جلُّهم من أهل الجزائر وبعضُهم من الترك ـ كانوا يعملون في ترميم الطريق بين مدريد والإسكوريال، فأوصَى المشرف عليهم بحسن معاملتهم، كما كلَّمهم ووعدهم خيراً (9). وقد استقبله الملكُ كارلوس الثالث بكل حفاوة، وتم الاتفاق علَى الإفراج عن عدد من أسارى المسلمينْ، وعلَى حسن معاملة حاملي الكتاب، وعلَى ردِّ مجموعة من الكتب الإسلامية. وقدَّم السفيرُ للملك هديةَ السلطان من الإبل وعتاق الخيل، فقال الملك: «هذه خيلٌ نريد أن تنسلَ خيلا حرائر إن شاء الله» (10). ولما غادر الغزال العاصمةَ الإسبانيةَ رافقته سفارةٌ إسبانيةٌ أبرمتْ فيما بعد معاهدةَ سلم مع السلطان، واتفاقيةً بشأن تبادل الأسرى.

وفي طريق العودة من مدريد، زار الغزال مدينةَ طليطُلة، ولاحظ أن «أزقّتها ضيقة... والمدينة في نفسها غير بعيدة عن فاس، تشاكلها في البيوت والغرف

(7) المصدر السابق ص 65.
(8) المصدر السابق ص 101.
(9) المصدر السابق ص 3 ـ 154.
(10) المصدر السابق ص 139.

واستدارة الطبقة العليا بالدرابيز من الخشب»[11]. وفي قرطاجنة الحلفاء، تمكّن الغزال من تسريح اثنين وستين شيخا انتسبوا للمغرب، لكي يتسنّى لهم الافتكاك من الأسر، مع أن جلّهم من الجزائر وتونس[12].

ولما زار الغزال غرناطة لاحظ أن «بنيانَها باقٍ علَى حاله الإسلامي، وهي أقرب شبَهاً بفاس في بنيانها وجريان الأودية بجدرانها ثم القناطر المضروبة عليها»[13].

عاد الغزال إلَى المغرب بعد أن تكلّلت سفارتُه بالنجاح. ويصف مثولَه بين يدي السلطان بقوله: «وذهبْنا في هذه الجموع بعد أن قدَّمنا الثلاثمائة إلاّ عشرة من الأسارى المسرَّحين علَى يد سيدنا الكريمة رجالا ونساء، وجعلنا علَى رأس كل واحد من الأسرى كتابا من كتب الإسلام... المتخلِّفةِ من عُمَّار العُدْوة من المسلمين فيما سلف، مصاحف، وكتب الحديث والفقه وغير ذلك»[14].

وفي سنة 1182 هـ/1728، أُوفد أحمد الغزال الَى مدينة الجزائر للإشراف علَى تبادل الأسرى الجزائريين والإسبان (1600 أسير من كل جانب) وتكلّلت مهمتُه هذه أيضا بالنجاح.

إن كتابَ (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) الذي دوَّن فيه أحمدُ الغزال أخبارَ رحلته وانطباعاته عن إسبانيا في منتصف القرن الثامن عشر يكتسب أهميتَه من ناحيتين: فمن الناحية التاريخية، يُعتبر وصفه وثيقةً قيمة، إذ يورد المؤلف تفاصيلَ عن الغرض من سفارته إلَى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، أما من الناحية الأدبية فإن الكتاب يصف مراحلَ الرحلة ويعطي صورةً عن الحياة الاجتماعية ـ وبخاصة بالنسبة للطبقة الأرستقراطية المتنفِّذة ـ في إسبانيا علَى عهد الملك كارلوس الثالث، كل ذلك بأسلوب نثري مرسل مبسَّط خال من السجع والتنميق اللفظي

---

(11) المصدر السابق ص 163

(12) المصدر السابق ص 183.

(13) المصدر السابق ص 195

المتكلّفين (14) .

وفي سنة 1185 هـ/1771 م ـ أي بعد خمس سنوات من سفارة الغزال ـ هاجم سلطانُ المغرب مدينة مليلة التي كانت ـ وما تزال ـ خاضعةً للإسبان ، وحاصرها أياما . فكتب إليه كارلوس الثالث يذكّره بمعاهدة الصلح بينهما قائلا : هذا خطُّ كاتبك الغزال لا يزال تحت يدي . فأجابه السلطان قائلا : «إنما عقدتُ معك المهادنةَ في البحر . فأما المدنُ في إيالتنا فلا مهادنةَ فيها» . فبعث إليه الملكُ بنص المعاهدة ، وإذا بالنص يشتمل علَى كلمتيْ البر والبحر . فأوقف السلطانُ العملياتِ الحربيةَ ضد مليلة ، ولكنه سخط علَى الغزال وعزلَه من منصبه . أما سوء التفاهم فيرجع إلَى أن الغزال كان قد كتب في صدر المعاهدة «أن المعاهدةَ بيننا بحراً لا براً» ، إلاّ أن الإسبان محوْا (لا) وجعلوا مكانها واوا ، فصار النصُّ «برا وبحرا» . وقد حاول الغزال ـ عبثا ـ شرحَ الأمر وإثبات التزوير من طرف الإسبان ، فقد أنكر عليه السلطانُ اختزالَ العبارة بحيث أصبحت قابلةً للتحريف والتزوير بينما كان بإمكانه أن يقول مثلا : إن المهادنةَ بيننا وبينكم في البحر ، واما في البر فلا مهادنة (15) . وقام ملك اسبانيا آنذاك بفسخ معاهدة السلم التي سبق أن أعدّها الغزال وأبرمها العاهلان (16) . وعلَى الأثر أفل نجمُ الغزال ، فاعتكف في فاس ، وفقدَ بصرَه ، وتوفي في فاس سنة 1191 هـ/1777 م ودفن في زاوية الشيخ عبد القادر الفاسي (17) .

سفارة مغربية ثانية إلَى إسبانيا لافتكاك الأسرى :

بعد سفارة أحمد الغزال بثلاثَ عشرةَ سنة ، أوفد السلطان محمد بن عبد الله

---

(14) ملحق دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الإنجليزية) . ليدن 1982 . ص 325

(15) مقدمة محقق كتاب (نتيجة الاجتهاد ...)، اسماعيل العربي . ص 13 ـ 15

(16) ملحق دائرة المعارف الإسلامية . ص 325.

(17) المرجع السابق ص 325.

سنة 1093 هـ/1780 م سفارةً ثانيةً إلَى ملك إسبانيا كارلوس الثالث لتفقد أحوال أسارى المسلمين والعمل علَى افتكاكهم من الأسر، وكان علَى رأس السفارة هذه المرة كاتبه محمد بن عثمان. وقد وجّه السلطان إلَى الملك خطابيْن رأينا أن نورد فيما يلي نصّيْهما كاملين لتمكين القارىء من التعرّف علَى فحواهما، وكذلك لإعطاء فكرة عن الأسلوب والعبارات المستعملة آنذاك في المخاطبات الدبلوماسية.

أما الخطاب الأول من السلطان إلَى الملك فهذا نصه:

«إلَى كارلوس عظيم الأصبنيول، سلام علَى من اتّبع الهدى. أما بعد، فإنه لا يخفانا ما أنت عليه من المحبة في جانبنا العلى بالله التي أوجبتْ لك عندنا التمييزُ علَى غيرك من عظماء النصرى [النصارى] وقد وجّهنا إليك كاتبنا السيد محمد بن عثمان ليتفقد أحوال أسارى المسلمين الذين بأيديكم، فنحبك أن توجهه إليهم حتّى ينظرهم ويختبر أحوالهم، وهم وإن لم يكونوا من إيالتنا، ولا لهم تعلّق بنا، فقد وجب علينا أن نتفكّرهم ونبحثَ عنهم لأن كلمة الإسلام جمعتنا وإياهم، فلا ينبغي لنا أن نهملهم ولا أن نغفل عنهم، ومن أجل ذلك بعثنا إليكم كاتبنا السيد محمد ابن عثمان البشاضور [أي السفير] تجديدا لعهدكم وتأكيدا لمودّتكم ومحبتكم التي ثبتت عندنا، ويبلغكم كلامنا الذي أوصيناه عليه ويصلكم معه عشرة آلاف مثقال [أي دينار] من سكّتنا صدقةً علَى جميع الأسارى الذين في إيالتك وغيرها مثل رومة والجنوة [جنوة] والكرنة [ليجورنو] ومرسيلية، يأخذ الأسارى الذين في إيالتك خمسة مثاقيل للواحد، وما فضل عنهم يفرّق علَى الأسارى الآخرين علَى التساوي. وما كلّفناك بهذا الأمر إلاّ لمحبتك لتأخذ حقك من الأجر، وبعثْنا إليك ستة من النصرى [النصارى] مالطية تذكرة ومحبة، ولو كان عندنا أكثر منهم لبعثناهم إليك، لأننا لنا محبة في تسريح الأسارى، فالله يسرّحهم علَى أيدينا وأيديكم، وكذلك أساراكم لا نغفل عنهم إن شاء الله والسلام، ونحن معكم علَى الصلح والمهادنة. صدر الأمر به في عشرين شوال عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف [31

أكتوبر 1779 م] [18] .

أما الخطاب الذي فقد بعث به السلطانُ محمد بن عبد الله إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث بعد سنة وشهرين من الخطاب الأول ، وعلَى اثر عودة سفيره وكاتبه محمد بن عثمان ، وفيما يلي نص الخطاب :

« إلَى عظيم إصبانية كارلوس الثالث سلام علَى من اتّبع الهدى . أما بعد ، فإنه منذ ورد علينا من عندكم كاتبُنا البشدور [أي السفير] السيد محمد بن عثمان ، وهو يحدِّثنا بما رآه وعاينه من محبتكم الخالصة ومودتكم الصادقة ، في جانبنا أنت وولدك سلطان نابلس [نابلى] وأثنَى عليكم ثناءً حسناً من وقوفكم في جميع مثاربنا وقضاء أغراضنا ، كما هو معروف فيكم ، فأوجب ذلك أن تكون مرتبتك عندنا لا يدركها أحد من ملوك النصرى [النصارى] وأنك عندنا مميَّزٌ ومقدَّمٌ علَى كل أحد ، وكذلك رعيتك مجازاة [في الأصل مجازات] لمحبتك فينا بمثلها ، وأما لنجليز [الإنجليز] فقد أخرجْناهم من مرسَى طنجة وتطوان ، ولم يبْقَ لهم فيها نفع ، وكل ما كانوا يحملون منها من المأكولات فقد منعناهم منه وجعلناه مقصوراً علَى رعيتك ومراكبك. وشروط الصلح التي جعلتم مع السيد محمد بن عثمان المذكور أمضيناها وتصلكم مع كتابنا هذا ممضية ، فابعثوا لنا نسخَها التي بقيتْ عندكم بعد أن تمضيها ، ونحن معكم علَى المهادنة والصلح التامِّنْ والسلام. كُتب في طنجة رابع المحرم الحرام فاتح سنة خمسة وتسعين ومائة وألف [31 ديسمبر 1780 م] [19] .

---

(18) ماريانو ارياس بالاو (Palau) : مقال باللغة الإسبانية بعنوان «خطابات عربية لمولاي محمد بن عبد الله بشأن سفارة ابن عثمان سنة 1780 م» ، نشر بمجلة هسبريس ـ تمودا (Hespéris - Tamuda) ، الرباط ، السنة الثانية فصلة 2 ـ 3 (1961) ، ص 328 ـ 329 .

(19) المرجع السابق ص 333.

أجوبة الفقيه المغيلي
عن أسئلة الحاج محمد أسكيا
صاحب صنغاي بالسودان الغربي

صدر عام 1985 عن دار جامعة أكسفورد للنشر ـ لصالح الأكاديمية البريطانية ـ كتاب قيّم عن الإسلام في منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بعنوان (أجوبة المغيلي عن أسئلة الأمير الحاج محمد أسكيا) (ــ). وقد حققَ الكتاب وترجمه إلَى اللغة الأنجليزية وعلَّق علَى الأجوبة الدكتور جون هنيك J. Hunwick، أستاذ التاريخ بجامعة الشمال الغربي بنيجيريا. كما زوَّده بلمحة تاريخية عن انتشار الإسلام في منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر إلَى عام 1500 م، وبترجمةٍ لحياة الفقيه والمصلح التلمساني الشهير محمد بن عبد الكريم المغيلي، ذاكراً شيوخه ومؤلفاته وتأثيره، كما أرفق الكتاب بخريطتين، إحداهما لشمال وغرب إفريقيا، والأخرى لمنطقة حوض نهر النيجر الأوسط.

ومن المعروف أن الإسلام أخذ في الانتشار في إقليم السودان الغربي (غرب افريقيا) منذ أن توطد الحكم العربي في الشمال الإفريقي. أي منذ مطلع القرن الثاني

Shri'a in Songhary: The Replies of Al-Maghili to the Questions of Askia Al-Hajj Muhammad, (—)
Editel and translated by John O. Hunwick, Oxford U P 1985

للهجرة/القرن الثامن للميلاد، وذلك عن طريق التجار المغاربة. وتعاقبتْ في السودان الغربي منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ثلاثُ ممالكَ إسلامية هي غانة، ومالي، وصنغاي. وقد آلتْ المنطقةُ ـ منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ـ إلَى مملكة صنغاي وعاصمتها كوكو/جو عند منحنَى نهر النيجر. إلَى الجنوب الشرقي من مدينة تنبكتو، وذلك علَى يد سُنِّي علي (حكَم 1464 ـ 1492 م) الذي استولَى ـ في جملة ما استولَى عليه ـ علَى مدينة تنبكتو عام 1468 م، وأساء معاملة علمائها، مما اضطر معظمَهم إلَى الرحيلِ عن تنبكتو إلَى ولاته وغيرها من الواحات في أطراف الصحراء الكبرى. واغتصب مُلكَ صنغاي من بَعْد سُنِّي علي، الأسكيا محمد (حكَم 1493 ـ 1528 م) الذي أدى فريضة الحج ـ وقلَّده شريفُ ملكة خلافةَ بلاد تكرور ـ وأحسن معاملة الفقهاء وقرَّبهم إليه، فازدهرت لذلك تنبكتو طوال القرن السادس عشر، وأصبحت المركزَ الرئيسيَّ للدراسات الإسلامية في السودان الغربي. ولذلك فإن الأمير أسكيا محمدٍ حظي بتأييد الفقهاء طوال حكمه الطويل، الذي امتد نيفا وثلاثين عاما، وكان ذلك التأييد من أهم العوامل في توطيد حكم الأسكيا محمد في إمبراطوريته الشاسعة، التي امتدت اراضيها حتّى ساحل البحر المحيط.

وكان الفقيهُ المغَيلي ممَّن قرَّبهم الأسكيا محمد إليه، وسعَى لاستشارتهم في تدبير ملكه بمقتضَى الشريعة الإسلامية. إن المصادرَ عن حياة الفقيه المغيلي قليلة، وجُلُّ ما يتوفر لدينا من معلومات عنه مستمدٌ من مصدرَيْن مغربيَّيْن هما كتاب (دوحة الناشر لمن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) لابن عسكر، وكتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) لأحمد بابا التنبكتي.

وُلد محمد بن عبد الكريم المغيلي في مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط (القطر الجزائري حاليا) وتلقّى علومه الأولَى علَى أيدي شيخين هما عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 هـ) في مدينة تونس، ويحيى بن يدير (ت 877 هـ) في مدينة تلمسان.

وقد أبدى الفقيهُ المَغيلي قلقَه علَى مصير الأمة والشريعة الإسلامية في عهده. إذ

سقطت غرناطة ـ آخرُ قواعد المسلمين بالأندلس ـ في أيدي ملكيْ قشتالة وأراجون عام 1492 م ، وكان البرتغاليون قد احتلوا عام 1415 م مدينة سبتة ، ثم احتلوا عدداً من موانىء المغرب المُطلَّة علَى المحيط الأطلسي ووصلوا إلَى ساحل غينيا بغرب افريقيا ، كما أن ممالكَ بني وطاس وبني عبد الواد (بني زيان) والحفصيين في الشمال الإفريقي كانت تعاني من الوهن والانحلال ، بحيث لم تَقْوَ علَى نجدة مملكة غرناطة أو علَى وقف عدوان البرتغال علَى موانىء المغرب.

وفي هذه الظروف العصيبة ، توجَّه الفقيهُ المغيلي إلَى واحة توات بجنوب الجزائر ، وفيها تناهتْ إليه أنباءُ المسلمين في إقليم السودان الغربي جنوب الصحراء عن طريق تجار توات الذين كانوا يترددون علَى مدن ذلك الإقليم ، وكذلك عن طريق الحجاج المارين بتوات ، إلاّ أن الظروف في أوائل العقد الاخير من القرن الخامس عشر لم تكن تسمح له بالتوجه إلَى أراضي صنغاي في عهد ملكها سنّي علي الذي كان يضطهد رجال الدّين ، ولذلك فإن الفقيه المغيلي زار كانو (عام 897 هـ/1492 م) وكتسينا (في شمال نيجيريا حاليا) ، ولعل زيارته هذه كانت استجابة لدعوةٍ تلقَّاها من أميريْها. وبعد وفاة سنّي علي عام 1492 م ، توجه المغيلي الَى كوكو حاضرة صنغاي بقصد إعانة أميرها الأسكيا محمد علَى الحكم بمقتضَى الشريعة الإسلامية ـ ومن المحتمل أن تكون الأجوبة علَى أسئلة الأسكيا محمد قد حررت في كوكو أثناء زيارة الفقيه المغيلي لها.

إن الأسئلة التي وجهها الأسكيا محمد سبعة أسئلة ، وقد أورد الفقيه المغيلي نصوصها مرفقا كل سؤال بجوابه عليه. يقول الأسكيا محمد في السؤال الأول : منذ منَّ اللهُ علينا بالإسلام ، أصابتْنا مصيبةٌ في هذه البلاد لعدم الأمانة فيمن يُنسب إليه العلم من قراء بلادنا ، فهل يجوز لي أن نعمل علَى قولهم في دين الله أو لا يحلُّ ذلك؟ وبيِّن لي صفةَ من يصلح لذلك شرعا. ويقول الأسكيا في السؤال الثاني : ما قولكم في هذه البلاد وأهلها ، فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون ، وكان سنِّي علي ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ، ومع ذلك يعبد الأصنام ، ويصدِّق الكهان ، ويستعين بالسحَرة... ومن صفته أيضا أنه حلَّل دماء المسلمين وأموالهم ،

فقتل من القراء والفقهاء... ونهب من الأموال، وسبَى من الحريم، وباع من الأحرار ما لا يُحصَى... فما الحكم في سنّي علي وجميع أعوانه من الظلمة؟ و في السؤال السادس، يسأل الأسكيا محمد عن أناسٍ لا يتوارثون علَى الكتاب والسنّة، وإنما يأخذ مالَ الميت ابنُ أخته مثلا. فهل هذا المال لبيت مال المسلمين، أو يُترك بأيديهم، ويُجبرون علَى التوارث فيه وفي غيره علَى شريعة الإسلام؟

إن أجوبةَ الفقيه المغيلي علَى هذه الأسئلة، ومصنَّفاته التي تجاوزت ستة وعشرين مصنَّفا ـ وكلها تقوم وتحض علَى التمسك بالشريعة ـ كان لها تأثير كبير علَى حركات التجديد والجهاد في غرب إفريقيا، وبخاصة تلك الحركة التي تزعَّمها الشيخُ عثمان بن فودي (دان فوديو) بشمال نيجيريا في أوائل القرن التاسع عشر وعليها استند في تبرير جهاده.

ولعلَّ من المناسب إيراد كلمة عن نشاط المغيلي في بلاد الهوسا قبل قدومه إلَى صنغاي. إن الربع الأخير من القرن السادس عشر شهد فترةً من الاصلاحات في بلاد الهوسا بدأها أمراء كانو وكتسينا وزازو. وقد تزامنت تلك الفترةُ مع وصول الفقيه محمد بن عبد الكريم المغَيلي الذي اشتهر بعلمه وأفكاره الثورية التي انصبَّتْ علَى إصلاح نظم الحكم ومحاربة البدع. وقد لقيت آراؤه الثورية قبولا وترحيبا كبيرين في بلاد الهوسا، حيث حظي الفقيه المغيلي بالتقدير الكبير من قبل أمراء البلاد وأهلها.

وقد وضع الفقيه المغيلي لأمير كانو ـ محمد رمفا ـ رسالةً شاملةً حول شؤون الحكم أسماها (تاج الدّين في ما يجب علَى الملوك) بيَّن فيها أن المُلْك يعهد به إلَى الأمير لكي يعمل علَى توفير أسباب الخير لرعيّته روحيا وماديا، وعليه أن يستأصل الفساد بكافة أشكاله. وأشار المغيلي علَى أمير كانو بإعادة تنظيم جهاز الدولة بحيث يكون للأمير مجلس يزوِّده بالمشورة في الأمور المتعلقة بتسيير شؤون الدولة، وبأن يكون للأمير أمينٌ لبيت المال وكَتَبَةٌ ومحاسبون يُعهد إليهم بالاحتفاظ بسجلات الدولة. وقد أخذ الأمير محمد رمفا بتوصيات الفقيه المغيلي في الرسالة.

وبطلبٍ من أمير كانو وضع الفقيه المغيلي رسالةً فقهية صغيرةً عنوانها (الوصية)، وفيها أوصَى بإصلاح الأسواق، وبمعاملة الرعيّة كافة بالعدل والمساواة دون تمييز، حتّى لو كان الشخص عالما أو فقيها أو شريفا أو أميرا.

أبو إسحاق إبراهيم الساحلي
أديب ومهندس معماري أندلسي
في مملكة مالي

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي ـ المعروف بالطُّوَيْجِن ـ أديبٌ ومهندسٌ معماريٌّ من مدينة غرناطة، خرج من بلده في أوائل القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد إلَى المغرب، ثم جاب بلادَ المشرق في طريقه لتأدية فريضة الحج. وفي مكّة المكرّمة، التقَى بسلطان مالي منْسى موسَى عندَ حجِّه المشهور في سنة 724 هـ/1324 م، فدعاه إلَى مرافقته إلَى مملكته بالسودان الغربي، حيث طاب لأبي إسحاق المقام، فبَقي في مالي نيِّفاً وعشرين عاماً إلَى أن وافتْه المنيَّةُ في مدينة تنبكتو سنة 747 هـ/1346 م[1]. وقد اشتهر أبو إسحاق الساحلي شاعراً وناثراً ومهندساً معمارياً أدخل إلَى مملكة مالي والسودان الغربي أساليبَ البناء الأندلسي ـ المغربي في تشييد المساجد والقصور. ولعلَّ الساحليَّ قام كذلك بدورٍ مهمٍّ في تعزيز الصلات بين سلطان مالي وبين سلطان المغرب المَريني أبي الحسن علي، فتبودلت بينهما السِّفارات والهدايا، كما أخذ طلبةُ مالي يفدون لتلقِّي العلم في معاهد العاصمة المغربية فاس.

إن معلوماتِنا عن الأديب والمهندس أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي

(1) المقّري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت 1968، 2/ ص 194.

مستمدَّةٌ في معظمها من خمسة من كبار المصنِّفين المعاصرين له أوردوا نبْذاً عن حياته ونشاطاته الأدبية والمعمارية وهم : لسان الدّين بن الخطيب ، والرحالة المغربي ابن بطّوطة ، وابن فضل الله العمري صاحبُ (مسالك الأبصار) ، والأديب الشاعر إسماعيل بن الأحمر ، والمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون.

يقول الأديبُ أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر عن أبي إسحاق الساحلي : «أدركتُه ، وهو من أهل بلدنا غرناطة ، من بيت ثروةٍ وصلاحٍ وأمانة. كان أبوه أمينَ العطارين بغرناطة ... وأبو إسحاق هذا كان في صغره موثَّقاً بسماط شهود غرناطة » (2) . ويضيف ابنُ الخطيب أن أبا إسحاق «رحَلَ بعد أن اشتهر فضلُه ... فشرَّق وجال في البلاد ، ثم دخل بلادَ السودان ، فاتصل بملكها [منسَى موسَى] واستوطنها زمناً طويلا ، بالغاً فيها أقصى مبالغ المِكْنة والحُظوة والشهرة والجلالة ، واقتنَى مالاً دَثْراً [أي كثيراً] ، ثم آب إلَى المغرب ، وحوَّم علَى وطنه ، فصرفه القدرُ إلَى مستقرِّه من بلاد السودان» (3) . ويبدو من كلام ابن الخطيب أن أبا إسحاق كان مغرَّباً أو مُبعداً عن غرناطة ، محظوراً عليه العودةُ إليها. ويورد ابنُ الخطيب في (الإحاطة) أنموذجاً من نثر أبي إسحاق خاطب به أهلَ بلده غرناطة ، وقد وصل إلَى مراكُش من مملكة مالي ، يُبدي فيه حنينَه إلَى مسقط رأسه ووطنه وأصحابه ، ويُستشفّ منه أن خروجَه من غرناطة لم يكن باختياره. ومما جاء في خطابه إلَى أهل بلده «سلام ... خيَّمتْ في ربع الجود بغرناطة ورقّتْ ... وعمَّتْ مَنْ هنالك من الفضلاء ... فهناك تُقصُّ أحاديث وجدي علَى تلك المناهج ، وشوْقي الَى تلك العُليا ... ولو تُرك القطا ليلاً لنام ... وحسبي أن أصفَ ما أعانيه من الشوق ... وأعلل نفسي بلقائهم ، وإن جلاني الدهرُ عن ورود حوضهم ... فما ذهبَ

(2) ابن الأحمر ، اسماعيل : نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان . تحقيق محمد رضوان الداية . بيروت 1976 . ص 205 ـ 206.

(3) ابن الخطيب ، لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة 1973 . 1/ ص 329.

ودادي... في الكتابة بُلْغةُ الوطَر»[4].

كان أبو إسحاق ـ كما يقول ابنُ الخطيب ـ نسيجَ وحده في الآداب، نظماً ونثرا، لا يُشقُّ فيها غباره، إلَى خطٍّ بديع[5]. ولم ينقطعْ أبو إسحاق ـ وهو في مالي ـ عن مخاطبة أصدقاء صباه في غرناطة، ويورد ابنُ الأحمر في كتاب (نثير الجمان) اثنيْن وستين بيتاً من قصيدةٍ بليغةٍ بعث بها الساحلي من أرض السودان إلَى صديق صباه في غرناطة الفقيهِ الكاتبِ القاضي أبي القاسم بن أبي العافية[6]. وامتدح أبو إسحاق سلطانَ المغرب أبا الحسن عند دنوِّ ركاب السلطان من ظاهر تلمسان في قصيدةٍ مطلعُها:

خطرتْ كميَّاس القنا المتأطر ورنَتْ بألحاظ الغزال الأعفر[7]

اشتهر سلطانُ مالي منسَى موسَى بكثْرة بنائه للمساجد، فعند عودته من الحجّ في عام 725 هـ/1325 م، أمر ببناء مسجدٍ فخمٍ في جاوْ (كَوْكو Gao) أشْرف علَى بنائه أبو إسحاق الساحلي، وقد بناه من الطوب المحروق الذي لم يكنْ معروفاً قبل ذلك في السودان الغربي، وجعل مئذنتَه هرميةَ الشكل. وبنَى الساحلي قاعةَ الاجتماعات بقصر منسَي موسَى من الحجر والجبس، وزخرفها بالخشب المُطعَّم بالذهب. ويتحدث ابنُ خلدون عن براعة الساحلي في ميدان المعمار وما استحدثه في مالي فيقول: «أراد سلطانُ مالي أن يتخذَ بيتاً في قاعدة سلطانه [يني Jenne] محكمَ البناء، مجلَّلا، لغرابته بأرضهم، فأطرفه أبو إسحاق ببناء قبةٍ مربعةِ الشكل استفرغ فيها إجادتَه. وكان صَنَّاعَ اليديْن، وأضفَى عليه من الكلس ووالَى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقعَ الاستغراب لفقدان

(4) المصدر السابق. ص 331 ـ 339.

(5) المصدر السابق. 329.

(6) ابن الأحمر: نثير الجمان. ص 207 ـ 214.

(7) ابن الخطيب. الإحاطة. 1/ ص 339.

صنعة البناء بأرضهم ، ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل [دنانير] التبر مبثوثة عليها ، إلَى ما كان من الأثرة والميْل إليه ، والصلاتِ السنيَّة »[8] . كما يذكر الرحالةُ ابنُ بطُّوطة أن سلطانَ مالي منسى موسَى أعطَى أبا إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعةَ آلاف مثقال [9] .

وفي تنبكتو شيَّد الساحليُّ مسجداً جديداً هو الجامع الكبير، كما بنَى قصراً للسلطان. ولما زار الحسنُ الوزانُ (ليو الإفريقي) تنبكتو في أوائل القرن السادس عشر، لاحظ أن بيوتَها كانت أكواخاً مغطاةً بالقش ، إلاّ أن في المدينة مسجداً فخماً جدرانه من الحجر والكلس ، وفيها قصر فخم ، بناهما مهندسٌ بارعٌ من غرناطة ، وعلَى ذلك ، فإن المبانيَ التي شيَّدها الساحليُّ أضفتْ علَى تنبكتو منظراً متميزاً عن أكواخ المدينة[10] . وبفضل ما أشرف الساحلي علَى تشييده من جوامعَ وقصورٍ في تنبكتو وجاو ويِنّي ، أخذ الأُسلوبُ الأندلسيُّ المغربيُّ في فن البناء في الانتشار في كافة مدن السودان الغربي.

وفي المؤتمر الذي عُقد في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عام 1975 ـ حول الدراسات الخاصة بقبائلماندنج Manding بغرب إفريقيا ـ لفَتَ أحدُ الباحثين المشاركين في المؤتمر ـ ج. هنيك J. Hunwick ـ الانتباهَ إلَى زيارةٍ قام بها أبو إسحاقَ الساحلي إلَى المغرب أثناء إقامته في تنبكتو ، واستقبله السلطانُ المريني أبو الحسن ، ورفع أبو إسحاق إلَى السلطان قصيدةً يحثُّه فيها علَى أخذ تلمسان من يد صاحبها الأمير أبي تاشفين العبد الوادي. وتساءل الباحث : أليس من الممكن أن

---

(8) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العِبَر، بيروت 1959 ، 6/ ص 416 .

(9) ابن بطوطة ، محمد : رحلة ابن بطُّوطة ، بيروت 1968 ، ص 672 .

(10) Bovill, E. W., The Golden Trade of the Moors, Oxford 1970,p. 146.

يقول الوزان : «ودورُ تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن. وفي وسط المدينة مسجد مبني بالحجر، المركَّب بالطين والجير، علَى يد مهندسٍ أندلسي... وقصرٌ كبيرٌ من بناء نفس المعلِّم [المهندس]» ـ يُنظر :

الوزان ، الحسن : وصف افريقيا ، الجزء الثاني ، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1982 ، ص 165 ـ 166 .

يكونَ الساحليٌّ قد لعب دَوْراً في تعزيز العلاقات والمبادلات الدبلوماسية بين سلطاني المغرب ومالي ؟

يقول ابنُ خلدون إنه «كان بين هذا السلطان منسي موسَى وبين ملك المغرب لعهده من بني مرين السلطانِ أبي الحسنِ مواصلةٌ ومهاداةٌ سفَرتْ بينهما فيها الأعلامُ من رجال الدولتيْن، واستجاد صاحبُ المغرب من متاع وطنه وتحف ممالكه مما تتحدَّثُ عنه الناسُ... وتوارثتْ تلك الوصلةَ أعقابُها» [11] .

ويشير ابنُ مرزوق التلمساني إلَى مهاداةِ السلطان أبي الحسنِ سلاطينَ غرناطة وإفريقية ومصر «ومنها هدايا لسلطان السودان»، كما يذكر المبالغَ السخيَّةَ التي أنعم بها السلطانُ أبو الحسن علَى سبيل البر والإحسان والهدية، ويضيف قائلا : «وأما هديته لسلطان السودان، وهو سليمان بن موسَى، سلطان مالي، سمعتُ غيرَ واحدٍ من أصحابنا يقول : إنها تزيد في الذخائر علَى هذه» [12] .

كان الساحلي علَى صلةٍ بالسلطان أبي الحسن، حتّى قبل مرافقته لمنسى موسَى من الحجاز إلَى مالي، وكان يتردَّد علَى المغرب من مالي للتجارة، وفي إحدى زياراته للمغرب، أهدى السلطانَ أبا الحسن هديةً تشتملُ علَى طُرَف فأثابه عليها مالاً خطيرا [13] . ولما كان سلطانُ مالي قد عمل ـ بعد عودته من الحج ـ علَى تعزيز صلات بلاده السياسية والثقافية والتجارية بمصرَ وتونس، فإن دَوْرَ أبي إسحاق الساحلي ـ بحكمِ حُظوته لدى سلطان مالي وصلته الخاصة بسلطان المغرب ـ كان دون شك دَوْراً إيجابياً وفعّالاً في تعزيز الصلات السياسية والثقافية وتوطيدها بين مالي والمغرب في القرن الرابع عشر للميلاد.

---

(11) ابن خلدون : كتاب العِبَر، 6/ ص 416 ـ 417.

(12) ابن مرزوق التلمساني، محمد : المُسنَد الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا ـ خيسوس بيغيرا، الجزائر 1981، ص 452، 454.

(13) ابن الخطيب : الإحاطة، 1/ ص 329.

كتاب (الشاعر والعرّافة)

The poet and the Spare - Wife

تأليف و. ي. د. ألين

W.E.D. Allen

منذ مطلع القرن التاسع الميلادي دأب الفايكنج ـ أو الشماليون من أهل إسكندناوه ـ علَى شن الغارات بحراً علَى الجزر البريطانية وإرلندا وشمال فرنسا وغربيّها ، كما أغارت جماعةٌ منهم عام 229 هـ/844 م علَى غرب الأندلس ـ حيث عُرفوا بالمجوس وبالأردمانيين ـ علَى عهد أمير قرطبة الأموي عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ، وتمكَّن المُغيرون من احتلال مدينة إشبيلية ذاتها لمدة ستة أسابيع والعَيْث فيها وفي أحوازها ، إلَى أن أوقعتْ بهم قواتُ الأمير هزيمةً في معركة طلياطة وأجبرتهم علَى الجلاء عن الأندلس والعودة من حيث أتَوْا . وفي أعقاب الهزيمة ، وَفَدَ علَى قرطبة رسولُ ملك الفايكنج يطلب من الأمير السلمَ والمصالحة ، وردَّ الأميرُ عبدُ الرحمن بإيفادِ سفارةٍ إلَى بلاط الفايكنج عام 230 هـ/845 م علَى رأسها الشاعرُ المعروفُ يحيى بن الحكَم البكري الجيَّاني الملقَّبُ بالغزال . وقد اختلف الباحثون في تحديد البلد الذي قصده الغزال : أهو مقرُّ الفايكنج في بلاد الدانمارك ، أم هو مقرُّ الفايكنج النرويجيين في جزيرة إرلندا . هذا ، ويرى المستشرقُ الفرنسيُّ إ. لي ليڤي ـ بروفنسال أن الزيارةَ كانت إلَى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية رداً علَى سفارةٍ بعث بها إلَى قرطبة الامبراطورُ البيزنطيُّ ثيوفيل عام 839 م . أجلْ ، إن الغزالَ كان قد توجَّه إلَى القسطنطينية عام 840 م رسولاً للأمير عبد الرحمن الثاني رداً علَى

سفارة ثيوفيل ، وكانت تلك سفارته الأولى . أما السفارةُ الثانيةُ عام 845 م فكانت إلَى بلاط ملك الفايكنج [1] .

والكتاب الذي نعرضه مساهمةٌ في محاولة إيجاد حلٍّ لهذا الإشكال بشأن البلد الذي قصده الغزال عام 845 م . والعنوان الكامل للكتاب هو : الشاعر والعرّافة ـ محاولةٌ لإعادة تركيب سفارة الغزالِ إلَى الفايكنج . إن هذا الكتابَ دراسةٌ علميةٌ جادةٌ ومعمَّقةٌ يخلُص منها المؤلفُ ألين Allen إلَى أن سفارةَ الشاعر الأندلسي يحيى الغزال إنما كانت إلَى بلاط ترجيس Turgeis ملك الفايكنج النرويجيين في جزيرة إرلندا ، ولم تكن إلَى بلاط هوريك ملك الفايكنج في بلاد الدانمارك . إن الكتابَ الذي صدر عن جمعية بحوث الفايكنج بلندن يقع في مائة صفحة من القطع المتوسط ، وهو يشتمل علَى مقدمةٍ عن غارات الفايكنج علَى الأندلس ، وعلَى ترجمة وافية دقيقة للنص العربي الذي أورده عن السفارة ابنُ دِحْية في كتابه (المُطرِب من أشعار أهل المغرب) ، وعلَى تعليقات المؤلف علَى رحلة الغزال بحراً من الأندلس ، وعن الأحوال السائدة في إرلندا عام 845 م ، واستقبال السفير من قبل ترجيس Turgeis ملك الفايكنج بالجزيرة ، ومحادثاته وعلاقاته بزوجة الملك واسمها نود Nud .

إن أوفَى ما وصلَنا في المصادر العربية عن سفارة يحيى الغزال إلَى بلاط ملك المجوس ما أورده ابنُ دحية ـ المتوفَّى في القاهرة عام 633 هـ/1235 م ـ في كتاب (المُطرب من أشعار أهل المغرب) [2] . يذكر ابنُ دحية أنه «لما وفد علَى السلطان عبد الرحمن رسلُ ملك المجوس تطلب الصلحَ بعد خروجهم من اشبيلية ... رأى أن يراجعَهم بقبول ذلك ، فأمر الغزالَ أن يمشيَ في رسالةٍ مع رسُل ملكهم ، لِمَا كان عليه الغزالُ من حدة الخاطر ، وبديهية الرأي ، وحسن الجواب والنجدة والإقدام ، والدخول والخروج من كل باب» [3] . ويضيف ابنُ دحية أن الغزال وصل إلَى

---

(1) Lévi-Provençal, E., Histoire de l'Espagne musulmane, Vol. I, Paris-Leiden 1950, pp. 252-4.

(2) ابن دحية ، عمر : المُطرب من أشعار أهل المغرب ، القاهرة 1954 ، ص 138 ـ 147 .

(3) المصدر السابق ، ص 138 ـ 139 .

مستقرّ الملك في «جزيرة عظيمة في البحر المحيط ، فيها مياه مطّردة وجنّات ... وفيها من المجوس ما لا يُحصَى عددُهم » [4] . وينقل القزويني عن كبير جغرافيي الأندلس في القرن الحادي عشر أحمد بن عمر بن أنس العُذْري قولَه إنه «ليس للمجوس قاعدة إلاّ هذه الجزيرة [أي إرلندا] في جميع الدنيا ... وأهلها علَى رسم المجوس وزيِّهم » [5] .

كانت جزيرةُ إرلندا قد تعرضت منذ مطلع القرن التاسع الميلادي لغارات عنيفةٍ مدمّرةٍ من جانب الفايكنج القادمين من بلاد النرويج ، وفي حدود عام 839 م كان ملكهم ترجيس Turgeis قد احتلّ النصفَ الشماليَّ من إرلندا ، واتخذ لنفسه قاعدة في لوخ ري Loch Ri في وسط الجزيرة ، واستقرت زوجته أوتا Ota إلَى الجنوب قليلا في مكانٍ كانت تقوم فيه كنيسةٌ معظَّمةٌ لدى الإرلنديين. ومن علَى مذبح الكنيسة كانت أوتا Ota تعطي إجاباتِها الخاصةَ بالتكهُّن بأحداث المستقبل. ويرى مؤلفُ الكتاب ألين Allen أن الغزال كان يتردد علَى الملكة أوتا في هذا المكان الذي كانت تقيم فيه الملكة.

إن اسمَ الملكة ــ وهو نود عند ابن دحية ــ ورد ذكرُه في المصادر الإرلندية علَى صورة أوتا Ota . وتفيد هذه المصادرُ بأن الملكةَ كانت تمارس العَرافةَ والكِهانةَ والسحر. وكان ذلك أمراً مألوفاً بين أهل اسكندناوه علَى مختلف المستويات الاجتماعية. وكان ملوك الفايكنج يَصْبون إلَى الزواج من نساءٍ عرّافات أو كاهنات ، ويَروْن في ذلك تعزيزاً لمكانتهم وهيبتِهم.

إن حديثَ الملكةِ مع السفير يحيى الغزال عن وضعِ المرأة في مجتمع الفايكنج ، وحريتها في اختيار زوجها ، وفي بقائها معه أو تركه إن شاءت ، يتّفق مع الوضع الذي كان يسود مجتمعَ الشماليين آنذاك. ولعلّ ترددَ الغزال علَى الملكة وأحاديثَه الطريفةَ معها ــ كما يرويها ابنُ دحية ــ كان في فترة غياب زوجها ترجيس في حملةٍ قادها عَبْر

---

(4) المصدر السابق ، ص 140

(5) القزويني ، زكريا ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت 1979 ، ص 577 .

نهر السين ضد باريس.

ويرى مؤلفُ الكتاب أن سفارةَ الغزال ـ التي استغرقتْ عشرين شهرا وبدأت من ميناء شِلْب بغرب الأندلس ـ كانت في أواخر شهر ديسمبر من عام 844 م ، أو في أوائل شهر يناير من عام 845 م ، وأن الغزال غادر إرلندا عائداً إلى الأندلس في أواخر شهر مايو من عام 846 م ، وكان ترجيس هو ملك الفايكنج بإرلندا في تلك الفترة.

إن السفارةَ التي أوفدها أميرُ قرطبة الأموي عبد الرحمن الثاني إلى ملك الفايكنج كانت تستهدف أغراضاً سياسيةً واقتصادية ، إذ أراد الأميرُ الأمويُّ كسبَ حليف له في حروبه مع ملك فرنسا آنذاك شارل الأصلع charles the Bald ، ولكن الأكثرَ احتمالاً هو أن الأمير كانت تَحْدوه إلَى إيفاد السفارةَ دوافعُ تجاريةٌ ، وهي الحصولُ علَى الفراء والرقيق عن طريق الفايكنج.

كتبُ الفلاحة الأندلسية
أُرجوزةُ ابن لُيون التُّجيبي
في الفلاحة

الفلاحة في الأندلس وأثر العرب في تطويرها :

منذ افتتاح العرب الأندلس في مطلع القرن الثامن الميلادي اصطبغ ريفُها بالصبغة الشامية ، وبخاصة بعد وصول الجند الشامي في طالعة بَلْج بن بِشْر القُشيْري (123 هـ/741 م) ، وبفضل السياسة التي انتهجها أمراءُ قرطبة الأمويون ، لا سيَّما الأميرُ عبد الرحمن الداخل. فأُدخلت إلى الأندلس نظُمُ الفلاحة وأساليب الري الشامية ، كما جُلبت نباتاتٌ وأشجارٌ مثمرةٌ من بلاد الشام. إن النواعيرَ في الأندلس بنوعيْها ـ ما يعمل منها بفعل قوة الماء ، وما تُستعمل الدوابُّ في تحريكه ـ هي من أصل شامي ، ومن الأندلس انتقل استعمالُ هذه الأنماط من النواعير إلى المغرب ، كما اقتبسها النصارى في شمال إسبانيا عن طريق المستعربين ، وبعد توسعهم جنوبا [1] .

كما أُدخلت إلى الأندلس عن طريق الجند الشامي تربيةُ دودة القز وصناعةُ نسج الحرير ، وبخاصة في إقليم جيَّان شرقيَّ قرطبة حيث أُنزل جندُ قِنَّسرِيْن [2] .

---

(1) Glick, Thomas F., Islamic and christian Spain in the Earlu Middle Ages, Princeton U.P. 1979, pp. 55, 236-7.

(2) Lombard, M., The Golden Age of Islam, Oxford 1973, p. 79.

أدخل العرب إلَى الأندلس محاصيلَ جديدةً يعتمد معظمُها علَى الري. ومع المحاصيل الجديدة أُدخلت وسائلُ جديدةٌ في الزراعة. فبعد أن كانت الأرضُ تظل بوراً في فصل الصيف ولا تُنتج إلاّ محصولا شِتْويّا، أصبحت تُستغلُّ ـ باستخدام الري ـ علَى مدار العام. كما أدخل العربُ نظامَ الدَّوْرات الزراعية crop rotation، كزراعة الذرة صيفاً بعد زراعة القمح شتاء. وتَطلَّب ذلك دراسةَ أنواع التّربة واستخدامَ الأسمدة، وفيهما صنَّف الأندلسيون كتباً ـ وبخاصة في القرن الحادي عشر الميلادي ـ تناولت أنواعَها وخصائصَها.

كما قام العربُ بإصلاح نظُم الري القديمة في الأندلس وتحسينها وتوسيع شبكاتها في كثير من الأحيان، مما أدّى إلَى توفير مزيدٍ من الماء لسقّي مساحاتٍ أوسعَ من الأراضي، فازدادت رقعةُ الأراضي السَّقْويةِ وغلاتُها، وازدادت بالتالي مداخيلُ المزارعين، وأصبحت أكثرَ ثباتاً وأقلَّ خضوعا لرحمة التقلبات المناخية [3].

إن من أهم المحاصيل الّتي أدخلها العربُ إلَى الأندلس الأرز. وقصبَ السكر. والقطن، والحمضيات. ويُعتقد بأن العربَ أدخلوا إلَى كلٍّ من الأندلس وصقلية زراعةَ القمح الصلب triticum durum ـ ودقيقُه هو المعروفُ باسم دَرْمك (وانتقلت التسميةُ إلَى القشتالية adargama) ـ ومن مزاياه احتمالُه الحرارةَ والجفافَ وغناه بمادة البروتين، وصلاحيتُه للخزين. كما أدخلوا زراعةَ الذرة ـ ولعلَّهم جلبوها من بلاد السودان ـ وكانت في الأندلس كالشوفان في إسبانيا المسيحية [4].

وأدخل العربُ الَى الأندلس نوعاً جديداً من علف الحيوان هو البرسيم. وهو من أصل فارسي، ومازال يُعرف في إسبانيا باسمه العربي الفارسي alfalfa [5].

وقد أولَى العربُ زراعةَ الأشجار المثمرة في البساتين المروية حول المدن اهتماماً

---

(3) Watson, Andrew M., "The Arab Agricultural Revolution (700-1100)," in **Journal of Economic History**, n. 1. (1974), p. 13.

(4) Glick, p. 81

(5) Lombard, p. 80

أكثرَ مما أولَوْه زراعةَ الحبوب ، مما جعل الأندلس تشكو باستمرار من نقصٍ في الحبوب ، وتعمد إلَى استيراده من شمال إفريقيا.

وقد احتفظ الإسبانُ بنظُم الري العربية وتسمياتها بعد «الاستَرداد» ، كما هو الحال في بلنسية بشرق الأندلس ، حيث البساتينُ تُسقَى بالدور ador ، ويُشرف علَى عملية توزيع ماء القنوات صاحب الساقية cavacequia والأمناء alamis . كما أن وثائقَ مدن شرق الأندلس بعد «الاستَرداد» تنصُّ علَى وجوب الاحتفاظ بنظام توزيع الماء كما كان معمولاً به «زمنَ العرب» (6) .

وكان للشريعة الإسلامية دَوْرُها في تشجيع الاستثمار في الأراضي السَّقْوية . فالأراضي المروِيةُ كانت تؤدي نصفَ ضريبة العُشر التي تؤدَّى علَى الأراضي البعلية ، تعويضا للفلاح عن جهده الإضافي المبذول . كما أُعفيت من الضريبة ـ أو خُفِّضت الضريبة ـ عن الأراضي التي يتمُّ تشجيرُها ، مما شجَّع علَى غرس الأشجار المثمرة كالحمضيات والموز . أما الأراضي الميتةُ التي تبقَى بوراً ثلاثَ سنوات أو أكثر ، فكانت تؤول ملكيتُها إلَى من يُحييها ، ولا تُفرض عليها عندئذ سوى ضريبة العُشر (7) .

وقد أكد الفقهاءُ علَى الأهمية الاقتصادية للزراعة ، وعلَى ضرورة الأخذ بيد من يزاولها . فالفقيهُ وعالِمُ النبات ابنُ عبدون الإشبيلي (أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) يوصي الرئيسَ أو السلطانَ بأن يأمر «بالحرث وبالمحافظة عليه ، وبالرفق بأهله والحماية لهم في أعمالهم ، فيكون له ولهم أنفع ... فالفلاحة هي العمرانُ ، ومنها العيشُ كله ... ويجب أن لا تُذبحَ بهيمةٌ تصلح للحرث ... إلاّ أن تكون ذات عيب ، ولا أنثَى تصلح للنسل» (8) .

---

(6) Glick, p. 101.

(7) Watson, p. 28.

(8) ابن عبدون التُّجيبي . محمد : رسالة في القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في القضاء والحسبة) . تحقيق إ. ليفي ـ بروفنسال . القاهرة 1955 . ص 5 . 44 .

وكان للجنان (المُنْيات) الملكية دَوْرُها في إدخال نباتات غريبة عن الأندلس وأقلمتها علَى تربة الأندلس ومناخها. والمعروف أن الأميرَ عبدَ الرحمن الداخل غرس في حديقة قصره أنواعاً نادرةً من النباتات والأشجار ـ وبخاصة من بلاد الشام ـ كالنخيل والرمان. وقد انتشرت في الأندلس زراعةُ نوعٍ جديدٍ من الرمان عن طريق مُنْيته، وهو المعروف بالرمان السَّفْري [9]. كما أن الشاعرَ يحيى الغزال جلَبَ معه لدى عودته من القسطنطينية، حيث أُوفد سفيراً للأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) عام 225 هـ/840 م، نوعاً جديداً من شجر التين عُرف باسم دونَقال [10]. وذُكر بأنه كان في مُنْية الناعورة بطليطُلة أيامَ المأمون بن ذي النون نوعٌ من شجر التين يُعطي ثمراً نصفه أخضر، والنصفُ الآخرُ أبيضُ اللون [11].

ويذكر الجغرافيُّ العُذري (المتوفَّى سنة 478 هـ/1085 م) أن أميرَ ألمريَّة المعتصمَ ابنَ صُمادح من ملوك الطوائف جلب نباتاتٍ كثيرةً نادرةً إلَى بستانه في ظاهر مدينة ألمريَّة، فهو يقول: «وبنَى [المعتصم] بخارج مدينة ألمريَّة بستاناً وقصوراً... وجلبَ إليها من جميع الثمار الغريبة وغيرها... مما لا يُقدر علَى صفته... ويسمَّى ذلك البستانُ بالصمادحية، وهو قريب من المدينة جدا» [12].

مصنِّفو كتب الفلاحة الأندلسية:

إن (تقويم قرطبة) الذي صنَّفه عام 961 م عَريبُ بنُ سعدٍ كاتبُ الحكَم المستنصر هو أول كتاب أندلسي يشتمل علَى معلوماتٍ فلاحية، إذ يورد المؤلف في نهاية تقويم كل شهر نشاطاتِ المزارعين، من حراثةٍ وبذرٍ وغرس أشجارٍ وتقليمٍ وتركيبٍ وحصادٍ وجَنْيِ ثمارٍ وأزهار، فهو لذلك يقدِّم صورةً عن النشاطات اليومية

---

(9) الخُشَني، محمد: قضاة قرطبة، القاهرة 1966، ص 16 ـ 17.
المقّري، أحمد: نفح الطيب...، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968، 1/ ص 7 ـ 468

(10) Glick, pp. 76-77.

(11) نفسه، ص 80.

(12) العُذْري، أحمد. ترصيع الأخبار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، ص 85.

للمزارعين في الأندلس في القرن العاشر الميلادي (13).

إن معظمَ كتب الفلاحة الأندلسية التي وصلتْنا ترجع إلَى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أي إلَى الفترة المعروفة في التاريخ الأندلسي بفترة ملوك الطوائف، وقد تنوعت اختصاصاتُ مؤلفيها. فالطبيبُ الجرَّاحُ أبو القاسم الزهراوي (ت 1013 م) وضع كتاباً في الفلاحة أسماه (مختصر كتاب الفلاحة). وألَّف الأديبُ والجغرافيُّ أبو عبَيْدٍ البَكْري (ت 1094 م) كتاباً عن أهم نباتات الأندلس وأشجارها.

إن النواةَ الأولَى لأصحاب كتب الفلاحة الأندلسية تكوَّنتْ في مدينة طليطُلة حيث كان يعمل الطبيبُ ابنُ وافد (ت 1075 م) في جنَّة السلطان، وهي مُنيةُ المأمون بن ذي النون صاحبِ طليطُلة، وله كتابٌ أسماه (مجموعٌ في الفلاحة). وفي جنة السلطان، أتيحت لابن وافد فرصةُ لقاء ابن بصال (14).

أما ابن بصال الذي تخصَّص في الفلاحة، فكان قد حجَّ وزار مصرَ وصقلية وخراسان، وجمع منها بعضَ المعلومات النباتية. وقد وضع ابنُ بصال للمأمون ابن ذي النون كتابَ (ديوان الفلاحة)، الذي اختُصِر باسم (كتاب القصد والبيان)، وهو يقوم علَى تجاربه العملية في مجال البَسْتنة والفلاحة (15).

كان ابنُ بصال عالمَ نباتٍ خبيراً من الناحيتين النظرية والعملية. فلكي يعالجَ مرضاً أصاب أشجارَ البرتقال والتفاح التي غرسها في جنة السلطان بطليطُلة، قام بقطعها، ثم لاحظ بأن الفروعَ الجديدةَ النابتةَ من الجذور السابقة كانت خاليةً من المرض (16).

---

(13) Imamuddin, S.L., **The Economic History of Spain,** Dacca 1963, p. 39.

(14) Glick, p 253

(15) **The Encyclopadia of Islam** (New edition), Vol II, Leiden- London 1965, S.V **Filaha, p. 901 (g.S. Volin)(G. S Collin)**

(16) Imamuddin, p. 37.

يميّز ابنُ بصال بين عشرة أنواع من التربة ، ويذكر القدرةَ الإنتاجيةَ لكلٍّ منها حسب فصول السنة. وينصح ابنُ بصال بحفر الآبار قرب مجاري الأنهار لكي يتسرَّب الماء باستمرار ويبقَى منسوبه ثابتا، إلا انخفض منسوب الماء بحيث يتعذَّر علَى القواديس (أكواز النواعير) الوصولُ إليه [17] .

وبعد سقوط طليطُلة في يد ألفونس السادس ملكِ قشتالة وليون عام 1085 م ، انتقل ابنُ بصال إلَى مدينة اشبيلية ، والتحق بخدمة ملكها المعتمد بن عباد ، وأنشأ له حديقةً جديدةً في اشبيلية . وفي اشبيلية التقَى ابنُ بصال بنواة ثانية من أصحاب كتب الفلاحة ، كابن حجاج ، وابن الخير، والحاج الطِّغْنَري الغرناطي . ولابن حجاجٍ كتابُ (المُقْنع) في الفلاحة ، وقد ضمَّنه تجاربَه الشخصيةَ في إقليم الشّرف غربيٍّ اشبيلية ، وهو الإقليم الشهير بوفرة أشجاره من الزيتون.

أما في غرناطة فقد ظهر الكاتب الرئيسيُّ في الفلاحة ، وهو محمد الطِّغْنَري ـ نسبة إلَى قرية طِغْنَر Tignar الواقعةِ إلَى الشمال الغربي قليلاً من مدينة غرناطة ـ وهو المعروفُ كذلك بالحاج الغرناطي . وقد صنَّف لوالي غرناطة المرابطي الأميرِ تميمِ ابن يوسُف بنِ تاشفين رسالةً فيْ الفلاحة أسماها (زهرةَ البستان ونزهةَ الأذهان) . ولعلَّه أثناء تردُّدِه علَى مدينة اشبيلية اتصل بابن بصال وأفاد من تجاربه ، فهو يشير إليه خصوصاً عند حديثه عن علاج أمراض النباتات ، وعن زراعة أشجار الفاكهة [18] .

وفي أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ألَّف أبو زكريا يحيى ابنُ لعوَّام في إشبيلية موسوعةً زراعيةً بعنوان (كتاب الفلاحة) ، وفيها أورد ما جاء في كتب القُدامَى ، وكذلك في كتب الأندلسيين كابن بصال ، وابن حجاج ، والحاج الغرناطي ، وعَريب ابن سعد القرطبي ، ولكنه يورد أحياناً في نهاية الفصول ملاحظاتِه الخاصة ـ مشيراً إليها بأنها «لي» ـ عن تجاربه في إقليم الشرَف القريبِ من

---

(17) Glick, pp. 75, 238.

(18) EI Œ, vol.II, p.901

اشبيلية . ويقول ابنُ خلدون إن ابنَ العوام اختصر كتابَ (الفلاحة النبطية) من كتب اليونان ، بعد حذف ما فيه في باب السحر مما يخالف المِلّة [19] .

يلاحظ ابنُ العوام بأنه يمكن مضاعفةُ كمية الماء في بئرٍ بحفر أربعة آبارٍ في نفس الطبقة الأرضية قريبةٍ من بعضها بأعماقٍ متفاوتةٍ قليلا ، بحيث تكون الآبارُ الثلاثةُ الأخيرةُ أقلَّ عمقاً تدريجياً ، وبذلك تزوِّد ماءً إضافياً للبئر الرئيسية [20] .

إن كتبَ الفلاحة الأندلسية هي في الواقع موسوعاتٌ عن الاقتصاد الريفي ، ولكنها تركِّز علَى فلاحةِ الأرضين ، ودراسة أنواع التربة ، والمياه ، والأسمدة ، وزراعةِ الحبوب والقطاني ، إلاّ أن زراعةَ الأشجار المثمرة ، كالكرمة والزيتون والتين ، تعالجها هذه الكتبُ معالجةً ضافية [21] .

إن أصحابَ كتب الفلاحة الأندلسية أفادوا من كتب القُدامَى ، كما أفادوا من (كتاب النبات) لأبي حنيفة الدينوري (ت 895 م) ، وكتابِ (الفلاحة النبطية) لابن وحشيَّة (القرن التاسع الميلادي) ، مضيفين ملاحظاتِهم وتجاربَهم الشخصية ، كما أفردوا فصولاً عن زراعة المحاصيل الجديدة في الأندلس ، كالأرز وقصب السكر والقطن والحمضيات والكتان .

أرجوزة ابن لُيون التُّجيبي في الفلاحة :

في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي صنَّف فقيهٌ عالِمٌ من مدينة المريَّة ، هو أبو عثمان سعدُ بن أحمدَ بن ليون التُّجيبي ، (كتابَ إبداء المَلاحة وإنهاء الرَّجاحة ، في أصول صناعة الفلاحة) ، وهو كتابُ فقيهٍ هاوٍ اختصر فيه نَظْماً ـ علَى شكل أرجوزة ـ ما جاء في مؤلَّفات ابن بصال ، والطِّغْنري وأبي حنيفة الدينوري ، مضيفاً معلوماتٍ قيِّمة . فهو يقول في مستهلِّ الأرجوزة إنه نَظَمها « من

---

(19) ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص 494
. EIŒ, Vol. II, p 901

(20) Glick, p. 238.

(21) EIŒ, Vol.II, p. 902

كتب أهل الشأن وما شافهه به أهلُ التجربة والامتحان».

كان أبو عثمان بن لُيون التُّجيبي عالماً متفنّناً (موسوعيا)، وكان له ولَعٌ باختصار الكتب. وقد تتلمذ عليه في ألمريَّة نفرٌ من أعلام الأندلس، كابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدّين بن الخطيب، وأبي جعفر بن الزبير، وابن رُشَيْد الفِهري [22].

تشتمل أرجوزةُ ابن لُيون في الفلاحة علَى 1300 بيت، وقد نشرتها في غرناطة عام 1975 ـ مع ترجمة باللغة الإسبانية ـ جواكينا إجواراس إبانيث [23] معتمدة علَى مخطوطٍ فريدٍ للأُرجوزة بجامعة غرناطة تمَّ نسخُه قبل سنةٍ واحدةٍ من وفاة لُيون، وكانت وفاتُه في ألمريَّة في الطاعون العام في 14 جمادي الآخرة سنة 750 هـ 30 أغسطس 1349 م.

وقد اخترنا فيما يلي من أرجوزة ابن لُيون التُّجيبي في الفلاحة أبياتاً تناول فيها أركانَ الفلاحة الأربعة ـ الأرض والماء والزبل والعمل ـ وغرسَ الأشجار وتركيبَها، وزراعةَ الحبوب والأرز والقطن وقصب السكر والحناء، وأعمارَ الأشجار وما يمنع عن صغارها النملَ والفَراشَ، وأخيرا ما يُراعى في تخطيط البساتين وما يقام بها من مساكنَ وديار.

يعدِّد ابنُ لُيون أركانَ الفلاحة فيقول:

وهي الأراضي والمياهُ والزبولُ والعملُ الذي بيانه يطولُ

والأرض عشرةُ أنواعٍ علَى رأي ابن بصّال:

---

(22) عن ابن ليون انظر:

ابن القاضي، أحمد: درة الحجال في أسماء الرجال. تونس ـ القاهرة 1973. 3/ ص 2 ـ 295. (ترجمة رقم 1374).

المقَّري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت 1968، 5/ ص 543.

EiŒ, Vol II (1971), S.v. Ibn Luyun, p. 855 (F. de la Granja).

(23) **Joaquina Eguaras Ibanez**, Ibn Luyun: Tratado De Agricultura, granada 1975.

فعشرةٌ تنويعُ الأرض بالنظرْ لزرع الأقوات وأصناف الشجرْ
وشرٌّ الأرض كلُّه المالحةُ وما بها الصفاحُ والمُنتنةُ
وخيرُها الليِّنةُ المخلخلة للماء والهوا هي المعتدلة
وسرعةُ الشرب وتفتيتُ الترابْ علَى التخلخل علامتا صوابْ
وأصل الأرض الاستواءُ فيها حتّى يكونَ الماءُ يستوفيها

وعما يحفظ الأرضَ وما يُضعفها أو يُفسدها يقول ابن ليون :

الفولُ والترمسُ والكنانُ تحفظ الأرضَ وكذا الجلبانُ
والدخن مُضعفٌ لها والجلجلانْ وما يُكرَّر بها كلَّ زمانْ
وورقُ الحمُّص والكرسنَّةِ مُفسدةٌ للأرض بالملوحةِ

أما ركنُ الفلاحة الثاني فهو الماء ، وأنواعُه أربعةٌ علَى رأي ابن بصَّال . يقول ابن لُيون التُّجيبي :

والماء بالنظر للفلاحةِ أنواعُه أربعةٌ قد عُدَّتِ
وخيرُها ماءُ السماء ثمُّتِ مياهُ الأنهار لأجل الجَرْيةِ
ثم العيونُ ثُمةَ الآبارُ إذ ماؤها يُثقله القرارُ

وعن السواقي تحت الأرض يقول ابنُ لُيون :

وأجْرِ ما تسوق تحت الأرضِ من مَحْبسٍ يكون منه يَمْضي
كي يخرجَ الماءُ مروَّقا ولا يصحبه شيءٌ يضَرُّ العمَلا

وُيستدل علَى وجود الماء تحت سطح الأرض من نابتها :

وحيث ما ترى نباتَ الماءِ منعمًا فالماءُ ذو اعتلاءِ
فالديسْ والعُلَّيق والبَرديُّ أوْ شبيهُها مما لقربِ الماء راوْ

ينتقل ابنُ ليون بعد ذلك الَى الركن الثالث من أركان الفلاحة وهو الزبل

فيذكر أنواعَه وأوقاتَ استعماله ـ علَى رأي ابن بصال وغيره ـ فيقول :

وكل زبلٍ بالبقاء يصلحُ كعامٍ أو عامَيْن وهو الاصحُّ
والتبنُ من فولٍ وقمحٍ وشعيرْ تحلو بها الأرضُ فتصلحُ كثيرْ
وأحوج الثمار لـلـزبـولِ مـا هـو كالنوار والبقولِ
وكل ما زُرع صيفاً وشتا قلِّل له الزبلَ إذا الحرُّ أتى
وفي الذي زُرع في الصيف فقطْ الزبلُ والماءُ الكثيرْ يُشترطْ
وكل ما في شتوةٍ يُزدرعُ فـكثْرةُ الـزبـل بها يَنتفعُ

أما ركن الفلاحة الرابع فهو عمل الإنسان ، كالحراثة . وفي ذلك يقول ابنُ لُيون :

وعملُ الفلاح إصلاحُ التي ينشأُ في الأرض من الأغذيةِ
فأولُ الأعمالِ حرثُ الأرضِ وأصلُه التعميقُ أو ما يُرضي
والحرثُ قد يُغني عن الزبل إذا أُكثر بالتكرار فيما أُخذا
لكونه يقلِّب الأرض فترقْ بالشمس والهواء حين تخترقْ
فالأرض ما كُرِّر حرثُها تطيبُ والحفرُ في الكروم نفعه عجيبُ
والحرث والحفر يزيلان البخارْ من جوف الأرض ، وهو أصلُ الاعمارْ

وفي ما تُنبته الأرضُ بطبعها يقول ابنُ لُيون التُّجيبي :

وكل ما ينبت لا من شيءِ فـذا للربِّ رحمةٌ للحيِّ
يـكـون للمرعى والاحتطابِ والفحمِ والدواءِ والأخشاب

وعن المسافات التي تراعَى بين الأشجار المثمرة ، يقول ابنُ لُيون :

ثم المسافاتُ التي تُراعَى بين الثمار قُسِّمت أنواعا
بحسب الثمار في انفتاحها وفي احتياج الشمس وانشراحِها
وستٌّ أذرعٍ أقلُّ ما أتتْ ثم لأربعٍ وعشرين انتهتْ
والستُّ في الرمان والسفرجلْ . كيما يكونُ الظلُّ فيها أكملْ

يرى ابنُ لُيون أن قربَ أشجارِ الثمر من شأنه أن يُضعفَها ويقلِّلَ من حَمْلها :

والقُربُ في الثمار مُضعفٌ لها مقلِّلٌ علَى الدوام حملَها
كأن إحداها للأخرى قائلة أغنَى إذا ما كُنتِ عني زائلة
لأنها تزحمها تحت الترابْ وهي عنها للأشعة حجابْ

وعن غرس أشجار التين والرمان يقول ابنُ لُيون :

وشجر التين بالأقلام غرِّسِ من نحو شبْرين أو أقصر فَقسِ
يُترك منها فوق الأرض الربعُ وإن يكنْ أقلَّ فهو أنجعُ
ذاك من أول مارسٍ إذا جرى بها الماءُ الذي لها غذا
والجُلَّنارُ نافعٌ للزيتونْ فغرسُه بالقرب منه يَبْغونْ

وفي تركيب الشجر يقول ابنُ لُيون :

وكلُّ تركيبٍ ففيه يُعتبرْ قربُ التناسب وقوةُ الشجرْ
وكونها غيرَ صغيراتٍ ولا شارقة تَضعف عن أن تُبدَلا
وأن يكون الغصنُ دون ما انفتالْ أملسَ ناعماً عديمَ الاعتدالْ
وقوةُ الشدِّ وسرعةُ العملْ خوفَ الهواء فهو يُدخل الخَلَلْ

ويقول ابنُ لُيون في ما يُراعَى في تركيب الجنس في الجنس :

والجنسُ في الجنس فقط يَركَّبُ وفي سوى الجنسِ يكون يصعُبُ
وكل ما الشبه فيه يقوى من كلِّها التركيب فيه أقوى
فانظرْ إلَى صلابةِ العيدانِ ولينِها واللَّقْحِ في الأزمانِ
والمِثْلُ في المِثْلِ هو المحمودُ وهو الذي تركيبُه يجودُ

وعن جَنْيِ الزيتون وخزنه وتمليحه يقول ابنُ لُيون :

والنفضُ للزيتون في ينَّيرِ أو نحوه في غير يومٍ صَرٍّ
وادَّخر الزيتونَ في المزجَّجاتْ ولا تُبدل الماءَ قطعاً بتاتْ

وملِّح الأخضرَ بعد شهرِ ونحو أسبوع في الأسود اذرِ

ثم ينتقل ابن لُيونَ التُّجيبي الَى الحديث عن زراعة الحبوب بأنواعها فيقول :

ونوِّع الحبوبَ للصيفيِّ وللخريف القريبِ السقّي
فطيِّب الأرضَ لما تزرعه بالحرث والزبل الذي ينفعه
وازْرعه في الثرى يكونُ قدرَ ما يُنبته من غير أن يحتاجَ ما
والقمحُ والذرة والدخن البَدلْ من بعد مرتين فيها يحتملِ
وازرعْ في الأرض ما تُحبُّ الأرضُ فهو الأغلُ وعليه حِضّ
وما يُكرَّرُ في الأرض تكرهُه لذاك يُبْدلُ بما لا يُشبهه

وعن الأنادر (البيادر) وما يَمنع النملَ عنها يقول ابنُ لُيون :

وأصلِ الأندر ارتفاعٌ وبراحْ كي يعدمَ الظلُّ ويأخذَ الرياحْ
والجيرُ والرمادُ جُعلا يمنعانْ أن يخرجَ النملُ بحيث يوضعانْ

وعن خزن الحبوبِ وحفظِها من الفساد يقول ابنُ لُيون :

وحين تخزن الشعيرَ غُمَّه وروِّح الغيرَ متَى تضمُّه
واحذرْ من النَّدْوة تلحقُ الجميعْ والشمسِ فالفسادُ عنهما سريعْ
وللشمال اجعل كوىً بيتِ الطعام وبابَه يبعد بذاك عن سقام
والتبنُ في جوانب المطمورةِ وقعرِها يدفعُ ضرَّ النَّدْوةِ
وإن جعلتَ التبنَ ثم حُصَرا من حُصَر البردي أمنتَ الضررا
والدَّخْنُ والذرةُ بعد السنةِ يعروهما الفسادُ بالتبقيةِ
وإنما الدَّخْنُ شبيهُ الذرةِ تأكلُه الدوابُّ للتقوية
وكل ما يُخزن في سُنبلِه يدوم إن حُفظَ في محلِّهِ

وفي زراعة الأرز يقول ابنُ لُيون :

ويُدبغ الأرزُّ قبل زرعهِ في الماء يومين ليُبسِ طبعهِ
واسقه قبلَ النبات سقيتَيْن وبعدُ في الجُمعة اسقِ مرتَين

وفي زراعة القطن وما يحتاج فيها يقول ابنُ لُيون :

ونحوَ سبع سككٍ للقطن قُلْ مع دبغ حبِّه تجدْ وجهَ العملْ
وسَقْيِه كلَّ أسبوعٍ وما نُقش طابَ وأتى متمّما

وفي زراعة قصب السكر يقول ابنُ لُيون :

وقصبُ السكر يُزرع الجذورْ في مارسٍ منه مع السقي كثيرْ
وحين يعلو اجعل له زبلَ الغنمْ من بعد نقشٍ جيّدٍ به يتمْ
ثم اسقه في كل أسبوعٍ وقد يُزرع من قَصَبِه ذاتِ العُقَدْ

وفي ما يُحتاج في زراعة الحنّاء يقول ابنُ لُيون :

والأصلُ في زَرِّيعةِ الحناءِ الدبغُ في قَصْريةٍ بالماءِ
أسبوعاً أو كنحوه تُحرَّكُ في الشمس وقتاً ثم وقتاً تُترَكُ
فحين تنزل تُحكُّ وتزالْ رغوتُها بالغسل قَدْرَ الاحتمالْ
وبعد ذا تُجعل في خريطةٍ صوفٍ لما في الصوف من سخونةٍ
ثُمت بالليل الخريطةُ تكونْ في مطبخٍ للدفء في كن يصونْ
وحين تظهرُ الأصول تُزرعُ أحواضُها وهي بالماء تَتْرعُ
فتضرب الأرضَ الأصول بعد ما يجف ذاك الماءُ حتّى بعد ما
ولا يزال سقيُها يُكرَّرُ حتّى تكونَ فوق الأرض تظهرُ
وحين تعلو خُفِّفتْ ونُقشتْ وبعد ذلك تكون عطِشَتْ
ثُمت تُسقَى وأخيرا تُحصدُ والظلُّ في تَيْبيسها يُعتمدُ
هي بالمشرق وتبقَى مدةً نحو ثلاثين سنين عــدةً

وفي العمل في تبكير ما يريد المزارعُ أن يبكِّر يقول ابنُ لُيون التُّجيبي :

وكلُّ ما نريد أن يبكِّرا فازرْعْه في مَشْرقةٍ مُبكِّرا
تُلصقه لحايطٍ في القبلةِ مفروشةٍ زبلاً علَى التتمّةِ
فإن يكُ الحائطُ مع ذا أبيضا أملسَ كان ما زَرعتَ أنهضا

لـقـوة الأشعَّـةِ المنـقـلـبة إذ ذاك في المشارق المنْتصبة
فإن تَخفْ في الليل من برد الجليدْ فغطِّ ما تبكيرُه أنت تريدْ
بورق الأُكرنبِ أو ما يَعْدِلُه قبـل نبـاته وبعدُ يجعلُه
وحُصَرُ البَرْديِّ أيضا تمنعُ لكن يكون تحتها ما يرفعُ

وفيما يمنع النملَ عن صغار الثمار وما يزيل الفراشَ يقول ابنُ لُيون :

ويمنـع النملَ عن الثمار خلخالُ اصطبٍ بالاستقرار
يُطلَى بزيتٍ فوقه أو قطرانْ في بعض الأيام علَى طول الزمانْ
كذلك الخلخالُ من زبل البقرْ وعكر الزيت وملح أن يقر

وفي أعمار الثمار والنبات يقول ابنُ لُيون :

وعمْرُ الزيتونِ من عدِّ السنينْ ثلاثةُ الآلافِ حينٌ بعد حينْ
وفي الصَّنَوْبر عن ابن بصَّال بمائتي عامٍ يقول استكمالْ
والطِّغْنَريُّ قال ما لا يسقطُ ورقُه أعـمـرُ مما يسقطُ
أكـثـرُ الثمارَ يـبـلغ المائة أو نحوَها وقد تُريد تبقية
وكلٌّ ما في النشيء منها يُسرعُ فعـمُـره أقصرُ لا يتَّسعُ

ويختتم بنُ ليون التجيبي أرجوزتهَ في الفلاحة بالحديث عن ترتيب البساتين ومساكنها ، وديار البادية (الريف) فيقول :

تنظرُ للقِبْلةِ والبابُ علَى قُرْبٍ وللصهريج والبئر اعتلا
أو عِوَضَ البئر تكون ساقية بالماء من تحت الظلال جارية
وما له بابان فهو أسترُ وراحةُ الساكن فيها أكثرْ
ثم يلي الصهريجَ ما لا يسقطُ ورقُه من كلِّ ما ينشِّطُ
ثُمتَ من بعد ذوات الأنوارْ وبعد ذلك بواقي الأشجارْ
وبـالـدوالي فـالجوانب وفي أواسط الكلِّ العرائشُ تفي
وأسفَـلَ الـعـرائش المماشي تحيـط بـالبستـان كالحواشي

وكل ما من الثمار يعظمْ ... يُغرس في الجوف فذاك الأقومْ

كي تمنعَ الريحَ الشمال وهي لا ... تحجبُ شمساً أبداً أن تصلا

وقبةٌ تكون للمجالسات ... في وسط البستان تنظر الجهاتْ

لا يَسمع الحديثَ منها الداخلْ ... ولا يوافيها وشخصٌ غافلْ

وأسفلَ البستان منزلٌ وبابْ ... لضيفٍ أو مؤنسٍ من الصحابْ

فإن يك مع ذاك برجٌ للحمامْ ... وبرجٌ سُكْنَى كان ذاك بالتمامْ

ويُعملِ الاصطبلْ قرب البابِ ... يسكون للآلاتِ والدواب

والدار للغنم أو البقر ... أسفل أو بالقرب تحت النظر

تدورها البيوتُ والسقائفُ ... تحفظ من بردٍ وريح عاصفُ

ولتختر الشبانَ للأعمالِ ... واسمعْ من الشيوخ في الأقوالِ

فهذه الفلاحةُ المشتهرة ... منظومةٌ أصولها منحصرة

لذا بإبداء الملاحة استمتْ ... كما بإنهاء الرجاجة اعتلتْ

محتويات الكتاب

الانجاز الفني :

مخابر الدار العربية للكتاب

4، شارع محي الدين القليبي - 2092 المنار 2 - تونس

(الجمهورية التونسية)

الهاتف: 255 888 - 891 887

طبع في شهر أوت 1997

بشركة «أوربيس» للطباعة

بتونس - الهاتف: 700 501

كمية السحب: 2000 نسخة

عدد الناشر : 97 - 103 - 400

المقر الرئيسي: شارع سوف المحمودي - ص. ب: **3185** طرابلس - (الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى) - الهاتف: **3330384 - 4447287** - فاكس: **4442870** تلكس: **20003** الكتـاب

الفرع الرئيسي: 4، شارع محيي الدين القليبي - ص. ب: **32 - 2092** المنار 2 - تونس (الجمهورية التونسية) - الهاتف: **888.255 - 887.891** - الفـاكس: **888.365** - التلكس: **14966** كتـاب